ديوان
الشعر
العربي
المعاصر

الأعمال الكاملة

للشاعر

سميح القاسم

٦

مداخلات

الجزء السادس

يناير ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة ©

رقم الإيداع : ١٩٩٠/١٩٩٣
I.S.B.N. 977—5344—73—5

دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
القاهرة - ص.ب : ١٣ المقطم ٢٦٧ دق
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣
٥٠٦١٠٣٠

الاشراف الفني : حلمى التونى

ديوان
الشعر
العربي
المعاصر

الأعمال الكاملة

للشاعر

سميح القاسم

مداخلات

الجزء السادس

دار سعاد الصباح

مواد هذا المجلد (السادس)، من الكتب والمطبوعات التالية:

١ ـ عن الموقف والفن
١٩٧٠ ـ دار العودة ـ بيروت.

٢ ـ من فك أدينك (قراءات في وثائق صهيونية)
١٩٧٤ ـ منشورات عَرَبِسْك ـ طباعة «مطبعة الناصرة».

٣ ـ كولاج
١٩٨٣ ـ منشورات عَرَبِسْك ـ طباعة «مطبعة سلامة» ـ حيفا.

٤ ـ مطالع من أنثولوجيا الشعر الفلسطيني في ألف عام.
١٩٩٠ ـ منشورات عربسك ـ طباعة «مطبعة أبو رحمون» ـ عكا.

٥ ـ رماد الوردة، دخان الأغنية ـ (لذكرى راشد حسين)
١٩٩٠ ـ منشورات مكتبة كل شيء ـ حيفا.
طباعة دار المشرق ـ شفاعمرو.

*

٦ ـ جرائد: الاتحاد، الطليعة، القبس، العربي.
مجلات: الجديد، الغد، الطريق، فلسطين الثورة، صوت البلاد، اليوم السابع، «٤٨»، الوطن العربي، كل العرب، الناقد، عبير.

* تصدر هذه الطبعة عن « دار سعاد الصباح » - القاهرة - يناير ١٩٩٣

غابة الطفولة

عبثاً تُجدي ضراعتي .. وإن أُنا لجمت عقارب الساعة، فجواد الزمن لا يعرف اللجام !

عبثا احاول الخلاص من جاذبية الغد، ولو لكسرة من البرهة .. ان حبالا من النار تشد قدمي ابدا الى امام .. الى امام، ولو تحجرت للحظة فالويل لي من السقوط ..

العاصفة رفيقتي في مسيرتي، والشمس منارتي الابدية، وخطاي تجتاز الحياة وتخترق الموت ..

على كتف احمل تابوتي، وعلى كتفي الاخر احمل كيسا من الخيش ..

شواهد القبور الرخامية وآلاف الاشباح تنتصب على جانبي الطريق لتسألني في فضول طيب:

- ماذا تحمل في كيسك ايها الشاب؟

- في كيس الخيش احمل يا احبائي حقيبة مدرستي وثياب العيد وعلب الحلوى الفارغة .. وغابة الطفولة!

- الا تحدثنا عن غابة الطفولة ايها الشاب ؟

- بلى .. احدثكم يا احبائي .. احدث الظالم منكم والمظلوم .. أحدث الظالم لعله يندم، واحدث المظلوم لعله يثور !

ـ كنت طفلا يا احبائي .. ولوالدي كروم من الزيتون وكروم من العنب واللوز .. ولوالدي كانت غابة فيها من السنديان والعبهر والخروب والاجاص البري ..

ـ أتقول «كانت» أيها الشاب ؟

ـ دعوني اتكلم .. دعوني .. اقول كانت ولا اقول انها ليست بعد!

اقول كانت لوالدي غابة هي بساطة الخالق وهيبته .. وكنت اعود في المساء الى بيتنا القروي السعيد لتؤنبني امي على طول غيبتي خارج البيت .

ـ ألم تشبع من الشقاوة في ساحات البلد وشوارعها ؟ كانت توبخني أمي !

دميت ركبتاك يا ولد وتغبرت ثيابك وشعرك واذناك ! وفجأة ينقلب الطفل المرح الضاحك دائما الى ذئب عصبي غاضب :

ـ اجل لم اشبع يا أمي .. اريد ان العب اكثر من كل الاولاد ..اريد ان اذهب بعيداً واعود متأخراً وان افعل ما اشاء !

وكانت امي تزداد غضبا وزجراً ووعيداً ..

وهنا .. يضع ابي كوب الشاي على مائدته ليتدخل بهدوء .. وليقول لي بهدوء :

ـ حسنا يا بني .. غدا أخذك معي بعيدا .. كما تريد .. لتعود متأخرا .. كما تريد .. ولتفعل هناك ما يطيب لك !

وكنت ألح في السؤال : الى اين ستأخذني يا ابي الى اين؟

ولم اكن احسن النوم الا بعد ان يهمس والدي بهدوء :الى الارض.. الى ارضنا !

في طليعة النهار .. وقبل ان تشرق الشمس، كنت احس بكف تهز كتفي هزاً رفيقاً .. وكأنما من مسافة بعيدة ، كان يجيئني صوت

طيب عميق :

سميح .. سميح .. قم يا ولدي .. النهار ملأ الدنيا، ويجب ان نمشي.. سأعود بعد دقائق لاجدك مستعداً !

كان والدي يعود الى غرفته ليهيىء شؤونه ، وكنت اسحب اللحاف الى ما فوق رأسي جاذبا ركبتي الى ما تحت ذقني، متكورا في الدفء كالقط السعيد ..

وبعد مدة من الوقت لا اذكر عمرها .. كنت اسمع وقع خطى يدنو من سريري .. انها خطى ابي التي احفظها عن ظهر قلب، لم اكن ابصر تعابير وجهه عندما يجدني ما زلت غارقا في الفراش .. لكنني اذكر صوته العسكري وعباراته الصارمة .. كان والدي في تلك اللحظات تعود اليه شخصية الضابط التي عاشها اعواماً عديدة، فيصيح بي:

ـ ما هذا يا ولد؟ انسيت ما قلته امس ام ندمت؟ ان كنت لا تنهض حالا فسأسكب على قدميك ماءاً بارداً لتصحو!

لم أكن أخشى حكاية الماء البارد، لانني كنت اعلم جيدا أن والدي يقلق كثيرا اذا رآني اعاني قليلا من الزكام .. واذا لمح في وجهي خدشا او في مرفقي!

كنت أشعر بكثير من الندم على الحاحي، مساء الامس، وقليل من الخجل ازاء تحدي والدي.. وكانت الرغبة في الرد على التحدي تتغلب علي اخيرا، وانهض لاغتسل واشرب القهوة التي اعدتها امي.. ثم انتعل حذاءا عاليا واعقد منديلا حول عنقي واحرص على تحسس المدية الصغيرة في جيب بنطالي..

كان والدي يبدو عندها راضيا كل الرضى، فيرمقني باعتداد ثم يمضي ليحمل بندقية الصيد .. و..

.. «هيا يا بني» .. لكن قبل انطلاقنا نحو الارض نحو ارضنا..

كانت امي تصر على أن أحبس شعري الطويل حتى منتصف جبيني بقبعة، خوفا من «ضربة» الشمس !..

كنا نبتعد ابي وانا، ومن ورائنا كلبنا السلوقي المرح، عن البيت، وملاحظات امي لا تنتهي .. لكن تنبيهاتها الآن كانت مفعمة بالحنان: إحذر الافاعي يمّه .. العقارب تكمن تحت الحجارة .. لا تبتعد كثيرا عن ابيك.. لا تتسلق الاشجار العالية.. لا تترك .. لا، لا .. في طريقنا نحو الارض.. نحو ارضنا، كنا نلتقي بابناء قريتنا، كل في سبيل رزقه، وكنت احس كأنما هناك نوع من السباق .. كأن ابناء قريتي يتبارون في المبادأة بطرح تحية الصباح !

الى جانب احد البيوت وقف شاب .. في عز الشباب .. واخذ ينادي: سعيد: سعيد! يا سعيد!

وانفتحت نافذة اطل منها شاب يرتدي فانيلا زرقاء ..

- صح النوم يا افندي وصباح الخير !

- صباح النور .. اطلع!

- الى اين اطلع؟ الا تنوي ان تذهب اليوم الى الشغل؟

- اي شغل يا شيخ! اولاد الحلال ما اعطوني تصريحا! واستمر الحديث بين الإثنين .. واستمرت خطى والدي السريعة .. وانا من خلفه اغذ السير باطمئنان .. يبدو ان الذهاب الى ارضنا لا يقتضي تصريحا!

على سفح جبل حيدر الاخضر دائما.. وفي المسرب الضيق الذي تتسع في نهايته ارضنا، كنت اتفوق على والدي في السير .. كنت كالجدي الذي يقفز حول الراعي طروباً لرنة الأجراس، لكنني في تلك اللحظات لم اكن اتخيل ابي راعيا ولم اكن اتخيل بندقية صيده عصا..

كنت اتخيله فجأة ضابطاً ببزته المهيبة.. تماما كما كنت أراه في طفولتي المبكرة عندما يعود من دورية تدوم اسابيع، محملا باصناف الحلوى والهدايا .. ليروي لنا مشاهداته في سورية والاردن والجزيرة العربية وايران .. وبلاد الله الواسعة!

كنت أحس برغبة جامحة في أن استعيده الذكريات في تلك اللحظات .. لكنني انزلق فجأة عندما «تفرك» تحت قدمي حصاة .. فيلتفت الي لياخذ بيدي .. واقف نافضا الغبار والشوك عن ثيابي .. وتحين مني التفاتة الى قريتي .. التي اصبحت كلوحة في إطار اخضر لا نهائي .. او كجزيرة في بحر من اشجار الزيتون الغامقة .. لا حدود له!

كنت امتص قريتي بعيني .. بيتا بيتا وشارعا شارعا .. واحاول ان احزر بيوت جميع لداتي! فلا اصحو من ذهولي الا لاكتشف ان ابي اضحى بعيدا عني فأخف اليه كعصفور .. كجدي .. كنسمة!

على رأس الجبل كان يقف والدي ليجفف عرقه .. وحين ادركه انتصب الى جانبه لاهثا وعيناي معلقتان على شفتيه .. انتظر كلمة يقولها .. حكاية مقتضبة عن جدي الذي توفي قبل ان ترتسم في ذهني ذكرى واحدة معه .. كنت احس بفخر واعتزاز عجيبين عندما يروي لي ابي قصة جدي مع الارض..

- جدك يا ابني لم يكن فلاحاً. كان خالق ارض .. هذا الميراث العريض الذي خلفه .. هذا الميراث الذي يوفر الحياة الكريمة لعدة اسر صنعه بيديه .. بقوى زنديه طوع الصخور .. غزا سفوح البلان وحولها الى جنات عنب .. فتح السهل البري والوادي المتوحش بجلد وتفان وقال لاشجار الزيتون: كوني.. فكانت!

حتى الغابات المستعصية هذبها جدك .. شذب اشجار البلوط، وربّى اجباب البطم.. بينما انا واعمامك في بلاد الغربة.. نصارع ونغامر، نتعرض للاخطار ونحارب، في سبيل نجوم من الفضة تلمع على اكتافنا .. لكنك ترى يا ولدي اننا عدنا اخيراً.. عدنا بعد طول تجواب لنرتاح على اعتاب بيوت جدك .. ولننعم برزق من خيره .. كل شيء يذهب يا ولدي .. حتى النجوم الفضية! ما عدا الارض.. الارض وحدها الباقية .. الارض كانت رصيدنا الوحيد في بنك الدنيا .. لم نعبأ بها ذات يوم، لكننا بعد طول المطاف عدنا لنسألها ما ادخرته لنا من قوت كريم!

بعد استراحة قصيرة تحرك والدي .. وانطلقت خلفه متأملا أثار حذائه في التراب الاحمر ..

- ها قد وصلنا..

وانطرحنا تحت الخروبة الكبيرة.. مظلة اله الخصب والنماء ..

كرم العنب امامنا .. قطعة من بحر اخضر تتموج في هيبة ورتابة محببتين ..

كرم العنب امامنا.. بساط ريح من الحيوية الدافقة والامل الخير..

وارتفعت ذراع والدي على كتف نسمة..

- هناك غابتنا.. غابة جدك التي رباها وعلمها ان تحنو على الانسان..

وانخطفت عن التراب كأن يداً خفية سحبتني.. وانطلقت .. لاسلم على جدي وابوس يده .. وانا أكاد لا أسمع صوت ابي المنبه ورائي .. اذكر ما قالته لك امك! لا تتسلق الاشجار العالية... لا تذهب بعيدا .. لا تنس .. لا .. لا ..

وانحطت يدي على الجذع الاول من الغابة الحنون .. وانزلقت راحتي تتحسس خشونة الخشب الحي الممتعة .. رفعت وجهي نحو السماء الخضراء .. فسقطت قبعتي واهملتها .. انا في غابتي .. في بيتي، تراب هذه الغابة ومشجب البيت سواء .. كلاهما طمأنينة والفة .. كانت الشمس قد اثبتت وجودها .. حزم الضوء النافذة من خلل الفروع تجبرني على ان اغمض عينا واجوس حجرات الخضرة بعين نصف مغمضة.. لو استطيع ان اتسلقك يا سلم الشعاع!

وضحكت للفكرة .. وعدوت .. اسراب العصافير المذعورة تملأ ملعبي شيئا بين الزقزقة والكلام .. العصافير الموشاة بشتى الالوان تنشد .. تماما كما نفعل في ساحة المدرسة قبل بدء ساعات الدوام!

وعدوت.. وقفزت.. وانشدت مع العصافير.. وتسلقت الاشجار العالية.. وذهبت بعيداً وقضمت ثمار البلوط .. وتخدشت ساقاي .. وثيابي!

انا سعيد!. انا سعيد!. فلتوبخني امي كيف شاءت .. لو عرفت مقدار سعادتي لغفرت لي .. ولرقعت ثيابي بهدوء ..

أيتها الشجرة! سأحفر اسمي عليك حتى تذكريني .. وانت .. سأحفر على جذعك اسم امي وابي .. واخواتي وإخو تي جميعا .. اما اسماء اصحابي فهناك احفرها..

وعلى تلك الصخرة سأرسم خريطة بلادي..

وتنبهت فجأة في قليل من الذعر.. هذه الطلقات لا اجهلها .. ديكان بالتمام .. فشكة جفتك يا ابي لا تسقط وحدها على الارض ..

وجاء صوت والدي مناديا ..

واصررت على ان احمل ديكي الحجل بنفسي، الى حيث ينتظرنا جرن الكبة ..

وانطلقنا عائدين .. كنت في عودتي متعبا، متعبا، واليوم وقد كبرت قليلا اصبحت اومن ان العودة، دائما يثقلها التعب!!

في البيت هرع اخي الصغير متطوعا ليفك سيور حذاء والدي .. واخذت امي تتفحصني لترى الى اي مدى لم احافظ على تنبيهاتها!

تكررت زياراتي لغابة جدي .. وغابة طفولتي .. حتى انهيت دراستي الابتدائية في القرية .. واختار والداي ان يدخلاني كلية «تيراسانته» في الناصرة- واعجبتني الفكرة .. لا ظنا مني بان المنهاج الدراسي في "تيراسانته" افضل منه في مدرسة الرامة الثانوية .. بل رغبة في انطلاقة نحو افق جديد .. واذا كانت هذه "الانطلاقة" تبدو في نظري اليوم ساذجة وضئيلة، فقد تصورتها آنذاك مغامرة خصبة وممتعة ..

وذهبت الى الناصرة حيث أتممت دراستي الثانوية.. وتلقفتني أيسر الوظائف .. وظيفة التعليم .. وما داموا قد شبهوا الحياة بالبحر .. فدعوني اقل انني اصبحت عرضة لامواج اعلى .. أين منها دفقات الطفولة المرحة .. وأصبحت عرضة لحيتان خطيرة، أين منها أسماك الطفولة الوديعة!

وامعن الملاح الصغير يصارع اللجج الضارية .. تارة غالبا وطورا مغلوبا!

وتقلبت الايام .. وتقلبت في الوظائف والأعمال .. من المكتب الانيق الى مجاري المصانع في خليج حيفا، ومن ربيع الكرمل الدائم الى خريف النقب الدائم .. من القرية الى المدينة .. الى الصحراء ..

وذات يوم وجدت نفسي بلا عمل.. ولم يكن لي مكان اذهب اليه

سوى بيت ابي وجدي .. وعدت الى قريتي.. ودون ان يوقظني ابي في ساعات الفجر، وجدني جاهزاً لمرافقته الى الارض.. الى ارضنا!

مشواري هذه المرة لم تكن فيه سمة او رائحة من مشواري القديم.. كأن اجيالا باكملها تفصل بينهما .. غير ان غابة طفولتي كانت ماثلة في قلبي وذهني .. تماما كما كانت قبل حوالي خمسة عشر عاما يوم زرتها للمرة الاولى!.

ووصلنا!

وفجأة عادت الي طفولتي .. عادت بكل خفتها واندفاعها.. عادت فأين انت يا غابة الطفولة؟! وعدوت.. لكنني تجمدت لدى الشجرة الاولى من الغابة الـ .. لا .. لا .. ليست هذه غابتي تلك الحنون!. هذه التي امامي، متوحشة .. كثة، عابسة! والتفت نحو والدي .. كالملدوغ!

- ابي! ماذا جرى؟ ما للغابة مهملة؟

تسمرت عينا ابي على الغابة .. غابة طفولتي .. واتكأ على السلسة الحجرية وكانه يتلافى السقوط .. وكانما من بئر لاقرارة لها.. جاءت كلمات والدي متهدجة .. بطيئة .. وثقيلة:

- الغابة صودرت! دائرة اراضي اسرائيل ضمتها الى املاك الدولة!

طول عمري لم ار عيني ابي تلمعان بهذا الشكل .. ابي لم يجسد ازاء عيني ذروة العذاب الانساني بهذا الشكل سوى في اللحظات التي كانت تغادر فيها الواحدة من شقيقاتي عتبة بيتنا حيث عشنا معا سنين طويلة حافلة، الى بيت عريسها ..

لكن والدي لم يفرض على اية من شقيقاتي زوجا! واندفعت الى احشاء غابتي كالمصعوق ..

اندفعت اسال قلبها ان كان حقا لم يعد لي!

اليوم صار علي ان اتحرز بتصريح اذا شئت ان اؤدي طقوس الوفاء لغابة طفولتي ..

ولكن قدس الاقداس يا احبائي ما زال راسخاً عميقا في جذور السنديان والخروب والعبهر..

وغابة الطفولة .. طفولتي .. يا أحبائي ما زالت تحمل اسمي وجميع الاسماء التي حفرتها على جذوعها .. ما زالت تحملها وشما ابديا .. وذكرى باقية بقاء الكرة الارضية نفسها!

أتسألون بعد يا احبائي .. ماذا احمل في كيس الخيش؟!.

اوراق من مفكرتي

ما دامت هذه الاوراق شأنا خاصا للغاية، وما دامت حديقة وحشية موصودة في وجه الانس والجن على حد سواء، فلا بأس علي اذن، ان انا مارست فوضاي الزمنية والذهنية على هواي، مستبدلا ايام عقارب الساعة بأيام ابخرة النفس، طارحا عن جسدي وروحي معا، قوالب الوقت والانضباط..

من عيوبي - وهي اقل من اصابع اليد الواحدة، بدون شك - انني انسى بصورة مخزية تماما، لذا فلن تكون هذه الشهريات التي احاول تدوينها مرتبة حسب اتيكيت الرزنامة، فانا الان في حديقتي الوحشية، ولا جدوى من اجهاد الذاكرة..

(١)

في التاسعة من صباح هذا اليوم فقدت القدرة على الاسترسال في النوم.. فجلبة محمود درويش ومحمد ميعاري تكاد تغلق البيت. محمود يغني امام المرآة، متفرجا على نفسه في المايوه الذي يرتديه لاول مرة في حياته، ومحمد يقسم، بحرارة المحامي الشاب، انه رابح

القضية هذا اليوم بلا ادنى شك.

كالعادة، وصلنا متأخرين الى مكتب "الاتحاد" .. ومنذ بدأنا نصعد الدرج، بدأ شيء من الخجل يصعد في اعماقنا .. دلفت الى مكتبي ودلف محمود الى مكتبه .. لم يفعل الرفيق الدكتور اميل توما، رئيس التحرير، اكثر من الرد على تحية الصباح بلهجة عاتبة اشتركت فيها نظارته الصارمة، اما قلمه فقد واصل العمل الذي بدأه منذ ساعتين تقريبا.

بعد انتهاء العمل بدأالحوار المألوف: أين نتناول الغداء؟ واصر على ان المنزل هو افضل مكان لهذه العملية المضنية، ويقسم محمود- كالعادة - ان تكون هذه اخر مرة نتناول فيها غداءنا في المطعم..

محمود .. الى البحر!!

وانا .. الى السينما ..

في ساعات المساء بَحَثنا عن ام كلثوم، وسرحت في عالم هانس اندرسون العجيب .. هذا الشاعر الدنمركي الذي خلدته اقاصيصه الساحرة..

فاجأنا بعض الاصدقاء والصديقات بزيارة ليلية ..اختلط «الباس» بـ "السوبرانو" وطاب لي ان انشد:

هنا ميسلون، فعوجوا جميعا نحيّي ثرى ميسلون.
هنا استبسل العُرب ضد الغزاة، هنا استشهد الباسلون.
وكان لجيش الغزاة انتصار ونير علينا وطيد.
وكان على العرب اما الخنوع واما النضال العنيد.
وبتنا نقاتل ليلاً نهاراً الى أن بلغنا الأرب.
ولن نترك السيف أو نستردّ جميع حقوق العرب
هنا ميسلون ..

بعد انصراف الشلة الليلية بقليل، حضرت الشرطة بناء على دعوة تلفونية من الجارة السيدة ليفي، وبعد تحقيق قصير اجراه معنا شرطيان بالتمام والكمال، انصرفا دون استدعائنا للمحكمة .. لكنهما أكدا قبل انصرافهما اننا لسنا قذرين وقبيحي المنظر ـ كما اوحت السيدة جارتنا ..

لدقائق معدودات، تبادلنا نظرات فيها من كل شيء .. وحاولنا ان ننام ..

(٢)

اليوم بدانا حملة البحث عن منزل اخر .. محمد سيتزوج قريبا وسيواصل السكنى هنا. كابرنا وزعمنا انه مقدم على ورطة، وعذبناه بكل ما نعرفه من الطرائف عن الزواج والمتزوجين، ولكن ورطة حقيقية كانت تعذبنا.. ورطة المنزل الاخر ..

جسنا انا ومحمود شوارع حيفا، ندخل مكتب سمسار منازل ونخرج من آخر.. رحبوا بنا في البداية واكتشفوا هويتنا في النهاية .. وواصلنا البحث عن منزل في اعلانات الجرائد وفي احلامنا الواعية: ان الدنيا غير الدنيا!

حصلت على عنوان. اتصلت تلفونيا بصاحب المنزل واتفقنا على ان ازوره في المساء لنتفاهم. الاجرة الشهرية في الاعلان ٢٠٠ ليرة اسرائيلية لا غير. وحين سمع اسمي اصبحت الاجرة ٣٥٠ و .. ماذا مع النظافة؟ انه منزل محترم!

ـ لم اسكن، قبل، في اصطبل يا سيدي!

ويظهر على شاشة التلفزيون الاسرائيلي شاب يقرأ نشرة الاخبار

بالعربية.. سالتني السيدة ربة البيت :

- ما رأيك في هذا المذيع .. الا توافقني على انه جميل الصورة عذب الصوت؟

- انه اخي!

- ولكنه درزي!

- ومع هذا فهو اخي، ابن امي وابي!

ودب الحماس في اعضاء الرجل صاحب المنزل فهتف وكانه يقطعني ولاية:

- ما دام الامر كذلك فانني «ارمي» لك عشر ليرات من الاجرة!

صعد الدم الى فودّي حارا مضطربا .. لم اتلق في حياتي إهانات كثيرة من هذا الطراز، فنهضت منصرفا .. لم نستاجر ذلك المنزل.

(٣)

اليوم، رأيت شابا مصابا بالشلل جالسا في كرسي ذي عجلتين على مقربة من السوبرماركت. عشرات الناس مروا به دون اكتراث. دنوت منه وسالته: هل استطيع ان اساعدك؟

- اكون شاكرا لو ساعدتني بدفع الكرسي الى شارع هنفئيم (الانبياء) .. فعلت ذلك بلا تردد، وحين وصلت به الى المكان الذي اراده التفت الي بوجه يطفح بالامتنان، وقال وانا اكاد ابصر قلبه على شفتيه:

- شكرا لك يا سيدي .. شكرا جزيلا .. حقا انك يهودي جيد!

(٤)

رن جرس التلفون في المكتب. كان المتكلم من الجانب الاخر ضابط شرطة معروفاً: نريد ان نتحدث معك حول ديوانك الاخير الذي صادرناه وحول الملف المفتوح ضدك ..

حين وصلت مركز البوليس وجدتني محاطا باكثر من خمسة اشخاص هم مركز اعصاب شرطة حيفا..

- أين كنت، وماذا عملت من تاريخ كذا الى تاريخ كذا؟ من هم الاشخاص الذين قابلتهم من الضفة الغربية والمناطق (المحتلة) الاخرى؟

- التهمة الموجهة اليك اليوم خطيرة جدا .. انت متهم بالاشتراك مع اخرين في نسف منشأة النفط في ميناء كيشون على خليج حيفا.

- ليس لهذه التهمة اي اساس من الصحة!

-حسنا، أنت معتقل قيد التحقيق .. هل تريد ان تعلم احدا بأمر اعتقالك؟

- يهمني ان يعرف بذلك رفاقي في هيئة تحرير «الاتحاد».

ورافقوني الى غرفة التوقيف التي احفظها عن ظهر قلب .. ففي هذه الغرفة قضيت اكثر من نهار واكثر من ليل .. في صباح الخامس من حزيران ١٩٦٧ كنت انا والرفيق زاهي كركبي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي والرفيق علي عاشور زميلي في هيئة التحرير، اول من دخلها من سجناء العدوان السياسيين، ثم هلت علينا طلعات الشاعر سالم جبران والمحامي علي رافع وآخرين من رفاقنا واصدقائنا..

(٥)

في الخامس من حزيران ١٩٦٧ كان شريكي في الكلبشة، ونحن في الطريق الى سجن الدامون، علي عاشور، سجين سياسي مثلي .. اما اليوم، وانا في طريقي الى سجن الجلمة، فان شريكي في الكلبشة قواد وحشاش معروف جيدا في اوساط العالم السفلي!! وهو معروف لي ايضا! من اين؟ قبل اشهر اشتريت غرفة على سطح احدى البنايات العالية في المدينة، وبعد ان نقلت اليها امتعتي اكتشفت ان "جاري" القاطن في الغرفة الثانية على السطح نفسه هو "الرجل" نفسه .. القواد والحشاش المعروف جيدا في اوساط العالم السفلي..

استدعيت للتحقيق في جناح خاص من سجن الجلمة.. وفي الغرفة نفسها حققوا معي قبل مدة بتهمة الاتصال بمنظمة «فتح» وتشكيل مجموعات مقاتلة داخل اسرائيل.

- انت تعرف مدى خطورة التهمة الموجهة اليك الان؟

- اجل اعرف ذلك .. واعرف ان التهمة باطلة من اساسها.

قال محقق ثان: هل كان لقاؤك بفلان وفلان مبرمجاً؟

- كلا..

وانهالت علي عشرات الاسئلة والملاحظات.

وفجأة قال محقق ثالث: انا اكرهك وانت تكرهني، اليس كذلك؟

- اعرف انك تكرهني. وليكن ذلك هنيئا مريئا عليك.. اما انا فلا أكرهك لكنني لا اوافق عليك.

- هل رأيت لغما وعبوات ناسفة؟

- نعم، رأيت!

وتنبهت جميع ملامحه وهو يسال وكانه مقدم على فتح مبين:

اين؟

- في السينما ..

- اعني في الواقع .. على الطبيعة!

- رأيت القنبلة اليدوية وقنبلة الدخان، وقذائف الهاون والاسلحة الاوتوماتيكية الخفيفة و ..

- كفى ..

واستمر التحقيق، واختتمه شاب عصبي حاد المزاج، جاف الصوت والنبرة:

- حين تثبت هذه التهمة ضدك فستدفع ثمنا غاليا.

(٦)

اطل علي احد السجناء من بين القضبان ..

- هل تعلم ان هذه الغرفة التي سجنوك فيها هي غرفة أيخمان؟!

- لم اعلم ذلك من قبل، مع انني "زرت" هذا السجن .. شكرا على هذه المعلومة. . وانصرف السجين مبتسما، واستلقيت على التخت المعدني الوحيد المثبت باسمنت المصطبة، وسرحت في فكرة ذاهلة: انا .. في غرفة أيخمان؟؟ يا لغرابة التاريخ، احيانا!

(٧)

تعرفت اليوم الى عدد من السجناء .. حوالي عشرين سجينا سياسيا من الهضبة السورية المحتلة .. ثلاثة من قطاع غزة .. واحد من الضفة الغربية .. ما اروع ان يتمشى هؤلاء جميعا في ساحة السجن

معا، وامام ناظري .. لا يعرف هؤلاء الاخوة ماذا يفعلون بي الان .. رغبة حادة في البكاء تكاد تفقدني السيطرة على نفسي .. لا علينا! اننا نقيم هنا نوعا فريدا من "الوحدة العربية"!

(٨)

وجدتني اليوم اذرع ساحة السجن مع عدد من المتهمين بالقتل .. كل يروي قصته وامكانيات الحكم عليه .. وهم جميعا غير يائسين .. قال احدهم:

- من يدري، قد يتحقق السلام قريبا، ويطلق سراحنا في افراج عام، اكراما للسلام!

كنت اضحك بصوت مسموع، وانا افكر بمرارة ساخرة:

- هل يعقل ان لا يفكر جديا بالسلام في هذه البلاد، غير الشيوعيين والمحكومين بالسجن المؤبد؟

(٩)

صباح الخير ايها الرفيق سميح.. نحن الاربعة من الشبيبة الشيوعية.. حكم علينا بالسجن لمدد تتراوح بين ٨-١٠ اشهر بتهمة كتابة شعارات على جدران قريتنا عرابة!

أذكر ذلك جيدا.. كانت تلك الشعارات من طراز:

"انسحبوا نحو السلام!" و«نفذوا قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧".

حقا ان الدعوة للسلام اصبحت تكلف ثمنا باهظا في هذه البلاد!

(١٠)

في السجن تكتسب الاشياء قيمة خاصة. السيجارة من النوع الرديء تعتبرها كنزا ثمينا .. وعود الثقاب ذخر يجدر بك الا تفرط به ..

اليوم حمل الي سجين عربي شاب من احدى قرى الجليل منشفة وفرشاة اسنان واصبعا من معجون "شيمن".

احد سجناء الهضبة السورية المحتلة حمل الي سلة من الفاكهة ..

سجين يهودي شاب حمل الي صحيفة قديمة وكتابا .. وسرعان ما استدعاه شرطي سمين ليوبخه على فعلته:

- ماذا تفعل عند ذلك الشاب؟ انه مغامر خطير، ويجدر بك ان تبتعد عنه!

سجين أخر حمل الي مشطا وصابونة .. منقولاتي في السجن تزداد، وثروتي تتضخم، ومستوى معيشتي يرتفع! هذا امر جميل.. فلأقرأ هذا الكتاب .. على الغلاف صورة فتاة زنجية عارية .. العنوان "تعال الي يا ابيض اللون!" .. تكون لدي انطباع بانه من الكتب الرخيصة التي يزجي بها السجناء والعاطلون والكسالى اوقات فراغهم، لكن الكاتب "الن بيتون" الذي ملأ العالم بكتابه الرائع "ابك يا وطني الحبيب" والذي فضح فيه عنصرية البيض في جنوب افريقيا .. هذا الكاتب لا يمكن ان ينحدر الى الدرك بهذا التطرف في السرعة .. وباشرت القراءة فاكتشفت انني أسأت الظن، فقد وجدتني أمام رائعة ادبية تصور العذاب الذي يتعرض له رجل ابيض يقع في حب صبية

زنجية في جنوب افريقيا، وكيف ان هذا الحب المحرم دمر الشاب واسرته كلها..

(١١)

تحدثت اليوم مع سجين من الجولان عن حزبي وعن ماركس والاستعمار وديالكتيك هيجل المثالي.. سجين آخر امر علي ان أقرأ بعض قصائدي فقرأت له مقطوعة عن خاتمة الحوار مع سجان:

من كوة زنزانتيَ الصغرى
أبصر اشجارا تبسم لي
وسطوحا يملأها اهلي
ونوافذ تبكي وتصلي
من اجلي..
من كوة زنزانتيَ الصغرى
ابصر زنزانتك الكبرى!..

.. في ورقة مزيقة من جريدة "معريب" قرات اليوم قصة لكاتب مصري أسمه على ما اذكر "حسني عبد الفضيل" .. ترجم القصة الجنرال المتقاعد "متتياهو بيلد" وقدم لها أيضا بقوله ان هذه القصة تصف "مأساة الشعب المصري الازلية" .. مأساة الضياع وفقدان السيطرة على تسيير اموره..

لكنني لم اعثر في القصة على ما ذهب اليه الجنرال متتياهو بيلد من توجه سلبي يائس، فهي قطعة فنية جميلة تصور حياة الانسان المصري الجديد الذي يبني بلاده جنبا الى جنب مع صديقه الخبير

السوفياتي .. وعملية البناء هذه لا تتم بدون ضحايا، وهكذا يسقط احد ابطال القصة قتيلا في حادثة عمل مما يشيع الحزن في نفوس زملائه، ولكن العمل يستمر ..

(١٢)

- في ساعة مبكرة من هذا اليوم تذكرت افراد أسرتي واحدا واحدا، وشعرت برغبة في الاعتذار اليهم عن المتاعب التي يشاركونني اياها سواء شاءوا ام ابوا .. تذكرت ابن اخي الصغير وهو يرفض بعصبية قطعة النقود الصغيرة ويصر على قطعة كبيرة ليشتري الحلوى له ولأخته .. تذكرت رفاقا من الناصرة وحيفا وتل ابيب فابتسمت راضيا مرضيا.

قرأت قصة اميركية من "ادب" الغرب المتوحش.. عمقت كراهيتي لرسل الانعزالية وشريعة الغاب الذين يبشرون بالذاتية المنفصمة عما يحيط بها، والمؤمنة بمبدأ: اذا شئت ان تعيش سعيدا فلا بد لك من اتعاس الاخرين!

(١٣)

- اليوم اطلقوا سراحي بعد ثلاثة عشر يوماً من الاعتقال والتحقيق.. اطلقوا سراحي دون كفالة.. طيلة فترة اعتقالي "طالب" بي رفاقي بلا لأي .. الرفيق النائب توفيق طوبي قدم في الكنيست استجوابا لوزير الشرطة حول اعتقالي.. الرفاق المحامون حنا نقارة ومحمد ميعاري وعلي رافع أقلقوا الشرطة بالاستفسار عني.. حسن ان

تشعر وأنت في السجن بانك لست وحيدا في المعركة. أخر ما قلته لمدير شرطة حيفا قبل عودتي الى المكتب:

ـ أتعلم؟.. أنا أعلم انني أعيش في حقل مزروع بالالغام!

(١٤)

ـ منذ اكثر من شهر لم أتمكن من زيارة قريتي "الرامة".. واليوم طلبت تصريحا من الشرطة لزيارة اسرتي واصدقائي هناك..

الجواب: لا!

(١٥)

ـ في العدد الاخير من المجلة الاخيرة قرأت في الركن الاخير من الصفحة الاخيرة نبأ موتي ..

واصلت الحياة .. ضاحكا من كل قلبي!

(١٦)

ـ أدرت قرص التلفون .. من الجانب الاخر جاء صوت امراة ..

.. شاهدنا فيلما اميركيا عن المغامر اليانكي الذي يهرب الاسلحة الى دولة في أميركا اللاتينية .. وتنشب في تلك الدولة ثورة يحمل رجالها الاعلام الحمراء .. ويتضرع قادة تلك الدولة الى المغامر اليانكي بان يمد لهم يد المساعدة ليخلصهم من "الوباء الاحمر" .. لكنه "يتبغدد" مؤكدا انه لا يرغب في التدخل في شؤونهم الخاصة(!)

لكنهم "يصلون" اليه راجين ان يقبل بالتدخل في شؤونهم الخاصة(!) ونزولا عند رغبتهم يقضي على الثورة الحمراء و"يخلص" البلاد، فيسعد من فيها من العباد، ويعيشون بالثبات والنبات ويخلفون صبياناً وبنات!

(١٧)

- شاهدت فيلما اميركيا رائعا قام ببطولته بيرت لانكستر.. انه يفضح زيف المجتمع الاميركي.. فالمليونير الذي يصاب بنكسة اقتصادية تودي بثروته، يتخلى عنه جميع اصدقائه وصديقاته، الذين كانوا يترامون عليه كالذباب في ايام ثرائه ومجده.. ولم يسلم حتى من عداء بناته اللواتي كان قد وضع بين ايديهن جميع امكاناته وغمرهن بحبه ورعايته..

زارني الشاعر العبري التقدمي "ييبي" وعرض علي فكرة احياء أمسية شعرية يشترك فيها شعراء عرب ويهود معادون للحرب ..

رحبت بالفكرة، لكن حين طلب مني الا أكون "عنيفا كعادتي"، سألته عما اذا كان راغبا في فنجان قهوة ..

(١٨)

- ترجمت اليوم عددا من القصائد العبرية المعادية للحرب .. اسعدني ان افعل ذلك. وترجمت عن الانكليزية اغنية سوفياتية عن الوطن .. كادت الدموع تطفر من عيني وانا اترجمها .. لماذا لا احس بروعة الوطن في أغاني مطربينا العرب؟!

كتبت اليوم قصيدة:
أعيش بالدّين ..
وبالتقسيط
أموت يا مولاي
ومن ثقوب الناي
ألفظ انفاسي،
وللقمائد التحنيط ..

(١٩)

- اخبار اليوم مثيرة للقلق .. الاطر السوداء في الصحف اليومية كثيرة .. غلة الموت اكبر من غلتنا..

كل جلبة الابحار الى القمر لا تثير في غير التقزز .. زنوج اميركا لم "يبحروا" الى منازل افضل، واللاجئون العرب لم "يبحروا" الى وطنهم .. لا بد من التطور التكنولوجي والانجازات العلمية. لكنني اريد ان اعيش حتى اتمتع بها حقا..

(٢٠)

- كتبت اليوم قصيدة:
لن تهوني
لن تهوني أبداً يا مجدلية
لم أزل اغسل رجليك بدمعي
ودمي .. يا مجدلية

من قرون الهمجية

لقرون الهمجية

فاسلمي، سلطانة العشق

اسلمي لي واقبليني

سائحاً في حضرة الحب المتّمى؟ ..

لن تهوني

لن تهوني أبداً .. يا مجدلية؟

*

- لا اعلم اذا كان الشهر الاخير ثلاثين يوما او واحدا وثلاثين يوما .. لكنني اعلم جيدا انني راغب في الحياة .. راغب فيها حتى اليوم الثاني والثلاثين من الشهر..

الشاعر والبطل «هو تشي مين»
في «يوميات السجن»

ناقد، لا يحضرني أسمه الان، قال مرة: الشاعر والبطل توأمان.. وكثيرون هم الشعراء الذين باركتهم البطولة، وكثيرون هم الابطال الذين باركهم الشعر، ولا شك في ان التقاء روعة البطولة بروعة الشعر في رجل: يجعله مخلوقا شبه اسطوري..

والتاريخ يذكر باحترام عميق عددا من ابنائه الذين توفرت لهم الكفاءتان، كفاءة البطولة وكفاءة الشعر .. وبعض هؤلاء ما زالوا على قيد الحياة..

الذي دفعني الى تسجيل هذه الخواطر هو مجموعة شعرية كاتبها فيتنامي واللغة الاصلية التي كتبت بها هي الصينية وجرت ترجمتها الى الانجليزية، وهي أمامي الان في مئة صفحة، متواضعة في طباعتها ومتواضعة في اسلوب عرضها..

اسم المجموعة "يوميات السجن" وصاحبها ليس سوى .. رئيس جمهورية فيتنام الديمقراطية، "هو تشي مين"!

وصدرت عن: دار النشر باللغات الاجنبية في هانوي، واليكم قصة هذه القصائد:

في عام ١٩٤٢ كانت قد انتهت السنة الثانية من الحرب العالمية الثانية .. في الهند الصينية كانت القوات اليابانية تتقهقر.. وكانت قوات الحلفاء تحتل مكانها.. وحين اندفعت القوات الاجنبية الى اراضي فيتنام تشكلت على الفور منظمة المقاومة الشعبية.. واخذت تمارس نشاطاتها البطولية لطرد المحتل الاجنبي..

في احد ايام تلك الفترة القت شرطة حدود الصين القبض على رجل ادعى انه يمثل الشعب الفيتنامي وانه يود مقابلة السلطات الصينية.

كان ذلك في عهد نظام تشيانغ كاي شيك، وجاء الرد السريع على طلب الرجل المجهول، فقد قيدته شرطة تشيانغ كاي شيك والقت به في عتمة السجن الرطبة.

لم يكن ذلك الرجل سوى "هو تشي مين" الذي جاء فعلا، ممثلا للشعب الفيتنامي..

وأخذ نظام شيك المتعفن يقذف "بهو تشي مين" من سجن الى سجن ثم يخرجه ليفرض عليه الحجر المنزلي، وبعد ان تقلب "هو تشي مين" في حوالي ثلاثين سجنا في الصين وبعد ان ذاق كل انواع المرارة، وبعد ان قاسى كل اصناف الشراسة اطلق سراحه فقطع خمسين كيلو مترا سيرا على الاقدام حتى اجتاز الحدود عائدا الى بلاده ..

لم يعامل "هو تشي مين" في سجون "شيك" معاملة اسير سياسي، ولم يتمتع بشيء من الامتيازات الخاصة التي تمنح لاضرابه من السجناء، فقد قذف به زبانية شيك في اقبية استقبله فيها المقامرون والحشاشون واللصوص ومدمنو الافيون ونماذج اخرى من صادرات العالم السفلي .. والى جانب هؤلاء التقى "هو تشي مين"

بالمرض والقذارة والبعوض والجوع والحمى وكل ما يخطر بالبال من اصناف الشقاء!

في تلك الظروف التي تثير الغثيان والرعب رؤيتها من وراء السطور وتصورها عبر الكلمات، ورغم ايام السجن التي يصفها "هو تشي مين" بانها دائما طويلة، لم يعدم هذا الرجل الرجل اطالة التفكير في بلاده المعذبة، ولم يعدم كذلك تذوقه لعبير الورد وشقشقة العصافير ودفء الشمس!

ففي عفونة السجن المظلم، ومع شخير "زملائه".. كان "هو تشي مين" يحس بخدر الشاعرية يدب في اطرافه دبيب السكر، فتتمتم شفتاه بضع كلمات لا تلبث ان تصبح ابياتا من الشعر. وكانت تراوده الرغبة في كتابة ما ينبض في عروقه من خواطر وعواطف، لكنه لا يجد بدا من التنازل عن لغته الفيتنامية، لان الحراس الصينيين يمزقون كل ما يكتب بغير لغتهم.. فيقوم "هوتشي مين" الى الورق ليسكب عليه حرارة قلبه.. ولكن، باللغة الصينية!

وشعور "هوتشي مين" أنذاك نستطيع ان نحدس به من خلال كلمات الشاعر الجزائري مالك حداد الذي حكم عليه بان يكتب بالفرنسية فصاح من الالم:

"ابي - يا ابي!
انظر الي
الى ابنك
ابنك الذي يلقن ان يقول في لغة غريبة
تلك الكلمات الحلوة التي كان يعرفها
يا الهي!

ما اشد وطاة الظلام في عيني، هذه الليلة!

هكذا اتصور شعور "هوتشي مين" في ليالي السجن الرهيبة، حيث كان يترشف كوب الشاي الذي اعده بنفسه، اذا توفر لديه، ثم يسقي الورق من ذوب اعصابه!

معظم اشعار "يوميات السجن" جاءت في رباعيات، والباقي جاء في مقطوعات صغيرة ورشيقة..

اني اشعر بحماس شديد لترجمة المجموعة كاملة الى العربية، ولما كان ذلك من غير اليسير الان، فلاقصر جهدي على البعض (في شيء من التصرف)، وارجو لكم قراءة ماتعة وسعيدة ..

جسدي في السجن
افكاري هاربة في الافاق الرحبة
لتصيد الاشياء العذبة
فليكن العقل كبيرا ـ صافي الذهن!

*

نزلاء السجن القدماء
تستقبل اعينهم من جدّ من السجناء
والسحب البيض تبدد في الافق السحب الدكناء
والسحب البيض مع السود ابتلعتها الاجواء
وعلى الارض يزج الاحرار الشرفاء
في اعماق السجن السوداء!

*

نلت القمة روضت الجبل الاعسر!
ـ فلماذا اتوقع في المرج الخطر الاكبر؟

صادفت اناسا في سهل ـ فلماذا في سجن اطرح؟

*

في كل صباح تتسلق
شمسٌ جدران السجن المخفور
وترش الباب سهام النور
ويظل الباب الاسود مغلق
في السجن.تغطي العتمة كل الساحات
لكنا ندرك ان الشمس وراء الظلمات
تسخو بالضوء الساطع.باقات..باقات!

*

بعد الظهر يصر الباب الاسود
كي نمنح بعض هواء
فاذا اعيننا تتصعد
في بعض سماء
- ايتها الارواح الحرة في تلك الاجواء
اترى تدرين بانا ارواح من نوعك
تزهق في ظلمات السجن الموصد؟

*

لا خمر .. لا زهر .. للسجناء
لكن الليلة جد جميلة
فلنحتفل الليلة .. لكن ما الحيلة؟
- امضي للكوة .. للقمر الساهر
- يبتسم القمر الطيب للشاعر

*

اضواء الصبح تشق الدرب الى اعماق السجن
تجتاح دخانا وضبابا ورطوبة
انفاس حياة تملأ ارجاء الكون
فتشع البسمات المحبوبة
من اوجه كل السجناء!

*

رغم انهم شدوا وثاق ذراعي وساقي
فانني اسمع اغاني العصافير، تغطي الجبل كله
والغابة مضمخة باريج الازهار الربيعية
فمن الذي يستطيع ان يمنعني
من التمتع بحرية، بهذه الاشياء كلها،
هذه الاشياء التي تختصر من الرحلة الطويلة
شيئا من وحدتها

*

اوراق من كتب قديمة، الصقت باوراق من كتب جديدة
ان شرشفا مصنوعا من الورق،
خير من لا شيء على الاطلاق،
ايها الناس الذين تنامون في الفراش الوثير
خلف الستائر الحريرية
هل تعلمون ان في السجون
كثيرا من البشر، لا يستطعون النوم؟

*

لست شيئا عاليا ـ ولست شيئا بعيدا،
لست امبراطورا ولست ملكا،

ما انت سوى لافتة
تنتصب في طرف الطريق الوعر
من أجل الناس الذين يعبرون
انك تشير لهم الى الجهة الصحيحة
وتحول دون ضياعهم
انت تدلهم على المسافة
التي عليهم ان يقطعوها بعد،
مهمتك ليست مهمة صغيرة
والناس سيذكرونك دائما!

واليوم، ايها الاصدقاء، ذهب بوليس تشيانغ كاي شيك، وذهبت ليالي الثلاثين سجنا المنتنة، وبقي "هو تشي مين"، وبقيت اشعاره!

أيها العم « هــو » لم تمت !

المناضل العنيد بضعة منه. والقائد الفذ بضعة منه. والطفل الحالم. والنسر الغاضب. وشغيل المطعم البسيط والشاعر الاصيل والمفكر العظيم.. كلهم بضعة منه.

انه الرجل الذي اصبح اسطورة وهو على قيد الحياة، وامسى اسطورة ورمزا في ردهة الموت ..

سلخ من الزمن تسعة وسبعين عاما، بعضها للطفولة وما تبقى فللحرية والورد والاطفال..

كان فتى يافعا في باريس. عاصمة مستعمري بلاده حين فتح قلبه وذهنه للماركسية فاعتنقها، ومد يده للحرية وللطبقة العاملة فاحتضنته.

ويوم استوعب مأساة وطنه وشعبه المحنيين تحت حذاء المستعمر الاجنبي، نذر نفسه للكفاح، ونزل الى المعركة بكل جوارحه، فكان الذراع الاقوى والروح الاعلى والفكر الابعد اشعاعا في حركة "فييت مين" التي أسسها مع اخوة له من رواد الحرية الشجعان.

لكن فيتنام، التي كانت تسمى أنذاك (الهند الصينية)، لم تكد

تمسح عن رئتها أثار حذاء الفاتح الياباني الاخير، حتى ابتليت باسم من العدو القديم ينز سما ودما وليلا.. عاد اليها اسم (الهند الصينية-الفرنسية) .. هكذا في سجلات وخرائط المحتلين الجدد .. اما في قلوب الفيتناميين، وفي مقدمتهم"هو تشي مين" ورفاقه فقد ظل اسمها طاهرا نقيا، تنسجه اكف الثوار في غابات البامبوك ومزارع الارز، على اعلام المستقبل الحمراء.. واستمر الكفاح الدامي الذي لا يعرف الوهن سبيلا اليه. واستمرت الاسطورة .. شجرة لا حدود لجذورها ولا منتهى لاغصانها .. تنمو وتنمو لتثمر وتثمر .. وفي بركة الدم الممزوج بالازهار وسنابل الارز والعرق المقدس، في ديان بيان فو الفاصلة الخالدة خلود الحرية، غرق اخر احلام الاحتكاريين الامبرياليين القادمين من بلاد تسمى فرنسا .. واعلنت جمهورية فيتنام الديموقراطية، وانتخب "هو تشي مين" اول رئيس لها ..

لكن الاستعمار لا يمكن ان يتخلى عن طبيعته، وماذا يهذب دهاقنة الرأسمال في مستنقع الرأسمالية الامريكية، سوى بنادق الثوار الحارة بعد، في ادغال الفيتنام البطلة؟

واذا كان البرابرة الجدد القادمون الى وطن الدم الغالي والتراب المسمد بالشهداء، يحلمون بان يرثوا اسلاب اسلافهم، فعليهم ان يدركوا انهم سيرثون ايضا هزيمة هؤلاء الاسلاف الخائبين .. فالام الفيتنامية ما زالت تنجب والبيارق الحمراء ما زالت تفرد ظلها .. "وهو تشي مين" لا يمكن ان يموت فكرا وروحا ولو اسلم الى البلى جسده المنهك.

لم يكن "هو تشي مين" وحيدا. فقد كان معه شعب الفيتنام باسره .. ولم تكن الفيتنام وحيدة، فقد كانت وما زالت معها قلوب الملايين وضمائر الملايين وايدي الملايين من شعوب الارض قاطبة!

المسيرة تتعاظم وتتسع .. والطريق يشع وينفرج .. واذا مات منا سيد قام سيد .. والذي يحترق، يهتف اجعلوني ضوء!

طويلة جادتك ايها الرفيق الراحل.. طويلة بالنور وطويلة بالظلام. لكننا سنذكرها جيدا. سنذكر كل الاسحار التي شهدت إسراءك وسنذكر كل الاصائل التي شهدت معراجك. سنذكر كل شجرة ظللتك وكل نجمة آنستك، وانت تقطع عشرات الكيلومترات سيرا على قدميك المتعبتين، متنقلا من جب افاع الى قلعة بطولات الى واحة امان والى خندق تضحيات. سنذكر الثلاثين سجنا التي اسندت ظهرك الجبار الى جدرانها الرطبة رافعا وجهك من كواها الكئيبة الى حيث الاطفال الذين تحبهم والرجال الذين يقاتلون في جبهة هذا الحب. سنذكر جادتك بادق تفاصيلها والمعالم المضيئة على شاطئيها.

يوم سجنك زبانية شانغ كاي شيك فرضوا عليك ان تكتب شعرك بالصينية .. ما همك ايها المعلم العظيم، ما دامت اشعارك اليوم تعرفها جميع لغات العالم؟

يوم القوا القبض عليك تساءلوا في غطرسة: من انت ايها الافاق؟ .. ما همك ايها الرفيق الطيب، ما دام الملايين من ابناء الارض يدعونك اليوم: العم هو؟

لقد كنت بسيطا للغاية، وعاقلا للغاية، وقويا للغاية، ولذا تستحق ان تكون الرمز والفكرة ..

انسانيتك المذهلة في صفائها لم تتخل عنك حتى في احرج الظروف، فمثلك القمين بان يقول: حين يغادر الاميركيون ارض الفيتنام فسنودعهم في محطات القطار بباقات الورد!

هكذا كنت، وهكذا انت! فمن يمنحنا القدرة على ان نكون تلاميذك النجباء؟

اغمضت عينيك من رهق أيها العم هو .. لكن ضوءهما ما زال نجما مجوسيا يبارك وجوه الكرة الارضية كلها..

كم كنت اتمنى ان اغمر وجهي في ثنايا ثوبك الخاكي، بيرق البساطة والكدح والاستعداد الابدي .. وكم كنت اتمنى ان تسجي يداي باقة من ازهار الجليل الدامية على حذائك المطاطي الذي حفظ دروبك كلها عن ظهر قلب، لكن جسدي موضوع تحت الاقامة الاجبارية في وطني هذا الايوب الجديد ..

ومن قال أن النهاية تقف هنا .. ما دامت اكاليل الغار والزيتون والسنابل تطير الى جنبات ضريحك من وطن الملايين المستيقظة التي تبذر الثورة في جزيرة العرب وتحصدها في ليبيا وتبذرها في السودان لتحصدها في اسرائيل وفي الارجنتين وفي كل مكان!

من قال ان النهاية تقف هنا .. والجبل الذي طلعت على سفحه كزنبقة شجاعة، مازال راسخا راسخا .. يعلو ويعلو.. يضخم ويضخم .. وتغطيه اغاني العصافير التي سمعتها ذات يوم من كوة سجنك؟

ديمقراطية اسرائيل المكارثية

في حوارنا مع دعاة الديمقراطية البورجوازية، نذكرهم دائما بان ديمقراطيتهم تخفي وراءها دكتاتورية الطبقات المستغلة في المجتمع الراسمالي والتي هي دائما اقلية الشعب، ونؤكد دائما ان البورجوازية هي التي تتمتع بهذه الديمقراطية وتحرمها الجماهير الشعبية او تضيق تطبيقها عليها. وتاريخ المجتمعات البورجوازية حافل بجرائم الكبت الفكري والقمع الدموي للصرخات الشعبية المرتفعة احتجاجا على مظاهر العسف الطبقي الذي تتعرض له الجماهير الواسعة باسم "الديمقراطية" وبحجة الدفاع عنها!

واسرائيل، التي يحكمها هذا الطراز من الديمقراطية شهدت منذ قيامها عشرات المظاهر من الارهاب الفكري، كان اخرها اسقاط مسرحية "قوة القوة" ومنعها من الظهور على المسارح الاسرائيلية، بضغط من الصحف اليمينية التي جندت عددا ضخما من الاقلام البورجوازية في حملة مسعورة ضد هذه المسرحية. وما دمنا نتحدث عن المسرح فنود ان نعيد الى الاذهان ما حدث في سنوات الخمسين، حين استعرت حملة مماثلة ضد مسرحية "اقذف به الى الكلاب" التي وضعها كاتب اسرائيلي هو ي. موسينزون، معلنا بها مخاوف الشعب

الاسرائيلي من دكتاتورية بن غوريون واجهزة الظلام التي نشطت في خدمته .. وانذاك اسقطت مسرحية "اقذف به الى الكلاب" كما اسقطت الان مسرحية "قوة القوة" .. غير ان فارقا كبيرا بين الحالتين، فمسرحية موسينزون كانت هجوما على دكتاتور اسرائيلي عرض ابسط القواعد الديمقراطية الى الخطر، بحيث كان من الطبيعي ان يتصدى جهاز الحكم الاسرائيلي لتلك المسرحية. اما الحالة التي نحن بصددها اليوم فأشد خطورة .. وذلك لان "قوة القوة" تتصدى للمكارثية الاميركية وموجة "صيد الساحرات" الدموية.

من احداث تلك الموجة، اعدام يوليوس وايتيل روزنبرغ الاميركيين، على الرغم من عدم ثبات التهمة التي وجهت اليهما، وهي التجسس وتسريب اسرار القنبلة الذرية الى الاتحاد السوفياتي، وعلى الرغم من الحملة العالمية لانقاذهما. وفي مسرحية "قوة القوة" اشارات واقتباسات واضحة من اقوال يوليوس روزنبرغ قبل اعدامه، مثل:

"حين يشنون الحرب-فان كل من يدعو الى السلام يتهم بالشيوعية، وكل شيوعي، هو عميل أجنبي بالقوة!"

لم يتجاهل مقدما المسرحية "طوفانو" و "اجمون" الجو الشوفيني الخانق في البلاد، لكنهما اتخذا موقفا غير سليم من هذا الجو حين حاولا خلق توازن في مسرحيتهما بين الولايات المتحدة المكارثية، وبين الاتحاد السوفياتي! ولكن هذه الموازنة الفاشلة والسيئة لم تغفر لهما لدى كلاب صيد الولايات المتحدة، الذين يرفضون اي نقد موجه الى الولايات المتحدة ونظامها الوحشي.. "فهذه بصقة في البئر التي نشرب منها".. كما كتب ن.بن عامي في صحيفة "معريب"!

اذا كان فرسان السجود على حذاء العم سام قد نجحوا اليوم في فرض هذه العملية العنيفة ضد حرية الفكر في ابسط ملامحها، فمن حقنا الاعراب عن اشد القلق على بقايا الديمقراطية، يوم غد! وحتى لا تتكرر مأساة "المكارثية" في اسرائيل، يترتب على جميع الأوساط والعناصر الانسانية الديمقراطية ان تحزم في عمل شجاع ضد التدهور المخيف نحو حضيض صيد الساحرات!

الشيء بالشيء يذكر!

مجتمع السكان الاصليين في جنوب افريقيا من اتعس مجتمعات العالم على الاطلاق.. ويكفي ان نقرأ ما كتبه ادباء جنوب افريقيا نفسها عن ذلك المجتمع حتى نتزعزع من الاعماق... ومؤلفات هؤلاء الكتاب أصيلة ومؤثرة الى درجة الايلام وتوبيخ الضمير.

ولعل ابرز من هز العالم بتصوير حياة زنوج الأبرتهايد الن بتون وهاري بلوم، وكلاهما من انشط المناضلين في حركات المساواة في الحقوق القومية، الامر الذي عرضهما الى الملاحقة الشديدة، ولم ينجهما من الموت سوى لون بشرتيهما الابيض.

أشهر مؤلفات الن بتون قصته العظيمة "ابك يا وطني الحبيب" التي ترجمت الى معظم لغات العالم الواسعة وقصته "تعال الي يا ابيض البشرة" التي تروي مأساة حب بين ابيض وسوداء.

اما هاري بلوم فقد برز في العالم الادبي والفني باوبرا "كنغ كونغ" التي يصح اعتبارها عملا ادبيا وفنيا عظيما لصدقها وأصالتها وجماليتها، كما اشتهرت له قصة بعنوان: " فضيحة في ترانسفال"، ذكرتنا بعض مشاهدها واحداثها بعالم غير بعيد عنا .. وما دام الشيء بالشيء يذكر فلنقرأ معا هذا الوصف لحياة الزنوج، السكان الاصليين

في الاحياء المغلقة التي يعيشون فيها، والحي الزنجي في المدينة البيضاء يطلقون عليه هناك اسم "المنطقة"!!

و.. "يعيش سكان المنطقة كأسرى .. وهم مقيدون ومشدودون الى قوانين لا يسري لها اي مفعول على سكان المدينة البيض. المحظورات هنا لا تحصى، وغير المحظور يجب ان يعتبر متاحا بشكل واضح. فحيث توجه الانسان، وفي اي عمل يقوم به، يكون معرضا لتجاوز القانون. يوجد هنا الكثير من الاوراق الرسمية-اوراق وردية، اوراق خضراء واوراق حمراء-لان كل شيء يجب ان يكون مخطوطا وموقعا عليه. الحياة في "المنطقة" مخنوقة بستار كثيف من البيروقراطية. ويسير انسان المنطقة هنا وهناك، وهو مغطى باختام المفتش الرئيسي ..

انه يتحول الى قطعة من الورق، أسرته تتحول الى رزمة من الورق، وبيته-رقم في السجل، عمله-ورقة صفراء .. وحياته وامنه-لا يحملان من القيمة سوى ما تحمله الاوراق المحشوة في جيوبه. وعمل الشرطة سهل للغاية، فكل انسان مجرم خطير .. ولا احد يجرؤ على الاقل بان ينجح في تنفيذ جميع القوانين-فسيكون امرا سيئا اذا ما نجحوا في اطاعة جميع القوانين، لان مؤسسات كثيرة، وخاصة المزارع تعيش على عمل السجناء. الشرطة تعتقل كل أسود تعتقد انه من اليسير سجنه. واذا ساد الهدوء ارجاء المدينة، فان الشرطة تغزو "المنطقة" وتعثر على المجرمين في فراشهم. سكان المنطقة على علاقة وثيقة الى درجة اليأس، بالشرطة. كل قرعة على الباب قد تكون قرعة شرطي. كل يوم قد لا يعود الزوج من عمله الى منزله، حيث يعثر عليه فيما بعد في السجن، معتقلا بسبب تشويش في تصريح سفره، او بسبب حمله عصا مسمرة، او بسبب الجلوس على مقعد

محظور في حديقة المدينة، او نسيان ايصال في البيت، او عدم الطاعة، الوقاحة، اجتياز الحدود، الازعاج، او اي ذنب من الذنوب الاخرى التي لا تحصى .. كل يوم قد تطلب النقود بذهول كبير لدفع الكفالات، والغرامات، واجرة المحامي.. كل يوم قد يرى الانسان للمرة الاخيرة قبل اختفائه لعدة اسابيع، وربما لاشهر، واحيانا لسنوات - وفي هذه الاثناء يباع بيته وتطرد أسرته .."

"..الحياة في "المنطقة"، تخيم عليها دائما اجواء الشك والقلق.. فيً كل ساعة، في كل نهار، وفي كل ليلة. ولكن فائدة كبيرة يجنيها من هذا اولئك البيض الذين يعيشون على عمل السجناء الاجباري. واصحاب المزارع الذين هم الدعامة الاساسية للحكومة، يتعاونون مع الشرطة ببنائهم سجونا خاصة بهم، بنقودهم هم وبتشجيع من وزير العدل، من اجل اسكان اسرى "المنطقة" في تلك السجون"

هنا قليل من كثير،

والشيء بالشيء يذكر..

منهم العنف ومنا العنفوان

زفت إليّ مكالمة تلفونية نبأ يقول ان الشرطة تشن حملة واسعة لاعتقال ديواني الاخير "ويكون ان يأتي طائر الرعد".. ولم اكد اعيد سماعة التلفون الى موضعها حتى بلغني استدعاء من شرطة حيفا. وكان تحقيق قصير، وابديت رغبتي في تقديم شهادة خطية، وتم ذلك في اقل من ساعة .. وبعد التفتيش في منزلي ومصادرة ما لدي من الديوان بشرتني الشرطة بصدور أمر باعتقالي لمدة يومين، قضيت احدهما في غرفة التوقيف بمركز بوليس حيفا، وحللت في اليوم الثاني ضيفا على سجن الجلمة .. ثم مثلت امام قاضي محكمة الصلح في حيفا، وتم اطلاق سراحي لحين موعد المحاكمة، بكفالة مقدارها الف ليرة اسرائيلية لاغير.

في قاعة المحكمة كان في انتظاري عدد من رفاقي فعلمت منهم ان الصحافة الصهيونية اصدرت حكمها علي .. وحين طلب مني مندوب وكالة "عيتيم" تفسيرا لما حدث لم اخف عنه احتقاري للصحف التافهة التي اقتنصت النبأ وراحت تحرض جماهير قرائها .. وأكد لي انه سينشر ما اقوله بالضبط، وبالفعل نشر ما قلته له بالضبط.

أما صحيفة "معريب" كبرى الصحف الاسرائيلية فقد بزت سواها

من الصحف البورجوازية في الاثارة والنهش.. في اليوم الاول نشرت نبأ مصادرة الديوان على صفحتها الاولى.. في اليوم الثاني نشرت نبأ الاعتقال وتهمة عدم التقيد باوامر الرقابة وتهمة التحريض على التمرد .. وفي اليوم الثالث نشرت نبأ من نوع آخر .. فعلى صفحتها الثانية وبعنوان صارخ كتبت انني قررت مغادرة البلاد نهائيا.. لماذا؟ لانني - على حد زعمها - أرغب في الزواج من فتاة مسلمة من المناطق المحتلة، ولتعذر الامر في اسرائيل فقد قررت الرحيل(!)وانحدرت "معريب" الى درك أسفل حين غزلت بمنوال الطائفية، زاعمة انني اعاني من عداء الدروز والمسلمين في آن واحد ..

لم تكن هذه المرة الاولى التي اتعرض فيها لهجوم من الصحافة الرجعية - وهو امر لا يعيبني قط- ولذا لم يتعد شعوري نحو هذه الحملة الاخيرة حدود الاحتقار.. لكن شيئا اخر حدث فيما بعد ودفعني الى التعقيب على سحابة الرماد.. فقد كتب عاموس كينان، الكاتب العبري المعروف، تعليقا في صحيفة "هآرتس"، دفاعا عن حرية الفكر، ونشرته له الصحيفة بصورة "أعلان". (نشر في "الاتحاد" - الجمعة ٩ ايار).. وعلى الاثر هرعت جماعة من الشوفينيين للتحريض عليه وعلي، في محاولة مستميتة لاسكات هذا الصوت الذي انفجر فجأة ليقول: انااحتج! والذي حطم مؤامرة الصمت الذي تحاول السلطات واجهزة دعايتها فرضة على ما يحدث من اجراءات تعسفية ضد الادباء العرب في اسرائيل، والتي تشكل جزء من اجراءات القمع والارهاب المتبعة ضد العرب بشكل عام، وضد جميع مقاومي العدوان والاحتلال، والدعاة الحقيقيين للسلام القائم على العدل.

في "هآرتس" (٨ ايار ٦٩) شن احدهم ويدعى م. رام من تل ابيب، هجوما هستيريا لم يستهدف عاموس كينان وحده، بل تعداه

الي طبعا، والى الشاعرة فدوى طوقان "آكلة لحوم البشر" على حد قول "رام" هذا، الذي راح يكيل المديح للاحتلال ويعدد فضائله التي لا تحصى في المناطق المحتلة .. وبعد ان يتحداني سيادته بان اجرؤ على التصرف في " وطني الثاني" (الاتحاد السوفياتي) -كما يقول- بالشكل الذي اتصرف به هنا في اسرائيل، يختتم هجومه الخاطف بدعوة عاموس كينان الى الصمت، وافساح المجال "لمن هم افضل منه".

في ١٢ ايار نشرت الصحيفة نفسها هجوما مماثلا لموتور يدعى تسفي شيلوح (من هرتسليا)، يسخر فيه من "المناضل الشجاع عاموس كينان"، وينهال بالتقريع على المثقفين الذين "يحاولون زعزعة معنويات الشعب اليهودي في اسرائيل" ..و "زعزعة حقنا في امتلاك البلاد" .. و "تفنيد حربنا الدفاعية"، كما نجح بعض المثقفين في زعزعة ثقة الشعب الاميركي في الحرب التي فرضها عليه الفيتكونغ في فيتنام! .. بينما لا يريد الاميركيون ان يفرضوا على فيتنام نظاما استبداديا كما يحدث في تشيكوسلوفاكيا! .. وبهذا المنطق المريض يواصل هذا الموتور هجومه المحموم على الاخلاق الانسانية في ابسط اشكالها.

أما الذي كتبه يعقوب اورنشتاين في "دافار" (١٥/٥) فقد كان طرازاً آخر.

يفتتح حديثه بتصنيف "الدروز" الى جيدين وسيئين .. والسيئون "امثال كمال جنبلاط اللبناني وسميح القاسم الذي يعيش في دولة اسرائيل، يرون في اسرائيل كل الشر الموجود في الشرق الاوسط، وهم على استعداد لان يبذلوا كل ما في وسعهم لاستئصال "هذا السرطان" من منظر المنطقة. وقد ذكرت اسم سميح القاسم واسم

كمال جنبلاط على صعيد واحد، لان الاثنين، مع انهما ينشطان في بيئات مختلفة. يجمعهما طريق واحد-فكلاهما يستنزلان كل وحيهما من مصدر واحد، من موسكو. اللبناني يكتفي بميول يسارية، والاسرائيلي عضو في راكح، الذي لا حاجة بنا لتفسير نظرته الى اسرائيل وعلاقته بها. هذه الامور بسيطة للغاية، وواضحة معروفة للجميع بحيث لم اكن انوي ذكرها كما انني لم اكن لاقول ان الماء رطب والملح مالح".

ثم يشير اورنشتاين هذا الى ان عاموس كينان ارتكب خطأين شديدين من شأنهما ان يبلبلا الجمهور! .. الاول بالنسبة للرقابة والديوان والاعتقال، والثاني بالنسبة لقومية سميح القاسم.. " فهو ليس عربيا.. بل انه ليس مسلما .. فهو درزي". ويكرر القول ثانية "سميح القاسم ليس عربيا، وهو ليس-كما قلت-مسلما. واذا كان راغبا في الحرب من اجل افكار "فتح" فهذا شأنه الخاص. وهو يشن هذه الحرب ليس لانه يحس بالام شعبه، الام الشعب الدرزي، بل لانه يستمد وحيه من راكح، من موسكو".

لقد دار وما زال يدور، في اسرائيل وفي الاوساط اليهودية العالمية، حوار حول السؤال من هو اليهودي؟ وحول السؤال الاخر: هل يشكل اليهود قومية؟ ومن ثم هل يصح اعتبار الدين اساسا لتقرير القومية؟

ويبدو ان اورنشتاين هذا، من اولئك الذين يعانون من عقدة انعدام القومية، وهو يبحث عن قومية له في التعصب الديني، ويحاول-بوعي او بدون وعي- ان يفرض هذا المقياس الديني الخاطىء على العالم باسره ليبرر وضعه الخاص .. وما دام يدور في هذه الحلقة الضيقة من قصر النظر والجهل الذي قد يقود صاحبه الى

مواقع العقد الشوفينية القاتلة، فهذا شأنه الشخصي!.

واليكم هذه الحادثة ..

لعلكم تذكرون الكاتب البريطاني ارنولد ويسكر الذي زار البلاد بدعوة من وزارة الخارجية وقابلني خارج نطاق البرنامج الذي اعده له اصحاب الدعوة. في اعقاب الحديث الذي دار بيني وبين ويسكر، يبدو ان صورة اخرى تكونت لديه عن حقيقة الاوضاع الداخلية في اسرائيل (واحة الديمقراطية في الشرق الاوسط) .. وحين عاد الى لندن ارسل الى "هآرتس" رسالة يعرب فيها عن معارضته لاوامر الاعتقال والاقامة الجبرية واثبات الوجود والاعتقال المنزلي والرقابة المفروضة علي (وعلى جميع رفاقي وزملائي الشعراء والادباء العرب المقاومين للصهيونية والاضطهاد القومي).

ويبدو ان المسؤولين اغضبتهم جدا هذه الرسالة التي نشرتها "هآرتس"، واخذوا يتحينون الفرص لاقناع اولئك الذين يشككون في جدوى اجراءاتهم وانظمتهم، بان الامن رائدهم. وسلامة الجمهور سلاحهم.

على كل حال، قريبا سامثل امام المحكمة .. وانتم جميعا مدعوون للمشاهدة ولاصدار حكمكم الخاص.. وحتى ذلك الحين، وحتى اللحظة الاخيرة من عمر الطاغوت الاخير: منهم العنف ومنا العنفوان!

سموم .. بالالوان الطبيعية

ليس في المنكر ان يحب احدهم مشاهدة الافلام .. فالسينما اعظم فنون العمر على الاطلاق، الى جانب كونها اخطر اجهزة الدعاية واوسعها انتشارا واعمقها اثرا ..

لكنّ المنكر، ان يدفع ذلك الاحدهم نقوده، ثم يجد نفسه مضطرا لمغادرة صالة العرض محنقا شاتما قبل النهاية السعيدة!

حدث لي ذلك اكثر من مرة.. ورغم الايمان المغلظة بألا "أفعلها ثانية"ـ أن أذبح نقودي على اعتاب دور السينما كنت التفت الى نفسي من أسبوع لأسبوع لاجدني متلبسا "بالعملة" نفسها، امام شباك التذاكر ..

أمس الححت على صديق لي بأن يشاركني المتعة بمشاهدة فنان من ذوي الارصدة الضخمة على الشاشة البيضاء.. واسم هذا الفنان انتوني كوين..

أنه ممثل حقيقي، وليس مجرد «نجم» بارد، كسائر نجوم اميركا الذين لا يحملون من المواهب سوى الوسامة والقسامة وحسن تكوين القامة!

كان شباك التذاكر مغلقا. نفدت التذاكر جميعها .. ولم ينقذني

من الخيبة سوى غمزة من بعض خلق الله: كم تريد .. تذكرتين؟

تفضل، سبع ليرات وستون اغوره .. لا تناقش .. انت ترى انك صاحب بخت. كثيرون الذين يدفعون الثمن عن طيب خاطر!

ودفعت الثمن.. لا عن طيب خاطر، لكن خضوعا لاغراء الممثل ذي الوجه القبيح.. انتوني كوين.

اسم الفيلم "الساعة الخامسة والعشرون" وبالألوان الطبيعية الحارة .. الموسيقى جميلة جدا، والمقعد مريح جدا .. والجمهور هاديء جدا ..

تدور أحداث الفيلم في رومانيا وعدد من الدول الاوروبية .. اثناء الحرب العالمية الثانية، وتروي المشاهد المثيرة قصة رجل يعيش قرير العين مع زوجته وطفليه، ولا يفهم شيئاً عن الحرب .. ولكن شاويش القرية يحب زوجة هذا الرجل الطيب، ويظن الشاويش انه حتى ينال المحبوبة المتمردة لا بد له من ابعاد زوجها ..

وفي طرفة عين يلفي الزوج المسكين نفسه في معسكر اعتقال مع عدد كبير من اليهود، ويحاول اقناع قائد المعسكر بان خطأ ما قد وقع، وانه مسيحي مؤمن بالاقانيم الثلاثة، وليس يهوديا .. وتذهب كل محاولاته مع الريح .. وتكمل المصائب حين يبلغ بقرار زوجته الطلاق منه .. ويتورط، من حيث لا يدري، مع النازيين ..

وتنتهي الحرب بهزيمة ساحقة لزبانية هتلر .. وتبدأ محاكمة نيرنبرغ الشهيرة .. ثم يتضح ان المسكين بين المتهمين بالتعاون مع النازيين .. وتمتليء قاعة المحكمة، ويتلو محامي النيابة لائحة الاتهام الطويلة العريضة، ثم يقف محامي الدفاع ليرد التهمة عن الضحية

البريئة ..

بين الادلة التي حملها "الدفاع" رسالة كانت قد كتبتها الزوجة التي فرض عليها الطلاق، الى زوجها الذي فرض عليه ان يكون يهوديا "ونازيا" في وقت واحد!

الى هذا الحد ظلت احداث الفلم مثيرة وممتعة، وظل المقعد الذي اغوص فيه مريحا، وبلا "سابق انذار" نسمع محامي الدفاع وهو يقرأ بصوت "عاطفي ومؤثر" فقرة من رسالة الزوجة الغلبانة تقول فيها ان جنود الجيش الاحمر اسقوها الفودكا، ونزعوا عنها ثيابها، ثم ..!

وهنا ماذا تنتظرون من امرىء يعيش ببقايا اعصاب؟!

لقد تحجر كل شيء من حولي، وغامت عيناي!

اهذا هو كل ما صنعه الروس في الحرب العالمية الثانية؟ وحتى لو كانت هناك حادثة اغتصاب من هذا النوع، فهل تنسى امريكا عشرين مليون شهيد من ابناء الاتحاد السوفييتي؟ .. وهل تنسى امريكا ان اول من سقط على ابواب الرايخ الالماني كان جنديا من الجيش الاحمر؟

لا.. ان أمريكا لم تنس.. ولا يمكن ان تنسى القبضة التي حطمت جمجمة هتلر وانقذت الانسانية!

ولكن امريكا.. امريكا الراسمالية الاستعمارية.. امريكا جونسون ومكنمارا، تتناسى، وتفعل كل شيء ممكن لمقاومة الضوء النظيف .. ضوء الاشتراكية، الذي يواكب مسيرة الشمس ويغمر العالم!

وأمريكا مجرمي الحرب، ليست وحيدة في مهنة العداء للاتحاد السوفييتي والعداء للاشتراكية والتحريض عليها .. لقد وجدت لها بعض الذيول في أرض الله الواسعة .. لكن من كان يتصور ان قوما يدعون تمثيل الشعب اليهودي، يمكن ان يهينوا ضحايا هذا الشعب، بشكل قد يعجز عنه، حتى اولئك الذين فقدوا القطرة الاخيرة من ماء وجوههم؟

وجدتني اخطف نفسي من المقعد الذي كان مريحا، واغادر القاعة محنقا شاتما .. وانا الان اضع اسفي، لا على النقود التي فقدتها، بل على النفوس التي تحقنها امريكا بالسم، وتحت بصر المسؤولين في اسرائيل، وبموافقتهم التامة بلا شك!

معسكرات الابادة الفكرية

ليس عجيبا ان يصل الى الحكم في الولايات المتحدة اناس في مستوى ليندون جونسون والذي اشتهر في هذه الايام باسم ادولف جونسون .. فوصول "رعاة البقر" و "حملة المسدسات" السياسيين الى دفة واشنطن دليل قاطع على التحلل الاجتماعي والفوضى الفكرية السائدين في تلك البلاد. والصحافة الاميركية التي تمثل ارباب الحكم من سلاطين رأس المال وصنائعه، تشن على الشعب الامريكي حربا فكرية هي اشبه بحرب الافيون التي شنتها بريطانيا المتغطرسة على الصين، ايام معاناتها لمخاض الثورة الشيوعية. وتلك الصحافة ترتكب جريمة التضليل المنهجي محاولة ضمان الهدوء وفرصة العمل المريح للراسمالية وللاحتكارات .. فهي تشوه حقيقة الثورة الزنجية وتصفها بانها سلسلة من الظواهر البدائية والغوغائية، وردود فعل غرائزية يثيرها الطقس!! وهي تشوه حقيقة الثورة التحررية التي اضرمها شعب الفيتنام تحت القواعد العسكرية العدوانية، ومن حول كراسي الدمى كاو كي وشلته .. وبكل صفاقة تصف صحافة "البيت الاسود" هذه الثورة المباركة بانها حرب انتقامية تشنها عصابات فوضوية مخربة! وبكل صفاقة "تطمئن" تلك الصحافة شعب الولايات المتحدة

بان مشاة البحرية الاميركيين ذهبوا لحماية الهدوء في الدومنيكان! وبكل صفاقة تلقي تلك الصحافة ستارا من الاكاذيب حول كل حركة تحررية نظيفة في العالم.. وهي تحاول تزييف التاريخ بالشكل الذي يرضي احقادها وعقدها، فحين تتحدث مجلة "لايف" مثلا، عن العصر الذهبي في الاندلس نراها تتحدث بشكل قد تتورع عنه حتى "دافار" و "يديعوت احرونوت" وغيرها من الصحف المريضة بالصهيونية الى درجة التعقيد الانتحاري!

فمجلة "لايف" اللامعة والمزوقة لا تذكر سوى سفاراد (الاسم العبري لاسبانيا) والسفاراديم وهذا الرابي وذلك الرابي .. ولا تنشر سوى بعض الصور لاثار اليهود في الاندلس .. اما الذين جعلوا الاندلس منارة للبشرية اضاءت ثمانية قرون باكملها .. والذين نشلوا اوروبا من ظلام العصور الوسطى .. والذين شملوا اليهود تحت جناحهم واعطوهم الثقافة والطمأنينة ليسهموا في بناء الوطن المشترك .. اولئك الذين لم يبالغ المؤرخ جيبون حين قال فيهم: "لم يعرف التاريخ فاتحا ارحم من العرب" اولئك لا يستحقون كلمة من مجلة القاذورات الفكرية الاميركية! ومحررو المجلة لم يفعلوا ذلك لانهم يجهلون التاريخ بل لانهم يريدون لقرائهم ان يفهموا دائما "ان العداء بين العرب واليهود هو عداء تقليدي"!

لقد أحس الشعب الاميركي بالمؤامرة التي يحوكها حكامه ضده، ومن ورائهم اجهزة الاعلام البراقة والضخمة .. وندت عنه صيحات احتجاجية بالغة الاثر، وظهور كتب من طراز "الاميركي القبيح" و "شعب من الاغنام" دليل واضح على ان الاميركيين ما عادوا

يستسيغون كل الطعام الذي يوضع على موائدهم..

ان النظام الاميركي، ومن حوله سائر الانظمة التي تسير في فلكه، يرتكب، وترتكب معه الانظمة الذليلة التابعة، جرائم فكرية جماعية.. والوسائل الاعلامية التي تمتلكها تلك الانظمة تحول بلدانها الى معسكرات للابادة الفكرية.. لكننا نؤمن بالمقولة: من السهل تضليل افراد الى الابد، ومن السهل تضليل العالم بعض الوقت، لكنه ليس من السهل الى الابد تضليل العالم!

دولة يهودية برعاية هتلر وموسوليني؟!

شهم جدنا التاريخ.. فهو حين يجمعنا من حوله كالاطفال ليسرد علينا اخبار ايامه ومغامرات لياليه، يبوح بحلوه ومره، ويجهر بشرفه وعاره، لنتعظ ونتعلم، او لنكفر ونكابر.. وحين يحدثنا في ليالي الدمع والدم عن فضيحته في النازية الالمانية والفاشية الايطالية، تشتعل عيناه بالالم ويغيم جبينه بالخجل والمرارة..

لو كان الذي احدثكم فيه هنا شهادة من راوية غير يهودي لعذبني الشك، ولكن، لما أتت الشهادة من الكاتب اليهودي حبيب كنعان في سلسلة مقالاته التي نشرتها في مطالع ١٩٧٠ صحيفة «هآرتس» الصهيونية، فانني لا اجد سبيلا الى اتهام الشاهد باللاسامية او القدح المغرض..

تقول الشهادة، واميل الى تسميتها بلائحة الاتهام، ان احد الاركان الاساسية للحركة الصهيونية، الذي تزعمه الزعيم الصهيوني المعروف زئيف جبوتنسكي، وخلفه في زعامته ابراهام شتيرن، الذي كان يحمل الاسم التنظيمي «يئير»، وكان يقف في طليعة منظمة ايتسل (ارغون تسفئي ليئومي) اي المنظمة العسكرية القومية ـ هذا الركن

المهيوني، فكر وعمل باتجاه التعاون مع النازية الالمانية والفاشية الايطالية في سبيل اقامة الدولة اليهودية في فلسطين..

تبدأ هذه الرواية الساخرة الى درجة القرف، مع اعلان بريطانيا الحرب على المانيا الفوهرر النازي هتلر.. فالقائد العسكري العام لمنظمة الايتسل يصدر توجيهاته الى زملائه بالكف عن ازعاج الانتداب البريطاني، واكثر من ذلك، يدعوهم الى التجند والاسهام في المجهود الحربي البريطاني. في الوقت نفسه يمارس الزعماء الصهيونيون ضغوطهم على البريطانيين لاطلاق سراح المعتقلين اليهود، وتستجيب السلطات الانتدابية، وتأخذ في اطلاق سراحهم بالفعل ... ومن ثم يفتح الجيش البريطاني صفوفه لتستقبل اليهود وتدربهم على القتال.

هذا التطور لم يعجب شتيرن المذكور، فقد ساورته الشكوك بان انتصار بريطانيا في الحرب قد يقضي على حلم اليهود بالاستقلال في فلسطين .. ويوجه نقدا حادا الى جبوتنسكي، لان الحكمة - في رأي شتيرن - تقتضي عدم التحيز لاي من الطرفين الا مقابل وعود واضحة. وفوق ذلك فقد ارتأى شتيرن ان يجس النبض لدى دول المحور، واجراء الاتصالات معها لمعرفة موقفها من المطالب القومية اليهودية في فلسطين. ومما شجع هذه الفكرة عند شتيرن الاتفاقية التي كان قد تم التوصل اليها بين الرايخ النازي والوكالة اليهودية، وتنص تلك الاتفاقية على السماح بنقل الممتلكات اليهودية في المانيا الى فلسطين.

وتتخذ الفكرة أبعاداً اكبر في ذهن القائد الصهيوني ابراهام

شتيرن (يئير)، فيرى من القابل للتحقيق ان تقوم المانيا النازية وايطاليا الفاشية بارسال مئات الألأف من الشبان اليهود المسلحين الى فلسطين لمحاربة الانكليز.. كما فكر ايضا في امكانية تشكيل كتائب عسكرية يهودية لمساعدة قوات المحور في شمال افريقيا، والتي كانت تستعد لغزو مصر..

كان الى جانب شتيرن في قيادة ايتسل، شخص يدعى دافيد رزيئيل.. وكان في رأي رزيئيل، ان هناك تماثلا في المصالح البريطانية واليهودية، لان العرب يكرهون البريطانيين واليهود سواء بسواء وموقف رزيئيل هذا أدى الى اطلاق سراحه من السجن مع فرض اثبات الوجود عليه في مركز الشرطة البريطانية.. واكثر من ذلك توثقت العلاقات بين رزيئيل وزملائه من جهة والبريطانيين من جهة اخرى الى درجة الاتفاق على التعاون بين قلمي الاستخبارات التابعين للطرفين. هذا الموقف اثار حفيظة شتيرن على رزيئيل، وأدى في نهاية الامر الى انشقاق جماعة شتيرن عن الايتسل. وقد اطلقوا على انفسهم اسم "المنظمة العسكرية القومية في اسرائيل" .. وبعد موت شتيرن اصبح اسم هذه المنظمة "ليحى" (لوحمى حيروت يسرائيل)، اي "المحاربون لحرية اسرائيل".

وتؤكد الوثائق المتبقية من تلك الفترة، والتي استندت اليها ابحاث "هآرتس" في هذا الموضوع، تؤكد ان الاتصالات بدأت مع جواسيس الدوتشي الايطالي موسوليني، وكان الوسيط شخص يهودي يعمل مع استخبارات "ليحي"، واتضح فيما بعد انه كان جاسوسا لمصلحة الاستخبارات البريطانية..

في معهد جبوتنسكي، في تل ابيب، يحتفظون بمسودة الاتفاقية التي تم التوصل اليها بين الجانبين في سبتمبر ١٩٤٠ .. ويشار الى الجانب الايطالي بالحرف "أ"، والى الجانب اليهودي بالحرف "ب" .. وبموجب الاتفاقية يلتزم الطرف "أ" بتقديم كل المساعدات التي يستطيعها الى الطرف "ب" في سبيل اقامة دولة له في " الحدود التاريخية" لارض اسرائيل (!) ويلتزم الطرف "ب" بان يكون النظام الذي يشكله في هذه الدولة العتيدة مماثلا للنظام في دولة الطرف "أ" (أي النظام الفاشي).. كما يلتزم الطرف "ب" بجعل حيفا قاعدة عسكرية جوية وبحرية للطرف "أ" .. وتنص الاتفاقية على امور اخرى كثيرة من اهمها اجراء "نقليات" (ترانسفير) في السكان، بحيث يصبح اليهود في الدولة (ضمن الحدود التاريخية!) اكثرية ساحقة تبلغ ٨٠٪ على الاقل !!

اما القدس، فتصبح - باستثناء الاماكن المقدسة لليهود- تابعة للكنيسة بشرط ان يضمن الطرف "أ" موافقة الكنيسة على قيام الدولة العبرية.. وتنص الاتفاقية ايضا على ان جميع المؤسسات والمنشآت الاقتصادية تكون تابعة للدولة العبرية باستثناء المشروعات التي لا يعثر على شركات يهودية تستطيع تنفيذها.

الرجل الصامت

ورد آنفا ان الشخص الذي قام بدور الرسول بين شتيرن والفاشيين الايطاليين كان يهوديا.. ولكن اسم الشخص وشهادته عن هذه البضعة المرة من التاريخ الشهم الصريح، ما زال سرا قد يزاح عنه الغبار عام ٢٠٥٠ (!).

لماذا في عام ٢٠٥٠؟.. لان الرجل نفسه يلتزم الصمت ويرفض البوح بتفاصيل دوره المثير لاعتقاده بانه لا يجوز "تحطيم الاساطير" المنسوجة حول المنظات اليهودية في فلسطين ورجالاتها، لان ذلك من شانه ان يلحق الضرر بمعنويات الشبيبة.. وفي عام ٢٠٥٠ فقط تستطيع اسرائيل الاستغناء عن هالات المجد المحيطة بروؤس شتيرن وصحبه.. ويرى «الرجل الصامت» ايضا ان الجهر بالحقيقة كلها قد يؤثر على علاقات اسرائيل ببعض الدول الصديقة لها اليوم(!).

يلين مور في الصورة..

لعل الكثيرين من القراء عرفوا ناتان يلين مور او سمعوا به فهو من قادة ليحى البارزين، واليوم اشتهر بنشاطاته السياسية والاجتماعية المعارضة للحكومة، لسبب او لاخر!.. ويتضح من الوثائق المذكورة انه احتل مكانا ما من صورة المخطط الصهيونى للاتصال بدول المحور..

فبعد الاتفاق الذي اشرنا اليه، والذي كانت بيروت مركزا للاتصالات بشانه، كان من المفروض ان يسافر احد رجال ليحي الى اوروبا لاجراء اتصالات اخرى، مع دول المحور والحكومات الجديدة التي انضمت اليها (حكومة فيشى في فرنسا)، وللعمل بين الشبيبة اليهودية في دول اوروبا، وفي دول البلقان قبل كل شيء، لحضّها على الهجرة غير المشروعة الى فلسطين ولتنمية الروح القومية في صفوفها..

لكن الرجل الذي اسندت اليه هذه المهمة وقع في قبضة البريطانيين فما كان من شتيرن الا ان سارع الى اسناد المهمة الى يلين مور، غير ان يلين مور لم يكد يصل مدينة حلب حتى استدعاه شتيرن ليوكل اليه مركزا قياديا في ليحى، في مجال الدعاية والاعلام.. في هذه الاثناء، وقبل ان يتمكن يلين مور من العودة ألقي عليه القبض في "باب الهوا" على مقربة من حلب واقتاده البريطانيون الى معتقل المزرعة في فلسطين..

بعد فترة قصيرة من الوقت، أطلق ضابط شرطة بريطاني رصاصة من مسدسه اخترقت صدر ابراهام شتيرن المختبىء في غرفة صغيرة على احد سطوح تل ابيب..

وزعزع مصرع شتيرن صفوف ليحى، وفي غمرة الصدمة العنيفة تعطلت الاتصالات مع دول المحور.

وتومض عينا جدنا التاريخ .. بالالم والمرارة .. وفي وميض عينيه تتبدد الهالة المحيطة بالاساطير ..

مجزرة دير ياسين

بين الاخلاق والتكتيك العسكري

منذ النكبة، وعلى امتداد اكثر من ربع قرن، عانى الشعب العربي الفلسطيني الوانا من الكوارث .. ويوما بعد يوم اشتدت مأساته عمقا واتسعت ابعادا. لكن جميع الضربات المتتالية التي نزلت على جسم هذا الشعب وكرامته لم تستطع ان تطمس اسما لا يمر بشفة ولا يسقط على سمع الا وترتعش الابدان وتنقبض المشاعر .. انه الاسم الفاجع "دير ياسين". دير ياسين، اول قرية عربية نكبت بالاحتلال الدموي في ربيع ١٩٤٨ (٩ نيسان)، واصبحت رمزا لمأساة الشعب العربي الفلسطيني ورمزا لقسوة الصهيونية ومرارة الكراهية. دير ياسين! الم فلسطيني، على العالم الا ينساه. ألم في في طريق الآلام نحو جلجلة العصر .. الم نعيشه مع غيرنيكا الاسبانية، ليدتس التشيكية، ومع سونغ مي وماى لاى الفيتناميتين!

أكثر من ربع قرن مر على تلك المجزرة الرهيبة، لكنها ما زالت تطفو على السطح لتبعث الالم ولتجدد الحوار، ثم تعود لتستقر في

اعماق تكويننا النفسي.

ما زال مرتكبو الجريمة يحاولون اقناع انفسهم بطهارة ايديهم، واقناع العالم ببراءة فعلتهم .. والشعب الضحية ما زال يجدد الولاء لقضيته ويرفع صوته مطالبا بحقه المشروع في الحياة الآمنة في وطنه..

في الثلاثين من آب ١٩٦٨، وفي الملحق الاسبوعي لصحيفة "هآرتس" كتب اورى ميلشتاين مقالا ضافيا حول "عملية" دير ياسين، عرض فيه اكثر من وجهة نظر بالنسبة للمجزرة. ورغم ان المقال بشكل عام يعتبر دفاعا عن مرتكبي الجريمة فان القارىء يستطيع اكتشاف الحقائق من فقرات وتفصيلات موزعه بين صفحات المقال الاربع..

منذ مطلع مقاله، يعترف الكاتب بان قضية دير ياسين "كانت نقطة تحول في العلاقات بين اليهود والعرب".

ومن ثم يصف ميلشتاين الوضع السياسي والعسكري في البلاد في ذلك الوقت فيقول ان قرار التقسيم الذي يجعل من القدس مدينة دولية قوبل بمعارضة المنظمتين الارهابيتين "ايتسل" (ارغون تسفأى لئومي - المنظمة العسكرية القومية) و"ليحي" (لوحمى حيروت يسرائيل - المحاربون لحرية اسرائيل)..

ولذا فان هاتين المنظمتين قررتا العمل في القدس ومنطقتها بشكل منفرد رغم انهما وافقتا على الاندماج مع منظمة الهجاناة (الدفاع) في انحاء البلاد الاخرى.

كان قائد الهجاناة في القدس يدعى دافيد شلتيئيل "وكان يعتبر نفسه القائد الوحيد الذي يتمتع بالصلاحية" .. ولكن جماعة "ايتسل"

و"ليحي" رفضوا الاعتراف بشلتيئيل قائدا عسكريا، ورأوا فيه ممثلا شخصيا لدافيد بن غوريون، تتلخص مهمته في القضاء عليهم وفي المحافظة على الا تخرج المعركة عن الاطار الذي تم تصميمه في اللقاء بين غولدة مئير والملك عبد الله.

في هذه الظروف نشطت منظمتا "ايتسل" و "ليحى" فقامتا بعدة عمليات تخريبية في شعفاط والشيخ بدر وفي سائر تجمعات السكان العرب، واتخذت هذه العمليات، كما يوحي المقال، طابع الهجوم المسلح على الاماكن العامة وقتل المدنيين بالجملة، ونسف المنازل على اصحابها في ساعات الليل!

ويقول كاتب المقال: "محاربو ليحي، بقيادة درور ويوعد (فتحيا زليبنسكي) طهروا الشيخ بدر (المكان الذي تقوم عليه الكنيست اليوم)، وروميما ولفتا. وقد فعلوا ذلك بواسطة النسف الليلي للمنازل العربية والهجومات المفاجئة على مراكز "المشاغبين" (الضحايا في لغتهم تعني المشاغبين!).

وقد وصف تقرير وضعه رجال الهجاناه عمليات العصابتين المذكورتين بقوله: "لقد ارتكبوا (جماعة "ليحي") عمليات سطو وابتزاز اموال من الاثرياء".

وفي ٢٩ شباط ١٩٤٨ "سرقوا اموالا من خزينة البلدية وفي اليوم نفسه سرقوا سيارة محملة بالخنازير وابتزوا الف ليرة من التجار، اصحابها" .. "وسرقة السيارات كانت عملية يومية" .. ورجال "ايتسل" ايضا -يضيف التقرير- اخذوا نصيبهم من هذه العمليات.

لكن هذا "العداء" بين الهجاناة من جهة وبين "ايتسل" و"ليحي"

من جهة اخرى لم يكن عميقا، وقد دار حول الاسلوب دون المبدأ، لذا فقد اتصل شلتيئيل اكثر من مرة بقائد "ايتسل" مردخاي كاوفمن (صاحب الاسم المستعار: رعنان) واتصل ايضا بقائد جماعة "ليحي" يهوشع زطلر، في محاولات متكررة لاستيعاب المنظمتين كل على حدة او لضربهما الواحدة بالاخرى، ليخلو المجال لمنظمة الهجاناة .. وفشلت جهود شلتيئيل ولكن هذا لم يمنعه من التقرب الى قادة المنظمتين حتى في ذروة عملية دير ياسين رغم ان الهجاناة حاولت فيما بعد الظهور بمظهر البرىء والمستنكر للجريمة.

المجزرة

احدى محطات الوقود في نتانيا يملكها اليوم رجل يدعى فتحيا زليبنسكي. في عام ١٩٤٨ كان يدعى "يوعد" وقد اضطر للتخفي وراء هذا الاسم لانه كان من قادة منظمة "ايتسل" في ذلك الوقت. و"يوعد" او "زليبنسكي" هذا كان قائد قوة "ايتسل" في عملية دير ياسين. اما قائد القوة الثانية التي اشتركت في العملية، وهي من جماعة "ليحي" فقد كان يدعى في حينه "غيورا" اما اليوم فلم يعد بحاجة الى اخفاء اسمه الحقيقي "بن صيون كوهين"..

ولماذا وقع اختيار الارهابيين على قرية دير ياسين التي يقطنها ٥٠٠ عربي، دون سواها؟

تقع القرية المنكوبة على تلة ترتفع ٨٠٠ متر عن سطح البحر (غربي القدس)، وتشرف على عدة طرق ومستوطنات، الامر الذي يمنحها اهمية استراتيجية كبيرة، وقد لفت موقعها هذا انظار

الارهابيين بشكل خاص .. ولكن الهدفين الاساسيين من العملية كانا:

١- "تطهير" المنطقة، التي يسكنها كثيرون من اليهود، من السكان العرب.

٢- "رفع معنويات" المستوطنين اليهود في القدس وضواحيها.

وكان هناك سببان عسكريان آخران، اولهما ان دير ياسين كانت نقطة هامة لحماية القسطل ومحطة في طريق الامدادات العربية، واتضح هذا الامر فيما بعد فبعد سقوط دير ياسين بايام سقطت "القسطل" ..

والسبب الآخر انه كان يجري اعداد مطار على مقربة من القرية لذا فقد سارع الارهابيون الى ضربها.

وبدأ الاعداد لعملية الغزو الدامية ..

وضعت الخطة التي تقضي بان تتحرك قوتان تابعتان لايتسل وليحي، باتجاه دير ياسين من الجنوب ومن الشمال لاحتلالها بعملية تشبه عملية "إطباق الملقط" ..

وحسب الاتفاق بين المنظمتين فقد تقرر ان يتم التزويد بالسلاح من قبل جماعة "ايتسل" التي تمتلك مصنعا للرشاشات الصغيرة من طراز "ستينغن"، اما جماعة ليحي فقد التزمت باعداد المتفجرات الضرورية للعملية.

موقف الهجاناه

قلنا ان الهجاناه حاولت بشدة ان تتنصل من جريمة دير ياسين، لكن الوثائق التي افتضح امرها فيما بعد اكدت المشاركة النظرية

والعملية لهذه المنظمة في المجزرة التي هزت الرأى العام الانساني ..
فقد جاء في رسالة بعث بها شلتيئيل الى احد قادة العملية:

"علمنا أنكم تنوون القيام بعملية ضد دير ياسين. وبودي ان الفت انتباهكم الى حقيقة كون احتلال دير ياسين والسيطرة عليها جزء من مخططنا العام".

أنكرت قيادة الهجاناة وجود هذه الرسالة، لكن كاتب المقال يؤكد انه رأى نسخة عنها في ملفات الهجاناه نفسها!!

تقرر ان تبدأ عملية الغزو في ساعات الفجر .. وفي ساعات المساء السابق كان ٧٢ من رجال ايتسل و٦٠ من رجال ليحى قد استكملوا جميع استعداداتهم، وتقرر ان تكون الساعة الرابعة والنصف صباحا هي ساعة الصفر..

تقدمت القوتان نحو دير ياسين، وعندما اصبحتا على بعد حوالي ٤٠ مترا من منازلها الاولى أحسّ الحراس العرب بحركة غريبة، وانطلق الرصاص، وبدأت المعركة ..

وهنا يؤكد الكاتب، وذلك في سبيل أن يصور المذبحة قتالا عنيفا وجها لوجه، ان المهاجمين واجهوا "مقاومة عنيدة واضطررنا الى محاربة العرب وجها لوجه".

لكنه يعترف بالحقيقة او بعضها حين يكتب ان المهاجمين اسروا عددا من النساء العربيات وأجبروهن على نقل الجرحى مما ادى الى اصابة عدد من هؤلاء النساء ..

ويكتمل الاعتراف بعض الشيء حين يكتب: "اضطررنا الى السيطرة على كل منزل على حدة بواسطة القاء القنابل الى داخله واطلاق نيران الرشاشات. وهكذا قتلت اثناء المعركة عائلات عديدة بينها النساء والاولاد".

امتدت المعركة الى ساعات الظهر .. ووصلت الى الغزاة امدادات من .. الهجاناة! وأخذوا ينسفون البيوت على اصحابها بعبوات من المتفجرات يبلغ وزن الواحدة منها ٢٠ كغم .. ويقول رعنان في وصف العملية: "على الاغلب، كان المنزل ينهدم على ساكنيه. وبين الانقاض شاهدنا الجثث الممزقة.

بعد ان نسفوا ١٥ بيتا، ضعفت المقاومة، وقرروا تقليص عمليات النسف "للتوفير في المتفجرات الغالية" .. ومن ثم .. " للكف عن اصابة النساء والاولاد" (!)

وسقطت منازل القرية في ايدى المحتلين .. وصمد هذا المنزل ، ولم يتمكنوا من اخماد مقاومة المعتصمين فيه الا بقذائف الهاون التي حملتها اليهم جماعة "بلماخ".

في الساعة الثانية عشرة ظهرا تم احتلال القرية كلها .. وهرع الى المكان قائد الهجاناه شلتيئيل وطلب مقابلة رعنان ..

وتم الاتفاق فيما بعد على ان تخرج قوتا ايتسل وليحى من القرية الانقاض لتحتل مكانها قوة من الهجاناة .. وحين وصلت هذه القوة تكلم قائدها في رجاله:

"لقد أتينا لنأخذ هذا المكان من ايدى المنشقين (جماعة ايتسل وليحى). في عملية احتلال القرية اظهروا وجههم الحقيقى وبرهنوا على انهم قتلة بكل معنى الكلمة. لقد الحقوا العار بالشعب اليهودي في البلاد وفي العالم".

واصدرت الهجاناة منشورا فيما بعد عبرت فيه عن "مشاعر القرف والاشمئزاز من الطابع البربرى الذى نفذت به هذه العملية" ..

هذا ما أعلنه قادة الهجاناه على الملأ، لكن موقفهم الحقيقي يظهر بوضوح في المعلومات التى يعلنها كاتب المقال، الذى يحاول الدفاع

عن جماعة ايتسل وليحى وفي الوقت نفسه يؤكد اشتراك الهجاناة في العملية ..

شاءت الهجاناة أن تستغل هذه العملية للدعاية لنفسها ومن الامور التى فضحتها، قضية معاملة اسرى دير ياسين.. فقد قرر الغزاة ان يسوقوا الاسرى في شوارع الاحياء اليهودية من القدس جريا على عادة الرومان في "مواكب النصر" .. مستهدفين اذلال الاسرى من جهة واثارة المشاعر القومية العدوانية لدى جماهير المحرضين ..

أكثر من ٢٥٠ من رجال ونساء واطفال القرية ذبحوا في منازلهم .. ورفض القتلة دفنهم ..

"كان ذلك النهار حارا بشكل خاص .. ريح غربية حملت نحو القدس رائحة الجثث المحروقة والموت. وانتشرت فى المدينة اشاعات عن مجزرة حلت بسكان دير ياسين".

«لا اشعر بأي اسف»

دير ياسين .. ابدا تتمرد على النسيان .. ابدا تنغل ذكراها نمالا على الجرح المفتوح، توجع وتكرز. ومن حين لحين نعود فنسمع شهادات اخرى من شهود آخرين .. وتبقى الحقيقة الاساسية: تعددت الشهادات والعار واحد !

في ٤ نيسان ١٩٧٢ نشرت "يديعوت احرونوت" مقابلة مع مردخاي رعنان (قائد وحدة الايتسل فى المجزرة)، ولخصت مجلة الغد تلك المقابلة التي كرر فيها رعنان اعترافاته:

" ... كل ربع ساعة تقريبا نسفنا بيتا. ولم يكن عندنا فكرة عن الموجود فى البيوت. لقد نظرنا الى كل بيت وكأنه متراس معزز.

عندما وصلنا احد البيوت حذرنا الموجودين فيه باننا سننسفه ... وهم اذ شاهدوا ما جرى لسكان البيوت السابقة خرجوا نحونا رافعين ايديهم ... كانوا تسعة بينهم امراة وولد. الشاب الذى كان حاملا "البرين" معنا كبس على الزناد حتى النهاية. وزخة الرصاص اصابت العرب.

... اذ رأى سكان البيوت الباقية ما جرى .. رفضوا التسليم. فلم يبق امامنا مناص. نسفنا البيوت على سكانها.

... جمعنا (بعد انتهاء العملية) اهل القرية الذين لم يصابوا وقلنا لهم: بامكانكم الاختيار ... اما الذهاب الى عين كارم، (قرية عربية من ضواحى القدس)، او ناخذكم الى بوابة مندلباوم (التي منها يصلون الى القدس القديمة التى كانت تحت سيطرة الجيش الاردني - الكاتب).

لكن قائد الليحى-زطلر- قال في نفس المقابلة (يديعوت ٤-٤-٧٢): الذين بقوا احياء فى نهاية العملية ... حملناهم على سيارات شحن وبعثناهم الى بوابة مندلباوم".

وأما شاهد العيان-مئير بعيل الجنرال فى الاحتياطى اليوم - فقال: "لقد اخرجوا خمسة وعشرين رجلا من البيوت وحملوهم على سيارة شحن وطافوا بهم "طوفة انتصار" فى احياء محنى يهودا وزخرون يوسف. وفى نهاية الجولة احضروهم الى محجر بين دير ياسين وجبعات شاؤول وقتلوهم بدم بارد. اما من بقى حيا من النساء فقد حملوهن على سيارة شحن واخذوهن الى بوابة مندلباوم".

هكذا تمت العملية-المجزرة. واما مرتكبوها، فلا يشعرون حتى اليوم باى اسف لما جرى، بل يفاخرون!! ففى المقابلة الانفة الذكر (يديعوت احرونوت ٤-٤-٧٢) قال احدهم: "اليوم بعد اربع وعشرين سنة على العملية، لا اشعر باى اسف على ما جرى"!

ويكمل .. " لقد أحدثت عملية دير ياسين انعطافا فى معارك ١٩٤٨. لقد انزلت بالعرب خوفا مميتا، وحطمت معنوياتهم. وسهلت احتلال طبريا وحيفا وعشرات القرى العربية التي هرب اكثرية سكانها".

أما حصاد الدم فى مجزرة دير ياسين فكان ٢٥٤ ضحية (باعتراف المصادر الاسرائيلية).

لا يشعر بأي أسف .. وانه لشاهد آخر من اهله.

اما دير ياسين، فستبقى حية نازفة، كما هى ابدا..

ابدا تتمرد على النسيان. ابدا تتغل ذكراها، نمالا عن الجرح المفغور .. توجع وتكرز!

من احلام بن غوريون الرهيبة!

الدكتور ميخائيل بار - زوهر، واحد من المع المؤرخين الاسرائيليين واكثرهم اطلاعا على الاسرار الخطيرة المطبوخة فى الادوار العليا من مستودعات الحكام الاسرائيليين.

وكان بار - زوهر من اقرب المقربين الى دافيد بن غوريون - "الملك دافيد"، أبرز القادة المتنفذين الاوائل فى الحركة الصهيونية واشدهم جشعا للمزيد من الارض العربية.

صحيح ان كافة المشاريع التوسعية لقادة اسرائيل والحركة الصهيونية محكوم عليها بالفشل التاريخي، لكنه من الاهمية بمكان ان يطلع الانسان العربي، والانسان عامة، على بعض الاحلام الرهيبة التي دومت فى جمجمة بن غوريون.

لقد سجل بن غوريون مذكراته ونشرها على الملأ، غير ان صفحات منها نشرت منفردة فى بعض الصحف الاسرائيلية. وفيما يلي اقدم لكم خلاصة مثيرة من تلك الصفحات، كان قد نشرها الدكتور بار-زوهر العليم بالامور، فى نوفمبر ١٩٦٦.

غب اعلان الاستقلال تسلم بن غوريون مقاليد رئاسة حكومة اسرائيل .. كان الفرح يغمر اسرائيل، الشبان والشابات يرقصون

ويغنون في الشوارع .. اما هو -بن غوريون- فقد كان مغموما .. انه لا يفكر في الحكم ولا فى شؤون الدولة .. ان ذهنه كله مركز في العمليات العسكرية.

ويدور بينه وبين زلمان شزار (رئيس الدولة السابق) نقاش مقتضب ينهيه بن غوريون بقوله: " ان حكمة اسرائيل الان ليست في الخلاص بل في الحرب!".

مصر .. آشور .. وأرام (!!!)

في الرابع والعشرين من ايار .. اى بعد اعلان الدولة بعشرة ايام كتب الشيخ فى مفكرته: "اقترحت ان نستعد.. وان ننتقل فورا الى الهجوم مستهدفين ضرب لبنان وشرقى الاردن وسوريا. يجب علينا ان نصمد فى النقب، والبرنامج لهذا الاسبوع: تحرير اورشليم واحتلال منطقتها. ولاجل ذلك يجب اضافة قوات، وخاصة السلاح الثقيل، فمن المفترض ان يرسلوا امدادات كبيرة الى اورشليم. فالمعركة على اورشليم هي مركزية من الناحية المعنوية والسياسية والعسكرية، الى مدى بعيد. من واجبنا ان ننظم سلسلة من الكتائب الجديدة وان نعزز القديمة، وان ننشىء كتيبة من رجال منظمة "كرياتى" بقيادة لرر (صدوق). مع تسلم المدافع .. يجب هدم اللد والرملة حالا، ويجب تنظيم كتيبة "ايلية" فى الحال لتتوجه ضد جنين اعدادا للهجوم على وادي الاردن.

يجب ان ترسل امدادات الى "ماكليف" (اصبح فيما بعد رئيسا لاركان الجيش - س. أ) ومهمته هي احتلال لبنان الجنوبي بمساعدة قصف صور وصيدا وبيروت من الجو. ويتم قصف بيروت من البحر

كذلك.

نلقي على عاتق "يغال" ضرب سوريا من الشمال ومن الشرق، على سلاحنا الجوي ان يقصف ويهدم الحلقة الضعيفة في الائتلاف العربي، وهي لبنان.

ان حكم المسلمين اصطناعي ومن السهل زعزعته. يجب اقامة دولة مسيحية يكون حدها الجنوبي نهر الليطاني نعقد معها حلفا. عندما نكسر قوة لبنان ونقصف عمان فاننا نقضي بذلك على شرقي الاردن، وعندها تسقط سوريا. واذا جرؤت مصر على متابعة الحرب فاننا نقصف آنذاك بور سعيد والاسكندرية والقاهرة.

وهكذا ننهي الحرب ونصفي حساب أجدادنا مع مصر وآشور وأرام.

بعد ايام قليلة، وفي الحادى عشر من حزيران سنة ١٩٤٨ اضاف الشيخ فى مفكرته: "فى رايى ان هناك ثلاث جبهات (بخط عام) من ناحية العدو الجغرافية: جبهة اورشليم واواسط البلاد (بما فى ذلك المثلث)، وفى هذه الجبهة واجبنا هو تدمير الجيش الاردني واحتلال المثلث. وجبهة الجنوب التي تضم النقب، وجبهة الجليل الى تضم حيفا. العدو الاساسى فى الجليل هو لبنان وسوريا" ومن ناحية اخرى -القنيطرة ودمشق. فى الجنوب نقف فى الاساس بوجه مصر، حتى يحين دورها بعد ان نكسر قوة الجيش الاردني ونخرج لبنان من اللعبة".

(الى هذا الحد من الحقد الاسود بلغت هستيريا بن غوريون الدموية .. ولكن يبدو ان تصفية حساب اجداده مع مصر وآشور وارام كانت عملا صعبا للغاية فى بعض الاحيان .. فاحلامه باحتلال القدس القديمة وجدت مقاومة عنيفة وفشلت عدة هجمات شنتها قواته، فقرر الاقلاع عن فكرة احتلال القدس مباشرة مفضلا احتلال المنطقة التى

تمل القدس الجديدة بجبل الزيتون، وهذه الفكرة كذلك باءت بالفشل-س.أ)

قدم الشيخ للقيادة فكرة مثيرة: احتلال اللطرون، الزحف نحو مصب الاردن فى البحر الميت من جهة رام الله، احتلال "جيب الخليل" الذى يضم مدينة "الخليل" ومدينة بيت لحم، وتلك المنطقة يسكنها حوالى مائة الف عربى. وقد كتب الشيخ الى احد اصدقائه يقول له: "فكرتى كانت، ان تصبح جميع الطرق المؤدية الى اورشليم فى ايدينا، ونوافق على فرض رقابة دولية على اورشليم القديمة ولكن بدون ان يكون في كل تلك المنطقة حكم عربى. وافترضت-بدون تأكد تام ولكن بوضوح كاف- ان أكثرية عرب اورشليم وبيت لحم والخليل سيهربون .. فنسيطر نحن على عرض البلاد بكامله وكل البحر الميت من جهة الغرب يصبح في ايدينا".

(في تلك الاثناء كان قد تم التوقيع على اتفاقية هدنة، واصبح اى نشاط عسكرى يقتضي "تبريرا" .. وحدث أنذاك ما يتكرر اليوم وما تكرر فى سنة ١٩٥٦ .. وهكذا كان، ففى تلك الايام ولدت فكرة "الرد على الاعمال التخريبية"-س.أ).

لكن، ماذا بشان ذريعة للبدء بالمعارك اثناء الهدنة، ذريعة كهذه تم العثور عليها. فى تلك الايام فجر الجيش الاردني مضخة في انبوب مياه القدس، مما يناقض اتفاقية الهدنة. لم تكن الكارثة كبيرة، لانه كان قد تم في الخفاء مد انبوب أخر. ولكن على ضوْ هذا الاخلال بالاتفاق -فقد وجدت ذريعة عملية للجيش الاسرائيلي للبدء في العمل.

قدم بن غوريون اقتراحه الى الحكومة ولكن اغلبية الوزراء عارضته ما عدا وزراء "اليسار" (الاقواس من المعلق) .. ووزيرين

متدينين. وكان خوف المعارضين كبيرا، من رد الفعل العالمي على اية عملية عسكرية اثناء الهدنة.

وفي مذكراته كتب بن غوريون يصف عدم تنفيذ خطته بانه "مبكى للاجيال".

مع .. وضد

إستفاد الشيخ من فشله عندما عارضته الاكثرية من وزراء حكومته .. وقرر ان يحترس من وضع مماثل في المستقبل، فدعا وزراء حزبه الى بيته في شارع "شديروت كيرن كييمت" وفي ساعات الصباح من اليوم الخامس من شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٨ بدأوا يتوافدون واحدا تلو الآخر .. وعندما عرض عليهم افكاره ابدوا ترددا كبيرا. كذلك فقد عارضه يغآل يدين قائلا ان هجوما اسرائيليا على مصر سيطلق الشرارة التى تشعل من جديد جميع الجبهات وتؤدي الى هجوم عام من جميع الجيوش العربية على اسرائيل.

أما الشيخ فانه لا يؤمن بالتضامن العربي، وهو مقتنع بان الاستراتيجيا التي خططها في بداية الحرب -القضاء على الاعداء واحدا تلو الأخر- ممكنة التطبيق.

أيد بعض الوزراء وعارض آخرون .. ومن المعارضين كان الوزير "ريمز" الذى قال: "حتى الان صمدنا باعجوبة. ومن غير الممكن ان نؤمن دائما بالعجائب".

لكن تأييد الاكثرية كان مضمونا. شاؤول ابيغور وليفى اشكول، اللذان أشتركا في الجلسة، انضما الى موقف بن غوريون.

وبدأ البحث عن ذريعة .. ومن جديد اطلت فكرة "العمليات

التأديبية" .. مصر تمنع وصول قوافل الامدادات الى النقب: هذه حجة جدية لتجديد المعارك. وهكذا كان..

وعرف بن غوريون ان الوقت لا يجرى لمصلحته لذلك فقد حضّ قادة الجيش على الاسراع في العمليات.

مخاوف يغآل يدين تبددت ..فقد علم الاسرائيليون ان اوامر مشددة بعدم التدخل فى المعارك صدرت للجيش الأردني.

وتقدم الجيش الاسرائيلي نحو الجنوب. وسقطت بئر السبع ومناطق اخرى .. وفي تل ابيب تجمهر المصلون حول بيت بن غوريون وهم ينشدون اغاني التوراة. واخرجوه من بيته، وتوجوه "ملكا لاسرائيل".

في ٣٠ تشرين الاول ١٩٤٨ سجل بن غوريون فى مفكرته: "الان وبعد ان نعرف على وجه التقريب رد الفعل العالمي (وهذا يقتضى يومين او ثلاثة ايام) يجب ان نبدأ في المثلث: الضغط على جنين وطوباس وطولكرم. واذا وصلنا الى نابلس فلا شك في ان رام الله ستسقط. طلبت من روبين (شيلوح) ان يرسل تلغرافا الى ايبن حول ما حدث وان يطلب منه تقديرا للموقف فى باريس".

وجاء تقدير الموقف يقول: "هجوم على الفالوجة -نعم .. هجوم على المثلث- لا".

يبدو ان بريطانيا لن تسمح بالهجوم على الجبهة الاردنية، ومن المبادىء المقدسة عند بن غوريون كان مبدأ عدم التصادم مع الجيش البريطاني.

في الوقت نفسه، واثناء الهجوم على الفالوجة كان ديان يجرى محادثات السلام السرية مع عبد الله التل قائد منطقة القدس ومع الملك عبد الله نفسه.

على ضوء هذه الاوضاع قرر بن غوريون تجميد مشروع الهجوم

على المثلث (المقصود هنا هو المثلث الكبير - س.أ).

بعد انتهاء الحرب استمر بن غوريون في احلامه التوسعية .. لكنه استطاع ان يحقق كثيرا من هذه الاحلام بدون حرب، فقد تقدم الجيش الاسرائيلي واحتل ايلات بدون اية طلقة .. وكذلك تم اتفاق في معسكر اردني في الشونة بموجبه يترك الجيش الاردني وادي عارة بعد ان يخرج العراقيين منه. وفي اتفاقية رودس تم تضمين هذه الاتفاقيات السرية بين الاردن واسرائيل.

(بعد ان تم تسليم المثلث لاسرائيل جاء موظف اسرائيلي كبير الى بن غوريون واقترح عليه ذبح سكان .. "قرية كبيرة في المثلث".. حتى يهرب سكان القرى الاخرى ويتم التخلص من عزب المنطقة .. لكن بن غوريون رفض هذه الفكرة لاسباب لم يعلنها).

بعد ان توقفت العمليات العسكرية زار بن غوريون عدد من الكتاب ورجال الفكر الاسرائيليين.

في ذلك الاجتماع قال بن غوريون: "لقد حررنا مساحة اكبر مما توقعنا. لدينا الان عمل لجيلين او لثلاثة أجيال .. وبعدين-منشوف" !

كيف صمموا دور اسرائيل
في العدوان الثلاثي

منذ انتهاء الحملة الخائبة تكشفت اسرار مثيرة وانفضحت حلقات من سلسلة العدوان الثلاثي كانت مجهولة لسوى الرجال الذين صمموه .. وفيما يلي اقدم لكم ملخصا لفصول من كتاب الدكتور ميخائيل بار - زوهر "الطريق الى سيناء".

(١)

.. عيد الثورة المصرية ..تموز ١٩٥٦ .. آلاف من عرب الاسكندرية احتشدت لتستمع الى خطاب الرجل الطويل ذي الرأس الذي يشبه رأس النسر ..

وانطلقت كلمات عبد الناصر.. في خطابه الحاسم الذي كان افتتاحية عهد جديد في تاريخ مصر .. ولم يكد ينهي كلمة السر "اسم فرديناند دي لسبس" حتى كانت قافلة من السيارات العسكرية بقيادة محمود يونس الضابط السابق في سلاح الهندسة تشق شوارع القاهرة من احد المعسكرات ليسيطر جنودها على مكاتب شركة قناة

السويس..

في جميع انحاء العالم تلقط اجهزة التلبرنتر الخبر المثير: "عبد الناصر امم القناة"!

انتوني ايدن رئيس الحكومة البريطانية، يقرأ الخبر بصوت عال في مأدبة العشاء الفاخرة التي اقامها على شرف الملك العراقي فيصل ورئيس حكومته نوري السعيد.

ويصيح نوري غاضبا: "اضربه! .. اضربه بشدة .. اضربه حالا!"

في مدينة "ليما" عاصمة "بيرو" التقطت الخبر "اجهزة الخدمات الخاصة" الاميركية، فسارع رجالها لابلاغ دالس بما جرى، وكان دالس يومها يقوم بزيارة رسمية لبيرو.

في باريس، كان وزير خارجية فرنسا كريستيان بينو سائراً في الردهة الكبرى بقصر آل بوربون، وجذب انتباهه الازدحام حول جهاز التلبرنتر القائم في زاوية الردهة، فاطل على الشريط الذي يسجل عليه الخبر ولم يكد يتم قراءة المفاجأة حتى انفجر غاضبا مزمجرا.

في صبيحة اليوم التالى سقطت على مكتب آيزنهاور في الولايات المتحدة برقية من القائم بالاعمال الامريكى في لندن م. فوستر يخبره فيها عن نوايا بريطانيا الحربية.

ولم تمض ساعات حتى وصلت الى ايزنهاور برقية اخرى من سفير الولايات المتحدة في فرنسا يقول فيها: "كريستيان بينو شبه استيلاء عبد الناصر على قناة السويس باحتلال هتلر لاراضي الراين. وهو -بينو- ينوى الذهاب الى لندن ويضيف ان فرنسا وبريطانيا العظمى ستدرسان معا القضايا العسكرية التى تترتب على احتلال قواتهما المسلحة لقناة السويس. بينو يعتقد ان الاتحاد السوفيتي لن يتدخل".

وهكذا بدأ نشاط الجهاز الجبار، الذى سينجب فيما بعد حرب السويس (العدوان الثلاثي، في لغتنا-س.أ).

فانجلترا تطمع في انتزاع قناة السويس من يدى عبد الناصر واسترداد شيء من هيبتها التى فقدتها في الشرق الاوسط.

وفرنسا تطمع في ثلاثة امور:

الاول، استعادة الارباح العائدة عليها من القناة.

الثانى، المحافظة على مصالح شركات النفط.

الثالث، القضاء على الثورة الجزائرية، ففرنسا كانت تتوهم ان القضاء على عبد الناصر معناه القضاء على ثورة الشعب الجزائرى وجعل الجزائر فرنسية الى الابد!

في قبو العمليات الحربية، تحت نهر التيمز في لندن اخذ يجتمع الضباط البريطانيون والفرنسيون في مناسبات متقاربة ومتواصلة للتخطيط والاعداد.

اما في امريكا فالانتخابات للرئاسة كانت على الابواب، وايزنهاور يجهد من اجل الظهور بمظهر "بطل السلام" لذلك فقد باشر الضغط على بريطانيا وفرنسا حليفتيه المتوترتين والعازمتين على خوض المعركة ضد مصر. (امريكا كانت معنية آنذاك بخروج الانجليز والفرنسيين من الشرق الاوسط لتحتل هى مواقعهم-س.أ).

واثر الضغط الاميركى على الانجليز.. واخذ الغبار يتكدس على برنامج "موسكتر"، برنامج الهجوم البريطاني-الفرنسى على مصر. كذلك فقد تراكمت الاوراق فى الادراج الخطيرة.. فوق الوثائق السرية التى كتبت عليها كلمة السر "ترافين" .. تلك الوثائق التى لا يحق الاطلاع عليها لسوى رئيسى الحكومتين ورئيس جمهورية فرنسا

وملكة بريطانيا!

وهكذا اغلق ملف الهجوم الذى كان من المقرر شنه في الخامس عشر من ايلول من تلك السنة!

وساد انطباع بأن الحملة لن تنفذ البتة.

وحدث ما غير مجرى الاحداث.. ذلك ان برقية وصلت الى سفارة اسرائيل في باريس .. وهناك كان شمعون بيرس نائب وزير الدفاع في حينه يسافر بشكل متواصل من باريس الى لندن الى باريس.. وفض شمعون بيرس تلك البرقية وكانت مكونة من جملة قصيرة تحتها توقيع دافيد بن غوريون رئيس الحكومة ووزير الدفاع.

وظهرت اسرائيل رسميا على مسرح الاحداث!

برقية الشيخ !

منذ نهاية تموز من تلك السنة اخذت "دولة اليهود" تحظى بمزيد من الاهتمام في التقديرات والتخمينات الفرنسية.

غداة تأميم قناة السويس ذهب بيرس الى فرنسا وأخذ يجري محادثات سرية مع قادتها.

في تلك المحادثات لم تدرس امكانية عملية مشتركة ضد مصر، ولكن بيرس وبورجس مونورى وزير حربية فرنسا كانا قد تحدثا حول امكانية تلك العملية منذ بضعة اشهر. الموضوع في الوقت الحاضر هو صفقات الاسلحة من فرنسا الى اسرائيل.

تم الاتفاق بين فرنسا وامريكا على ان تعطى فرنسا لاسرائيل ٢٤ طائرة اخرى من طراز "مستير" ، كذلك فقد تم التوقيع على اتفاقية في وزارة الحربية الفرنسية في شارع سان دومينيك بباريس،

وبموجب تلك الاتفاقية تنال اسرائيل مزيداً من الاسلحة على مختلف انواعها.

في تلك الايام حدثت مسرحية غريبة، فقد استدعى بيرس الى مكتب وزير الحربية الفرنسي مونورى، وذهب اليه فوجده في غرفة الخرائط في القيادة العامة ومن حوله عدد من كبار ضباط القيادة الفرنسية.

وقال مونورى فورا:

"نحن ندرس قضية القناة! كم يوما، في رأيك، يحتاج جيش الدفاع الاسرائيلي لاحتلال سيناء والوصول الى ضفة القناة؟ وبعد لحظة صمت اضاف مونورى: "قيادتنا تقدر انكم ستحتاجون الى ستة اسابيع تقريبا".

وأجاب المبعوث الاسرائيلي:

"اظن اننا خلال اسبوع واحد نستطيع الوصول الى القناة!"

وارتسمت ابتسامات ساخرة ممهولة بالشك على وجوه ذوي البزز الزيتية وأوسمة الجنرالات!

وتساءل بعض الحاضرين عن قوة الجيش المصرى، عن النتائج المتوقعة لحرب فورية، عن جيش الدفاع الاسرائيلي واحتياجاته.

ثم وجه احد الجنرالات سؤالا ذا أهمية كبرى:

اذا ذهبنا لمحاربة مصر فهل تكون اسرائيل على استعداد لخوض الحرب الى جانبنا؟

واجابات بيرس فورية.. وبدون اى تفكير اجاب: نعم!

ومضت ايام، وكان اجتماع سرى آخر بين فرنسيين واسرائيليين. وكان الاجتماع هذه المرة في غرفة النوم الفخمة في منزل كريستپان بينو الخاص، ودار الحديث هذه المرة حول المتوقعات السياسية

العالمية.. كان بينو أقل حماسا للحرب من زميله وزير الحربية مونوري.. وكان الحديث هذه المرة متوترا وشاملا وجديا للغاية!

لم يقتصر النشاط على المحادثات الفرنسية-الاسرائيلية ففي الوقت نفسه كانت قائمة على قدم وساق محادثات برنامج "موستكر" الفرنسي-البريطاني.. ولما احست فرنسا بتحفظات بريطانيا من أية عملية عسكرية توجهت ثانية..الى اسرائيل.

في بداية ايلول اجرى الفرنسيون تقديرا دقيقا للوضع:

* الحالة في الجزائر تزداد سوءا من يوم ليوم.
* حكومة غى موليه تواجه ضغطا كبيرا بالنسبة لقضية السويس.
* مراقبون ذوو اطلاع ادعوا ان الحكومة الفرنسية لن تستطيع الوقوف على رجليها الى ابعد من شهر تشرين الاول.

على ضوء هذا الوضع فان الحرب تكون في الحسبان في مطلع شهر تشرين الثانى، وتلاءم هذا التقدير مع تقديرات الخبراء العسكريين الذين اكدوا ان عملية انزال المظليين يجب ان تتم في النصف الاول من شهر تشرين الثاني أي قبل موسم الامطار والعواصف.

مرة اخرى استدعى بيرس لمقابلة بورجس مونورى. هذه المرة ألقى الوزير الفرنسى أوراقه مكشوفة على المائدة، مائدة المغامرة، وسأل بيرس اذا كانت اسرائيل مستعدة لخوض المعركة والهجوم على مصر بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا العظمى.

وعد بيرس بأن يتشاور مع بن غوريون .. وطارت برقية مستعجلة الى الشيخ .. ولم يأت منه أى جواب، وطارت برقية أخرى .. واستمر الصمت .. فما معنى هذا السكوت؟

لا يعني صمت بن غوريون انه يعارض، بل على النقيض فهو يشجع مبادرة مساعديه، ويشجع اتصالاتهم المتواصلة مع لندن وباريس ودراستهم للامور في العاصمتين الحليفتين، وعندما يأتي مساعدوه امثال بيرس وديان ليقدموا له تقريرا عما جرى، يستلقي بن غوريون في مقعده ويسمعهم بهدوء، ومن حين لحين يقاطعهم بملاحظة عابرة جانبية او يوجه اليهم سؤالا عميقا، ولكنه يمتنع عن ان يدلي برأيه وذلك لسببين:

الأول - ان بن غوريون لم يقرر في حينه ان يتورط في الحرب، وكان يفكر في امكانية تجنبها لعدة اسباب يعرفها هو.

والثاني - انه لم يطلع على القضية من جميع جوانبها ولم يدرك كل تفاصيلها. لذلك فهو ينتظر، ما دام لم يكون له رأيا نهائيا في الموضوع.

في منتصف سبتمبر أصبح الانتظار نوعا من "الكماليات"! وفي فرنسا أصبح ذلك واضحا للجميع. بينو زلق بضع اشارات الى زملائه البريطانيين، وكانت الرموز الفرنسية واضحة لهم كل الوضوح .. ولكن لعله من الممكن متابعة النشاط في اتجاه الاتصالات فقد يؤدي ذلك الى خلق "ثالوث" بريطاني-فرنسي-اسرائيلي!

لكن بن غوريون ظل محاطا بالضباب والغموض. ومرة اخرى اتصل بورجس مونورى بأصدقائه الاسرائيليين ليقول لهم:

يبدو لي ان التواريخ التي قررناها نحن والبريطانيين لا تناسبكم. على كل حال عليكم ان تخبرونا بوجهة نظركم!

في كثير من الانفعال ارسل بيرس الى بن غوريون ببرقية اضافية..

والان، ذهب بيرس الى السفارة الاسرائيلية في باريس ليجد برقية من بن غوريون في انتظاره..

"قل لهم ان تواريخهم تناسبنا".

لقد قرر الشيخ ان يبادر للعمل.

في قاذفة قنابل الى ... بيزرتا!

صباح يوم الاحد، قبل نهاية ايلول .. سيارة خصوصية تحمل رقما دبلوماسيا تنطلق في شوارع باريس التي لم تنفض بعد عن جفونها آثار النعاس .. كانت السيارة تسير بسرعة جنونية وعندما ضغط السائق على فراملها مزق صرير عجلاتها الصمت الرائن في ساحة وزارة الحربية الفرنسية في شارع سان دومينيك .. وهبط من السيارة رجلان هما شمعون بيرس ويوسف نحمياس ممثل وزارة الدفاع الاسرائيلية في باريس، وانطلق الاثنان نحو مكاتب الوزارة وسألا: هل الوزير بورجس مونوري موجود؟ وجاء الجواب: كلا!

- لعله في بيته؟

- لكن باب شقة الوزير الخاصة كان موصودا! ويبدو ان الوزير الفرنسي قرر "الاستجمام" من "حمى السويس".. فذهب الى نادى الصيد الذي ينتمي اليه والقائم في غابة كثيفة في جنوب فرنسا.

ولم يتردد الاثنان بيرس ونحمياس، فانطلقا بسيارتهما عبر شوارع باريس قاصدين الجنوب حيث يقضي مونوري وقته في الصيد .. كان عليهما ان يقطعا مسافة طويلة جدا فلن يصلا قبل التاسعة مساء ..

هنالك .. في نادي صيد مونوري كان الثلاثة يجلسون على المقاعد

الجلدية الفخمة ويتداولون الحديث ..

لم يستطع مونوري ان يخفي غبطته بقرار بن غوريون .. وبوشر في التخطيط للعمل .. وكان لبيرس شرط اساسي: ان تزود فرنسا جيش الدفاع الاسرائيلي بكميات كبيرة من السلاح مقابل الاسلحة التشيكية التي كانت شحناتها تفرغ على شواطىء مصر.

في الجلسة نفسها قرر الثلاثة الدعوة لمؤتمر موسع يحضره قادة الجيشين والوزراء المختصون من الدولتين.. وفي الوقت ذاته يتم ابلاغ البريطانيين بأن هناك امكانيات لعمل مشترك مع اسرائيل.

في ساعة متأخرة من الليل عاد بيرس ونحمياس الى باريس .. في الطريق نزلا في فندق صغير ليرتاحا من عناء السفر .. وقررا ان يسجلا كل ما دار بينهما وبين الوزير الفرنسي مونوري .. ولكنهما لم يجدا ورقة بيضاء في حقيبتهما .. فاغتالا علبة سجائر فرنسية .. وعلى الكرتون المربع سجلا المحادثة الهامة .. وهكذا كانت قصاصة الكرتون أول وثيقة لمعركة السويس .. وكانت تلك اول علبة سجائر تذهب ضحية للمعركة! ولكن سجائر اخرى دخلت ملفات الوثائق السرية بصورة اكثر اهمية وخطورة!

في ساعة متأخرة من الليل عاد بيرس ونحمياس الى باريس .. في مطار اللد طائرة قادمة من باريس نزل منها شمعون بيرس، وكان في انتظاره رئيس اركان الجيش الاسرائيلي موشيه ديان.. وسافر الاثنان معا الى مطار الرملة.. هنالك، وبعد حوالي الساعة هبطت طائرة "بايبر" الصغرى ذات المسافر الواحد.. وكان راكبها رئيس الحكومة

ووزير الدفاع بن غوريون .. استقل الثلاثة سيارة رئيس الحكومة وانطلقوا الى القدس.. في الطريق تحدثوا حول عملية انتقامية ضد مواقع الجيش الاردني في جبال القدس .. وفجأة التفت بن غوريون الى بيرس وسأله:

ماذا في باريس؟

واعطى بيرس تقريرا مقتضبا .. وابدى الشيخ بن غوريون اهتمامه بالموضوع.. وفي الحال أخذ يعدد اسماء الوزراء الذين يستحسن اشتراكهم في مؤتمر باريس السري.

في الثامن والعشرين من ايلول.. وحوالي الساعة السابعة مساء وصلت بضع سيارات خصوصية الى مطار عسكري في مكان ما في جنوب اسرائيل، حيث كانت في الانتظار قاذفة قنابل متوسطة من طراز "نبتون" تابعة للسلاح الجوي الفرنسي.. وبسرعة، وبسرعة تامة صعد الى الطائرة اربعة اشخاص من فتحة في بطنها .. اما هؤلاء الاربعة فهم: موشيه ديان، شمعون بيرس، موشيه كرمل (وزير المواصلات) وغولده مئير (وزيرة الخارجية).. وعندما صعب الصعود على السيدة مئير حظيت بمساعدة موظف كبير من وزارة الدفاع الاسرائيلية وعيزر فايتسمن قائد الشعبة الجوية في سلاح الطيران الاسرائيلي .. وبعد ان دخلت السيدة مئير اغلقت الطائرة فتحة بطنها واقلع "نبتون" الى مكانه المقصود!

اتجهت الطائرة غربا عابرة بشواطيء سيناء .. ومواصلة طيرانها في ساعة متأخرة من الليل حتى هبطت اخيرا في بيزرتا. وفي القاعدة العسكرية الفرنسية استقبل الاشخاص الاربعة قائدها الادميرال ودعاهم الى وليمة فاخرة ثم وضع تحت تصرفهم شقة الضيوف في

قصره الفخم الرسمي.

في الساعة الخامسة من صبيحة اليوم التالي هبطت في بيزرتا طائرة ثقيلة من طراز دي. سي ٤، وهي طائرة الجنرال دي غول الخاصة التي كان الرئيس الاميركي ترومان قد اهداه اياها..

وصعد الاربعة الى الطائرة لتقلهم الى باريس، واثناء هذه السفرة كان الوزير موشيه كرمل يضغط اسنانه بشدة، ففي رحلة الامس واثناء تجوله في الطائرة سقط في فجوة القصف وانكسر احد اضلاعه لكنه تحمل الالم ولم يذهب الى الطبيب الا يوم عودته من فرنسا من رحلة "الالم" التي دامت بضعة ايام!

في باريس هبطت البعثة في المطار العسكري في "فيلاكوفلي"، بعيدا عن اعين الفضوليين .. ومن هناك كانت الغرف مهيأة في انتظار الضيوف الكبار.

بعد استراحة قصيرة، وفي اليوم نفسه انصرفت الرباعية الى باريس حيث يعقد المؤتمر السري مع فرنسا بشأن تزويد الجيش الإسرائيلي بالسلاح!

ماذا فعل بن غوريون فيما بعد؟
الفيتو السوفيتي يوصد الباب!
بأي سر عادت طائرة الجاسوسية الاميركية؟

(٢)

بن غوريون لا يتكلم!

المؤتمر السري على اهبة الانعقاد.. سيدور الحديث فيه حول تزويد الجيش الاسرائيلي بالسلاح ولن يتطرق الى القضايا السياسية وبرنامج الهجوم على مصر.

في اليوم التالي لوصول الرباعية الاسرائيلية الى باريس تركت غولده مئير صحبها واستقلت سيارة خاصة قاصدة قصر "ماتينيون" حيث تجتمع برئيس الحكومة الفرنسية غي موليه.

في المساء وفي كل مساء كانت تطير الى الشيخ برقيات تقريرية عما يدور في باريس.. وهكذا فقد كان يراقب الامور من مكتبه بوزارة الدفاع في تل ابيب.

في الاول من تشرين الاول قدمت للفرنسيين قائمة السلاح المطلوب لاسرائيل .. وكانت تضم ١٠٠ دبابة من طراز "شيرمن"، سربا من طائرات النقل، ٣٠٠ شاحنة من ذوات المحركات الامامية، ١٠٠ بازوكا، و٣٠٠ ناقلة مصفحة. في اليوم نفسه عاد ديان وبيرس الى اسرائيل.

في الغداة عقد ديان اجتماعا لقيادته، وفي جو متوتر أصدر اوامره الى كبار ضباطه بالاستعداد لاحتلال سيناء .. وكان الموعد المضروب هو ٢٠ تشرين الاول.

من بين اولئك الذين اعدوا "الطبخة" ظل واحد يلتزم جانب الصمت .. ورغم ان برقياته الى بيرس، واوامره لديان باعداد الجيش، تثبت موافقته على خوض الحرب الا انه لم يتكلم .. ظل صامتا طيلة

الوقت، اثناء الاستماع الى التقارير واثناء اجراء الاستعدادات والخطط. انه الشيخ دافيد بن غوريون!

ولماذا صمت بن غوريون؟

يبدو انه حتى اللحظة الاخيرة لم يزايله الامل في امكانية لجم النار في الشرق الاوسط، وذلك لعدة أسباب أهمها شكه في موقف بريطانيا! فأثناء نقاشه مع الاكثر تطرفا من مساعديه الراغبين في شن حرب مباشرة تذرع بن غوريون دائما بالانذار البريطاني. والان ما زال يقلقه موقف بريطانيا الغامض. ورغم رغبته في خوض المعركة الى جانب فرنسا الا انه شديد الرغبة كذلك في اشتراك بريطانيا!

وهل كان بن غوريون محقا في شكوكه نحو بريطانيا ورغبته في اشتراكها؟

مجرى الاحداث فيما بعد يؤكد انه بالفعل كان على حق في ما ذهب اليه!

اسرائيل ترتدع

في الثالث عشر من تشرين الاول لجم الفيتو السوفييتى في هيئة الامم المتحدة مشروع القرار الذي تقدمت به فرنسا وانجلترا والذي كان املهما الاخير في تجنب عملية عسكرية.

بعد يومين، في الخامس عشر من تشرين الاول وصل الى لندن الجنرال الفرنسى "شال" ... وهناك استقبله انطونى ايدن، لويد، وهيد (وزير الحربية البريطانية).

على حائط الغرفة خريطة كبيرة للشرق الاوسط خطا نحوها الجنرال الفرنسى واشار بيده قائلا:

"القوة التى نرغب في استعمالها ضد مصر نستطيع ان نوجهها بواسطة اسرائيل! .. حتى نهاية الشهر تحتل اسرائيل سيناء، ويكون لزاما علينا ان نفصل بين الاسرائيليين والمصريين فى هذه الحرب .. الاسرائيليون يكونون هنا -واشار الى سيناء، والمصريون سيكونون هنا- واشار الى القسم الافريقي من مصر- ونحن اين سيكون موقعنا؟" وتقدم شال نحو الخريطة ووضع كف يده على قناة السويس وهتف بصورة دراماتيكية: "هنا"!

في الغداة طار ايدن ولويد الى باريس للاجتماع بالقادة الفرنسيين..

التقى الاربعة: ايدن، لويد، موليه وبينو .. ولعله من غرائب الصدف الساخرة انه كانت فى الغرفة لوحتان، الاولى لدون كيشوت وهو يحارب طواحين الهواء والثانية للكردينال ريشيليه وهو ينظر نحو رباعي الحرب نظرة غاضبة!

على كل حال .. في المساء نفسه وصلت الى اسرائيل برقية في غاية السرية تقول:

"تستطيعون الاعتماد على البريطانيين ؟"

ولكن .. في هذه اللحظة الحاسمة جاء جواب اسرائيل: " لا ! ".

غزوة ... لا حرب ...

لماذا اجابت اسرائيل ب - "لا"؟

هل لان طائرة الاستكشاف الامريكية الضخمة، تجولت طويلا فوق اسرائيل وعادت لتقول لأيزنهاور ان في اسرائيل "٦٠" طائرة من طراز "مستير" وليس "٢٤" طائرة كما ادعت الارقام الرسمية؟

أم لان ديان الفخور يخجل من التعاون مع جيوش اجنبية ضد اعدائه؟

أم بسبب الانذار الذى وجهه ايزنهاور الى ابا ايبن عندما علم بانعقاد جلسة للسفراء في القدس؟

لقد أراد البريطانيون أن تشن اسرائيل حربا شاملة على طول الجبهة مع مصر .. ان تحتل سيناء وتهدد القاهرة!

وعندها يبدو تدخل البريطانيين والفرنسيين فى نظر الرأي العام العالمي عملية انقاذ هبطت من السماء.. وبعينين جامدتين كالجليد اقترح سلوين لويد ان يقوم الطيران البريطاني -الفرنسى بقصف الجانبين المصرى والاسرائيلي على السواء حتى تبدو عملية احتلال السويس وكأنها عملية حيادية لا تميز بين الجيشين المصطدمين! والى رأى لويد انضم عدد كبير من كبار الضباط البريطانيين الذين لم يرغبوا في نسف جميع الجسور بين بريطانيا والشرق الاوسط العربى.

وصل الاقتراح البريطاني الى اسرائيل بواسطة الفرنسيين، وجاء الجواب الاسرائيلي الحازم: "لا" !

في الثامن عشر من تشرين الاول، بينما كانت اساطيل الغزاة تنتظم في جزيرتي قبرص ومالطة وبينما كان جسر جوى ينقل

بسرعة متواصلة الجنود الذين سيتدفقون على مصر فيما بعد، فى ذلك اليوم توقفت آلة الحرب عن العمل .. برفض بن غوريون الموافقة على شروط البريطانيين.

لقد احس بن غوريون انه في مركز قوة .. وبدونه قد تتجمد فكرة غزو السويس بكاملها. فلماذا لا يملى شروطه اذن.

وهكذا كان .. املى بن غوريون شروطه .. وتم له ما اراد .. واتحد الثالوث الحربى!!

(٣)

الى مطار الضباب ..

في الحادي والعشرين من تشرين الاول، انطلقت الى مطار اللد سيارة غطيت نوافذها بالستائر.. فى داخلها جلس بن غوريون، بيرس، ديان، ونحميا ارغوف -السكرتير العسكرى لرئيس الحكومة-.

في سيارة ثانية كان يجلس ضابطان فرنسيان كبيران تربطهما باسرائيل صداقة، هما الكولونيل مانجان والجنرال شال مع بعض كبار الضباط الاسرائيليين..

كانت دواليب الطائرة قد اخذت تتحرك، ولم يكد النسر المعدني يبتلع الجماعة حتى انطلق على ارض المطار .. ليرتفع فى نهاية الشوط .. قاصدا فرنسا .. انها طائرة "دى. سى ٤" -طائرة ديغول التي سبق لنا ان التقينا بها..

كانت الرياح شديدة فأخذت تدفع بالطائرة الى الوراء وكانها تريد منعها من متابعة رحلة الدماء والنار .. لكن المؤامرة كانت اقوى

ووصلت الطائرة فى الثاني والعشرين من تشرين الاول، متأخرة بعدة ساعات عن موعدها .. وهبطت فى فرنسا على ارض مطار "فيلا كوفلى" المبتلة .. وكانت طائرة ديغول تبدو شبحا غريبا فى قلب الضباب الكثيف الذى غطى وجه المطار ..

نزل الشيخ بن غوريون من الطائرة وقد اعتمر قبعة عريضة الحواشي، لكنها عبثا حاولت السيطرة على "لبدته" البيضاء المتمردة!

أما ديان فقد وضع على عينيه نظارة واقية ..، كان النظام في المطار مدهشا للغاية ..

حال وصول الضيوف كانت تنتظرهم سيارات سوداء لا تحمل اية شارة رسمية .. وما كادوا يستقلونها حتى انطلقت بهم الى جهة غير معروفة ..

على عكس ما قيل، فان غي موليه، رئيس الحكومة الفرنسية في حينه، لم يكن فى استقبال بن غوريون وحاشيته في المطار .. كان مشغولا باستقبال "ضيف" أخر هو "احمد بن بلا" الذي اختطفته فرنسا من طائرة "اير فرانس" كانت تقله من مراكش الى تونس!

الفيلا البيضاء

في انتظار الضيوف الاسرائيليين كانت فيلا بيضاء تحف بها حدائق غناء .. صاحبها رجل أعمال يهودي من اصدقاء بورجيس مونوري .. ولم تجر فى الفيلا ايه تعديلات تلفت النظر ..

لبن غوريون جهزت فى الفيلا غرفة نوم خاصة .. اما بيرس، ديان وسائر اعضاء البعثة الاسرائيلية فقد كان عليهم ان يكتفوا ببضع غرف في فندق، في باريس نفسها .. وخلال ثلاثة ايام لم يزايل

نفوسهم القلق من ان يكتشف اقامتهم فى باريس، واحد من الاف الاسرائيليين الذين يقطنون العاصمة الفرنسية فيشيع السر ويذيع .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث لدقة المحافظة على السرية التامة .. حتى كريستيان بينو، وزير الخارجية الفرنسى، كان يذهب في سرية تامة الى الفيلا التي اصبحت طيلة ٧٢ ساعة مركز اعصاب السياسة الفرنسية والبريطانية .. كان بينو عندما يذهب الى الفيلا السرية يقود سيارته بنفسه في طرق مجهولة ومتعرجة حتى لا يثير شبهة أحد. وكذلك فقد حافظ جميع المشتركين فى المؤتمر الخطير على السرية التامة .. كبار المشتركين ما زالوا يصمتون، حتى اليوم، اذا وجهت اليهم اية اسئلة حول الموضوع .. وفي الوقت نفسه تصرح بعض كبار الشخصيات التى اشتركت في المؤتمر بمعلومات لها قيمة خاصة ولكنها لا تكشف الغطاء عن اهم ما دار هناك.

دوافع الشيخ

ما هى الدوافع التى اقنعت بن غوريون بالذهاب الى فرنسا؟ فاذا اكتشف العالم ان اسرائيل ذهبت الى دولتين استعماريتين لتدبير مؤامرة على دولة اخرى فان هذا سيدفع جميع العالم للتنديد بها ..

ولكن بن غوريون ينوى خوض المعركة بحجة "تحرير" مضايق البحر الاحمر .. هو يدرك جيدا انه لا يستطيع وحده ان يخوض المعركة .. فمن مصلحته ان تشترك بريطانيا وفرنسا، الامر الذى يكسبه كثيرا من التأييد ويخفف الضغط العالمي على اسرائيل.

أما من الناحية العسكرية فقد كان بن غوريون وديان مقتنعين بقدرتهما على احتلال سيناء .. ولكن بن غوريون أبدى -على حد قول

بينو- قلقا شديدا وخوفا من قاذفات القنابل المصرية القوية التى تستطيع ضرب مؤخرة الجيش الاسرائيلي وتدمير المدن الكبرى تل-ابيب والقدس وحيفا وبئر السبع. لذلك فقد طلب بن غوريون تأمينا من البريطانيين والفرنسيين بأن يضمنوا له مظلة جوية من جهة وان يضربوا المطارات المصرية من جهة اخرى . لذلك فقد ذهب الى باريس ليلتقي بشركاء المستقبل في الفيلا البيضاء السرية وليشرح لهم وجهة نظره ومن ثم ليسمع رأيهم .. حتى يتمكن من وضع تصاميمه التى لم يفصح عنها والتى ما زالت سرا في افكاره.

و«خضع» البريطانيون ..

الثاني والعشرون من تشرين الاول .. بن غوريون الذى وصل في ساعات الصباح الى فرنسا، يصعد الان درجات الفيلا بسرعة -كعادته- .. يذهب الى الغرفة المخصصة له لينام قليلا .. وفي ساعات الظهر بدأ الاجتماع الاول.

من الجانب الاسرائيلي كان بن غوريون ومساعدوه .. ومن الجانب الفرنسى كان بينو، بورجس مونورى وبعض كبار الضباط الفرنسيين.

كان مما ادهش الفرنسيين واثار استغرابهم ذلك الهدوء وعدم الانفعال الذى تحدث به بن غوريون .. كان يتكلم وكان يكثر من القصص الجانبية.. ولكن شيئا واحدا جعله دائما واضحا امام الفرنسيين "ان اسرائيل لن تخرج وحدها الى حرب واسعة النطاق مع مصر!"

وخرج الجنرالات الفرنسيون من الاجتماع بشعور واضح.. وهو ان

عليهم البحث عن حجة اخرى!

لندن .. كانت دائما في الصورة امام الفرنسيين، ففى الحال طار الجنرال شال الى زملائه البريطانيين ليطلعهم على وجهة نظر بن غوريون .. وفى جلسة سرية استمر النقاش حتى ساعة متأخرة من الليل .. وخضع الانجليز وتراجعوا عن موقفهم العنيد .. وقال احد المشتركين فى المحادثات: ان بن غوريون يمسك بيده أوراق اللعبة!

وهكذا - في صبيحة اليوم الثاني لوصول بن غوريون الى فرنسا كانت ثمار موقفه دانية اليه .. فبهدوئه وظهوره بمظهر غير المتحمس "للمشروع" استطاع بن غوريون ان يوهم الفرنسيين بان عدم نجاح المفاوضات لن يكون بالنسبة اليه كارثة! وحتى يضمنوا اشتراكه فقد ابدوا استعدادهم لبعض التنازلات واقنعوا زملاءهم البريطانيين بان يقبلوا هم ايضا ببعض التنازلات لبن غورون!

ووافق البريطانيون على تجميد مشروعهم الذي كان سيجعلهم يبدون بمظهر المخلصين الذين يحملون سيف العدل ويجيئون الى الشرق الاوسط للمحافظة على الهدوء والنظام بدون تمييز بين اسرائيليين ومصريين !!

وهنا تمت الخطوة الاولى نحو اتفاقية نهائية.

"الضيف الكبير" الاول الذي وصل فيما بعد الى الفيلا البيضاء كان غى موليه رئيس الحكومة الفرنسية .. عيناه حمراوان ووجهه شاحب، مما يدل على انه قضى ليلة لم يذق فيها طعما للنوم، والواقع ان غى موليه فعلا لم ينم، فحادث اختطاف احمد بن بلا - والزعماء الاربعة بطيارة فرنسية قبل استقلال الجزائر - تفجر في البرلمان الفرنسي، ومما اغضبه واتعبه ان ضباطا كبارا في الجيش الفرنسي

اتموا عملية الخطف دون استشارته هو..

قدم بينو رئيس حكومته غي موليه الى الحاضرين وقام بن غوريون بمهمة التعريف بمساعديه ..

ودار حديث غريب بين الجميع .. ففي ذلك المؤتمر السرى الذى قد يقرر مصير العالم بأسره كان بن غوريون يتحدث في الفلسفة والتاريخ وعلم اللغات، وأبدى اعجابه بتعليم اللاتينية واليونانية في فرنسا .. وشرح له موليه وبينو اساليب التدريس في بلادهما. بعد مضى شيء من الوقت، انتقل الجميع الى حديث اكثر جدية ..

جلسوا حول الطاولة الخشبية االثقيلة في غرفة الطعام ..

افتتح بن غوريون الحديث بشرح الوضع في الشرق الاوسط، وشرح رغبته في مهاجمة مصر، ثم طلب بشكل واضح المساعدة الجوية والبحرية من فرنسا.

غى موليه الرجل المعروف ببروده وطول تفكيره، كان يبدو منفعلا فى ذلك الوقت، ولكنه بلا تردد وعد بن غوريون بأن يقدم له المساعدة المطلوبة!

وانتقل الحديث الى مسألة التنفيذ التكنيكي لاعطاء المساعدة العسكرية لاسرائيل.. وفي الواقع فان وعد موليه لم يكن سوى موافقة على الاتفاق الذى تم بين شمعون بيرس وافل توماس "ظل" بورجيس مونورى.. وأكثر من ذلك فقد وعد توماس بأشياء اخرى..وعد بكميات ضخمة من الاسلحة وباسقاط المواد الغذائية والذخيرة الى وحدات الجيش الاسرائيلي عندما تصبح فى جهات مختلفة من صحراء سيناء.

(٤)
نهاية وبداية

استعرضنا مراحل المؤامرة الاستعمارية على مصر، و"النضال" الذى مارسه بعض قادة اسرائيل لتبنى دور هام فى المسرحية الفاشلة ..

يذكر القراء ان حماس قادة اسرائيل هؤلاء كان مشوبا بكثير من القلق، وعبر عنه "البالغ" فيهم .. شيخ "سديه بوكر" الحالم ببعث مملكة سليمان .. دافيد بن غوريون!

ولن ننسى ان الزعامة الرجعية فى اسرائيل حددت لها موقفا واضحا في نهاية الصراع .. موقف الاندغام فى مخططات الاستعمار والوقوف فى عرى فاضح ضد حركات التحرر العربية وفي طليعتها الثورة المصرية الكبرى..

في هذه الحلقة، وفي الحلقات القادمة تنكشف امام عيوننا الخطط التى وضعها الامبرياليون وصنائعهم في اسرائيل، لتنفيذ المؤامرة على الشعب العربى في مصر.

نحن لا نشعر بأية رهبة حيال تلك المخططات الوسخة .. لان فشلها في الماضى وفي المستقبل أمر يفرضه التطور التاريخي الحتمي. ان ما يخالج نفوسنا ونحن "نطالعها" هو الشعور المزدوج – أولا، بعظمة الخطوة الجبارة في طريق الثورة المصرية .. خطوة تأميم قناة السويس، المرفق الذى أصبح دعامة كبرى من دعامات الاقتصاد العربي في مصر وثانيا بقصر النظر الذي تعاني منه السياسة الاستعمارية بكل اذرعتها في كل قطر ما زال مستنقعا تتكاثر فيه. (س.أ).

وجها لوجه

إقترح احدهم إجراء امتحان لمصر وذلك بارسال سفينة اسرائيلية تحاول العبور في قناة السويس، وافترض صاحب الاقتراح ان مصر تصادر السفينة .. ويكون ذلك سببا في شن الحرب عليها ..

لكن جنرالا فرنسيا وضع حيلة اخرى .. ورفضها بن غوريون بعصبية جعلت رأسه أحمر كالشمندرة!

احتل القاعة صمت متوتر .. تطوع بينو لطرده فقدم اقتراحا بسيطا .. ان تقوم فرنسا وبريطانيا بمهاجمة مصر دون الحاجة الى ذريعة من جانب اسرائيل .. ووجد بينو نفسه في المعارضة، فمعظم زملائه الفرنسيين غارقون في التفكير المضني .. لاصطياد خطة تبرر الحرب في نظر الرأي العام العالمي !

أخيرا توصل الجميع الى قرار موحد .. تقوم اسرائيل بعملية محدودة على مقربة من السويس، مما يجعل الممر المائي الهام في خطر وهنا تجد فرنسا وبريطانيا نفسيهما مضطرتين للتدخل و"حماية" القناة.

وهذا هو القرار الذي سيرسل الى سلوين لويد البريطاني!

ومضت حوالي الساعة ثم حامت فوق مطار "فيلا كوبلي" الفرنسي طائرة تابعة لسلاح الطيران الملكي البريطاني وعندما هبطت على أرض المطار نزل منها رجلان الاول سلوين لويد، وزير خارجية بريطانيا والثاني باتريك دين مدير شعبة الشرق الاوسط في وزارة خارجية بريطانيا .

لتوهما توجه الاثنان الى الفيلا البيضاء حيث يعقد اجتماع اسود

خطير آخر، ولعله هذه المرة اشد خطورة ..

جو جديد في فيلا المؤامرة .. جو ثقيل وكئيب للغاية، مظاهر الصداقة والتفاهم التام التي كانت بين الفرنسيين والاسرائيليين اثناء المحادثات السابقة، هذه المظاهر لا وجود لها الان ..

سلوين لويد سلم على بن غوريون بصورة رسمية جافة .. كان لويد متضايقا وكأنه يشعر بالخجل من جلوسه بصفته وزير خارجية الامبراطورية مع رئيس حكومة اسرائيل الصغيرة .. أما بن غوريون فقد غاص من جديد في دوامة من الشكوك حول بريطانيا .. وكان وجهه متوترا وعيناه تطاردان أدق التعابير التي يبصقها وجه لويد ذو الجبين العريض والغرة المتموجة!

المرحلة المصيرية في المؤتمر تبدأ الان! الشركاء يدرسون تفاصيل المشروع بدقة وتوسع شرح الاسرائيليون وجهة نظرهم .. بن غوريون لم يتكلم كثيرا ترك هم الحديث والاطالة لبيرس وديان الجالسين على جانبيه كان يكتفي بملاحظات في الامور التي يراها هامة بالنسبة له وهنا قال احد الوزراء الفرنسيين في لهجة ناقدة ساخرة: بن غوريون هذا يبدو فيلسوفا!

أخذت ظلال الغروب تتسرب الى غرفة الطعام الفسيحة في الفيلا البيضاء حيث انتهى المؤتمر الاسود. الخطة العدوانية اصبحت جاهزة وواضحة المعالم:

اسرائيل تقوم بانزال وحدة من الكوماندو على مقربة من السويس .. اذاعة صوت اسرائيل تذيع النبأ بوضوح ودقة ..

بريطانيا وفرنسا توجهان انذارا الى مصر واسرائيل بضرورة الابتعاد ١٥ كيلومترا عن ضفتي القناة .. اسرائيل تنصاع الى الانذار

وتنفذه أما مصر فمن الطبيعي انها ترفضه وهنا يقوم سلاح الطيران البريطاني بشن غاراته على المطارات العربية في مصر فيخرب مسالكها ومن ثم ينقض طيران الامبراطورية العجوز على المقاتلات والقاذفات العربية فيدمرها وعندها تطمئن اسرائيل الى ان الطائرات العربية المصرية لن تدمر مدنها الكبرى ولن تكنس وحداتها الزاحفة في صحراء سيناء .. وفي نهاية الامر تحتل بريطانيا وفرنسا القناة.

أما الاتفاق الفرنسي الاسرائيلي القاضي بحماية فرنسا لسماء الدولة اليهودية واقامة جسر مائي بالسفن الفرنسية بين باريس وتل-ابيب وانزال سيارات الجيب والذخيرة والمواد الغذائية لجيش اسرائيل في سيناء هذا الاتفاق لم تطلع عليه بريطانيا ورغم ان البريطانيين كانوا يشكون ويتوقعون عملا ما بين الفرنسيين والاسرائيليين فقد فضلوا طمس رؤوسهم في الرمل وفضلوا "ألا يروا" وذلك حتى يبدو وكأن فرنسا واسرائيل هما اللتان تقومان بالعدوان الاساسي على العرب!

نهار الرابع والعشرين من تشرين الاول كان نهارا فرنسيا رائعا.. الشمس تشرق في زرقة صافية .. وبينو يعود الى باريس نشيطا مشرقا مثل نهار بلاده ذلك عاد بينو سعيدا كالطفل بعد أن حصل على موافقة شخصية من أيدن!

التوقيع

مرة أخرى تصبح المائدة الكبيرة في غرفة الطعام الفسيحة في الفيلا البيضاء، مسرحا لخطوة هامة من أكثر المؤتمرات التي عقدت بعد الحرب العالمية الثانية خطورة وسرية!

في الجلسة الاخيرة يلتقي بن غوريون بيرس، ديان، بينو، بورجس مونوري، مانجان، شال، باتريك دين، وموظف آخر من مكتب انطوني أيدن وصل في ساعات الصباح الباكرة الى باريس.

هذه الجلسة مخصصة للقضايا الاساسية: كالوسائل، التواريخ، انزال المظليين، وضرب المطارات المصرية والموقف الذي يجب اتخاذه في هيئة الامم المتحدة في حالة انعقاد جلسة لمجلس الامن للتنديد باسرائيل ..

بالنسبة للنقطة الاخيرة إحتدم النقاش بين البريطانيين والفرنسيين، فالبريطانيون لم يرغبوا في اتخاذ موقف مفضوح الى جانب اسرائيل: وانهى النقاش كريستيان بينو الذي اضاف بخط يده فقرة جديدة الى الاتفاقية، يتكفل فيها بمساعدة فرنسا لاسرائيل في مجالات معينة!!

في المساء: كان كل شيء جاهزا، وتم اعداد بروتوكول وقعه - بالاحرف الاولى - باتريك دين، كريستيان بينو وبن غوريون .. وفي الغداة يتم ترقيع الاتفاقية النهائية ويوافق عليها نهائيا.

في ذلك اليوم جرت مشاورات بين الاسرائيليين انفسهم حول الحملة على سيناء.

أراد ديان ان يرسم مسودة خريطة للعملية.. ولم تكن في الغرفة اية ورقة.. فاخرج علبة سجائر من نوع "جيتان" الفرنسي .. مزقها .. وعلى الوجه الابيض من قطعة الكرتون، رسم ديان خريطة السويس ووضع عليها عدة اسهم تمثل اتجاه القوات الغازية..

كانت هذه علبة السجائر الثانية التي تذهب ضحية لحرب سيناء،

ولكنها هي الاخرى اصبحت وثيقة هامة من وثائق الحرب، وضع بيرس وديان توقيعهما على قصاصة الكرتون، وضحك بن غوريون وهو يضع توقيعه عليها.. وما زالت قطعة الكرتون تلك محفوظة في الملفات السرية الخطيرة .. الى يومنا هذا !

* * * * *

في الخامس والعشرين من تشرين الاول، أقلت طائرة ديغول الشيخ بن غوريون ومساعديه.. من فرنسا الى اسرائيل ..

وهنا اخذت حمى الحرب تدب في مراكز الاعصاب .. بيرس .. حول مكتبه الى مركز للاتصال الدائم بفرنسا ..

ديان .. ذهب الى قيادته العامة ليصدر امرا جديدا الى ضباطه .. الامر السابق كان امرا بالاستعداد للهجوم على شمالي سيناء بتاريخ ٥ تشرين الاول .. اما هذا الامر فهو - كما قلنا سابقا - اشد خطورة واكبر مسؤولية! انه الامر بالاستعداد لاحتلال مداخل السويس !!

أما بن غوريون، فبعد الايام العصبية المثيرة.. وبعد الفيلا البيضاء ذات الجو الاسود، فقد ارتفعت درجة حرارته واحس بارهاق قاصم.. فذهب الى فراشه لينام..

وبعد اربعة ايام تستيقظ الحرب التعسة .. حرب السويس !

* * * * *

التاريخ هو ٢٦-١٠ .. عمليات التعبئة العامة في اسرائيل على قدم وساق ..

بن غوريون يفكر في موقف الاتحاد السوفييتي. كيف سيكون؟

.. ولكنه يبتسم بارتياح .. ويقول في نفسه: أن "ثورة" المجر تشغل اليوم كل وقت الاتحاد السوفييتي، وفيها يتركز كل إهتمامه ..

هذه المرة ايضا اخطأ تقدير الشيخ الفيلسوف .. لقد صدق بن غوريون ان في المجر ثورة .. ولم يقتنع .. او أنه لم يرد الاقتناع بانها مجرد هبة رجعية سرعان ما ستزول - لم يفهم أن كل ما حدث هو ان جماعة من المجرمين (حنت) الى الرفاهية المفرطة التي كانت وقفا عليها فاصبحت ملكا للشعب كله .. لم يفهم أن هبة تلك الجماعة المضللة التي غررت بها الدعاية الدولارية اضعف بكثير من أن تلهى الاتحاد السوفييتي عن واجباته الثورية تجاه اية حركة تحررية وطنية في اية بقعة من بقاع الارض، خاصة في قلعة الثورة العربية .. مصر- (س.أ-).

واستدعى بن غوريون وزراء حزب مباي ليطلعهم على "المشروع" ..

غولده مئير .. لم تفاجأ، لانها كما قلنا في حلقة سابقة، شاهدت مولد المؤامرة من البدء!

زلمان اران .. اصابه قلق شديد!

اشكول .. كل ما فهمه من بن غوريون هو انه يطلب مبلغا من المال لشراء طائرات! (اشكول يومها كان وزيرا للمالية).

سبير - وكان يومها وزيرا للتجارة والصناعة - قال لبن غوريون: سمعت وأنا في سويسره انه تم اكتشاف كميات كبيرة من النفط في صحراء سيناء!

وقال بن غوريون مخاطبا سبير: انت تعارض الحملة على السويس؟

فاجاب سبير: أنا أؤيد توسيع حدود الدولة دون أن يكون ذلك

مرتبطا بعملية او باخرى!

وضحك بن غوريون وهو يرد على سبير:

"انني اشفق على التجار من اجاباتك الضبابية"!

* * * * *

التاريخ ٢٧-١٠-١٩٥٦ .. اليوم سبت ..

سفن فرنسية طليت بدهان جديد واعطيت لها اسماء جديدة تفرغ شحناتها - اسلحة على الغالب - في شاطىء اسرائيل!

وفي المساء .. حط في اسرائيل سرب من الطائرات الثقيلة من طراز "نورد - اطلس" .. وكان السرب محملا بالعتاد والفنيين المنقولين من قبرص ..

سربان من الطائرات المقاتلة والقاذفات من طراز "مستر" وطراز "سيفر" ف -٨٦" يسيطران على مطار اللد..

في مكتبه بالبيت الابيض، ينص ايزنهاور برقية الى بن غوريون .. وعلى بعد امتار منه رئيس قلم الاستخبارات الامريكي المركزي الان دالاس يغطي ابتسامته بشاربيه ..فهذا الرجل يعلم جيدا بكل ما يجري .. يعلم ذلك بنشاط استخباراته وبالمعاملة الحسنة من الاستخبارات الفرنسية .. وهو يعلم ان الجيش الامريكي دائما على استعداد لان يساعد! وهو يعلم ان الطائرات الامريكية تشكل في تلك اللحظات جسرا جويا بين فلوريدا وفرنسا .. وان تلك الطائرات الامريكية تنقل الى الفرنسيين شحنات من قطع الغيار للطائرات من طراز سيفر ..

ولكن الان دالاس - شقيق جون فوستر دالاس - لن يطلع

ايزنهاور على اية تفاصيل .. ولن يقدم له اي تقرير عن الاستعدادات الحربية التي تجري في دول ثالوث العدوان ..

ولماذا يفعل الان دالاس ذلك؟

لماذا لا يطلع ايزنهاور على الحقيقة الرهيبة؟.

السبب هو أن الاستخبارات الامريكية لا تتفق دائما مع حكومتها على المخططات السياسية التي ترسمها..

والان دالاس .. ومن ورائه قلم استخباراته معنى بالعدوان البريطاني - الفرنسى - الاسرائيلى على عبد الناصر، لذلك فهو يصمت .. ولذلك فهو يبتسم!!

برقيات من أيزنهاور..

ومزيد من الاسرار..

(٥)
برقيات من أيزنهاور

وضح لنا ان قلم الاستخبارات الامريكى كان على علم بما يجرى في اوروبا وما سيجرى في الشرق الاوسط.. أما أيزنهاور فقد كان كما يقول مثلنا الشعبى: "أحمد معهم يا بعدى"، ولما كانت الانتخابات الامريكية على الابواب فمصلحة أيك (أيزنهاور) تقتضى عدم التورط في حرب شرق أوسطية تصبح ذريعة في أيدى خصومه لمهاجمته في الحملة الدعائية العجيبة فى الولايات المتحدة، فيكفى ان تخرج أسراب من الفتيات الى الشوارع وقد كُتبت على افخاذهن الشعارات مثل: "أيك.. لماذا تورطت فى الحرب؟" .. ذلك يكفى كي تغدو شعبية

أيك في خطر!!

أما قلم الاستخبارات الامريكى بقيادة ألن دالاس فقد كانت لديه تقديرات أخرى تجعله يمد يد العون للثلاثى الحربجى، بينما يترك أيزنهاور قلقا.. من تحته تجرى المياه!

ويعلم أيزنهاور بعدد الطائرات المقاتلة الموجودة في اسرائيل، والذى يفوق العدد "الرسمى" الذى يعلم به. ويحس بأن مؤامرة ما تتدبر في الخفاء.. فيجلس الى مكتبه الفخم في البيت الابيض ليخط برقية الى.. اسرائيل.

* * * * *

يوم الاحد ٢٨ تشرين الاول. حكومة اسرائيل وافقت على خطة العملية الحربية. بعد الظهر يطلع بن غوريون جميع الكتل البرلمانية في الكنيست على الخطة .. ما عدا الشيوعيين.

في ساعات المساء حضر رسول مذهول الى الشيخ وفي يده برقية أيزنهاور الاولى والمرسلة بتاريخ ٢٧-١٠ .. في هذه البرقية يطلب ايك من الشيخ ألا يقوم بأية خطوة تعرض السلام الى الخطر.

بتاريخ ٢٩-١٠، وفي الساعة الخامسة صباحا ألقى حراس وزارة الدفاع الاسرائيلية القبض على رجل تبدو عليه الحيرة عند مدخل الوزارة .. ذلك الرجل كان أحد مستشارى السفارة الامريكية فى اسرائيل وفي يده رسالة خاصة أخرى من أيزنهاور الى بن غوريون وفي هذه الرسالة ايضا يحذر أيزنهاور من مغبة خوض حرب تهدد السلام في الشرق الاوسط (وتهدد منصبه في الولايات المتحدة).

وجلس يعقوب هرتسوغ ليكتب جواب معلمه الشيخ الى ايزنهاور، وفي ذلك الجواب لم يكن أي وعد من بن غوريون لايزنهاور بألا تقوم اسرائيل بالهجوم على مصر.

وذهب بن غوريون الى بيته في شارع "كيرن كييمت" بتل ابيب. وفي الساعة الخامسة بعد الظهر انضم اليه موشيه ديان : وفي تلك الاثناء كانت طائرات الداكوتا والنورد الثقيلة تقذف بالمظليين الاسرائيليين في ممر "المتلة" الذى لا يبعد اكثر من حوالى عشر كيلو مترات عن قناة السويس.

أجهزة التلبرنتر في جميع انحاء العالم تبصق الخبر المثير، "اسرائيل تهاجم مصر ".

موشيه شاريت يشترى جريدة في نيودلهى - وهو في طريقه لمقابلة نهرو ـ فيصدمه الخبر ويهز اعصابه.

سفير اسرائيل في فرنسا يعقوب صور يعلم أخيرا بالسر الخطير.

حرب السويس .. بدأت!

اسرائيل تبحث عن حلفاء

(ما يجرى اليوم فى منطقتنا يذكرنا بالاحداث التى شدت اعصاب العالم والمنطقة آنذاك .. والريح الكريهة التي هبت في حينه من اوروبا الغربية وجرفت اسرائيل فى مغامرة فاشلة ضد الثورة العربية فى مصر..تلك الريح الكريهة تهب من جديد .. تهب هذه المرة من واشنطن وتحاول ان تجرف اسرائيل .. نحو عدوان جديد.

العين الحاقدة التى تحدق اليوم فى العرب .. حدقت من قبل فى

سنة ١٩٥٧ في عهد غير المأسوف عليه جون فوستر دالاس ..

في ذلك العام كثرت رسائل الغرام بين دالاس و"ممثله" فى الشرق الاوسط بن غوريون ..

محتوى تلك الرسائل كان يتركز في الاغلب حول سوريا. شحنات الاسلحة السوفييتية التى افرغت في ميناء اللاذقية وصل خبرها الى بن غوريون فخف يكتب الى اسياده في واشنطن يحذرهم من خطر "تسرب" الشيوعية الى الشرق الاوسط ويحضهم للدفاع عن الامم "الحرة" في المنطقة بصفتهم قادة للعالم "الحر" ..

غاية بن غوريون تبرر واسطته .. وغايته التى لا تخفى على احد، هي ضرب كل حركة تحررية في الشرق العربى والمحافظة على كل نظام رجعي، وهو في سبيل ذلك مستعد لمحالفة الشيطان .. لانه اعجز بكثير من ان يقوم بالمهمة وحده.

وانطلق مراسيل الشيخ المتآمر الى الدول الرجعية ذات الانظمة المتعفنة في المنطقة .. الى ايران وتركيا والحبشة .. وفي سرية تامة التقى مراسيل الشيخ "بزعماء" تلك الدول، شركائه فى العمالة للدول الاستعمارية الرأسمالية .. وفيما بعد وصلته الردود "الايجابية" من شركائه في خدمة الشيطان.. انهم يقفون الى جانبه فالذي يجمع بينهم كثير .. وفي مقدمته العداء الاسود المرضى لمد الوعى العربى المتدفق دوما الى امام رغم المؤامرات والعقبات التى تحمل هوية اسرائيلية - ايرانية - تركية - حبشية .. حظيت بتوقيع العم سام وتشجيعه).

محاولة التذليل لحلف شمالي الاطلسي

أخذ بن غوريون على عاتقه مهمة الظهور امام الامريكان بمظهر "البطل" الذى جاء "لينقذ" الشرق الاوسط من الشيوعية. وحذر اسياده في واشنطن من الخطر الذى تنطوى عليه التطورات في سوريا. اراد اقناعهم بأنه امريكى اكثر منهم لتحقيق حلم بعيد المدى .. كانت تراود بن غوريون الرغبة في ان يربط اسرائيل بمخططات الدفاع الاوروبية، خاصة بحلف شمالي الاطلسي.

باشر الشيخ في العمل من اجل تحقيق هدفه. في شهر ايلول بعث مستشاره يعقوب هرتسوغ فى مهمة خاصة الى واشنطن.

وفي شهر تشرين الاول التقت غولده مئير بدالاس في العاصمة الامريكية. وكانت تحمل تعليمات واضحة من بن غوريون حول المواضيع التى يجب دراستها مع زميلها الامريكى.

مقترحات بن غوريون كانت على الوجه التالى:

١- ان ترسل أمريكا انذارا الى الاتحاد السوفييتى لوقف تغلغله في الشرق الاوسط.

٢- التنسيق في السياسة تجاه الشرق الاوسط بين امريكا وحلف شمالي الاطلسى من جهة واسرائيل من جهة اخرى.

٣- ان تقدم امريكا لاسرائيل مساعدات لتطوير الموانىء والمطارات حتى تصبح "قاعدة" صالحة في ساعات الطوارىء.

٤- ان تكف امريكا عن سياسة التقنين في الاسلحة وان تزود الجيش الاسرائيلى بها حسب طلبه.

٥- ضمان المساعدة الامريكية لاسرائيل في حالة وقوع هجوم

عليها من مصر او سوريا.

سمع الامريكان بأدب جم مقترحات بن غوريون من بين شفتى غولده مئير. لكنهم لم يصدروا في الحال قرارا بشأن تلك المقترحات.

وطارت رسالة اخرى من بن غوريون الى واشنطن قال فيها لارباب نعمته: "لقد آن الاوان ان يصبح الدفاع عن اسرائيل مندمجا بالدفاع عن العالم "الحر" كله .. فأمن أوروبا "الحرة" سيظل ناقصا ما لم يضمن الدفاع عن الدول "الدمقراطية" فى الشرق الاوسط (جمع الاقواس من المعلق)!

لم يكتف بن غوريون بتوجيه الرسائل، فأطلق مساعديه ومستشاريه الى دول اوروبية من فرنسا الى المانيا الغربية الى هولنده .. وحاول مساعدوه اقناع المسؤولين الغربيين بوجهة نظر بن غوريون ولكن عقبات معينة حالت دون ذلك بصورة مباشرة لان للاستعمار حساباته الخاصة واعتباراته الخاصة وقد يورطه "تبنيه" المكشوف لاسرائيل فى مشاكل أخرى مع العالم العربى هو فى غنى عنها .. في ذلك الحين ..

نشاط بن غوريون لم يقتصر على "الجبهة" الاوروبية ..

فكان رجاله ينطلقون بشكل سرى الى مناطق اخرى من العالم .. يحملون احلام بن غوريون ويعرضونها على قادة من صنف آخر ..

الى اين ذهب هؤلاء الرسل؟

وماذا حملوا معهم عند عودتهم الى اسرائيل؟

(٦)
وانطلق المراسيل

(اذن، فمحاولة بن غوريون ضم اسرائيل رسميا الى حلف شمالي الاطلسي لم تكن موفقة كل التوفيق .. ورغم كسبها تأييد الفرنسيين فقد اصطدمت ببرود البريطانيين وتقديراتهم الانانية جدا ..
هذه النتيجة لا يمكن ان تثني عزيمة رجل من ماركة بن غوريون .. واذا سدوا في وجهه الباب فليدخل من النافذة .. وجمع الشيخ العنيد مستشاريه واعوانه من قادة اسرائيل ليدرس معهم خطط المستقبل على ضوء التقارير النهائية الواردة من اوروبا ..

ورسمت الخطة ..

الان يجري العمل على جبهتين .. الاولى اوروبية، وفي المانيا الغربية بالذات.

الثانية في بلدان الشرق الاوسط المعادية لحركة التحرر العربية).

خلال أيام معدودة حدثت تطورات مثيرة في الشرق الاوسط .. في كانون الثاني من سنة ١٩٥٨ تمت الوحدة بين مصر وسورية بمبادرة الزعماء السوريين الذين (وضعوا عبد الناصر في موقف حرج) فلم يجد بدا من اعلان الجمهورية العربية المتحدة.

هذه الوحدة اخافت حكام العراق والاردن من الحركة الناصرية فاعلنوا عن توحيد القطرين في "الاتحاد العربي"..

هذه التطورات اقلقت الدول غير العربية الموجودة في المنطقة مثل تركيا وايران والحبشة وعجلت في ميلاد حلف معنوي بينها

وبين اسرائيل.

تركيا أصابها الذعر من نشوء قوة عربية تكون معادية لها من الجنوب بالاضافة الى عداء الاتحاد السوفييتي من الشمال .. وايران كانت في خلاف شديد مع العراق حول اراضي الحدود وكانت خائفة من انتشار الناصرية جنوبا وتهديد النظام القائم فيها .. وسكان هذه الدول مجتمعة مع اسرائيل يزيد عددهم عن عدد العرب في الشرق الاوسط فلماذا لا يقوم بينها حلف وثيق؟

وبوشر في التنفيذ .. علاقات صداقة متينة قامت بين اسرائيل وملك الملوك هيلاسيلاسي!

علاقات صداقة وحسن نية قامت بين اسرائيل والشاهنشاه الفارسي ..

أما تركيا فقد ظلت حتى ذلك الوقت تظهر شيئا من التحفظ تجاه اسرائيل! بسرية تامة وعلى طائرات وسفن (اقترضتها) اسرائيل خصيصا، وتحت جنح الظلام انطلق مراسيل بن غوريون الى جهات الشرق الاوسط المختلفة..

البعثة التي التقت بالقيصر الحبشي وصلت الى اتفاق متين بين اسرائيل والحبشة في الشؤون السياسية والاقتصادية والعلمية وتم حلف سري مع الحبشة..

البعثة التي انطلقت الى ايران والتقت بالشاه الفارسي لاقت نجاحا باهرا هي الاخرى..

أما تركيا فقد ترك أمرها الى الياهو ساسون الخبير بالشؤون العربية .. والتقى ساسون بوزير خارجية تركيا زوغلو .. وبعد أن

عرض عليه الفكرة اقترح زوغلو عقد اجتماع على مستوى اعلى بين مسؤولين كبار في الحكومتين.

في هذه المرحلة قرر الشيخ بن غوريون القيام بخطوة في اتجاه آخر، وذلك لجس النبض في الدول الكبرى حول (الحلف العتيد).

في اوائل ايار من سنة ١٩٥٨ اجتمع الجنرال موشه ديان بالفيلدمارشال البريطاني المتقاعد مونتغومري .. فشرح له الفكرة .. وتحمس المحارب البريطاني العجوز ووعد بعرض الفكرة على الجنرال ايزنهاور اثناء زيارته له في واشنطن.

شيء آخر ساعد اسرائيل في تلك الفترة وهو الوضع في العالم العربي، ففي الرابع عشر من تموز تفجرت في العراق ثورة الجنرال عبد الكريم قاسم ..

الملك فيصل في بيجامه يستعد للموت .. ونوري السعيد هرب في زي إمرأة ولكن الجماهير اكتشفته من جرابه الرجالي فقبضت عليه وقطعته إربا في شوارع بغداد ..

في لبنان حرب أهلية ..

وفي الاردن .. القوى الوطنية تغلي ضد النظام الملكي .. حسين حبيس في قصره ورجال المظلات الانجليز يصوبون الرشاشات من فوق السطوح لحماية الملك.

واستغل بن غوريون الوضع فكتب رسالتين طويلتين جدا الى كل من ديغول وايزنهاور يشرح لهما موقفه وفكرة الحلف الذي ينوي اقامته!

الولايات المتحدة قالت : نـعـم!

في رسالته الى الرئيسين الامريكي والفرنسي، كتب بن غوريون:

(في هذا الحلف تشترك دولتان مسلمتان غير عربيتين (تركيا وايران) ودولة مسيحية واحدة (الحبشة) واسرائيل).

(لقد بذلنا حتى الان مجهودات لاقت النجاح، واذا رأت حكومتك هذه التجربة بعين الرضى فانها تستطيع ان تقدم لنا مساعدة فعالة وان تصبح عنصرا (هاما) في الحلف).

ثم يتكلم بن غوريون عن الدول التي يقترح اقامة الحلف معها فيؤكد للدولتين الاستعماريتين بأن اسرائيل تتطوع لتكون قناعا للتدخل الاجنبي في تلك الدول فيقول :

(في جميع تلك الدول هناك خوف - معلن او غير معلن - من تسلط الدول الاجنبية عليها، هذا الخوف غير موجود عند تلك الدول بالنسبة الينا، حكومات تلك الدول تعاملنا بثقة تامة).

وقد جاء رد الامريكان "ايجابيا" للغاية وابدى كل من ايزنهاور ودلاس وزير خارجيته تأييدهما وباركا الفكرة بملء صوتيهما.

تركيا توثقت علاقاتها باسرائيل حتى سنة ١٩٦٠.

وعند نشوب الانقلاب العسكري فقد طرأ تحول على سياسة تركيا تجاه اسرائيل.

أما ايران والحبشة واسرائيل فقد ازدادت العلاقات بينها قوة وتحولت الى دول متحالفة ولكن بدون احتفالات رسمية وبدون تواقيع ومظاهر فخفخة؟

خلاصة القول

من خلال الجو البوليسي الذي عشناه طيلة احداث "الطريق الى السويس" وبعد المغامرة الفاشلة تطالعنا، من جديد الحقيقة الدامغة، وهي ان قادة اسرائيل مارسوا دائما وما زالوا يمارسون سياسة اللعب بالنار .. سياسة المشاركة مع الاستعمار وخدمة مشاريعه .. وفي الحلقة السابقة رأينا بن غوريون يقوم بعملية اغراء مثيرة لتحويل اسرائيل الى "قاعدة صالحة في ساعات الطوارىء" لخدمة الامبرياليين ودهاقنة الاحتكارات ضد حركة التحرر العربي وضد جميع شعوب المنطقة.

في قصة الاندغام في الاستعمار وشن العدوان الثلاثي الفاشل على مصر، في هذه القصة كثير من "المتعة" وكثير من الاثارة! ولكننا لم نحمل انفسنا مشقة نشر غسيل الحكام القذر لمجرد التدليل على تاريخهم المغامر الحافل بالشر .. لكن لنحذر من احداث مماثلة قد تقع في كل لحظة ..

فالسياسة الجيمس بوندية ما زالت هي المحببة لذوي الرؤوس الحامية في اسرائيل .. والتطورات الطبيعية لهذه السياسة حبلى بالمخاطر.

التطورات الاخيرة في شرقنا تدل على ان الاخطبوط الاسود .. اخطبوط الفيلات البيضاء والطائرات المخبأة في كراجات المطارات العسكرية، ما زال يحرك اذرعته في شتى الاتجاهات .. وواجب القوى الدمقراطية الحقيقية والتقدمية .. واجبها الملح هو ان "ترفع البوق الى فمها وان تكون كالنسر على بيت الرب".. ورحم الله اشعياء فقد فهم كثيرا، ولم يفتقر صوته لنبرة الحق والحقيقة!

«الفساد» وحتمية التاريخ
حرب رمضان ١٩٧٣

(١)

لكل حرب قاموسها .. ولما كانت حروب اسرائيل كثيرة، فقد كثرت قواميس الحرب فيها. ويخيل لي احيانا انه اذا ما استمرت الحال على هذا المنوال فسيجيء يوم تصبح فيه مفردات القتال ومصطلحات النزال صاحبة الصدارة في (لغتنا العبرية)!

أبرز كلمتين اتت بهما "حرب حتمية التاريخ" - المسماة ايضا حرب رمضان او حرب يوم الغفران - هما كلمتا: "زلزال" و "محدال".

أما الزلزال فنعرفه، وأما "محدال" فهي لفظة عبرية، فعلها الثلاثي هو "حدل" ومعناه "كف" او "توقف".. وهي تخبر باختلال النظام وقصور الوتيرة.. ولما لم يجد المترجمون لفظة عربية مطابقة لها تماما فقد تراوحت ترجمتها بين "الاهمال" و"التقصير".. وازعم أن اللفظة العربية المقابلة من حيث المضمون العام، لا الحرفي، هي لفظة "فساد" لانها اللفظة التي تطفو على سطح القاموس وتبرز بين سواها من التعابير العربية التي تفسر النكسات او تبررها.

اذن، فمنذ الحرب الاخيرة اصبحت كلمة "فساد" من اكثر الكلمات شعبية ورواجا في سوق الصحف والمنتديات واقبل القوم على استهلاك هذه الفاكهة الجديدة المرة وتداولتها الالسن والاسماع بصخب قمر عنه ذلك الصخب الذي اشتهرت به الاغنية "يروشلايم شل زهاب" (اورشليم الذهبية)، في اعقاب احتلال القدس العربية في عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧.

وأخيرا تم تتويج كلمة "فساد" ملكة على قاموس الحرب الاخيرة، بصدور اول كتاب وثائقي عن هذه الحرب بعنوان "الفساد". وقد طبع هذا العنوان ببنط عريض على خلفية، تغطيها صورة السيدة غولده مئير مجهشة بالبكاء.

أسهم في وضع الكتاب سبعة من ابرز الصحفيين في اسرائيل كانوا جميعا ضباطا او جنودا أو مراسلين عسكريين في اكثر من حرب اسرائيلية، وهم: يشعياهو بن فورات، يهونتان جيفن، اوري دان، ايتان هابر، حازى كرمل، ايلي لانداو، وايلي تابور. وقد اصدرت الكتاب "دار نشر خاصة"، ونعتقد ان اية من دور النشر المعروفة في البلاد ما كانت لتنشر مثل هذا الكتاب الوثائقي، لانها غير معنية على الاطلاق، بذر الملح على الجرح!

تتصدر الصفحة الاولى من الكتاب قصيدة للشاعر الصهيوني المعروف حاييم نحمان بيالك.. وهذه القصيدة تذكرنا بافتتاحيات المسرحيات التراجيدية اليونانية التي توحي بالجو القادم في اعقابها.. وقصيدة بيالك تحمل عنوان "رأيتكم ثانية في عجزكم"، وهي تنز اسى ومرارة، ولتذهب روحي ان كان في نفسي ذر من الشماتة!

من ثم، يأتي مدخل الكتاب، وضعه المؤلفون لشرح الملابسات

التي دفعتهم لاصدار عملهم المشترك، فهم يقولون في المدخل:

"... بعضنا أتيحت لهم الفرصة لمشاهدة الحرب وفظائعها، ورؤية وجهها الخفي عن عيون الكثيرين. عدنا من الحرب والفينا انفسنا جزءًا من شعب حزين، مهموم، قلق، تلاحقه علامات الاستفهام. عدنا الى منازلنا وروتين اشغالنا، ووقفنا مذهولين ازاء اولئك الذين يحاولون الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث، وكأنما لم تقع هذه الحرب، وكأنها لم تغيرنا جميعا. وقفنا مذهولين في مواجهة محاولات التغطية والطمس واخفاء الفساد الذي ادى الى هذه الحرب، بحيث تبدأ كما بدأت وتنتهي كما انتهت، وفي مواجهة اوهام القادة الذين يحاولون التملص من مسؤولية الفساد الرهيب".

ثم يعترف المؤلفون بأن بعضا منهم اسهموا قبل الحرب في نشر الرعونة والطيش "والاستخفاف بالعدو" والثقة الذاتية المطلقة وسائر العناصر التي يتركب منها ما يسمونه "الفساد".

بعد اعترافهم يؤكدون على حق الجماهير في معرفة جذور ما حدث، فالمعرفة حق اساسي، وهم لا يريدون الاسهام في مؤامرة الصمت" التي تحاك حول الزلزال ومسبباته. وهم يرون في نشر هذا الكتاب استجابة للضمير الصحفي والواجب الوطني.

ثمة مدخل آخر للكتاب، هو صفحات مجتزأة من مقابلة صحفية مع ضابط اسرائيلي في سلاح المدرعات .. وقد جرت المقابلة في اكتوبر ١٩٧٣ على هضبة الجولان المحتلة:

"* اسمي ايلي- زي بعضه، فعلى اية حال لن تنشروا أسمي. عمري اليوم ٢٦، وانا طالب جامعي، اكرهكم، اكره الصحفيين الذين يرتزقون من الجثث، ويمجدون الحرب بالالفاظ الكبيرة الصاخبة. لن

انسى اللحظة التي رجعت فيها من المعركة على مفرق الرفيد في الهضبة. على دبابتي كان ١٤ جريحا، استطعت انقاذهم من الدبابات الأخرى التي كانت في كتيبة. من بين جميع دبابات الكتيبة بقيت دبابتي وحدها. وحين بلغت نقطة تجميع المصابين، مثقلا بالجرحى النازفين، الممزقى الاطراف، هجم علينا مصور وصحفي من التلفزيون، هو ذلك الذي يضع نظارة طبية (ليس الذي يذيع من الكنيست)، وفي حنان الابداع الفني، راحوا يصورون الجرحى. في تلك اللحظة راودتني الرغبة في اطلاق النار عليهم، على تلك المخلوقات، التي تنتشل القصص المروعة من الاشلاء العائدة من المعركة، تلك المخلوقات التي تقبع كغربان الجيف في محطة تجميع المصابين، منتظرة العائدين.

ما هو البطل؟ لا اعتقد انني بطل. كل الابطال الذين كانوا معي، اصبحوا في عداد الموتى. انا مجرد ضابط مدرعات يريد ان يعيش، وقد ادركت انني ما لم اواصل السير واطلاق النار فساكون المصاب القادم. وعلى اية حال، من ذا الذى حارب من اجل هذا الشعب؟ ربما ١٠٪ من هذه الكومة الكبيرة التى يسمونها جيش الدفاع الاسرائيلي، وفى الاساس طواقم الدبابات. وما هو عدد هؤلاء؟ وان كنتم تعتقدون ان جميع هؤلاء يحاربون، فانتم على خطأ. هناك بضعة منهم فى كل فرقة، وهناك المحبطون، والمترددون الذين يحاولون انقاذ حياتهم، ولكن غالبا ما يفوتهم الاوان، فيتلقون الضربة مثل الآخرين. انتبهوا الى الذين سقطوا فى المعركة! () تقريبا من القتلى هم من القادة. فكروا فى هذا ربما كان القادة ١٠٪ من المحاربين، وبين القتلى (-) من القادة!

أقول الحقيقة، لقد مللت هذا الوضع. إجتزت ثلاث حروب: حرب الايام الستة، حرب الاستنزاف، وهذه الحرب. حين سمعت في الراديو عن الحرب صرت ارتجف. كنت واثقا من انني ساموت هذه المرة، فلم يعد باستطاعتي اللعب بالتملص من ملاك الموت. في حرب الاستنزاف اصابتني شظايا في الجبين والعنق، وتعرض عمودي الفقري لضربة من غطاء الدبابة بقوة ١٥٠كغم، وكنت مهددا باصابة شلل مزمنة. لكنني كنت آنذاك اكثر شبابا. في حرب الايام الستة كنت مع ايهود العاد، اذا سمعتم عنه- كان قائد فرقة عندنا في سلاح الدبابات. اجتزت معه معركة الجرادة. فصل كامل كتب عن هذه المعركة في كتاب "مكشوفون على الدبابات"، آنذاك ظننا انه لن يكون اسوأ من هذه المعركة، لقد ارتجفنا حتى الخصيتين، من قصف الهاونات المصرية التي انصبت علينا كالمطر. هذه المرة حين قصفونا بالهاون استقبلنا ذلك بالابتسام، ولكن في هذه المرة سقط علينا كل ما اخترعه الانسان حتى يقتل المرء زميله: مدافع، دبابات، مدافع محمولة على سيارات الجيب، قذائف مضادة للدبابات، هاونات، سلاح خفيف، وكل ما تتصورونه. حين اتذكر ما علمونا اياه عن معركة موشيه بريل على سد زوافه في حرب سيناء عام ١٩٥٦، فانني اتذكر اننا جميعا انفعلنا آنذاك بالبطولة. أما اليوم فذلك يثير ضحكنا. كل موقع محصن على هضبة الجولان كان معركة اقسى بكثير من حكاية بريل تلك. ما فعلته طواقم الدبابات هذه المرة، لو فعلته في الحروب الماضية، لكانوا يبوسون اقدامنا ويغطونها بالميداليات.

في حرب الاستنزاف كنت اكثر فتوة، واكلت كل الخرا في موقع

شمالي القناة، ذلك الموقع الذي كان معزولا عدة ايام ولم يكن من الممكن وصول الامدادات اليه. اي شيء لم يجربوه؟ على الجمال عبر المستنقعات على ظهور المظليين، وغير ذلك. كنا معزولين في الموقع حتى مع جثث زملائنا الذين سقطوا. أخذ شعري يتساقط من هذه الحكاية، حيث لم يكن لدينا أي طعام يحتوي على فيتامينات. وصدقوني انه ليس في عائلتي ميل للصلع. لكننا كنا نعلم آنذاك اننا لو تحركنا ٢٠٠ متر الى الخلف، من القناة الى تحصيناتنا لكان باستطاعتنا تناول وجبة غذاء. اما اليوم فلم يخطر في بالنا شيء كهذا، حيث لم يبق من وحدتنا سوانا انا وقائد الفرقة. لقد تلقى قائد الفرقة ضربة من طائرة ميغ انقضت عليه بصورة خاطفة، واصابت ٥٠ مترا امامه. ما عاد يريد دخول الدبابة. اما انا، بجانبه، فقد بدا لي الوضع اقل رعبا وواصلت السير لانقاذ زملائي من سائر الدبابات المصابة. في هذه الاثناء استدعوا الفانتومات لتساعدنا في هذه المعركة المروعة، وهنا وقع الشيء الذي كاد يحطمني تماما. كنت قد انزلت شارتي الجوية عن الدبابة بسبب ضجة السفر. ويبدو ان أحدى الفانتومات قررت انني أنا ايضا انتمي الى العرب، فقذفتني بصاروخين، ولا اعرف، كيف، باعجوبة، سقطا على بعد ثلاثة امتار خلف دبابتي. ومن جراء دوي الانفجار المرعب طار رفرف الدبابة وانزل ضربة عنيفة بظهري، نفس الظهر الذي اصيب في حينه، في حرب الاستنزاف، ومنذ ذلك الوقت طالبني الاطباء بالحذر حتى لا اصاب بشلل نصفي. والذي قتلني تماما هو انني حين ابلغت قائد الفرقة بان طائرة فانتوم هاجمتني، رد علي ببرود غير طبيعي "ماذا؟ لم يصبك؟ هذا غير مألوف منهم!"

حين وصلت نقطة تجميع المصابين، كنت لا ازال غير قادر على استيعاب كل مشاهد فرقتي، المبددة المصابة، ولا سيما موت اوري. اوري كان صديقي منذ طردنا معا من دورة نظامية. اجتزنا معا دورة قادة الدبابات. كان في سني، جميلا، بصورة غير طبيعية. يوم تزوجت قبل اربعة اشهر، طلب مني أن أريحه من سخافات الحديث عن الزواج. اما الان، فهو بالتأكيد لن يتزوج. في نقطة تجميع الجرحى التقيت بوجه اعرفه. قال انهم ارسلوه الينا ليغني. سالته من يكون، وحين قال لنا أسمه انفجر الجميع ضاحكين. قلت له ان يذهب الى جهنم، وليغن في بيته. ماذا يعتقدون؟ افي غمرة هذا الجنون حيث الجميع يقتلون ويجرحون من حولنا، يبقى لاى منا مزاج لهراء اغاني الحرب تلك! ليذهب وليضحك الابطال في المؤخرة. صدقوني أنه ما من أحد سوانا يعرف ما هي الحرب، وما معنى حاجتك، ليس للجهد الجسماني فحسب، بل للجهد الفكري ايضا، حتى لا يكون الجندي السوري البادىء في اقتناصك. التعرض للقصف ليس هو الحرب. هناك، أما انك تصاب او لا تصاب. اما عندنا فان الذي يتردد للحظة، والذي يصعب عليه التفكير بسرعة، فهو الذي سيتلون عليه صلاة الموتى.

أبي يحكي لي انه عاش اربع حروب. هذا صحيح، في الحرب العالمية الثانية كان حارسا في معسكرات صرفند. في حرب التحرير اشترك في الحصار في بن شيمن. حتى انه رأى بعض القذائف. انظروا، كيف انهم جعلوا من حرب التحرير مسألة كبيرة. تعالوا ناخذ المعارك الكبيرة التي وقعت مع القوافل في طريقها الى القدس المحاصرة، تلك المعارك التي تعتبر مجد حرب البعث، ماذا حدث هناك. اطلقوا النار قليلا، ومات البعض هنا وهناك، ولكن في غضون سنة كاملة قتل هناك ما قتل عندنا في معركة واحدة.

ماذا أقول لكم؟ ان الحروب تتطور وأنا أرتجف. سمعت أن زملاءنا على القناة اصابتهم تلك الصواريخ التي ماذا يسمونها؟ "ساجر". نحن هنا لم نعرف بذلك، وربما عرفنا. ولكن من يعرف نوع الضربة التي تلقتها الدبابة المجاورة له؟ على أية حال فان الخوف من تلك الاشياء التي تتطور يفقدني الهدوء. انا اعرف انها مسألة وقت، حتى اقتل. اتقولون انني عملت ما فيه الكفاية؟ وان اعطى للشبان الاخرين مهمة مواصلة الموضوع؟ يا حبيبي، كما اعرف نفسي، فانني اعرف كراهيتي لها. لماذا؟ لانني قائد دبابة، والتهمت ثلاث حروب، وخوفي من القذائف اقل من خوف سواى، وأنا اتفوق كثيرا على أي شاب ياخذونه ويجعلون منه فجاة قائد دبابة.

لن انسى كيف انهم في احدى فترات خدمتي الاحتياطية، ارسلوا الينا مظليا ما، ليشرح لنا جغرافية البلاد، وكيف ان ذلك الولد اخذ يتكلم عن الحرب القادمة بحماس وكيف اننا سناخذ دمشق. اما انا فقد راودتني الرغبة في صفعة. واليوم، لن تصدقوا، انني حين عدت الى نقطة تجميع المصابين مع الجرحى الاربعة عشر على متن دبابتي، فقد رأيت سيارة جيب للدورية ومن تحت تلك القذارة تعرفت على ذلك المظلي الذي يحب الحروب. ذكرته بلقائنا السابق وقلت له ان ينظر جيدا الى الاصدقاء على دبابتي، واذا كان لا يزال متحمسا لهذه المسألة .. وقد نكس هذا الرجل عينيه في خجل"..

(٢)
العودة الى الحجم الطبيعي

نستعرض هنا فصلين من كتاب "الفساد"-

الفصل الاول هو "ظل الكارثة"، والثاني هو "ولهم عيون ولا يبصرون"، ولما كان الفصل الاول قائما على تسجيل الانطباع العام عن الوقائع الحربية على جبهتي السويس والجولان، بينما يتناول الفصل الثاني بعض المقدمات الاستخبارية السرية السابقة لاشتعال النار، فقد ارتأينا تقديم فصل على فصل، صونا للتسلسل المنطقي..

(ولهم عيون ولا يبصرون ..)

يسجل المؤلفون في هذا الفصل زعمهم بان الاستخبارات الاسرائيلية والاستخبارات الامريكية المتعاونة معها في مجال احتلاب الاسرار العسكرية العربية، عرفتا مسبقا بالتحرك العربي نحو تجديد القتال، غير ان المعلومات المتجمعة لدى القيادتين العسكرية والمدنية في اسرائيل، قوبلت بالحكم الخاطىء "امكانية الحرب ضئيلة" و "يبدو ان شيئا لن يحدث" ..

ويرد المؤلفون نكسة اسرائيل الى "سلسلة اخطاء تراجيدية في ثلاثة مجالات":

"خطأ الاستخبارات العسكرية، التي هي العنصر المسؤول عن تجميع المعلومات حول تحركات العدو واستخلاص النتائج المطلوبة.

خطأ الذراع المدنية - التي هي حكومة اسرائيل، او، لمزيد من الدقة، "برلمان الحرب" المقلص الذي اقيم بمبادرة رئيسة الحكومة

وبمسؤوليتها الشخصية- وقد اخطات (الحكومة - س.أ) في تقدير الوضع، وسقطت في فخ التضليل الذي نصبه العدو، ولم تعبأ بالتحذيرات المتواصلة التي تلقتها من مصادر استخبارية مختلفة.

خطأ القيادة العليا لجيش الدفاع الاسرائيلي، التي لم تعارض تقديرات الاستخبارات و"برلمان الحرب"، ولم تهيىء نفسها كما ينبغي لامكانية الهجوم الشامل على الجبهتين، ولم تتصرف بالسرعة والفعالية المطلوبتين حين فرضت الحرب، فعلا، على اسرائيل".

في هذا الفصل كما في معظم الفصول الاخرى ينطلق المؤلفون من تقدير العنصر الذاتي الاسرائيلي ولا ياخذون بعين الاعتبار العنصر الموضوعي المتجسم في التحولات العسكرية والسياسية الكبرى التي طرأت على قوى الجانب الآخر - الجانب العربي، ولا نعرف اذا كان تجنب الدوائر المسؤولة في اسرائيل "للاخطاء" المذكورة، سيغير كثيرا مما حدث، وعلى أية حال فلا يجوز لنا أن ننسى ولو للحظة واحدة ان هذه الوثيقة تعكس احدى وجهات النظر الاسرائيلية، وافكارها وهواجسها تنسحب على عقلية قطاع واسع من السكان، ولعل هذه الوثيقة تستمد اهميتها من هذه الحقيقة، من حقيقة كونها انعكاسا لجو نفسي وفكري عام يغطي شريحة واسعة من الاسرائيليين.

نعود الى الؤلفين السبعة، فنراهم يردون سوء التدابير الى سبتمبر ١٩٧٠ "حيث قامت مصر -بالمساعدة الفعالة من الاتحاد السوفييتي- باستغلال وقف اطلاق النار الذي وضع حدا لحرب

الاستنزاف. فمنذ الليلة الاولى لوقف النار قدمت مصر ١٢ قاعدة صاروخية مضادة للطائرات، من طراز سام ٢ وسام ٣ باتجاه ضفة القناة الغربية. ومنذ ذلك اليوم وفي الايام التي تلته، باشرت، بمحاذاة القناة وبوتيرة متسارعة، في بناء جدار صاروخي كثيف غطى ايضا الضفة الشرقية لمسافة ٢٠-٣٠ كم، ومنع سلاح الطيران الاسرائيلي من القيام بعملية فعالة في هذه المنطقة، منذ اواخر ١٩٧٠ وبمرور الزمن كان من الجدير بان يكون واضحا، ان سلاح الجو الاسرائيلي الذي ضمن النجاح الخاطف للجيش الاسرائيلي، في حرب الايام الستة، خلال الساعتين الاوليين من ٥ حزيران ١٩٦٧ -حيث دمر معظم سلاح الجو المصري في قواعده على الارض- لم يعد قادرا في اكتوبر ١٩٧٣، على القيام بدور حاسم في وقف الهجوم المصري وصده، بسبب كثافة الصواريخ المصرية. "على سلاح الجو الاسرائيلي ان يحارب بضراوة ضد قواعد الصواريخ على الجبهتين"- هذا ما ورد في تقرير وزير الدفاع موشيه ديان الى رئيسة الحكومة السيدة غولدة مئير، فى ثاني ايام الحرب".

من ثم يعود المؤلفون الى توجيه النقد لموقف القيادة الاسرائيلية من التحذيرات المتتالية بقرب نشوب الحرب، ويزعمون أن خطر الحرب اخذ يتضح منذ نيسان وايار ١٩٧٣ وانه كان اكيدا قبل نشوب الحرب بعشرة ايام كاملة.

ويقدم المؤلفون سلسلة من مصادر المعلومات المتجمعة عن قرب نشوب الحرب، ويدهش المرء حين يرى ان مصدرا اساسيا لهذه المعلومات هو الصحف العربية التي تنشر برعونة واضحة معلومات تعتبر في الدول الواعية معلومات عسكرية امنية سرية للغاية.

وعلى سبيل المثال، نسوق ما اخذته الدوائر المهتمة بالامر في اسرائيل، عن جريدة "النهار" البيروتية التى نشرت في ٢٨ ايار ١٩٧٣ ان قوات عسكرية مصرية تنقل ليلا ونهارا من منطقة القاهرة الى منطقة القناة وان حالة الاستعداد القصوى اعلنت في الجيش المصري، لامكانية القيام بتنفيذ قرار مصيري، قد يسلم للجيش فى كل لحظة!

نحن نرى ان مثل هذا النبأ الذي نشرته "النهار" يصلح نصا كاملا لبرقية يوجهها جاسوس اسرائيلي او امريكي من القاهرة الى مقر قيادته.

ويلاحظ القارىء ان بعض الصحف العربية تنشر انباء مثيرة وبارزة عن زيارات وتحركات "سرية" على غاية من الخطورة.. حرية صحافة؟ وهل يعني ذلك ان تكون الصحافة سائبة على هواها وعلى هوى مموليها السريين والعلنيين؟

هنا يطرح السؤال نفسه: ما دامت الاوساط المسؤولة فى اسرائيل قد حظيت بكل المعلومات المطلوبة، فلماذا لم تقم -كعادتها- بشن ما درجت على تسميته حربا رادعة.

يرد المؤلفون على هذا السؤال، بانه منذ تلك الايام (نيسان-ايار ٧٣) كانت تسود اسرائيل نظرية سياسية وعسكرية يتزعمها موشيه ديان، هى النظرية القائلة بان من غير المعقول ان يقوم المصريون بشن حرب شاملة وواسعة، وانهم سيحاولون عبور القناة فى موقع محدد بهدف اقامة جسر مؤقت على ارض سيناء. وكانت قيادة الجيش الاسرائيلي والوزراء الذين يتمتعون بحق معالجة الامور الامنية، على اقتناع بان الجيش الاسرائيلي سيكون قادرا على "نفض" القوات المصرية المهاجمة وابعادها عبر القناة - حتى قبل ان تتمكن

الدول الكبرى من التدخل وفرض وقف اطلاق النار. بواسطة مجلس الامن.

ويرى المؤلفون ان القيادة الاسرائيلية كانت ضحية لحرب نفسية عربية منظمة بدقة شديدة فبقدر ما كان السادات يتحدث عن قرب المعركة ويحدد مواعيدها، بقدر ما كان المسؤولون الاسرائيليون يقللون من اهتمامهم بتصريحاته، وكان الرد الاسرائيلي الرسمي دائما: "هذا غير جدي، لن يحدث شيء" .. و "تنبغي الاشارة الى ان الاستخبارات الامريكية (سي. آي. اي) تأثرت بشكل حاسم، بتقديرات قسم الاستعلامات العسكرية الاسرائيلي. وبعد حرب الشرق الاوسط بفترة قصيرة، طرد ضابطان ومدني واحد على الاقل من مناصب عليا في الاستخبارات الامريكية، بسبب تقديراتهم الخاطئة. وقد نجمت اخطاؤهم -الى مدى بعيد- عن التقديرات الخاطئة لدى زملائهم الاسرائيليين".

عشية الحرب، وفي يوم الجمعة الخامس من اكتوبر، على وجه التحديد، دعت غولدة مئير "برلمانها الحربي" الى جلسة طارئة حضرها بعض الوزراء، وتأخر بعضهم، وتغيب آخرون. ولم يشترك بنحاس سبير لانهم "لم يعثروا عليه فى ذلك اليوم، وقد علق على ذلك بعد الحرب بقوله: لم يعثروا علي لانني صغير الحجم!"

ومهما كان من أمر، فقد بدأ الاستعداد وألغيت الاذونات واعلنت حالة الاستعداد القصوى في سلاح الطيران. وفي منطقة الجنوب صدرت اوامر الاستعداد الاخيرة التى اخذت بالحسبان امكانية بدء

حين وصل الجنرال غونين الى مقر قيادته في الجنوب تلقى معلومات اضافية تؤكد قرب نشوب الحرب الى جانب التقرير الذي في يديه والقائل بان الحرب تبدأ فى السادسة مساء بعبور الجيش المصري على طول القناة بعد قصف مدفعي وجوي ثقيل. واتصل الجنرال غونين لاسلكيا بالجنرال البرت ماندلر قائد الكتائب المدرعة وقال له " من الضروري البدء في تحريك الدبابات المدرعة نحو الخط الامامي، فحتى، تصل يكون المساء قد هبط ورد عليه الجنرال مندلر: "ضروري حتما، لقد آن الاوان، انهم يقصفوننى".

وأنهى الجنرال غونين المكالمة: "ما دام الامر كذلك، فبالتأكيد، من الضروري ان تتحرك".

لقد بدأ الهجوم ..

ظل الكارثة

في الفصل السابق قدم الينا المؤلفون احتجاجهم على "الفساد" من خلال عرض الموقف الاسرائيلي الاستخفافي تجاه خطورة الاحداث القادمة، ومن خلال تقديم نظرية ديان حول "نفض" الهجوم المصري "المحدود" ... وفي هذا الفصل صورة عن حالة الانهيار في ساعات الحرب الاولى، والتي قوبلت بعدم التصديق والتساؤل: كيف حدث ذلك؟!

"الوضع ميئوس منه!" .. الوضع ميئوس منه! هكذا كانت تتوالى

الصرخات في اجهزة اللاسلكي الاسرائيلي .. ومن احد الاجهزة دوى الجنرال ابراهام (البرت) مندلر قائد المدرعات في سيناء: "عندنا ثغرات كبيرة في القطاع الاوسط" .. "في القطاع الجنوبي تهاجمنا عشرات الدبابات" .. "ما لم ترسلوا الى الطيران فان القطاعين الجنوبي والاوسط سيسقطان" .. "٢٠٠ دبابة على الاقل تتدفق في الوسط وفي الجنوب. يجب انزال الطيران بسرعة. ربما تتمكن الطائرات من سد الطريق" .. وكان قائد احد المواقع يهتف في جهاز اللاسلكي "تعالوا خذونا!"..

وماذا عن الجبهة السورية؟ يلخص المؤلفون الوضع هناك بقولهم: "ابتداء من صباح يوم الاحد ٧ اكتوبر، كان الوضع فى الجبهة الشمالية، على طول خط وقف النار فى هضبة الجولان، صعبا وحرجا وخطيرا، اكثر بكثير .. (منه على الجبهة المصرية-س.أ)".

على الجبهة السورية "تقدمت الدبابات السورية بسرعة الى مدى أصابة محطة الضخ لمشروع المياه القطري، قلب شريان الحياة الرئيسي لدولة اسرائيل، شمالي كيبوتس جينوسار"

ويتحدث المؤلفون عن رأس سهم من الدبابات السورية لم تبق بينه وبين اسرائيل سوى قوة منهكة متلاشية من الدبابات الاسرائيلية. وان السوريين كانوا يحاربون حتى بعد غروب الشمس لان دباباتهم كانت مزودة بالاشعة فوق البنفسجية التى تتيح لهم امكانية القتال الليلي.

ويذهب المؤلفون السبعة الى أبعد من ذلك فيقولون أن اسرائيل كانت عرضة لهزيمة عسكرية ساحقة "لا تعنى الاحتلال وفقدان الاستقلال فحسب، بل تعنى محو الشعب ودولته من على الخريطة"..

في مقدمة الكتاب، الوثيقة، اعترف المؤلفون بان بعضا منهم أسهموا في نشر "الاستخفاف بالعدو" و "الثقة بالنفس المبالغ بها" ورأوا في ذلك اسهاما في "الفساد" العام الذي أدى الى الحرب ونتائجها.

وللاسف الشديد فانهم لم يستخلصوا النتائج الملائمة، بل راحوا حتى في كتابهم هذا "يسهمون" في نشر المواقف الخاطئة مثل زعمهم السابق بان الهزيمة العسكرية "تعنى محو الشعب ودولته من على الخريطة".. انهم يروجون هنا ايضا الزعم بان العرب يسعون "لمحو الشعب ودولته من على الخارطة"، ولكنهم لا يقدمون تفسيرا لاحجام الجيش السوري عن ضرب محطة الضخ فى مشروع المياه القطري "قلب شريان الحياة الرئيسي لدولة اسرائيل" رغم كونه قادرًا على ذلك!!

ويشير المؤلفون الى الهوة السحيقة التي كانت قائمة فى ٧ اكتوبر وبعده بين الواقع المر على ارض المعركة وبين عناوين الصحف وتقاريرها المخالفة لحقيقة الامر وصورة الحقيقة. فصحيفة "هأرتس" تقول فى المنشيت الرئيسي "الجيش الاسرائيلي يوقف العدو ويستعد للانتقال الى الهجوم المضاد" .. ويقول منشيت "دافار" "الجيش الاسرائيلي يوقف العبور الى سيناء".

لكن كيف كان انذاك شعور الجنرال اورى بن ارى مساعد قائد المنطقة الجنوبية:

"كان شعورا مصيريا فظيعا. كان شعورا باننا نتضاءل، وأنهم، المصريين، يتضخمون. كل فشل من جانبنا يفتح أمامهم قطعة اخرى من الطريق الى تل ابيب"..

ولعل حالة الرعب والانهيار الشديد، تتخذ لها تعبيرا اوضح واشد قسوة في خاتمة هذا الفصل:

"حين عاد ديان من جولته فى الجبهة الجنوبية، كان من الصعب القول بانه حمل معه تشجيعا كبيرا، هو ايضا كان عاجزا عن تشجيع اولئك الذين قابلهم في تلك الساعات. لقد قابل رئيسة الحكومة غولدة مئير. كانت غولدة قد حصلت على تلخيص اولى لخسائر الجيش الاسرائيلي فى اليوم الاول من الحرب: حولي ٥٠٠ قتيل، حولي ١٠٠٠ جريح، وعشرات الاسرى.

كان يكفي أن نقارن هذه الارقام بارقام ضحايا اسرائيل في حروبها السابقة، حتى تتكون لدينا فكرة عن حجم الكارثة. في حرب سيناء، عام ١٩٥٦، خلال خمسة أيام من القتال، فقد الجيش الاسرائيلي قرابة ١٨٠ من جنوده. وسقط فى ايدي المصريين أنذاك اسير واحد، فقط طيار. في حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ سقط في جبهتي مصر وسوريا معا حوالي ٨٥٠ جنديا خلال ستة ايام من القتال. وقع في ايدي المصريين انذاك ١٤ اسيرا فحسب. وفي لهجة صبرية (لهجة اليهود المولودين فى البلاد-س.أ)، ربما لم تفهم غولدة مغزاها، قال لها موشيه ديان: "اننا فاقدون البيت الثالث".

كانت تلك رؤية مرعبة عبرت جيدا عن وضع دولة اسرائيل فى ٧ اكتوبر. في غضون اقل من ٢٤ ساعة انقلبت اسرائيل من دولة عسكرية كبرى، حتى بالمقاييس الدولية، من دولة اصبح جيشها مثلا ونموذجا لجيوش العالم، من دولة حقق جيشها قبل ست سنوات فقط، اكثر الانتصارات حسما وبريقا في تاريخ الحروب الحديثة، من دولة "لم يكن وضعها العسكري في أي وقت مضى، احسن مما هو عليه

اليوم" -حسب تصريحات قادتها- الى دولة تحارب بمرير الاسنان من اجل مجرد وجودها، حيث يخيم عليها ظل الفناء.

كيف كان من الممكن ان يحدث تحول حاد ومذهل فى ساعات قليلة الى هذا الحد؟".

(٣)
يوم الغفران الاسود!

على امتداد ثلاثة فصول، تحتل ٦٦ صفحة من الكتاب يحاول المؤلفون انقاذ ما يمكن انقاذه من سمعة "جيش الدفاع الاسرائيلي"، وذلك عن طريق ابراز البطولات الفردية وانتشالها من اعماق دخان الهزيمة العامة. هذه المحاولة تعيد الى الذهن تلك الحكايات التى شاعت في وسطنا العربي بعد نكسة حزيران ١٩٦٧، عن بطولات فردية سجلها طيارون وجنود وطواقم دبابات من مختلف الجيوش العربية.

غير ان هذه الفصول الثلاثة لا تخلو من أمور ينبغي على القارىء العربي الالمام بها.

على طول ١٦٠كم في الجنوب و٧٥كم في الشمال كانت تشتعل معارك لم يسبق لها مثيل.. القاذفات المصرية تغير اربع مرات على المطار الاسرائيلي ومراكز الاتصال اللاسلكي في شرم الشيخ. وفي الوقت نفسه تغير طائرات مصرية اخرى على مدينة النفط ابو روديس، لكنها كانت حذرة من اصابة آبار النفط ومحطة الضخ وكانت

ضرباتها موجهة مباشرة الى المباني الاسرائيلية .. وفي احدى البنايات سقط ستة اسرائيليين من عاملي الادارة المدنية للمنطقة. في الرابع والخامس من اكتوبر كانت قد اتضحت دلائل في الجانب العربي تشير الى هجوم متوقع، ولذلك اخليت المنطقة من المدنيين الاسرائيليين الذين كانت الوف منهم تتدفق الى هناك في نزهات سياحية ..

وفي الشمال حطت طائرات الهليكوبتر السورية فى سهل مجاور لموقع جبل الشيخ. بعد لحظات كان عشرات من رجال الكوماندو "المغاوير" بثيابهم المرقطة يغيرون على اخطر المواقع الاسرائيلية فى الشمال. تراجع الجنود الاسرائيليون من مواقع القذف الامامية الى داخل المعقل الذى كانوا يعتبرونه غير قابل للسقوط فقد كان مغطى بطبقات كثيفة من صخور الصوان تخللتها فقط انابيب التهوية. وتحت هذه الطبقات المستعصية على قنابل الطائرات وقذائف المدفعية، كانت بناية من ثلاثة طوابق تحت الارض، جدرانها من الاسمنت المسلح السميك وابوابها من الفولاذ.

كان الجنود الاسرائيليون يتوقعون ان يخف لنجدتهم سلاح الطيران وامدادات عسكرية اخرى لكنهم لم يتوقعوا أن تكون هذه حربا طويلة بالنسبة للحروب السابقة، ولم يتوقعوا أن ترتجف الارض من حولهم وتتساقط كتل الاسمنت المسلح ليتدفق من ثغراتها الدخان .. والجنود السوريون..

صفحات كتاب "الفساد" اشبه باللقطات السينمائية المتنقلة من موقع الى آخر بصورة غير متوقعة.. وها نحن نعود مع المؤلفين الى لقطة اخرى على جبهة السويس على بعد ٦٥٠ كم في خط هوائي من

جبل الشيخ..

الوحدات المصرية الصغيرة التي عبرت القناة سرا لاتلاف شبكة انابيب النفط المعدة في الجانب الاسرائيلي لاشعال القناة، عادت الى قيادتها بصورة دقيقة عن مدى الاستعداد في خط بار ليف، الامر الذى يسر على القيادة المصرية مهمة تقدير الوضع المتوقع. عوضا عن ذلك فقد اعتمدت القيادة المصرية على تقديرات اساسية منها إن الليلة التي تلي بدء الهجوم يجب ان تكون ليلة مقمرة بحيث يستفيد العابرون من ضوء البدر في الساعات الحرجة. وقد تم فحص المعطيات عن سرعة التيار في قناة السويس حتى يتناسب مع حركة العبور بالاضافة الى ان يوم الغفران هو يوم مناسب للقيام بالعملية.

بالنسبة لسلاح الطيران الاسرائيلي كانت هناك مفاجاة غير سعيدة. ففي مقر احد اسراب الفانتوم لعب الطيارون الورق (الشدة) حتى الرابعة صباحا. في الساعة السادسة واربعين دقيقة ململت اجراس التلفون الى جانب اسرتهم فهرعوا الى غرفة التعليمات ثم صدر الامر "كل واحد يمسك طائرة!" .. في الجو حلقت الدوريات بانتظار الهجوم الجوي العربي .. كانوا يعتقدون بان الطيران العربي سيغير على المطارات الاسرائيلية، وبينما كانوا ينتظرونه كان يشن غاراته المتواصلة على مقرات القيادة في الجبهات وعلى الاهداف الاخرى.

على الارض كانت مفاجاة اخرى يرويها أحد جنود المدرعات الاسرائيلية:

علمونا في المدرسة ان الدبابة هي المشكلة. دبابة العدو هي الهدف الاول. المدافع المضادة للدبابات هي الهدف الثاني. وبعد ذلك تطلق

النار على المشاة... نظرت حولي ورأيت كتلا مشتعلة تتراقص في الجو وتنطلق نحو دباباتنا. لم أفهم ماذا يجري. فيما بعد فهمت أن تلك صواريخ وأن المشاة الذين يواجهوننا لا يقلون خطورة عن الدبابات، التي لم نرها بعد ابدا، في مدرسة المدرعات سمعت عن كل الصواريخ لكنهم لم يضعوا ابدا هذه الاسلحة في مقدمة الاهتمام. كان هذا بالنسبة إلي مفاجاة تامة.. كنا مذهولين. بكى المدفعي ونحن لم نفهم بعد ماذا يجري. لذنا بتلة رملية. طيلة الوقت فكرت في هذا الصاروخ الغامض حتى ذلك الوقت لم أعرف اسمه. حتى ذلك الوقت لم اعرف انه حين يخترق الدبابة فانه يخلق موجة من حرارة تزيد على الف درجة سلزيوس، فيدمر جميع أجهزة الدبابة وقد يحرق كل الموجودين فيها. دبابات أخرى من الفرقة كانت اقل حظا منا. استرقنا النظر عبر تل الرمل ورأينا كتلا ملتهبة. تلك كانت مرة دبابات الفرقة.

في الثانية وخمس دقائق من نهار السادس من أكتوبر كان صوت المذيع من اذاعة القاهرة يعلن مكررا: الساعة الان الثانية وخمس دقائق .. الساعة الان الثانية وخمس دقائق ..

كانت تلك كلمة السر .. وبدأ العبور .. ويصف المؤلفون فشل الهجوم الاسرائيلي المضاد الذي كان منوطا به صد عملية العبور.. ويضيفون أن الجنود المصريين كانوا يتركون زوارق المطاط المصابة بالنيران الاسرائيلية وهي في عرض القناة، لكنهم يواصلون الهجوم سباحة، شرقا نحو الضفة المحتلة. كان الجنود المصريون مزودين بعتاد كبير: أدوات حفر، كمامات غاز، مطرات، سكاكين، اغذية، قنابل يدوية، متفجرات، وذخيرة.

فوق كل ذلك كانوا يحملون حقائب تشبه حقيبة جيمس بوند.. في داخل تلك الحقائب كانت صواريخ "ساجر" التي لعبت دورا اساسيا في المعركة..

الدماغ ليس كافيا.. هناك حاجة للعقل!

في أكثر من موضع يصرخ المؤلفون وجعا: كيف حدث أن تجمعت لدى القيادة الاسرائيلية كل هذه المعلومات والدلائل، ولم تستخلص النتائج المؤكدة لنشوب الحرب؟

غير أن الوقائع ومعطيات المؤلفين انفسهم تؤكد شيئا أخر، هو أن الخطأ الكبير كامن في سوء تقدير القيادة الاسرائيلية لمدى التحول الايجابي الذى طرأ على الجيوش العربية، والاقتناع التام بان العرب لن يجرؤوا على خوض الحرب .. هذا ما أسماه الجنرال اسحق رابين "الحاجز النفسي" الذي يعاني منه ديان والعزار وشركاؤهما في القيادة.

حوالي ٥٠ ساعة قبل نشوب الحرب سأل أحد المراسلين العسكريين الجنرال البرت: "وماذا يحدث اذا قام المصريون غدا صباحا بعبور القناة؟" فرد عليه الجنرال البرت: " سنوقفهم بقواتنا على خط المياه، وفي غضون وقت لا يذكر، تدور الحرب في الجانب الاخر!".

ينتقد المؤلفون الرقابة العسكرية التى كانت "تحرر" المعلومات الصحفية وتعمل مقصها الرهيب في الانباء المطروحة أمامها.. "وفي

دولة اسرائيل استعملت الرقابة العسكرية أكثر من مرة في الماضي، كوسيلة سياسية" -ويرى المؤلفون أن الحزب الحاكم كان في حرج ازاء قرب موعد الانتخابات العامة في ٣١ اكتوبر. فاحد الخطوط الاساسية التي بنى عليها هذا الحزب دعايته، يقوم على أن الامن مستتب على كافة الجبهات وانه لا وجود لخطر نشوب الحرب من جديد، وهذا يثبت صحة السياسة الرسمية!

ثم ينتقل المؤلفون الى جهاز الاستخبارات الاسرائيلي، فرغم الهالة المحيطة بهذا الجهاز ورغم الرأى العام القائل بانه افضل اجهزة الاستخبارات في العالم، فقد وقع في عدة مفاجات ازاء التحركات العربية سابقا ولاحقا، ولا سيما عمليات الفدائيين الفلسطينيين. فاطلاق النار على تسادوك اوفير وإصابته في بروكسل وصفته صحيفة "لانوفيل اوبزرفتور" الفرنسية (١٨-٩-٧٢) بأنه حادث خطير، وقد تعتبره الاستخبارات الاسرائيلية اخطر من مجزرة ميونيخ لانه يدل على ان الفلسطينيين يعملون فى مجالين: مجال العمليات الاستعراضية كعملية ميونيخ ومجال العمليات الاستعلامية السرية كضرب العملاء والجواسيس الاسرائيليين العاملين لمصلحة "المؤسسة" (جهاز الاستخبارات الاسرائيلي) .. الموساد.

وتضيف الصحيفة الفرنسية ان حادث بروكسل ومصرع باروخ كوهين في مدريد كان ضربة جدية لاسطورة مناعة الاستخبارات الاسرائيلية ..

(٤)
"لاجئون" الى الشرق
"عقدة" الجنرال شارون كلفت غاليا..!

غريب امرها "الكلمة" .. هذا المخلوق المتشكل المتنوع المتغير، المحدود واللامحدود فى آن. فكلمة "لاجئون" حين تقرن بالشعب العربي الفلسطيني تتفجر منها تداعيات واستطرادات كلها حب والم وغضب .. والان حاولوا ان تتبعوا مولدات هذه الكلمة حين تقرن بجنود الجيش الاسرائيلي!

"لاجئون" .. بهذه الكلمة وصف مؤلفو "الفساد" جنود الجيش الاسرائيلي الراحلين شرقا عن مواقعهم واستحكاماتهم على ضفة السويس ابان عملية العبور الكبير..

جنود كثيرون بقوا معزولين ومطوقين في استحكاماتهم وتحصيناتهم على الجبهة الجنوبية. في هذه الحرب اضطر الجيش الاسرائيلي للتنازل عن احدى سماته التي يفخر بها كثيرا، سمة انقاذ الجميع وعدم التخلي حتى عن الجثث في ساعات الانسحاب الحرجة .. لقد اصبح ذلك تقليدا ادخله الى الجيش الجنرال اريئيل (اريك) شارون، وله مع هذا التقليد قصة قديمة:

في عام ١٩٤٨ كان اريك شارون ضابطًا شابا في القوات الاسرائيلية واشترك في معركة ضارية على موقع شرطة اللطرون. في تلك المعركة سقط المئات من الجنود الاسرائيليين ووقعت الوحدة التي يقودها شارون في الحصار .. وأصيب برصاصة اخترقت ساقه وتوغلت في بطنه. ثم صدر امر الانسحاب وترك الجرحى العاجزين عن الحركة (وبينهم شارون) ولم ينج شارون الا باعجوبة فقد حمله

احد زملائه وخبأه فلم يقتل او يقع في الاسر.. ومنذ ذلك الوقت اصبح الجرحى والمحاصرون "عقدة" شارون .. وفيما بعد، حين اصبح جنرالا بارزا جعل مهمة انقاذ المعزولين والجرحى حجرا اساسيا في عمارة الجيش الاسرائيلي.. وبالفعل اصبح ذلك تقليدا - كما اسلفنا ..

في هذه الحرب ايضا حاولت القيادة الاسرائيلية - لا سيما الجنرال شارون بالذات - المحافظة على التقليد اياه ولكن .. "اتضح فيما بعد، للقيادة، ان ثمن محاولات الانقاذ هذه عال جدا. فحول احد المواقع التي حاولوا خرق الطوق المحيط بها. ترك الجيش الاسرائيلي ٤٠ دبابة ومجنزرة. وقد اصيبت قوة اكبر في محاولة لانقاذ حوالي ٣٠ محاربا محاصرين"..

عقب خمود المعارك كان قائد أحدى الكتائب يتجول مع بعض الاباء الثكلى على خط الجبهة ليطلعهم على المواقع التي سقط فيها أبناؤهم. وحين رأى أحد الاباء دبابة ابنه المصابة سأل ذلك القائد: هل فعلتم كل شيء من اجل ..؟ "اسف" أجاب قائد الكتيبة "محاولة انقاذ ابنك واصدقائه كلفتنا خمسة عشر قتيلا" ..

ويعرب المؤلفون عن دهشتهم من ان بعض القادة لم يفهموا أن هذه الحرب تختلف عن سابقاتها الا بعد سبعة أيام من القتال المرير الذي أنهكت فيه قوات اسرائيلية كبيرة .. لقد ظن بعض القادة أن هذه ايضا ستكون حرب أيام ستة .. "تكفي ضربة واحدة على تنكة وستتطاير العصافير في رعب" .. ولكن هجماتهم المضادة كانت أشبه "بنطح الحائط" ..

لا، لم تكن هذه الحرب شبيهة بسابقاتها .. ففي بعض المعارك التي يصفها المؤلفون بالحروب الصغيرة حدث ان "تصادمت قوات

مدرعة من المعسكرين بكميات يشك في ان يكون لها شبيه، في حلبة صغيرة كهذه، في تاريخ حروب العالم. أحيانا اصطدمت ٥٠ دبابة ب ٥٠ دبابة، في حالات كثيرة - ١٠٠ دبابة في مواجهة ١٠٠ دبابة". وحدث في ساعات التدفق ان تصادمت مئات الدبابات بمئات الدبابات وكانت المعارك كثيفة لدرجة تلاصق المدفع بالمدفع. وقد لا نجد شبيها لهذه المعارك في معارك الدبابات الجبارة في الحرب العالمية الثانية في شمال افريقيا، لاسيما وأن الفرق كبير بين اسلحة ودبابات اليوم واسلحة ودبابات ذلك اليوم .. "كانت هذه ايضا الحرب الاولى التي تنسحب فيها الدبابات الاسرائيلية الى الوراء. بقيت في مناطق العدو دبابات في داخلها قتلى وجرحى لم يكن من المستطاع انقاذهم. دبابات اخرى اصابتها الصواريخ فاشتعلت بالنار، ورجال الطواقم الذين قفزوا منها قتلوا او سقطوا في ايدي المشاة المصريين المغيرين"..

سقط خط بارليف - بقي بارليف!

خط زيغفريد .. خط ماجينو .. خط بارليف .. ثم خطب جلل .. فمنذ تم العبور المصري الكبير الى ضفة السويس الشرقية انهارت اسطورة خط بارليف الذي اصبح رمزا لجبروت العسكرية الاسرائيلية ازاء "الاحباط" العربي المزمن ..

وبعد الحرب، حين سأل الصحفيون الجنرال بارليف عن رأيه فيما اذا كان الخط الذي يحمل اسمه قد نجح في الامتحان، أجاب: "خط بارليف". أن هذه التسمية من ابتكار الصحافة؟" جاءت أجابة بارليف هذه نتيجة للنهاية التي آل اليها ذلك الخط، ذلك الرمز المنهار

تحت ارادة التحرير العربية.

استمر العمل في بناء وتطوير خط بارليف قرابة الثلاث سنوات وكلف دافع الضرائب الاسرائيلي حوالي مليارين من الليرات وقد ادخلت عليه تحسينات واجهزة جعلته عالما جوفيا مكتملا قائما بذاته حتى اصبح يتمتع بلقب "الخط الذي لا يمكن تجاوزه ولا يمكن دخوله" ..

غير أن القيادة العسكرية الاسرائيلية لم تجمع على موقف موحد من هذه المسألة، ففي مواجهة نظرية بارليف القائلة ببناء الخط كانت هناك نظريتان مختلفتان ومتناقضتان .. احداهما تدعو الى "السيطرة من بعد".. والاخرى تدعو الى اسلوب "الخط المتنقل"..

وكانت الانتقادات الموجهة لخط بارليف مركزه في نقاط اساسية (من وجهة نظر المعارضين):

"* تحصينات خط بارليف في مدى المدافع المصرية. والمدفعية هي اقوى سلاح مصري ..

* مجرد وجود خط بارليف يشكل اغراء مستمرا للمصريين لتجديد اطلاق النار ولهجمات المغاوير (الكوماندو).

* كان لا بد من تشغيل سلاح الجو الاسرائيلي لاسكات المدافع المصرية، الامر الذي أدى الى التطور المنطوي على الكارثة، الا وهو الغارات على العمق المصري، مما أدى الى ظهور بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات ..

* المبالغ الطائلة التي وضعت في الخط، كانت على حساب الاموال التي كان من الممكن توظيفها في تطوير وشراء ادوات حربية

اخرى، وايضا، على حساب الموارد المكرسة لتطور الدولة الاجتماعي والاقتصادي".

بعد توقف القتال عاد الجنرال المتقاعد متتياهو بيلد فكرر اتهامه لضباط القيادة العامة "بعدم الاستقامة المهنية".. بالتنازل عن مواقفهم العسكرية والخنوع لارادة السياسيين. واتهم بيلد المسؤولين عن الشؤون الامنية في اسرائيل "بعدم الاخلاص لواجباتهم".. واضاف الجنرال الغاضب: "بالمبلغ الذي اقيم به خط التحصينات، كان من الممكن شراء ١٥٠٠ دبابة أضافية بكامل عتادها او ١٠٠ طائرة اخرى من المستوى الاول او عدة ايام اخرى من الذخائر لكافة الاحتياجات العسكرية".

يوم سرح الجنرال بارليف من الجيش كتبت احدى الصحف تحية للجنرال قالت فيها: "ذهب بارليف، ولكن الخط باق".. لقد كانت الثقة كبيرة لدى أجهزة الدولة وجماهير تلك الاجهزة، بأن خط بارليف هو بالفعل غير قابل للتجاوز غير قابل للدخول".. أما اليوم وبعد ضربة رمضان فيصح ان ينعكس القول: "ذهب خط بارليف، وبقي بارليف!"..

ثم.. "لاجئون" الى الشرق .. وغريب أمر الكلمة ..

(٥)
الفــــخ

الفخ.. نفس الفخ الذي نصبته اسرائيل لمصر في عدوان ١٩٦٧، هو الذي وقعت فيه اسرائيل في حرب اكتوبر.. هكذا يلخص المؤلفون كيفية انفجار الحرب الاخيرة. وهم يستشهدون في ذلك بتصريح صحفي كان الجنرال سعد الدين الشاذلي قد ادلى به بعد اعلان وقف اطلاق النار: "لم يخطر ببالي أبدا إن العدو يمكن التغرير به الى هذا الحد"..

في الايام التي سبقت ٥ حزيران اصدر الجنرال ديان امرا الى قادة الوحدات العسكرية الاسرائيلية بارسال عدد كبير من الجنود في عطلة منزلية.. وابتلعت الاستخبارات المصرية هذا الطعم، وقررت القيادة بأن حالة الاستعداد في الجيش الاسرائيلي قد ضعفت وان قسما كبيرا من الوحدات الاسرائيلية اعيد إلى البيت..

هذا "الطعم" نفسه ابتلعته الاستخبارات الاسرائيلية، غير ان عملية التغرير المصرية والسورية هذه المرة كانت طويلة ودقيقة ومحبوكة للغاية.. ويرى المؤلفون ان السوفييت كانوا وراء خطة التضليل العربية.

ويرى المؤلفون أن العرب تبنوا "الاسلوب السوفيتي" في "الحرب النفسية" القائم على نشر انباء بعيدة ومناقضة لمجرى الخطة .. اما لماذا يسمون ذلك اسلوبا سوفيتيا بالذات، فالعلم عندهم وعند الله.. ويزعمون ايضا ان الاقمار الاصطناعية السوفيتية كانت تتجسس على تحركات الجيش الاسرائيلي، ولم يقولوا شيئا عن الاقمار الاصطناعية

الامريكية، ولا عن ليبرتي، سيئة الذكر، وشقيقاتها ..

ثم يستعرض المؤلفون سلسلة من الانباء الصحفية العربية والعالمية التي اعطت صورة مزيفة تماما، عن واقع الاستعداد العسكري في الجانب العربي ..

في ١١-١٢-٧٢ نشرت وكالة "يو.بي" في بروكسل نبأ بهذا المعنى:

"فقط ٤٠٪ من السلاح و٦٠٪ من الطائرات المقاتلة المصرية، في حالة صالحة للاستعمال - وقد ورد ذلك في تقرير سري اعده سلاح الجو المصري ووزع في مصر بنسخ معدودة".

ونشرت صحيفة "فايننشل تايمز" (١٦-١٢-٧٢):

"الجيش المصري غير مستعد، بتاتا، للقتال، رغم ان بعض الوحدات تطمح لمحاربة اسرائيل".

وتحت عنوان "الفساد يستفحل. لدى الجيش المصري ذخيرة لاسبوع واحد فقط" نشرت صحيفة "لا ستامبا" الايطالية مقالا بهذه الروح في ٢٧-١-٧٣.

ونشرت صحيفة "كورييرا ديلاسيرا" الايطالية نبأ يقول: "هناك مصادر عسكرية مصرية تعترف علانية ان مصر ينقصها البنزين وقطع الغيار. هناك طيار واحد فقط لكل طائرتين. الطائرات الحديثة الاسرع من الصوت ملقاة مثل حجارة جامدة. في الاشهر الخمسة الاخيرة تحطمت في التدريبات ثلاثون طائرة أسرع من الصوت".

وحتى تكتمل الصورة، نشرت صحيفة "فيغارو" الفرنسية في ٨-٢-٧٢: "فضائح، مرارة، واستلاب، في مصر. ضباط الوحدات المرابطة على قناة السويس يمضون في الجبهة يومين فقط في

الاسبوع، وبقيةالوقت يمضونه في القاهرة، اعتمادا على اذونات مزيفة. اشتركت في جنازة جنرال مصري، اشترك فيها عشرات الضباط الكبار. ولا واحد منهم سار حسب الايقاع. كثيرون منهم انتعلوا احذية الرياضة.. وقال لي ملحق عسكري اجنبي: لم يكن هذا الجيش في اي وقت مضى اكثر مذلة. لم يعد لديه ناصر ولا خبراء سوفييت، لم تعد فيه روح".

في نيسان ١٩٧٣ كتبت صحيفة "لاكسبرس" الفرنسية أن اسرائيل تمتحن استعداد الجيش المصري بصورة مستمرة وأن الاستنتاجات تقول إن مصر "اشبه بكيس فارغ"..

وفي ٢-٩-٧٣ كتبت "لوموند" الفرنسية ان "كثيرين من ٥٠٠ - ٦٠٠ الف جندي مصري المرابطين على القناة لا يحاربون، وهم غير قادرين على القتال، بل انهم يقدمون خدمات فوضوية مختلفة.. والجنود الشباب الذين تم تجنيدهم مؤخرا في مصر غير اكفاء للسيطرة على العتاد السوفيتي"..

صحف أخرى كثيرة في اوروبا الغربية وفي امريكا أسهمت - غير عامدة - في نشر ستار كثيف من الدخان حول حقيقة ما يجري داخل القوات العربية المستعدة بلا كلل لخوض معركة التحرير.

الخدر اللذيذ الذي خلقه النصر العسكري الحزيراني في الاوساط الاسرائيلية الواسعة -على مختلف المستويات - وهذه «الخطة» الاعلامية التي عززت الشعور بالاطمئنان لدى حكام اسرائيل ولدى الشعب ايضا .. والغطرسة والاساطير الكثيرة عن "الجيش الذي لا يقهر" كل ذلك ترك أثره العسكري والسايكولوجي، على مجرى المعركة وعلى نتائجها.

وللحقيقة التاريخية، فان الهجوم الدعائي الاسرائيلي، أو "الحرب

النفسية" الاسرائيلية، والانجازات العلمية التي حققها الجيش الاسرائيلي في الحروب السابقة - رغم كل ملابسات تلك الحروب - أثرت أيضا في الجانب الآخر، في الجانب العربي .. لقد صرح الرئيس السادات ان مصر مستعدة للتضحية بمليون جندي من اجل التحرير، وقدر الجنرال أحمد اسماعيل علي والقيادة العسكرية في مصر ان ٢٥-٣٠ الف جندي قد يستشهدون في عملية العبور- وهذان التقديران يدللان على مدى الوهم الكامن - او الذي كان كامنا - في نفوس العرب ازاء هذا الشبح الغامض المدعو اسرائيل أو الجيش الاسرائيلي.

يشير المؤلفون الى قضية اخرى كانت مدار جدل في الاوساط العامة والرسمية على السواء، وهي قضية وقف اطلاق النار ..
من الذي طلب وقف اطلاق النار؟ اهم المصريون؟ ام الاسرائيليون؟ السوفييت ام الامريكيون؟

نعتقد انه كانت لدى جميع الاطراف اسباب كافية لطلب وقف اطلاق النار في اليوم الذي وقع فيه الامر .. فذخائر الاسرائيليين كانت تتضاءل وتتلاشى بسرعة، وهجماتهم المضادة لم تحقق اهدافها المرجوة -كما اعترف المؤلفون في فصل سابق- والدولتان العظميان غير معنيتين -كل من وجهة نظرها الخاصة- باستمرار التدهور.

غير ان المؤلفين ينسبون الى الدكتور كيسنجر انه روى لسفير امريكا في اسرائيل (بتاريخ ٢٢ اكتوبر) ان انور السادات اعتقد ان قوة اسرائيلية صغيرة اخترقت القناة واستمرار القتال كفيل بطردها، بينما اكتشفت الاقمار الاصطناعية السوفييتية ان القوة العابرة تشكل خطرا جديا لذلك فقد بادروا بطلب وقف اطلاق النار قبل تدهور

الموقف فى تلك الثغرة من الجبهة المصرية.

بالنسبة للتستر على تحركات الجيش المصري والتغرير بالاستخبارات الاسرائيلية، كانت المناورات الكبيرة" المتكررة فى الجانب المصري وسيلة لمنع الاسرائيليين من التمييز بين الحركة التدريبية والحركة العملية التي تمت في خطوة العبور..

إذن، فقد كانت عملية التغرير ونصب الفخ شاملة ومكتملة على غاية من الاتقان فى التخطيط والتنفيذ..

وفي نهاية القتال حدث شيء ذو دلالة.. روى احد الجنود الاسرائيليين الذين هزموا على موقع جبل الشيخ: "قالوا لنا ان هذه هي عيون اسرائيل".

غير ان العيون الحقيقية كانت قد ذهبت منذ وقت بعيد.. منذ نجحت سمفونية التغرير في ايقاع القيادة الاسرائيلية في الفخ.. الفخ نفسه الذى سقط فيه العرب قبل سنين طويلة جدا، جدا.. فى ذلك الخامس من ذلك الشهر حزيران من ذلك العام ١٩٦٧..

(٦)
العجل الذهبي

قلنا في ما سلف ان المؤلفين السبعة لم يخرجوا عن نطاق النظرة الذاتية الضيقة، الامر الذى حجب عنهم الابعاد المتعددة والعوامل الموضوعية المركبة التى تمخضت عن الزلزال الكبير في السادس من اكتوبر ١٩٧٣..

ولعل أهم ما يميز هذه الوثيقة التى نراجعها معا هو الافتقار الفاضح لفهم حركة التاريخ فهما علميا.. وهكذا يجهد المؤلفون

لتركيز الانظار على الاهمال والخلل والفساد على المستوى "الاداري"، ليخلقوا الانطباع بانه لولا هذه المسائل "الادارية" لكان مجرى الامور قد اختلف اختلافا كليا ومطلقا..

واضح اننا نرفض مثل هذا التوجه القاصر الضحل، غير اننا نواصل الرحلة مع اخواننا المؤلفين، آخذين ما نراه جوهريا في دلالته -ان لم يكن في نصه- طارحين الرتوش والاصباغ الكثيرة التي يستهدفون بها تجميل صورة لا حول للعطار فيها..

في صباح الخامس من اكتوبر اعلنت التعبئة العامة وتجمع الجنود في الاماكن المعدة لهم منتظرين سيارات النقل والباصات التى تحملهم الى الجبهة .. غير ان ساعات عديدة مرت قبل وصول وسائط النقل، رغم حرج الموقف وأهمية كل دقيقة بالنسبة لما يجري على خط الجبهة .. فيما بعد ادعى رجال شركات النقل ان سياراتهم كانت جاهزة وكان سائقوها يحتلون مقاعد القيادة خلال ساعتين فقط من بدء الانذار .. اذن فقد حدث خلل ما ولم يقم المسؤولون عن التنسيق بواجباتهم على الوجه الصحيح ..

كانت هناك قضية مركزية اخرى .. قضية شاحنات الدبابات. مئات الدبابات الاسرائيلية كانت جاهزة في مخازن الطوارىء. ومخازن الطوارىء تبعد مئات الكيلومترات عن الجبهة. ومن المفروض ان تنقل الدبابات الى الجبهة على متون الشاحنات الخاصة، وذلك لتوفير ساعات العمل لمحركات الدبابات ولتجنب الخلل الذى قد يصيبها في الطريق. عدد ساعات العمل لمحرك الدبابة محدود، وبعد ساعات معينة من العمل المتواصل يتوجب تغيير المحرك بمحرك جديد. كذلك فمحركات الدبابات تستهلك كميات كبيرة من الوقود.

لذا يبدأ تشغيل محرك الدبابة في الجبهة ذاتها، وليس في الطريق اليها.

في هذه الحرب حدث خلل ما.. فلدى بعض فرق المدرعات كان عدد الشاحنات اكبر من عدد الدبابات بينما عانت مخازن الطوارىء من نقص شديد في تلك الشاحنات..

بعض وحدات الدورية التى تعمل على سيارات الجيب، لم تجد في مخازن الطوارىء العدد المخصص لها من الجيبات، واتضح فيما بعد انه تم استعمال تلك السيارات لغايات اخرى. بعض الآليات القتالية وجدت معطوبة في مخازنها رغم انها كانت تبدو من الخارج مطلية ونظيفة وعلى اهبة الاستعداد. في بعض الحالات اهمل المسؤولون عن مخازن الطوارىء في مهماتهم فكان العتاد ناقصا، في حالات معدودة وجدت الآليات صدئة، وفي حالات اخرى تعطلت آليات مختلفة بعد كيلومترات معدودة. واحيانا لم يكن من الجائز الخروج الى الطريق بسبب نقص في المصابيح اليدوية او النواظير.

حين زار الجنرال امرون يريف احدى الوحدات على الجبهة قال في الم: "خجلت من النظر في وجوه الجنود.. كيف ارسلناهم الى الحرب !".

ويرد المؤلفون نشوء هذا الوضع "المخجل" الى سببين: "التنظيم الردىء من جهة، والانحطاط والقذارة من جهة اخرى".

في اكداس الكلام الغامرة نعثر من حين لأخر على لفتات عميقة يسجلها المؤلفون بجرأة واضحة .. فهم يعترفون بالانحلال الذى ساد المجتمع الاسرائيلي في اعقاب النصر العابر في عدوان ٥ حزيران ٦٧، ويعترفون باتساع الاستقطاب الاقتصادي: مزيد من الثراء، ازاء مزيد من الفقر.. وبالطبع فقد انعكس هذا الوضع على صفوف الجيش

وقيادته.

ويسعى المؤلفون للحصول على شيء من العزاء في قولهم ان الانحلال ظاهرة ملازمة تقريبا لكل جيش منتصر.. "وهكذا فقد نشأت في اسرائيل، لاول مرة في تاريخها، طبقة اجتماعية جديدة - طبقة الجنرالات".. "والجنرالات الذين احبوا ان يروا صورهم منشورة في الصحف والالبومات، لم يرتدعوا عن اى احتفال اجتماعي، حتى يظهروا فيه امام عيون الجمهور. اصبحوا نوعا من الكواكب الاجتماعية السيارة والبراقة، واصبحوا زينة لا يمكن الاستغناء عنها في اى حدث اجتماعي - حفلة كوكتيل، عرض مسرحي اول، او افتتاح معرض لوحات. اصبحوا زبائن دائميين في مطاعم اسرائيل الغالية. احد الجنرالات ذهب ابعد من ذلك، فقد اشترك في افتتاح علني لوكالة لمنتجات التجميل ...".

كانت هناك منافسة غير معلنة بين الصالونات الاجتماعية التل أبيبية في الحصول على أفضل الجنرالات وأكثرهم عددا ولينفجر الحساد غيظاً. اصبح الجنرالات أشبه بفتيان الملذات أو "بلاى بويز" بالتعبير الشهير وقد تبنى اصحاب الملايين وأثرياء الحرب من شاءوا من الجنرالات والعكس أيضا صحيح وتمكن بعض هؤلاء الاثرياء من الاطلاع على اسرار عسكرية كانت محظورة على البشر العاديين وقد اسرف الجنرالات في السفر الى خارج البلاد لجمع الاموال لمصلحة الجباية اليهودية الموحدة وحملوا هناك على "متعهدين " أغنياء حتى بين اليهود الذين رحلوا عن اسرائيل.

في الوقت الذى لم يكن فيه الجنرالات في وظائفهم كان من الممكن مشاهدتهم في المقاهى محاطين بشعراء البلاط والفتيات الجميلات .. واذا كان من حق وزير الدفاع موشي ديان ان يتناول

الغذاء يوميا في أغلى مطاعم تل ابيب، على حساب وزارة الدفاع، فلماذا لا يترسم خطاه الضباط الآخرون!

هذه الظاهرة كانت منسجمة مع الفساد الذي ساد المجتمع بعد حرب حزيران ولاسيما في اثناء حرب الاستنزاف، فكثيرون من اصحاب الاعمال الانكياء اكتشفوا "منجم ذهب" في وزارة الدفاع، وفي مشاريع بناء التحصينات بمقاولات جعلت بعض المقاولين الصغار من اصحاب الملايين، بين عشية وضحاها...وكان بين هؤلاء المقاولين من خدعوا وزارة الدفاع، وبعضهم دفعوا الرشوة للحصول على العمل وآخرون أشركوا الجنود في عمليات الخداع ليسرقوا من أموال الجمهور وقد شمل الركض وراء الثروة ضباطا من سلاح الجو ومن سائر قطاعات الجيش .. لقد تبنى الجنرال حاييم بار ليف وضباط أخرون موضة تدخين السيجار بالطبع ليس هناك أى عيب في ذلك ولكنه دليل على الروح التى سادت البلاد والجيش. هذا الوضع يوحى بطرح السؤال: ما هى حدود الجائز والمحظور بالنسبة للقادة الكبار؟ وهنا يبرز دور المثال فاذا كان الجنرال ديان يقود سيارته بسرعة هائلة مستخفا بكل شارات المرور وقوانين السير، واذا كان الجنرال ديان يستعمل العتاد العسكرى مثل طائرات الهليكوبتر لنقل الاثريات الخاصة به واذا كان الجنرال ديان يتناول الطعام في خيرة المطاعم الاسرائيلية، فلماذا لا يسير مرؤوسوه على هدى خطاه؟ وحتى في الصفوف الدنيا من الجيش انعكس هذا الوضع، وقبل الحرب الاخيرة بمدة وجيزة كتب الجنرال المتقاعد حاييم هرتسوغ عدة مقالات عن تردى الطاعة العسكرية في الجيش .

أكثر من ذلك فقد تعمق في السنوات الاخيرة مجرى تسييس الجيش وعسكرة السياسة كثيرون من الجنرالات انتقلوا من مواقعهم

في القيادة العسكرية الى مناصب وزارية وادارية عديدة وتغلغلت الحزبية داخل الجيش فالفرقة التى يقودها ضابط من المعراخ (التجمع) أصبح الجنود يطلقون عليها اسم "فرقة المعراخ، والفرقة التى يقودها رجل الليكود (التكتل) اصبحت "فرقة الليكود" ...

كان من هموم بن غوريون الرئيسية،الحيلولة دون هذا الوضع . حاول بن غوريون دائما ان يضع خطا واضحا بين السياسة والمجتمع من جهة والجيش من جهة اخرى ... وسقوط هذا "الخط" كان مقدمة لسقوط "خط بار ليف" فيما بعد ...

ولكن، هل صحيح ان تسييس الجيش يؤدى الى ضعضعته؟ نحن لا نرى ذلك اطلاقا صحيح انه ينبغى حفظ التوازن بين التقديرات والمعايير السياسية والعسكرية.

على أية حال تلك هي الصورة، ولكل امرىء ان يراها من حيث يشاء...

(٧)
اضافات شمالية وجنوبية

نترك "العجل الذهبى" راتعا مطمئنا بين اعشاب الذكريات، ونعود قليلا الى ميدان الدم والحسرات لنستعرض قليلا من تاريخ الجندى الشجاع "تسفيكا"ـ كما سجله المؤلفون السبعة ـ لعلنا واقعون على شيء من العبرة، في شيء من الصورة:

"قبل ذلك بساعات قليلة رأى تسفيكا دبابة قائد كتيبة منقلبة في جانب أحد الوديان على هضبة الجولان. لم يعرف مصير قائد الكتيبة. على طول الطريق هرع جنود مصابون بالصدمة. كان اولئك

من طواقم الدبابات التى اصيبت واحترقت، وجنود مشاة فقدوا وحداتهم ولاجئون من بقايا القوات التي طيلة ٣٠ ساعة منذ اندلعت الحرب، خاضت معركة يائسة لوقف سيل الدبابات السورية التى غمرت هضبة الجولان. حارت الدموع في عيني تسفيكا حين رآهم لم يخطر في باله ابدا ان يرى الجنود الاسرائيليين فى حالة كهذه. كانوا مشردين في مؤخرة القوات السورية المتقدمة غربا دون ان تكون لديهم فكرة عن مكان العدو ومكان قواتهم. أخذ يصرخ عليهم ويعطيهم الاوامر، وخلال دقائق معدودة كأنما عاد هؤلاء جنودا من جديد. نظمهم كقوة وأمرهم بالصعود الى الدبابات التى كانت معه حين وصل تسفيكا الى "عليقة" في مركز هضبة الجولان ، رأى ثلاث دبابات اسرائيلية في حالة جيدة وصالحة للاستعمال. كانت الدبابات خالية لقد تركتها طواقمها. في تلك اللحظة احس تسفيكا ان قواه تتخلى عنه"...ثم يروى تسفيكا انه كان جريحا ولكنه كان قادرا على مواصلة القتال من الناحية الجسمانية اما من الناحية النفسية فقد كان منكسرا. كان يحس ان الجيش الاسرائيلي قد انتهى، وكان لديه شعور الجندي المضروب والمهزوم.

ويواصل المؤلفون سرد تاريخ الجندي الشجاع تسفيكا:

"حين وصلت الدبابات السورية الى سياج المعسكر، نجح تسفيكا بدبابته، مع قائد دبابات آخر بدبابة وحيدة، نجحا في دخول المعسكر في محاولة لوقف السوريين. في هذه اللحظة اصيب سائق دبابة تسفيكا بانهيار عصبي. حين رأى الجنود الهاربين أمام الدبابات السورية انفجر صارخا، غادر الدبابة صعد على مجنزرة وهرب من المعسكر لقد بقى تسفيكا بدون سائق دبابة في داخل دبابة مصابة

وغير صالحة للاستعمال "لقد بلغ الوضع العسكري على هضبة الجولان درجة من الحرج لم يعد فيها مناص من اللجوء الى سلاح الطيران الاسرائيلي لانقاذ ما يمكن انقاذه على أرض الجبهة...غير ان تدخل الطيران الاسرائيلي لم يكن "مثمرا" وفعالا على الجبهة بقدر فعاليته في ضرب الاهداف المدنية مثل مصافي البترول وبعض الاحياء الدمشقية ... ويصف المؤلفون استمرار السوريين في التقدم رغم تدخل الطيران الاسرائيلي ويصفون معركة بين رتل من الدبابات السورية وطائرتى فانتوم، لم تدم أكثر من خمس دقائق، حتى شوهد طياران اسرائيليان وهما يهبطان بالمظلة بين القوات الاسرائيلية ... شعور من اليأس القاتم سيطر على بعض المقاتلين الاسرائيليين لدرجة قولهم: "الرصاصات الاخيرة أبقيناها لانفسنا ".

ويروى الجندى بوعز كوهين (٢٦سنة) شيئا من ذكرياته على الجبهة السورية:

"حكى لنا زملاؤنا على متون الدبابات أنهم رأوا في الطريق قوات سورية غير عادية. عرفت ذلك لانني رأيت تلك القوات وهي تدخل، تساءلت في دهشة: كيف ولماذا توقفت كل هذه القوة عند "خشنية" وعسكرت هناك؟ هذه القضية أقلقتنى كثيرا حاولت ان أفسر لنفسي: أنهم ـ السوريين ـ يحاربون بشكل لا بأس به. ولكنهم يحاربون كما تعلموا تماما وكما خططوا سلفا في اللحظة التى يتلقون فيها ضربة، أو محاولة لتغيير شيء ما فانهم ينكسرون ويقدمون مستوى رديئا للغاية... حين سمعت كيف أن قائد الدبابة عندنا المرحوم داني بيركوفيتش، تسلم القيادة في منطقة تضم قوة فرقة كاملة من الدبابات، ادركت ان هذا بالذات هو السبب في انتصارنا. ببساطة توقف

السوريون في منطقة الاسلاك الشائكة في الهضبة ولم يتقدموا. لماذا؟
ـ سنسألهم ذات مرة وأرجو أن نتمكن من أن نسألهم". نحن، ايضا نرجو أن يجيء ذلك اليوم الذى يتمكن فيه بوعز من اجراء حوار "مهنى" هادىء مع "زملائه" السوريين، في مقهى ما في تل-أبيب أو دمشق، يوم تصبح الحرب ذكرى بعيدة لهذا الزمن الكريه...

ديناصورات على السويس

في هذا الفصل، وهو الحادى عشر من فصول الكتاب السبعة عشر، يتحدث المؤلفون عن عملية العبور الاسرائيلية الى الضفة الغربية من السويس ...

كلام كثير قيل حول هذه العملية. ورغم اهميتها الدعائية فان كثيرين من الخبراء العسكريين رأوا فيها عملية قصيرة النظر ورأى بعض هؤلاء الخبراء أن مجالين هامين كانا مفتوحين أمام المصريين لتنظيف الجيب الاسرائيلي غربي القناة: المجال الاول مفتوح أمام الجيش الاول الذى لم يكن قد رمى بثقله الى المعركة والمجال الثاني مفتوح أمام الجيش الثاني المتمركز على ضفتي القناة في القسم الشمالى لاسيما وأن الثقب الذى تسللت منه القوات الاسرائيلية كان ضيقا بالنسبة لجبروت القوات المتواجدة هناك .

بدأت عملية العبور الاسرائيلية بايجاد "فتق" صغير في منطقة البحيرات المرة وهى منطقة ضحلة المياه يقال أن النبى موسى قاد اليهود عبرها في هجرتهم عن مصر قبل ٤٠٠٠ سنة !

لم يكن ايجاد ذلك " الفتق " بالامر اليسير "ففي حوالي ساعتين،

انصب، على مساحة لا تزيد عن ٥٠٠ متر مربع، ما لا يقل عن ٧٠ طنا من القنابل المدمرة" ...

كانت لدى الجنرال شارون ثلاثة تقديرات بشأن هذه العملية:

"لم تظهر أية قوة مصرية هامة في مواجهة الفتق.

العبور الى الضفة الغربية من شأنه ان يشوش كل تنظيم الجيش المصرى. بهذه الطريقة يصبح ممكنا توجيه ضربة للدبابات المنتظرة غربى القناة وبعد ذلك معالجة فرق المشاة المتمركزة في الشرق.

ثغرة كهذه من شأنها أن تحيد بطاريات الصواريخ المصرية التي منعت سلاح الطيران الاسرائيلي من القيام بعمليات واسعة في الجبهة الجنوبية".

كانت هذه تقديرات الجنرال شارون ...أما مدى نجاح هذه التقديرات فهو موضوع للحوار ...

كان متوقعا وطبيعيا أن تنفجر مع المعركة العسكرية معركة سياسية، وها نحن شهود اليوم على أن هنرى كيسنجر يتخذ اليوم ـ ويعطيه الكثيرون ايضا ـ مظهر "حمامة السلام"!.

من الحمق أن نتصور وزير خارجية أكبر دولة استعمارية "حمامة سلام" حقيقية .. أن القوة وحدها .. قوة الشعوب الصامدة التى يدعمها جبروت الانظمة الاشتراكية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتى .. هذه القوة هى التى تجبر كيسنجر وأسياده وأمثاله على ارتداء ريش حمامة السلام، لان دروع الحرب التي هى جلدهم الحقيقي ما عادت قادرة على الصمود الابدى في مواجهة قبضات الحرية!

لا ريب في أن البحث عن صيغة لوقف اطلاق النار واجهته صعوبات من الجانبين العربى والاسرائيلي ولا ريب في أن كيسنجر أدرك هذه الصعوبات فكيف كان رده؟

.."دعوا الاولاد يلعبون قليلا".. هكذا كان السيد هنرى كيسنجر يستمد متعة الدم والدمار والويلات ..

غير أن المسألة ليست منوطة بارادة السيد هنرى، فان هناك يدا فوق يده، وحين ارتفعت تلك اليد تغيرت لهجة السيد هنرى، الى درجة القسوة على السيدة غولده مئير .. لقد حاولت السيدة مئير التأثير على عواطف كيسنجر اليهودية فذكرته بأنه كان يقطن مدينة "فير" على مقربة من أفران الغاز في معسكر داخاو، ولذلك ينبغي عليه أن يتقبل وجهة نظرها!

وجاء رد هنرى كيسنجر جافا باردا، وهو يحس بالظل الثقيل الملقى عليه من فوق من اليد العليا:

"أيتها السيدة رئيسة الوزراء .. نحن لا نبحث في الايمان. نحن نبحث عن حلول بديلة، للقضايا الملحة .."

وكان وقف اطلاق النار، والخطوة الاولى نحو مؤتمر جنيف ..

حيوانات اسطورية، ديناصورات مرعبة. هكذا بدت وتبدو آلات الموت والدمار والهلاك على ضفتى السويس. هذه هى صورة الوضع الذى أدى اليه العدوان والاحتلال والتنكر الفظ لحقوق الشعوب المشروعة .. ديناصورات على السويس .. ويبقى كلام كثير عن الحرب الرهيبة ..

(٨)
الحرب الناقصة

عملية العبور المصرية وصفها الشاذلى بالسمفونية.. سمفونية مكتملة، نوتة وعزفا، تخطيطا وتطبيقا .. أما عملية العبور الاسرائيلية فيصفها المؤلفون "بالحرب الناقصة" أو السمفونية الناقصة في لغة الموسيقى ..

من الاسباب الرئيسية لاكتمال سمفونية العبور المصرية، ان الاسرائيليين لم يتصوروا ابدا ان يقدم العرب على القيام بعملية في مثل هذا الجبروت وهذا الشمول .. عنصر المفاجأة لعب هنا دورا هاما.

وفي الجانب المصرى، ليس صحيحا ما اشيع من أن المصريين لم يأخذوا بالحسبان امكانية عبور اسرائيلي .. فكل التحصينات على الضفة الغربية وخريطة توزيع المواقع والقوات العسكرية تشير الى ان المصريين لم يستبعدوا ابدا امكانية التسلل الاسرائيلي من موقع ما على طول الجبهة.

رغم ذلك فقد لعب عنصر المفاجأة دوره الهام في هذه العملية ايضا.

في البدء لم يقدر المصريون ابعاد التسرب الاسرائيلي تقديرا سليما، وظنوه مجرد محاولة عديمة الاهمية، في مجرى الهجوم الاسرائيلي الشامل على الجبهة الوسطى.

وتتوزع مسؤولية المفاجأة على بعض قادة الجبهة الوسطى

المصرية وعلى القيادة العليا نفسها التى اكتفت بالتقارير المتفائلة ولم تتخذ الاجراءات الاحتياطية اللازمة للجم القوة المتسربة، كما انها لم تلتزم الخطة العربية ـ السوفييتية الموضوعة سلفا، كما صرح الجنرال الشاذلى مؤخرا.

لم تكن عملية العبور الاسرائيلية جديدة في شيء فهى عملية كلاسيكية نستطيع العثور على مثيلاتها في جميع الحروب السابقة. ومع ذلك فقد حققت نجاحا ملحوظا، وأن كان في اساسه نجاحا اعلاميا معنويا.

"وفقط، بعد أن اجتازت قوات الجيش الاسرائيلي مساحات واسعة نسبيا، ظهر أمامها كل جبروت العتاد المصرى. عشرات المعسكرات التى بنى معظمها بأيدى الجيش البريطانى في الحرب العالمية الثانية، قواعد عسكرية كثيرة، خنادق ومخازن ذخيرة تحت أرضية على طول عشرات الكيلومترات. وكانت هناك مخازن امدادات أمامية، مزودة بالكثير من الاغذية الممتازة وباحتياطي من الذخائر يكفي المصريين أياما كثيرة من القتال".

يتضح فيما بعد ان المصريين اعدوا ايضا لامكانية غزو مدينة السويس ومدن القناة الاخرى، الامر الذى جعل العبور الاسرائيلي سمفونية ناقصة لا أمل في اتمامها، واليكم ما رواه احد الجنود الاسرائيليين عن الاشتباكات في ضواحي السويس:

"دخلنا احد البيوت ولكنه اتضح لنا أن البيوت هى أكثر المصائد شرا. من الدور الثانى والثالث سكبوا علينا القنابل اليدوية، ومن المنازل المجاورة، عبر الشارع، وجه القناصة نيرانهم نحو المنافذ. كان الخروج مستحيلا. عزلنا في بضعة منازل حول مفترق الطرق، ولم يكن بيننا من وسيلة اتصال سوى أجهزة اللاسلكي. ولم نتقدم عن

المكان الذى توقفت فيه سياراتنا بأكثر من ٤٠٠ متر. ويبدو أن القوة التى بقيت خارج المدينة سمعت بحالتنا وأخذت تقدم لنا مساعدة مدفعية".

وعقب المؤلفون على هذه الرواية وروايات اخرى مماثلة:

"اتضح ان الانطباع بأن مدينة السويس خالية من البشر كان انطباعا خاطئا. عوضا عن السكان الذين بقوا فيها، فقد تملصت إلى المدينة أجزاء من الجيش الثالث من غربى القناة. وأنضمت اليهم ثلاث فرق من المغاوير (كوماندو) المصريين، عسكرت فى المدينة واستترت بين منازلها. لم يتوقف هؤلاء عن اقتناص الجنود الاسرائيليين المحاصرين حتى ساعات الليل.

استلقى الجرحى على الارصفة ولم تكن هناك امكانية لانقاذهم. بعضهم جرحوا عدة مرات، وبعد كل مرة أصابتهم رصاصات أخرى. بعد عدة ساعات دخلت الى المدينة مجموعة من المصفحات والدبابات التى قدمت لاخلاء المصابين. وكان الامر يقضى باخلاء القتلى والمصابين بجراح طفيفة. أما المصابون بجراح بليغة فقد خبأوهم مع الجنود السالمين. كان هناك خوف من الا يتحملوا هزهزات الطريق".

ويتذكر المصور العسكرى شلومو عراد جانبا مما حدث للغزاة على مشارف مدينة السويس:

"أطلقوا علينا النار من كل نافذة. لم يكن هناك بيت واحد لم يطلقوا منه النار. على الشارع استلقى جرحى يصرخون في طلب النجدة. وانطلق المظليون نحوهم في محاولة لانقاذهم من قلب النار. كل من فعل ذلك أصيب هو أيضا. من داخل الباصات التى اصيبت سمعنا ايضا نداءات استغاثة. بدون اى جهد، القى علينا الجنود المصريون المتحصنون في المنازل قنابلهم اليدوية، ببساطة، قذفوا

تلك القنابل عبر الشبابيك. بعض الجرحى استلقوا في وسط الشارع وتلقوا رصاصة، ثم اخرى، ثم اخرى، وثرثرت اجهزة الاتصال بلا توقف: "نطلب النجدة، لا نستطيع أكثر من ذلك". مصفحة قائد القوة، يوسي، تلقت ضربة مباشرة من بازوكا. جرح القائد، والرجال الذين كانوا معه، اما انهم جرحوا أو قتلوا".

بعد روايات واعترافات عدد من المقاتلين الاسرائيليين في ضواحي مدينة السويس، يخلص المؤلفون الى الاعتراف بأن "المعركة على مدينة السويس انزلت خسائر فادحة بقوة المظليين الاسرائيليين".

في فصل سابق سجلنا اهداف الجنرال شارون التى سعي لتحقيقها من اختراق البحيرات المرة والعبور الى الضفة الغربية. وقلنا ان مدى نجاح الجنرال شارون مطروح للنقاش.

وفي نهاية هذا الفصل، يقول المؤلفون بأن ايا من الجانبين، العربى والاسرائيلي، لم يحقق اهدافه فى هذه الجبهة، وبهذا تكون حرب العبور الاسرائيلي حربا ناقصة .. سمفونية ناقصة .. حربا ناقصة ..

(٩)
انسان في مواجهة الدبابة

في غمرة الحرب، كان الانطباع الذى خلقته الدعاية الاسرائيلية حول نشاط المغاوير العرب على الجبهة الجنوبية، ان الفشل الذريع كان نصيب جميع محاولات الانزال التي قامت بها وحدات المغاوير.

وكانت الدعاية الاسرائيلية تربط بشكل مباشر بين اسم الجنرال الشاذلى وبين تلك الوحدات، مؤكدة ان الشاذلى كان قد اشرف شخصيا على تأسيس تلك الوحدات واعدادها للقتال.

غير ان مؤلفى "وثيقة الفساد" يسجلون للمغاوير عمليات لا يمكن وصفها بالفشل:

"في الساعات الاولى من نهار يوم الاحد، حين كانت الدبابات الاولى، من احدى وحدات المدرعات، مندفعة الى الجبهة الجنوبية، اصطدمت بكمين كبير، من رجال الكوماندو المصريين. سمح هؤلاء لقوات القيادة، التى سارت فى الطليعة، ان تمر بسلام. وفقط حين وصلتهم الدبابات فتحوا عليها النيران المضادة للدبابات. منذ الصلية الاولى أصيب عدد من الدبابات بقذائف البازوكا التى انطلقت من مدى قصير. جنود الوحدة الاوائل سقطوا قبل وصولهم الجبهة. وقد روى أحد القادة عن الاصطدام بكمين الكوماندو: "لقد عملوا كالمنتحرين. خرجوا لمواجهتنا من بعد أمتار معدودة، صوبوا بازوكاتهم نحو الدبابات ولم يخافوا شيئا. بعد كل صلية نار كانوا يتدحرجون، تحت العجلات تماما، ثم يستترون بين النباتات على الطريق ويعبئون البازوكات لصبة نار اخرى". ورغم ان القسم الاكبر من رجال الكوماندو اصيبوا في الحال، فان رفاقهم لم يركنوا للفرار، بل واصلوا معركة اشغال، معركة انتحارية مع الدبابات، وكأنهم حزموا الامر على التضحية بحياتهم على الا تمر الدبابات .. لم يكن سرا بالنسبة للجيش الاسرائيلي ان الجيش المصري مزود بصواريخ "ساجر" المضادة للدبابات، غير ان المفاجأة كانت تكمن في جهل الجيش الاسرائيلي اساليب القتال السوفييتية بهذه الصواريخ".

كما ان صواريخ "سام ٦"، التى تتحرك على متون السيارات او المجنزرات، وصواريخ "سام٧" التى تحمل على الكتف كالبازوكا، أدت دورا رئيسيا في المعركة المضادة للطائرات. ليس من عادة اسرائيل ان تعلن عن خسائرها في الطيران، غير ان صحيفة "أفييشن ويك" الامريكية، المتخصصة في شؤون الطيران، زعمت ان اسرائيل فقدت في الحرب ١١٥ طائرة من كافة الانواع التى تملكها، وان هذه الكمية تساوى ١٨٪ من سلاح الطيران الاسرائيلي. ونحن لا نعرف مدى دقة هذه الاحصائية، التى وان لم تصدر عن اسرائيل فقد صدرت عن مجلة لا يمكن اعتبارها مصدرا رسميا او نموذجا للموضوعية.

كذلك الامر بالنسبة لخسائر اسرائيل في الدبابات. كل ما نشر حول هذه الخسائر ليس سوى تقديرات من مصادر غير دقيقة الاطلاع او غير أهل للثقة.

وتبقى بعد كل ذلك الظاهرة الجديدة في تاريخ منطقتنا: الجندي العربي الذى يواجه اعداءه مشحونا برغبة الفداء على الا تمر تلك الدبابة الغريبة الغازية.

(١٠)
ماذا حدث لديان؟

من الطبيعي ان يبحث الرأى العام الاسرائيلي عن تفسير للنكسة الكبيرة الاولى في تاريخة .. ذلك التاريخ القصير والملىء "بالامجاد العسكرية".. ومن الطبيعي ان تدور جميع التفسيرات والتبريرات

حول التفسير الحقيقي دون ان تدركه.

باستثناء الشيوعيين وبعض الاوساط والعناصر الدمقراطية الواعية، فان الاغلبية الساحقة من سكان اسرائيل لم تضع اصبعها على موطن الداء الاساسى الكامن في سياسة الغطرسة العسكرية والعدوان التوسعي والتنكر المستمر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه الشرعي.

من هنا فقد كثرت وتنوعت التبريرات الواهية من طراز "كلنا مسؤلون".. "الروس المذنبون" .. "الاستخبارات هى المذنبة".. وهلمجرا..

أما مؤلفو "وثيقة الفساد" فقد اختاروا كبش فداء طالما سمنه القوم ودللوه وتعبدوا له.

موشيه ديان ..الجنرال موشية ديان .. ديان الذى اقترن اسمه بكل الغطرسة العسكرية الاسرائيلية من اولها الى اخرها ..
ماذا يقولون عنه في كتابهم هذا؟

"خلق موشيه ديان لنفسه، في العالم وفي اسرائيل، صورة عبقري عسكري. غير ان الخبراء العسكريين والمفكرين العسكريين الذين عاشروه يعرفون ان ديان، في الواقع، هو متوسط للغاية، ويفتقر لبعد النظر فى تفكيره العسكري".

ومن ثم يفندون تصريحاته بأن الجيش الاسرائيلي كان على اهبة الاستعداد للحرب، ويزعمون ان العكس هو الصحيح. ويؤكدون "ان

الجيش الاسرائيلى، أو جزء منه على الاقل، لم يكن مستعدا لنوع الحرب التي أملاها العدو، لاسيما العدو المصرى".

ويرى المؤلفون ان غلطة ديان التراجيدية هى في انه كان يتمتع بنفون، مبالغ فيه، على الحكومة وعلى التقديرات الاستراتيجية.

لقد اخطأ ديان حين قدر ان الجيش الاسرائيلي سينتصر على العرب بسهولة، اذا ما نشبت الحرب على احدى الجبهتين أو على الجبهتين معا.

وحده، ومع كثيرين غيره، أسهم ديان في خلق اسطورة الجيش الاسرائيلي الذى يستطيع ان يقوم بأية عملية عسكرية وفي أى وقت شاء .. الجيش الاسرائيلي الذى لا يقهر .. غير أن ديان لم يتحقق مما اذا كانت هناك تغطية كافية في الواقع، لهذه الاسطورة العجيبة. نذكر الكلام الكثير الذي قيل عن "انهيار اعصاب ديان" في اثناء القتال، وعن "فقدانه القدرة على تسيير الامور".. ويورد المؤلفون نموذجا على تخبطات ديان.

استطاع الجنود الاسرائيليون، المتحصنون في احد المواقع جنوبى القناة، أن يصمدوا خمسة ايام. رغم ذلك كان على الجنرال ديان أن يبت في امرهم حين بلغ الموقف ساعة حرجة. غير ان ديان تخبط كثيرا حتى توصل الى قرار عجيب بالفعل .. لقد طلب ديان من قائد الموقع، وهو ضابط شاب في الثالثة والعشرين من العمر، ان يقرر بنفسه.. وقد قرر ذلك الضابط الشاب ان يستسلم وجنوده. وقد عقب على ذلك احد الجنود بقوله: "اي وزير دفاع هو هذا الذي يترك حسما مصيريا الى هذا الحد، في يدى قائد صغير في الثالثة والعشرين من

العمر، فقط من اجل الا يتحمل هو نفسه مسؤولية ما سيحدث؟".

في حرب الاستنزاف سنة ١٩٧٠ دل استفتاء شعبى في اسرائيل على ان ٩١٪ من سكان اسرائيل يرون في ديان الزعيم الاكثر شعبية. في كانون الثانى ١٩٧٢ اعتبر ٩٥٪، من الذين شملهم الاستفتاء، ان موشيه ديان هو احسن وزير دفاع.

في تشرين الثانى ١٩٧٣ دلت الاحصائيات على ان ٣٦٪ فقط يريدون أن يستمر ديان في وظيفته وزيرا للدفاع .. و ٢٪ فقط ايدوا ترشيح ديان لرئاسة الحكومة.

وسقط القناع ..

وانتهت الأسطورة ..

المعرفة والموت

في الصفحات الاخيرة من الكتاب، يعلن المؤلفون مرارتهم الشديدة من الرقابة العسكرية التى لا تسمح للجمهور الا بمعرفة المكاسب التى تحققها اسرائيل. اما الخسائر فلا تصح معرفتها:

"حتى يومنا هذا، تستطيع وسائل الاتصال في اسرائيل ان تقدم التقارير للجمهور عن النجاحات والمكاسب وحدها. منع مشدد مفروض على نشر الفشل والاخطاء والهزائم".

ويسجل المؤلفون اقوال احد الجنود الذين نزلوا عن جبل الشيخ بعد إحدى المعارك:

"عندنا مسموح ان نموت - اما ان نعرف، ممنوع"!

ما زلنا نذكر تلك التصريحات المتغطرسة التى اطلقها ديان والعزار: "سنضربهم بالشلاليت"- ديان .. او "سنكسر عظامهم "- العزار ..

ويسخر المؤلفون من مثل هذه التصريحات التى تناقض الواقع على الجبهة.. ثم يقدمون تعليقا ساخرا من احد الجنود الذين كانوا يسمعون اذاعة اسرائيل وهى تلعلع من حين لاخر: "قواتنا تسحق العدو!" .. قال ذلك الجندي: "من الصعب قليلا ان تسحق العدو بينما انت تسافر الى الوراء!".

أما فيما بعد .. حين صمتت المدافع، وتكلمت عرائس الالهام، فقد اصدر الجنرال المتقاعد متتياهو بيلد كراسا ضمنه عددا كبيرا من التقارير والمقالات والانباء والحقائق التى نشرت في الصحافة الاجنبية، لكنها اخفيت عن القارىء الاسرائيلى ..

لا ريب في ان هذه المواد كانت ستعتبر كنزا معرفيًا ثمينا لو جاءت في اوانها، غير اننا نأخذ بالمثل القائل: "ان يأتى متأخرا خير من الا يأتى ابدا!"

وفيما يلى نقدم لقارئنا بعضا من تلك المواد التى اخفيت عنه في حينها .. وانه لبعض يدل على الكل ولا يغنى عنه !

روح جديدة في الجيش السوري

("يبدأون بصورة جيدة وينتهون بصورة رديئة"، هذا ما قاله دبلوماسي بريطاني في عمان، متنبئا بأن التقدم السوري سينهار عاجلا. "في نهاية الامر، فانهم ينكسرون"، قال ضابط اسرائيلى، كما جاء في "جروزلم بوست". غير ان السوريين لم ينهاروا. في يوم الاثنين حاربوا بكل عنف. وبدأت القيادة الاسرائيلية تقلق ازاء هذه الروح الجديدة .. وبينما كانت الدعاية الاسرائيلية تزعم انه في يوم الاثنين تم تدمير القطاع المركزي من التقدم السوري، فان الاسرائيليين لم يتقدموا في ذلك اليوم تقدما ذا دلالة.

من تقرير أعدته طواقم صحفية مشتركة من "ساندى تايمز"- لندن، و "فولتفوخة"- زوريخ).

النموذج الفيتنامي

(على حد قول القيادة المصرية العليا، فقد تم اختراق خط بارليف خلال ست ساعات). على الفور، امتلات الطرق المؤدية الى القناة بوسائط النقل التى تدفقت فيها الامدادات المصرية - ونقلت الصواريخ اماما.

"ان الضفة الشرقية، على طول خط بارليف، تبدو وكأنها ورشة جبارة من اعمال الخدمات العامة" - هذا ما قاله مراسل امريكى عاد لتوه من جولة على الضفة الشرقية.

في اوساط عسكرية فى القاهرة، قالوا "ان اسرائيل تخلفت، هذه المرة، بحرب واحدة. لقد حاربت على غرار حرب ١٩٦٧، دون ان تتعلم الدروس من الحرب "الطازجة" - في فيتنام. لم يقدر الاسرائيليون معنى الصواريخ التى تقصقص اجنحة سلاح الجو. كان هناك من تساءلوا عن سبب امتناع مصر عن اطلاق طائرات الميغ التى لديها.لم تكن حاجة لذلك. صواريخ "سام" تصيب طائرات العدو دون تسبيب الخسائر لسلاحنا الجوي".

الجيش الثاني، الذي انتشر على طول حوالى ١٠٠ كيلو متر، وفي عمق يتراوح بين ١٢-١٧ كم، وفي مواضع معينة، حتى ٢٠ كم، كان مظلة من الصواريخ، واعتمد اسلوب "المدحلة" الروسي . لم يحاول القيام بعمليات اختراق عنيفة، أو عمليات خطرة. لقد تحركت دباباتهم الى الامام ببطء، في خط كثيف وبسرعة موحدة، باتجاه تلال سيناء الاستراتيجية.

لقد حاول الاسرائيليون، طبعا، ان يهدموا، في الساعات الاولى، الجسور

الاحد عشرة. لكنهم فشلوا. نصف الدزينة من المراقبين الاجانب الذين سمح لهم بالعبور الى الضفة الشرقية، في الاسبوع الاول من الحرب، كانوا متفقين على ان الاسرائيليين لم ينجحوا في تدمير الجسور المصرية. وفي القاهرة يتساءلون: لو كانت الجسور قد هدمت، فكيف كان من الجائز تدفيق الامدادات الكبيرة الى الضفة الشرقية؟ لقد اثبت النجاح المصرى، ولاول مرة، محدودية نجاعة سلاح الجو الاسرائيلي.

بقلم بيير ماكن ـ «فيغارو»

اسرائيل: أطباء نفسانيون في الجبهة

("قالوا لي أنني سأحارب دبابات. آلات. فجأة رأيت مئات الجنود امامي. مشاة مصريون، لم اطلق النار من قبل على هدف حي. قلت لنفسي: لست مؤهلا. ولكن ان انا لم أقتلهم، فساقتل اسرائيل. ولهذا أطلقت عليهم النار" .. يعقوب، أبن ١٩ سنة، ممدد في فراش المرض ويتمتم: "قتلت .. أصدقائي أيضا ـ أنهم أموات ..")

أمس كان يحارب بدبابته في سيناء. منذ اصيب نقل الى المؤخرة: خمس ساعات بالهيليكوبتر، بالطائرة، بالامبولانس، حتى مستشفى تل هشومير، على مقربة من تل أبيب. حين عاد اليه وعيه، أدهشه أن رأى قرب رأسه الطبيبة النفسانية السيدة س.

في الجبهة يوجد طبيب نفساني واحد لكل كتيبة. أنه يستمع

لاقوال الجنود: واحد، اصيب بالجنون من دوى القذائف. آخر، اصيب بالانهيار من قلة النوم.

في المستشفى قالت لي السيدة س: "انا طبيبة نفسانية في المؤخرة. أنا من اولئك الذين يرافقون المصابين بجراح بالغة، ضحايا الصدمة النفسانية، حتى عودتهم الى الحياة الاجتماعية العادية".

يحاول الاطباء النفسانيون أن يعودوا الجرحى، على فقدان يد، رجل، عين، والحروق الفظيعة. وهم يجرون اللقاءات بين مشوهى الحروب السابقة ومشوهى وجرحى حرب يوم الغفران".

بقلم: اليزابيت شميلا - «لاكسبرس»

التكنولوجيا العسكرية السوفيتية

(أشد عدو مميت تواجهه اسرائيل في حرب اكتوبر ١٩٧٣، هو - التكنولوجيا العسكرية السوفييتية. القذائف والصواريخ التى انتجها الاتحاد السوفيتي سببت معظم الخسائر في الطائرات والدبابات، التى منيت بها اسرائيل حتى الان.

بعض تلك الاسلحة معروف لاسرائيل. طائراتها اصطدمت من قبل بصواريخ أرض - جوّ من طراز سام ٢ ذات الانطلاق العالي، وسام ٢ ذات الانطلاق المنخفض. كان هذا في حرب الاستنزاف سنة ١٩٦٩/٧٠. هذه المرة ووجه الاسرائيليون بصاروخ سام ٦ - وهو صاروخ سوفييتي حديث الى درجة أنه لم يسبق أن استعمل في المعارك. وكما يقول المعلق العسكرى البريطاني ادوارد لوتواك، فان لدى الجيش الاحمر كمية محدودة من سام ٦. هذا الصاروخ دقيق جدا،

وقد اسقط حوالى ٧٠ فانتوم وسكايهوك في الاسبوع الاول من الحرب.

لدى الاستخبارات الغربية معلومات ضئيلة جدا عن سام ٦، ولكن يسود الاعتقاد بأنه ليس لدى الولايات المتحدة سلاح مشابه لهذا السلاح. يطلق الصاروخ من ناقلة زحافة سريعة الحركة، وله جهاز توجيه أكثر دقة، من جهاز صاروخ "هوك" الامريكي (هو سلاح الدفاع الجوي الاساسي عند اسرائيل .. س . أ) يستطيع سام ٦ اصابة الطائرة ابتداء من ارتفاع سطح الارض تقريبا، حتى ارتفاع ١٢ كم. هذا الصاروخ يستعمل الرادار لاكتشاف الطائرة المعادية، منذ اطلاقه وحتى اصابة الهدف تمر ثوان قليلة فقط.

الصاروخ السوفييتي المضاد للدبابات، من طراز سنابر (سنابر هي التسمية الغربية لهذا الصاروخ ـ س. أ) ألم المدرعات الاسرائيلية، بمدى ما أصاب سلاح الجو الاسرائيلي من سام ٦.

لصاروخ سنابر مدى ١،٥ كيلو متر تقريبا، وهو يوجه الى الهدف بواسطة الجندى الذى يطلقه وبواسطة مداف (ما يُسمى عندنا "قمحة" ـ س .أ)، وسلك كهربائى يتدلى من الصاروخ. هذا السلاح سبب معظم الخسائر في الدبابات الاسرائيلية..

مجلة «تايم» الامريكية ٢٢-١٠-١٩٧٢

صواريخ

حرب رمضان، كانت هي الحرب الالكترونية الاولى فى التاريخ، ومنذ معركة ستالنغراد السوفييتية لم يعرف العالم معركة في ضخامة وشراسة معركة "العبور العربى".

في هذه المعركة ترددت أسماء عديدة لصواريخ مهلكة، نقلت الحروب الى مرحلة جديدة أو عهد جديد هو "عهد الصواريخ". فيما يلي بعض المعلومات عن بعض الصواريخ التي ترددت اسماؤها في حربنا الرهيبة:

سام ٢: صاروخ أرض - جو سوفييتي، غطى عمليات العبور على طول القناة، مداه ٣٥ كم. موجه بواسطة لاسلكى.

سام ٣: صاروخ أرض - جو سوفييتي، ينقل الى الجبهة على شاحنة من طراز زيل - ١٥٧. طوله ٦،٢م، يستطيع بلوغ ارتفاع ١٥ كم في خط عمودى.

سام ٦: هو أخطر الصواريخ. سريع الانتقال، يحمل على زحافة مدرعة من طراز. ت ٧٦. كل ناقلة تحمل ٢ صواريخ. مدى هذا الصاروخ ٣٠ كم.

هوك: صاروخ أرض - جو أمريكى. السلاح الاساسي في الدفاع الجوي الاسرائيلي وفي حلف الاطلنطي. مداه ١٠٠ الى ٣٠٠٠٠ قدم.

فروغ: هو الاسم الذى اطلقه الاميركيون على صاروخ أرض-أرض سوفييتي. هذا الاسم مكون من الحروف الاولى للكلمات الانجليزية التى تعنى "قذيفة حرة على وجه الارض". مثل صاروخ "هونست جون" الاميركى، يتحرك هذا الصاروخ بقوة قذيفة، في منطلق حر

(غير موجه).

هناك عدة نماذج من صاروخ فروغ. فروغ ١" مداه ٢٤ كم. فروغ ٢، ٣، ٤، ٥ مداها ٥٠ كم. أما "فروغ ٧" الذي زودت به مصر في ١٩٧٠/٧١ـ ولا شك أنه أعطى لسوريا أيضا ـ فأنه قادر على اصابة اهداف على بعد ٧،٥ الى ٩٢ كم. هو صاروخ ذو مرحلة واحدة، يتحرك بالوقود المكثف.

"فروغ" موجود في الاساس في الدول الاعضاء في حلف وارسو، بما فيها المانيا الشرقية. شوهد لاول مرة في العرض العسكري السوفييتي عام ١٩٦٥.

جميع نماذج "فروغ" هي أسلحة حديثة قادرة على حمل رؤوس مدمرة ذرية تكتيكية، وكذلك رؤوس حرارية ـ ذرية. الرأس المدمر التقليدى لهذه الصواريخ يزن ٥٠٠ كغم.

"فروغ" هو صاروخ مميت، من أبرز صفاته قدرته على الحركة السريعة تحمله شاحنة قبيحة ذات ست عجلات.

ان صواريخ أرض ـ جو الحديثة، موجهة الى اهدافها بواسطة اجهزة الكترونية دقيقة جدا، وفي الواقع فانها لا يمكن ان تخطيء وفي الواقع ايضا، أن السلاح المضاد للطائرات يستطيع في هذه الايام أن يكنس السماء من طائرات العدو.

الصواريخ المصرية

ولدت الصواريخ المصرية أرض - أرض في عام ١٩٦٢، وهى صواريخ ذات مرحلة واحدة وتعمل بالوقود السائل. خبراء مصريون تخصصوا في الاتحاد السوفييتي حتى تطور مصر الصواريخ بعيدة المدى.

لدى مصر ثلاثة انواع من الصواريخ:

١- الظافر: يستطيع حمل متفجرات زنتها نصف طن الى مدى ٢٧٥ كم تقريبا. يمكن اطلاق هذا الصاروخ من ناقلة متحركة.

٢- القاهر: هو أكبر الصواريخ المصرية. ذو مرحلتين ويستطيع بلوغ ٦٠٠كم.

٣- الرائد: أصغر سنا من سابقيه. يستطيع أن يحمل طنا من المتفجرات الى مدى ٧٠٠كم تقريبا.

في الاستعراضات العسكرية عرضت مصر صاروخ "القاهر" الذى يبلغ طوله حوالى ١٢ مترا وقطره حوالى ١٢٠سم. لدى مصر حوالى ١٠٠ صاروخ من هذا النوع.

ايكونوميست - لاورور- فرانس
سوار - دى تسايت - ديلى ميرور

أخطأت اسرائيل في تقدير سورية

الجنرال بوئى، مدير معهد الدراسات العليا للامن القومي في فرنسا، أجرى معه التلفزيون الفرنسى مقابلة بعد عودته من دمشق. فى تلك المقابلة قال الجنرال بوئى ان خطأ اسرائيل كان فى استخفافها في تقدير الجيش السوري. يمتاز هذا الجيش بتشغيل هذا السلاح الحديث. ولم يدخر الروس شيئا في تزويدهم الجيش السوري، صواريخ سام المضادة للطائرات والصواريخ المضادة للدبابات جبت ضريبة ثقيلة من قوات الجنرال ديان. لقد دقق السوريون في عدم الكشف عن صواريخهم حين كانت الطائرات الاسرائيلية تخترق مجالهم الجوي قبل الحرب. والاسرائيليون الذين اصطدموا بهذه الصواريخ، فوجئوا بالقتال الجديد الذى فرض عليهم ...

فرانس سوار ١٧-١٠-٧٣

نبوءة شارون

في نيسان ١٩٧٣ قابل طاقم من محررى "آرمد فورسز جورنال"، الجنرال اريئيل (اريك) شارون، الذي كان آنذاك قائد المنطقة الجنوبية.

قال لهم الجنرال شارون: "قد لا تكون القناة خط سلام، ولكنها خط نستطيع فيه أن نحول دون نشوب الحرب. أن السبب الوحيد الذى يدفع الدول الى شن الحرب، هو - تخوف تلك الدول من ان يهاجموها، او اعتقادها بأنها قادرة على تحقيق النصر. في هذا الخط، لا أمل للمصريين بالانتصار. وخط القناة تستطيع اسرائيل ان تحتفظ به

بقوات صغيرة".

بكل هذه العنجهية، وبكل قصر النظر هذا تحدث الجنرال شارون آنذاك .. أما اليوم، فلا شك فى ان لديه رأيا آخر. هل آراؤه الجديدة أكثر ذكاء ومعقولية؟ نشك في ذلك. فالنبرة ذاتها التي اوصلت اسرائيل الى ما اوصلتها اليه فى حرب رمضان ـ حرب حتمية التاريخ، النبرة ذاتها عادت من جديد.. ونحن نراقب فيضانها يوما بعد يوم، غير ان التاريخ لا يمكن ان ترسم مساره هذه النبرة او تلك، المنطلقة من أفواه جنرالات مصابين باستلاب واحباط ممضين.

مدرسة للقتل

رجل اشعث، حاد النظرات، غدار، يخفى في ثيابه خنجرا رهيبا، لا تكاد تدير ظهرك حتى ينقض عليك بطعنه نجلاء، متخلف، قاسٍ، همجى، هوايته القتل، سادى، قاتل اطفال، جبان رعديد، كذاب، منافق، قذر، فظ، ساخط، لئيم، حقود الخ...

هذا هو النموذج الذى سعت الدعاية الصهيونية، ولا تزال، لطرحه امام العالم المتحضر، كنموذج للعربي .. فهو ليس جنديا وليس انسانا.

(فى علم النفس، اننا احيانا نحاول تطهير انفسنا بواسطة تصريف عقدنا ودخائلنا وقذف الاخرين بها.. واحيانا نفعل ذلك بقسوة وعنف، كأننا ندفع عن انفسنا تهمة شديدة اللهجة، سواء كانت التهمة حقيقية ام وهمية. هذه الحالة النفسية هي التى تدفعنا الى قتل طفل يذكرنا دائما بأبيه الذي قتلناه من قبل).

دخان الحرائق في خط بارليف ينتفض رعبا وحزنا..

الاشتباكات العسكرية والدعائية على اشدها .. الى جانب حرب الصواريخ تدور حرب الوثائق .. وسائل الاعلام الاسرائيلية تقذف المصريين "بوثيقة" تزعم بها ان وزير الحربية المصرى اصدر امرا يوميا للجيش بوجوب وشرعية قتل اليهود حتى لو استسلموا.

شرقت الدعاية الاسرائيلية بهذه "الوثيقة" وغربت لتفضحنا بها بين الملأين الاعلى والادنى.

ثم كان ..

مجلة "معولام مزيه" الاسرائيلية الليبرالية، نشرت فى ١٥-٥-٧٤ مقالا - فضيحة يثبت ان القيادة الدينية (الرابانوت) للجيش الاسرائيلي اصدرت كراسا توجيهيا يحض الجنود الاسرائيليين على قتل الغوييم (غير اليهود) وقتل العرب عسكريين ومدنيين على السواء .. ولوجه الدقة، فان الكراس يدعو الى قتل المدنيين في حالة الاشتباه بأنهم قد يلحقون الضرر بالجيش الاسرائيلي في غزواته وهجماته .. اما هذا التحفظ الفضفاض فانه يلتغى كلية حين يؤكد الكراس السماوي الالهى الديني انه لا يمكن الثقة بالعربي ابدا وايا كان. ونسبت المجلة الى تلك الكراسة الرسمية الفقرات التالية:

ج ــ حين تلتقي قواتنا بمدنيين، في حرب أو مطاردة، أو غزوة فانه ما لم يكن هناك تقدير ملموس بأن هؤلاء المدنيين لا يستطيعون الحاق الضرر بقواتنا، يصبح من المسموح به، بل من الواجب، حسب الشريعة، قتل هؤلاء المدنيين.

د- لا يجوز فى اية حال من الاحوال وضع الثقة في عربي، حتى ولو خلق انطباعا بأنه متحضر.

هــ حكم الذي يساعد العدو او المخرب هو حكم العدو او المخرب نفسه ..

الغريب في الامر، ان هذه "الكراسة الدينية" بدأت بهذه العبارة الغريبة:

"ان الجيش الاسرائيلي معروف ومشهور بأنه جيش يثقف جنوده على المحافظة الدقيقة، على طهارة السلاح".

لا بأس. فمن خلال التجربة والممارسة الطويلتين اصبح واضحا لنا تماما أن "طهارة السلاح" في عرف قادة اسرائيل هي شيء مختلف تماما بل متناقض تماما مع ما تعارف عليه العالم المتمدن والبشرية المتحضرة.

كالعادة، وليؤكد واضع هذه التعاليم صحة تعاليمه، فانه يقفز الاف السنين الى الوراء، غائصا في اعماق التوراة وفهارسها وحواشيها ليعود بالحجة الدامغة المخرسة. لقد قال السلف الصالح: "طوف شبغوييم هروغ" .. اي "الجيد بين الاغيار هو القتيل" ..

غير أن واضع هذه التعاليم هو رجل علم ولا ريب، وهو بعيد النظر ثاقب البصيرة، لذلك فهو يقول بضرورة الامتناع عن قتل المدنيين في حالة معينة: حين يكون قتل المدنيين مسيئا للهدف السياسي من الغزوة أو العملية العسكرية الاسرائيلية .. والبركة في أهداف حكام اسرائيل السياسية، والبركة في وحوش الغاب.

لقد سئل الرابي الاكبر للجيش الاسرائيلي، الرابي بيرون، حول هذه الكراسة وجاء جوابه تأكيدا على أن الدراسة التوراتية لا بد من أن تشمل مثل هذه الامور، غير أن ايرادها اليوم لا يعني- على حد زعم الرابي الاكبر بيرون - الدعوة الى تطبيقها، بل هي مسألة دراسية علمية لا غير .. وما شاء الله يا علم!

ليس سرا على أحد، أو لم يعد سرا على أحد، أن "التوجيه المعنوي" في اسرائيل قائم في الاساس على اخلاقيات ومفاهيم تبعد قرونا عديدة عن عصرنا الحديث .. هذه الحقيقة تعذبني شخصيا، لا كعربي يواجهها مباشرة، فحسب، بل كأنسان متحضر يعيش في عام ١٩٧٤ بعد الميلاد.

ثم كان ... ...

نشرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" في ٢٣-٥-٧٤ نبأ يقول أن ثلاثة جنود متدينين من القيادة الدينيْة في منطقة تل أبيب جرموا بأغواء فتاة قاصر، وصدرت ضدهم أحكام قضائية.

كولاج

لم يحفل بالسير الذاتية. شغلته عن ذلك حواجز الشرطة. غنى في المآتم وعدد في الافراح لان العالم مقلوب رأسا على عقب. أما هو فلم يقف على رأسه ابدا ولم يستخف بقدميه. سجّل في دفاتره السرّية كل صغيرة وكبيرة واعلن مواقفه جهارا.. في وضح الموت. حدّث اصدقاءه واعداءه عنها. قال:

أرادتْ أن تُناديني
ولما لم تجد فمها
تشظى جسمها المائيّ
بين النار والطينِ

أرادت ان تعانقني
ولما لم تجد يدها
تفجر صوتها حمما
وغطاني
وغطى جثة الوطنِ
وشاءت أن تشاهدني وتعرفني
وشاءت أن تمس يدي

ولما كنتُ مخلوقاً خرافياً
بلا جسدِ

بلا أهلِ
ولا بلدِ
تعذر أن تشاهدني وتعرفني
ولم تبصر سوى ظلي
ولم تلمس سوى كفني..

ولأن القانون جريمة معدّة باتقان فقد ظلّ خارجاً على القانون. لم يدمن الوحدة ولم يتحفظ لكنه لم يتجاهل الامور الناجزة. لذا فقد وزع غضبه بالعدل وبالقسطاس. عقد حلفا شيطانيا مع الالهة وأله الشياطين لانه ادرك ضحالة الخلاف وضآلة الفوارق. اعرفه الى مدى بعيد وسمعته مرة يبكي:

من مسرب وعريّ
علي جبال النار
رف جناحُ حيّ
ومات، ثم طار
الى قبابِ القدس
حبيبتي يا قدس!

متى؟
ودوّى الصوت
على جبال الموت
وجلجل الاذان

حبيبتي يا قدس
وأنت الاجراس
حبيبتي يا قدس!

وكان يا ما كان
تفرّق الحرّاس
وامتدّت الاسوار
الى جبال النار

وارتحلت اعراس
واوغلتْ أجناس
تحت قباب القدس
أرملتي
يا قدس
متى تعود الشمس؟

لقد غادر البيداء العربية منذ الاف من الاعوام ولم يلق عصا التسيار. انما ينفض الرمل والغبار عن ثيابه وقدميه ويواصل الرحيل لأن الواحة تنتظره.. واحة حقيقية وانتظار حقيقي.

دم الولادة يغطي جسده ويرشح سرا على اعشاب عينيه وطحالب قلبه، لا يُحس المشاة بدمه النازف على الارصفة ولا يعيرون عذابه التفاتا.

اغتسل بنفط العرب كله وظل دم الولادة لاصقا بجلده وبروحه.. خوّض في البحار والمحيطات، اكتسح الانهار وفرك راحتيه

وصدره برمل الشواطىء وحصى الجداول وظل دم الولادة حارا حيا في مسامات جسمه وخلايا عقله.

يخيل إليّ انني قرات نعيه الشخصي في احدى الصحف المسائية وحين أعدت الجريدة الى مائدة المقهى احسست بدم ولادته اللزج على اطراف اصابعي. حدثتكم عنه في المرة السابقة ولم تصدقوني فقد بدا غريبا و (خرافيا) بعض الشيء. معكم حق ايها الناس الطيبون، بيد ان دم ولادته يغطي شفاهكم الوديعة .. وانتم تصدفون.

تحملون له صورة مضحكة لشدة ضلآلها .. لا أيها السيّدات والسادة لن تعرفوا ذلك الرجل. انه العاشق الاسطوري الذى لم يعرف الحب، انه الشجرة الوارفة الظلال بلا اغصان وبلا اوراق .. انه النبع المتدفق بلا ماء .. انه المساحة الشاسعة ولا يتسع لاكثر من فراشة .. انه موطيء الفراشة الذي يحضن العالم، انه الكل والعدم ولا تعرفونه هذا الممتلئة به عيونكم وقلوبكم وموائد طعامكم وكؤوس خمرتكم .

اعرفته؟ من يدرى؟ لا، لا أجرؤ على الزعم بأني ادركته حقاً. شاهدته هائما في مدن الارض موغلا في كواكب السماء وسمعته متمتما بين نيويورك ولوس انجلوس:

أزيحو الشكوك والاعذار

ان الموت قادم على الطريق الملكي

كان ذلك الفتى هنديا أحمر

يقدح الشرر من حوافر حصانه العاري

السهوب تناديه فاتحة اذرعتها

والجبال الجرداء تمهد له القش في مزاودها.

الهندي الاحمر

يتشبث بعرف جواده

ورأسه الحليق
اللامع في الشمس
يلاصق عنق الجواد المشدود كسهم .
كجذع شجرة الصحراء المائلة في العاصفة.
أزيحوا الشكوك والاعذار
ان الموت قادم مع السلام الجمهوري.
كانت تلك طائرة هيليكوبتر
تطارد الهنديّ المذعور
وبنادق الصّيد الاوتوماتيكيّة
تقتنص الريش الملوّن
المتطاير عن الرأس الحليق.

لا مجال للشك
إستوعب ذلك الهنديّ الاحمر حضارة العصر
إستوعبها دفعة واحدة
عبر الرصاصة المستقرة في الصدغ الاحمر
للهنديّ الاحمر
النائم بعيداً عن جباله الزرقاء!
*
جنازير ومسدسات
كلاب الشرطة المدربة
الزنجي الآبق
يغوص في الوحول حتى سرته
(سأهرب الى أفريقيا إنها أقرب من هارلم.)
أركض ايها الفتى الاسود اركض

أركض ايها الاسود
واقتربي ايتها الشمس السوداء
اقتربي
ان حمامة بيضاء تنتظرك
على المشعل الرمادي
في قبضة تمثال الحرية الابيض ..

x

اربعة ابواب «لليموزين» الفارهة
اربعة ابواب محكمة
في وجه الرصاص والهواء المنعش ..
من الباب الاول
يدخل دفتر الشيكات
بصحبة مندوب جنرال موتورز
من الباب الثاني
تدخل القبعة والمعطف والمسدس
محيطة برجل المافيا
من الباب الثالث
تدخل الخرائط والارقام
متأبطة مدير شركة النفط
من الباب الرابع
تتسلل الاجهزة الالكترونية
بين اطراف عميل ال (سي. أي. إي.)
أما الموت
فله الابواب كلها

وداعاً أيتها السيدة التعيسة
باي باي أمريكا!

ألمس كتفه برفق محاولاً إيقاظه من غيبوبته، يظل بعيداً يبصر بي ولا يراني. هذا الانسان التعيس لشدة سعادته. هذا الانسان السعيد بثروة لا تحصى من الام البشرية ينثرها على الاعداء والاصدقاء ويبذرها بدون حساب في صالات العرض الشعبية وعلى موائد القمار المكدسة بالفقراء والحالمين الصعاليك. كم هو مبارك بالحب هذا الرجل الذي لا تعرفه. وشاء الرجل الذي حدثتكم عنه ان يحتفل بعيد ميلاده فذهب الى السوق واشترى تفاحة ووردتين وزجاجة نبيذ. في المساء اضاء شمعة بيضاء على مائدته الفسيحة المغطاة بشرشف ناصع البياض حين قرع أصدقاؤه الباب طردهم واحضر حجرا من سفح الكرمل وضعه على المائدة الى يمين الشمعة ووضع التفاحة الى يسارها. سكب النبيذ على المصطبة ثم جاء بورقة من درج مكتبه ووضعها برفق في مواجهة الحجر والشمعة والتفاحة. أدار الباتيفون فتدفقت في القاعة الفسيحة احزان «البينوني» ودموعه المعتقة. (أعتق من النبيذ المهروق، بلا شك)

وكتب ذلك الرجل على تلك الورقة رسالة الى أمه:

(في طفولتي تأخر معاش المعلم فغضب كثيراً واقتلع خصلة من شعر رأسي / في فتوتي داهم الغزاة قريتي واغتصبوا حبيبتي

قاومت حبيبتي بأظافر لم تعرف المانيكور/ غضب الغزاة كثيرا واقتلعوا جديلة حبيبتي / في شبابي كان لا بد للدبابة من طريق / تعبره بخط مستقيم نحو قلبي / بين الدبابة وبين قلبي

كانت زيتونة في شهرها التاسع / غضبت الدبابة كثيرا واقتلعت زيتونتي من شعرها/...

الليلة احتفل بمرور سبعة قرون وسبعة اعوام وسبعة ايام على ميلادي واغفري لي يا أمي اذا كان احتفالي قاسيا / من خصلة شعري وجديلة حبيبتي وجذور زيتونتي جدلت كرباجا لهبيا / وانهلت على ظهر الكرة الارضية / اغفري لي يا أمي / اذا كان احتفالي قاسيا...

من عناوين الصفحة الاولى - يديعوت احرونوت- الاحد ١٩٨١/٣/٢٢:

- اشراك السعودية في مفاوضات السلام - ضمن محادثات بيرس مع ملك مراكش وشقيق حسين .
- المعلمون قد يقررون اليوم اضرابا...
- اسرائيل تقترح اشراكها في جهود تعزيز قوة الجيش الامريكي ...
- من عناوين الصفحة الاولى في جريدة تصدر لاحقاً:
- الثوار يواصلون عمليات الزحف والتطهير.
- قيصر الولايات المتحدة يلوذ بالفرار على متن طائرة هليكوبتر...

واشنطن مدينة محررة ...

تغييرات جذرية في خريطة العالم .

سأل الصحفيون الاجانب ذلك الرجل عن التداعيات التي تثيرها في نفسه زهرة البرقوق البرية فقال :

مريم العذراء حانية على يسوع الطفل / أبونا أمام المذبح والدة الشهيد في يوم الاربعين / أسير الحرب أمام الصحفيين الاجانب / حبيبتي مريضة أو يائسة / أنا في حالة الحزن السري / وربما، راقمة الباليه في نقطة الانطلاق...

حوادث الطرق

كثيرة حوادث الطرق
كثيرة في هذه الايام
سيدة حبلى تنوح وحدها
في (جادة السلام)
حوادث الطرق
ورجل مكعبل ينتف شعر رأسه الاصلع في مفترق الطرق

***

حملت اكليلا من الزهور
ورحت اقطع البلاد هائماً
في زحمة المطاط والاسفلت والقبور.
فوجئت عند كل منعطف
بجثتي المدهوسة
وعندما استنكرت واستفسرت واستنفرت
قيل لي بلا كلام:
يا أيها المواطن الغبي
كم دهستك شرطة السير ومرت بعدها على بقايا جثتك
سيارة الاسعاف.

كثيرة حوادث الطرق
كثيرة في هذه الايام
ويل وألف ويل
لكل من يصحو ومن ينام!

قلت له:صارحني أيها الرجل.

قال: أصارحك ..

ثم وضع على رأسه خوذة حربية وبدأ الكلام:

(في البدء نترك الابواب قليلا ونتفحص المداخل الخلفية، سيجدي الأمر أناسا متحضرين حقا. من الملاحظ ان الاصوات العالية تثير اهتمامنا. لا بأس في ذلك، لكننا لا نستوعب الصّدى جيدا. هذه الوجوه الكثيرة، وجوه البشر والنباتات، وجوه الحيوانات والظواهر والجوامد، تشدنا اليها ثم تصرفنا عنها وتتركنا متخبطين بين الحنان والقسوة واللامبالاة. وتتركنا دون طائل. نحاول سبر غورها فتظل حاجزا مهلكا بيننا وبين اللباب. ولا اخفي عنك ان وجهي نفسه يحول بينه وبين نفسي. (هو باب الجنة بلا شك .. وهو باب الجحيم حتما). ضغط جبينه المرهق برؤوس اصابع يده اليسرى واتبع:

(هو باب الجحيم. انما لنترك الابواب قليلا ولنتفحص المداخل الخلفية. لنتفرّس في العيون المقابلة وما أشد فزعنا آنذاك. حيث ندرك مدى تباين العناصر. وسنستعيد توازننا حين ندرك أن تلك العناصر قابلة للفهم رغم كل شيء).

ابتسم الرجل المكدود وأردف في محاولة اقناع يائسة، أو شبه يائسة في أحسن حال: (لا بأس يا أخي ورفيقي، لا بأس. فان جبال

الجليد العائمة مرهونة بمجاهلها وأسرارها الغائرة تحت سطح الماء).

أراد الجنيه الاسترليني ان يصبح أسداً. وأراد الاسد أن يصبح امبراطورية. وأرادت الامبراطورية ان تكون سكينا ذهبية تقطع الكعك الارستقراطي في (داوننغ ستريت ١٠). وتحققت الارادة الملكية.. معجزة؟ لا، فكل شيء بحساب.

يوم كان الجنيه الاسترليني جرواً صغيراً افترس في سهول بريطانيا طفلا انجليزيا يدعى بوبي ساندز. يوم صار الاسترليني شبلا صاخبا تسلق جبال هملايا وافترس على القمة فتى هنديا يدعى بوبي ساندز .. وغدا الشبل أسدا سويا يعتمر تاجا ذهبيا يرصع كل فجر بجوهرة جديدة .. وشاخ الاسد وبهظه عبء السنين والجواهر فعجز عن هبوط هملايا عائدا الى بلده. وأحضروا له مصعدا كهربائيا وكان عامل المصعد فتى ايرلنديا يدعى بوبي ساندز. ولم يكد الجنيه الاسد يغادر المصعد حتى كشر عن بقايا أنيابه واستشاط جوعا وغيظا وافترس عامل المصعد الايرلندي بوبي ساندز.

في هذه الاثناء كان الرجل الذي حدثتكم عنه مكبا على جثة شهيد فلسطيني فتي أسمه بوبي ساندز وكان يدندن بين دموعه:

عينان مفتوحتان

على رحاب المنون

ولا ترف الجفون

ولا يجف الدخان

عينان من لازوردْ
في جنة المجهول
يا أيها المقتول
إنهض. ظلام وبرد
إنهض وراءَ الجبال
بيت وأم وأختْ
بعض الذي أنت كُنْت
يضم كلّ الخيال!

أقول ما لا أقول
يا أيها المقتول!

* وكان سرب من الطائرات الامريكية منطلقا من القواعد الاسرائيلية مكتسحا السماء اللبنانية مغيرا على الاشواق الفلسطينية.

** أحبها بصخب وأحبته بهدوء. قال أنت المعنى. صمتت: أنت المعنى. وتابعت الايام والانهار جريانها الفظيع وفقد الخبز مذاقه. أما نعناعة الريف فلم تكف عن البوح باسرارها الصامتة.

لم يعد ذلك الرجل قادرا على النطق: اما هي فواصلت صمتها: أنت المعنى..

*** قال المثل الصيني العتيق: (لا أصعب من البحث عن قطة سوداء في غرفة مظلمة.. لا سيما اذا لم تكن هناك قطة).

ذلك الرجل يبحث في غرفته المضاءة عن القطة السوداء التي يدرك أنها غير موجودة ولن توجد على الاطلاق.

**** قال أبو العلاء المعري:

فيا موت زُر إن الحياة ذميمة

ويا نفسُ جدّي، ان دهرك هازلُ

***** وقال ذلك الرجل:

إن الحياة ذميمة

أيها الموت، فأمهلني

حتى أجرع كأسي المترعة

بصروف الدهر

ونوازع النفس،

جدّها وهزلها!

الشرك

أطلتَ النظر في السماء

لم تستوعب التمويهات المبثوثة تحت قدميك

ترصّدت بعينيك الساذجتين

قمرا نظيفا، نجمة حقيقية

كثيرا ما أثارت الثمار العالية شهيتك

كثيرا ما انسجمت مع الطيور الملونة على خطوط الخُضرة المائسة

إنها الغابة يا صاحبي

الغابة يا حبيبي

لم تدرك التمويهات المبثوثة بخبث

تحت قدميك الحافيتين

فاسقُطْ

أسقطْ في الشّرك المعد بإتقان
حيث تتلقفك النمال المفترسة
مُدّ يديك واصرخ مستغيثا
لا جدوى يا صاحبي
إنها الغابة يا حبيبي!

بائع متجول من غزة المحتلة

فريسة تبحث عن صياد
هذا أنت
بسلة البلاستيك الخضراء
بالقطع النحاسية المغشوشة في كيس الخيش المملّع
بالملاعق والسكاكين والاجراس
فريسة تبحث عن صياد
هذا أنت
بالكوفيّة المهلهلة والعقال المائل بفوضى
بالرجاء الضعيف في زبون عابر
هذا أنت
بجوعك وصبرك ونحولك
في حيفا الميّتة
حيفا الممتلئة حياة
حيفا التي هجرتك ونسيتك وخانتك
بحارة الاسطول الخامس أوفر منك حظا!
هذا أنت

فريسة تبحث عن صيّاد
مساء الجمعة حيث السكون
ومهمات المصلين بلغة أخرى
بعيدا عن الجوامع المهجورة
بعيدا عن الكنائس المشبوهة
هنا أنت
مقطوعا من المواصلات
محذورا في الازقة
مخيفا في عيون الاطفال ...
الى أين!
المساء يقترب وأنت تبتعد،
الى أين؟ الى أين؟

السؤال القاتل

قَدموا من الماضي الغامض
مدجّجين بالعذاب وكلمات السر
أداروا وجوههم نحو الحائط
وارتجفوا سخطا.
انهم حاضرون دائما
دائما غائبون
شياطين آلهة
بشر شياطين
بشر آلهة.

سُئلوا ذات يوم

هل يحدث أيها السادة أن تصبحوا بشرا بشرا؟
أشهروا أسلحتهم المتقنة
وانهمرت الدموع على كتبهم وأوانيهم القديمة
قلتُ: لم أقصد شرا
أطلقوا عليّ الرصاص
وأدانني العالم!!

العراف

سترفع عينيك سبع مرآت
سبع مرآت ستبصر نجمة الصبح
سيأتيك صوت أن أزفت الساعة
يدوّي انفجار هائل وانفجارات
قطعة ضخمة من الاسمنت المسلح
تسحق وردة حمراء في الحديقة الخلفية
أطنان من الفولاذ تنصهر في صيحة واحدة
ثمة نيران لا عهد بمثلها
انقلاب في الطقس
صواعق جوفيّة
وزوابع رمل ورماد
ستباغتك وجوه فقدتْ آدميتها، تنتهي اللغات
تهرع في الشوارع مسوخ عجيبة
ستنهمر من السماء وحول كريهة

يتفجر نباح مرعب
ستغيب نجمة الصبح سبعة مقاييس
يكون سكون عميق في الظلام
ثم تبدل الارض قشرتها كالافعى
ينبت من جديد بشر سويون
اما الاشجار، فتتغير كثيراً

(آب - ١٩٨١)

البحث

وضع ذلك الرجل آلته الكاتبة
في حوض النعناع البري
اشعل سيجارا كوبيا
وهم بمباشرة الكتابة
في نيته ان يكتب بحثا عن احوال البيئة
اكتشف فجاة انه لا يعرف الكتابة
فبكى
ومضى يجرب حظه في صيد الخنازير البرية.

صدمته صعوبة حقيقية في التنفس فذهب الى الريح وشتمها على رؤوس الاشهاد.. وعلى الفور تنفس الصعداء وباشر الغناء في يسر وانتظام.

عزت عليه الجرعة ذات ظهيرة قائظة فذهب الى النهر وانتهره مهددا بالانتقام .. وسرعان ما واتاه الري وارتعشت حديقته بالغبطة. وغمرت روحه موجة عارمة من الرضى والاكتفاء الذاتي وهو يقرأ ما

كتبه شاعر من بلاد الفرنجة يدعى شكسبير: إن كل اسّير يحمل القدرة على فك اساره!)

ذات مساء غامض سالته رابعة العدوية: هل تعرف (بغداد)؟ فأجاب في حسرة لم يقو على كتمانها:

دخلتْني. وانا لم ادخلها. لم ادخلها ابدا
لم ادخل بغداد. واقسم لو قيض لي ان ادخلها
لقطعت شوارعها بالطول وبالعرض
وأقسم إني خير دليل للسياح
إذا كان هنالك من سياح في بغداد
اعرف بغداد. ازقتها ومساجدها
وشناشيل منازلها الشعبية
والاحياء النفطية
ومراكز شرطتها السرية والعلنية
اعرفها طفلا طفلا رجلا وامراة
شبرا فانوسا قبرا
اعرف كل قتيل وجريح في ضاحية
من بعض المدن الايرانية
اعرف سهرات الحزن الصاخبة
واعرف ما يحبك في السر وفي العلن
للشعب وللوطن
اعرف ما يرسم للقتل وللسحل
للشنق وللسحق
للافك وللشك
للدك وللسفك

للجيش وللطيش
للحكم وللنفط
للحل وللربط
بغدادي لم اعرفها لكني اعرفها
انزف فيها تنزف فيّ
ولذا انتظر الثقفي القادم..
انتظر الثقفّي !

ذات صباح غامض سالته رابعة العدوية:
هل يولد؟ هل يولد؟
فاجاب وشمس اليقين تسطع في قلبه:
يولد في دمشق
مكللا بالبرق
يولد في بغداد
من حكمة الاجداد
يولد في بيروت
لطفلة تموت
يولد في عمان
للنار والدخان
يولد في الجزائر
يولد في الكنانة
ويرجع الامانة:
ثائرة وثائر..
وطفلة جميلة

تلعب تحت الشمس
لو سئلتْ عن اسمها
ردت: أنا اسمي القدس
وردت: اسمي القدس
وردت: اسمي القدس..

بين الكومبيوتر والانسان تنهض نخلة وتمارس الكلمة فصولها. بين الانسان والانسان تقف التعاويذ واللغات ولقمة العيش والاراء المسبقة. بين الكومبيوتر والكومبيوتر يظل الانسان..

تأمل ذلك الرجل مئات الوجوه المزدحمة في محطة القطار. لم يستطع الوصول الى ساعة يده في الزحمة. فحاول الوصول الى ساعة المحطة. أشع وجه حبيبته النائية في اعماقه .. ادرك الا مفر: الكل في الواحد والواحد في الكل ..

حين هبط ذلك الرجل سلم الطائرة ألفى نفسه وجها لوجه امام العدو. وحين دلف الى المقهى الصغير على رصيف الشارع القذر ألفى نفسه في جوار العدو. وحين انتصب على التلة العالية.. عاريا إلا من حزنه البرتقالي كان العدو هناك الى جانبه على التلة الداكنة. ادرك الا مفر: الكل في واحد .. والواحد في الكل ..

فسجل في مفكرته:
العدو يقشر تفاحة
العدو يأكل تفاحته
العدو يشرب البيرة المثلجة

ويتجشأ بتلذذ
العدو يصفر لحنا حزينا
وينشد كلمات مرحة
ها هو ذا يتطلع في ساعة يده
لا شك ان لديه موعدا هاما
ما احقرك ايها العدو
ما اشد غباءك
تشتري ورودا. لمن؟ لمن.
لمن ايها العدو؟
ليست لي طبعا
وإنني لحزين من أجلك!

جميع التقارير والنماذج. كدسها على الخرائط والعناوين والاعلام. كوّم فوقها جميعا ما طالته يداه من الملفات والوثائق والشيفرات وكلمات السر .. سكب عليها قطرات من جرحه واضرم فيها النار ..

لم تتمكن مطافيء العالم باسره من اخماد حرائقه. حدق في اللهب الطيب بعينين دامعتين، عبر النار ودموعه الكاوية خفق وجه حبيبته النائية في اغواره، فاعتذر لها:
أغلقتُ مداخل منزلك السبعين
نشرتُ الحرس على الاسوار
بثثت دهاة العسس المحترفين
اطلقت كلاب الاثر
ووزعت الاسلحةَ

على من بلغوا سن الحزن عليكِ
اعددت من كلاستير المشبوه
ملايين النسخِ
شرحت الوضع لكل وفود الامم المتحدة
ماذا اعمل يا حبي بنزيف الروح واوجاع المعدة؟
لم اسمع وقع خطى القاتل
كان بكاء الاطفال عميقا في روحي
لم اسمع وقع خطى القاتل
كان حفيف الشجر
وضوْ القمر
وكانت اوجاعي اكبر من جسدي
ونوازع روحي اصغر من بلدي ...
لا تدعيني انزف حتى الموت
يا حبي المشرق من جرحين
يا ازل الشفتين
ويا ابد الصوت..
مدي كفيك، انتشليني
لا تدعيني
انزف منبوذا حتى الموت!

قالت الاسطورة ان السماء ترتكز على مئذنتين. واحدة في الشرق بجوار (الاقصى) والاخرى في الغرب بجوار (حسن بك). وقالت الاسطورة ان (تيدي بك) يهز مئذنة الشرق (ولاهط بك) يهز مئذنة الغرب.

وقال ذلك الرجل: ان السماء منخفضة جدا وتوشك على الانهيار. فتساءل المولود الجديد: هل ستطبق السماء على هذه الارض التي قطعوا حبل سرتها بسنجة فاتح؟ متى تطبق السماء؟؟

- محام يعترف بتزوير وثائق.
- مطران باريس اليهودي سيصبح كاردينالا
- كورتشنوي وافق على الخسارة عن قصد.
- يهوديان يحصلان على مواطنة شرف في المانيا.
- مفكر اليسار الالماني (هنريك برودر - يهودي) يهاجر.

مر ذلك الرجل بثلة من الجنود المثقلين بالسلاح فسالهم:

- الى اين انتم ذاهبون ايها الجنود؟
- قالوا نحن ذاهبون الى ضريحك ايها السيد.
- قال مرحبا بكم ايها الجنود الشجعان .. وفيما بعد، سارافقكم الى اضرحتكم قال شيخ عابر: هذه هي سنة الحياة. هذه هي سنة الموت؟

"أراكَ عصيّ الدّمع شيمتك الصبرُ
أما للهوى نهي عليك ولا أمرُ؟"

ابن ست انسان هارون وموسى در روزيكة خداوند دركوه سيناء باموسى متكلم شد × ونامهاي يسران هارون اين است تحست زاده اس ناداب وابيهو والعازار وايتامار × اين است نامهاى يسران هارون كهنة كه مسح شد بودند كه ايشانرا براي كهانت تخصيص نمود × .

(من التوراة ـ اللغة الفارسية)

عناوين نموذجية من صفحة (في انحاء الدولة)- جريدة.يديعوت احرونوت:

- فتى في ال ١٧ من العمر سيق الى حرش مظلم وربط الى شجرة كثيفة وضرب بوحشية.

- محام يعترف بتزوير وثائق

- النائب .. يعود الى الجريمة

- الزبائن دفعوا والتجار اختفوا.

- وعناوين من صفحات اخرى (١/١١/١٩٨١):

وأطلبُ بيتكِ المرصود
بين الريح والاشباح والمطلق
فتنهاني العجائز: عد
وتنبحني كلاب الليل: عد. عد. عد.
واوغل في طريق الموت والايمان والزنبق
لاسقط بين ايدي الجند
على بابك
وبابك مغلق، مغلق!!

كانت السماء منخفضة جدا. قال ذلك الرجل: يا لشدة انخفاض السماء. أيّ سوء تضمر؟ تكاد تطبق علي في سقوط كامل وابدي على هذه الارض المحروقة.

وفي حالة مضنية من الاختناق استل ذلك الرجل قلمه الليلكي ووخز بسنانه مساحة الزرقة الموشكة على الانقضاض. خدش سنان القلم اديم الله فسال الدم وغطى صنم الحرية في خليج هدسون اغرق

ناطحة الامم المتحدة.

من عناوين الصفحة الاولى في "يديعوت احرونوت" الجمعة ١٩٨١/٩/٤

* وزير الخارجية أسحق شمير: ترى فينا الولايات المتحدة الامريكية حليفا وذخرا استراتيجيا.
* ٥٠٠ من معارضي نظام السادات اعتقلوا في مصر.
* رئيس مصر يعلن عن تفاصيل مذهلة - اشاعة تقول ان هيكل ايضا في عداد المعتقلين.
* عشرات القتلى في دمشق نتيجة انفجار سيارة ملغومة.
* ريغن يتدارس مع بيغن في المشاركة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة واسرائيل.
* بيغن اقترح على واينبرغر حوارا استراتيجيا.
* هدية بيغن الى ريغن - خريطة عتيقة لارض اسرائيل.
* تعزيز الحراسة على المؤسسات اليهودية والاسرائيلية في فيينا.

الطريق - لبنان
الطريق إلى لبنان

اذكر صورتي الساذجة وصوتي المتوتر في العدد الخاص عن ادب المقاومة الفلسطينية (كان ذلك بعد الهزيمة النكراء في ٥ حزيران ١٩٦٧).

أبتسم بخبث: يا للسماء المنخفضة! انذاك لم نكن ندرك اننا

"شعراء مقاومة" .. فما الذي لا ندركه اليوم وسيفاجئنا به المستقبل؟

شكرا للطريق وأبداً على هذا الطريق!

سنة سبع وثلاثين وخمسمئة والف، وبعد ثلاثين عاما من العمل المضني والمتصل تم بناء قصر الامام زامين في دلهي حاضرة الهند.

بيد ان الامام توفي في العام نفسه ودفن في القصر اياه وغدا القصر قبرا ولا مردّ للمشيئة .. انما ينقر القلب هاجس لجوج: لا ابني قصرا، أبني وابناء شعبي حلما يكفي مأوى لأسرة كادحة تشتهي العلم والعمل فمتى يتم بناء الحلم. لقد ذهبت الثلاثون وثلاث أخر وما زال الحلم حلما. كن واقعيا ايها الحلم كن جسدا ولو ضئيلا .. وسيسعدني انذاك قبر صغير في تربة وطني .. وليكن القبر بلا شاهدة .. (لا وقت للشواهد) ..

سبعة انهار تنبع من جسدي

سبعة انهار

تُغرق بلدي

لقرار، دون قرار ..

سبعة انهار يا ولدي

سبعة انهار ..

سألتني ابنتي التي لم تولد بعد والتي اسمها (هاجر): لماذا تدور الارض يا ابي؟

- إستيقظ سبحانه ذات فجر

فجاءه الملاك جبرائيل بقهوة الصباح

(ملعقة واحدة من فضلك)

حرك سبحانه السكر بملعقته الذهبية

في دوائر مفرغة رتيبة

دوائر رتيبة

مفرغة، دوائر رتيبة

ومنذ ذلك الوقت يا ابنتي

تدور الارض دوراتها الباهظة..

"طبعا العرب يبيعون باسعار ارخص"..

امتطى الزبون الصهيوني سيارته الفارهة وهبط بها من الكرمل الذليل الى وادي النسناس الاكثر ذلا

اقتحم بغطرسة العبيد متجرا لهدايا الاطفال في "شارع الوادي"

- بكم هذه الدمية؟

رد التاجر العربي

- بكذا ..

- ولو! انهم يبيعونها بهذا السعر في "الهدار"!

رد التاجر العربي

- ولماذا تظن انه ينبغي علي ان ابيعها بأقل من سعر "الهدار"؟

لم يجب الزبون الصهيوني .. انكمشت غطرسة العبيد .. وانقلع بسيارته الفارهة من الوادي الاشم الى الجبل الذليل ..

اقتحم المتجر زبون آخر

-بكم هذه الدمية؟

- بكذا

- حسنا لفها لي

اقتطع التاجر العربي مساحة من لفافة اوراقه الملونة ..

فجأة انتبه الزبون

- ماذا؟ ما هذه الكتابة العربية التي ستلف بها دميتي؟

رد التاجر العربي

- هذا اسمي واسم دكاني .. وتقرأ الى جانب ذلك الترجمة العبرية .. الا ترى؟

- لكن لماذا العربية؟

لانها لغتي .. لغتي الجميلة ..

وانكمشت غطرسة العبيد

- حسنا اعطني الدمية. لا تلفها. لا حاجة لذلك ..

وانقلع بسيارته الفارهة من الوادي الاشم الى الجبل الاكثر ذلا ..

حين سألتني مجلة (الطريق) شيئا من سر الانين حضرتني على الفور حكاية أخيلووس اله نهر كاليدون ..

كان أخيلّووس يئن انينا مفجعا ومرهقا فساله البطل ثيسيوس بن نبتون: ما سر انينك يا أخيلّووس؟

فرد الاله الحزين: لقد وقعتُ يا صديقي في حُب العذراء ديانيرا نادرة الجمال. ويوم ذهبت لخطبتها تقهقر جميع منافسيّ ولم يصمد في وجهي سوى ذلك الطاغية هرقل ..

دار بيننا نزال كانت الغلبة فيه لهرقل الرهيب .. وسعيت عبثا للاحتيال عليه فمسخت نفسي ثعبانا، ثم ثورا، بيد أن ذلك لم يجدني نفعا .. لقد اقتلع هرقل قرني وشوه جبيني وامتلك حبيبتي ديانيرا نادرة الجمال .. افتسالني بعد يا ثيسيوس البطل عن سر انيني؟

واحس أخيلّووس بخزى قاتل ينخر اغواره فانحنى بالم واخفى وجهه المشوه المهزوم في مياه النهر الهادرة ..

انا هوذا اله نهر الاردن .. مطرود من الاردن مطرود من الالوهية مطرود من الادمية .. حبيبتي سبية في معقل هرقل الرهيب، أفيسألني سائل بعد عن سر أنيني؟!

لماذا هذه الانتولوجيا؟

يبدو للوهلة الاولى، ان هناك مجالا للتحفظ من مثل هذه الانتولوجيا. وسيكون الميل الى التحفظ اشد ما يكون لدى الوحدويين العرب الذين يستنكفون عن كل عمل من شانه تكريس الاقليمية، او التساهل معها، في احسن حال.

بيد ان "مرتكبي هذا الاثم الاقليمي" هم عرب وحدويون مخلصون كل الاخلاص لمثلهم العربية وحلمهم الوحدوي.

إذن، لماذا هذه الانتولوجيا؟

لقد فرض واقع التجزئة على الامة العربية تحديات سايكس - بيكوية، تقتضي مواجهتها التزاما مرحليا بالحالات الاقليمية الطارئة، الى جانب الالتزام القومي الاستراتيجي. ذلك ان قضايا مثل قضية لواء اسكندرون او عربستان او سبتة ومليلة، ثم القضية الفلسطينية الكبرى، لا يمكن التعامل معها من خلال المنظور القومي مجردا ومعزولا عن دعاوي السياسة الراهنة وشؤون الدبلوماسية الدولية.

وفي الحالة الفلسطينية، فان الاعلام الصهيوني يبدو أشد الاطراف تشبثا بالسعي لطمس المعلم الاقليمي لهذه القضية، وهو يتابع اصراره على الطرح القائل بان البلاد العربية واسعة شاسعة، وبمقدورها استيعاب العرب الذين غادروا "ارض اسرائيل" (فلسطين)

طواعية!! وحين نلاحقهم بالحديث المركز عن الشعب الفلسطيني فان قادة اسرائيل الصهاينة يصابون بذعر هستيري ويخرجون على العالم بتصريحات مأزومة: من هم الفلسطينيون؟ لا يوجد شعب فلسطيني (غولدة مئير) انا هو الفلسطيني (مناحم بيغن). لا توجد هنا قومية عربية بل طوائف، (مسلمون ومسيحيون ودروز) ولا توجد حقوق قومية بل حقوق دينية (اسحق رابين).

وينسجم موقف الصهاينة هذا مع موقف اسيادهم الامبرياليين الذين تنكروا لوجودنا القومي حتى في ميثاق عصبة الامم الصادر في حزيران ١٩١٩ والذي ينص على وجود "طوائف" في الامبراطورية العثمانية، متجاهلا الحركة القومية العربية برمتها وسائر الحركات القومية الناهضة في وجه النير العثماني.

لم يقتصر منهج التجاهل هذا على الوجود السياسي، بل كان لا بد له من التكامل بحيث يشمل الوجود الحضاري ايضا. وهذا ما يفسر عملية الاستدراج الصهيونية التي اتجهت الى السلطة الاوروبية والى الرأي العام عبر هذه السلطة ووسائل اعلامها. ففي تبريره لضرورة اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين يؤكد ثيودور هرتسل ان الدولة اليهودية "ستكون سدا يحمي الحضارة الاوروبية من البربرية الاسيوية". وقد نكون في غنى عن ايراد الشعار الصهيوني المعروف "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن".

إزاء عملية التنكر المنهجي هذه يصبح مفهوما اقدامنا على عمل من شأنه التأكيد على الهوية الثقافية الفلسطينية (التي هي بطبيعةالحال ملمح من ملامح الهوية الثقافية العربية الشاملة)، ودحض مزاعم الصهيونية حول الغياب العربي الفلسطيني قوميا ووطنيا وحضاريا.

لا ريب في ان الادب - والشعر مقدمته لدينا نحن العرب - كان دائما مصدرا رئيسيا للتعبئة المعنوية لدى الشعوب. ولا يتم ذلك عن طريق ابداع الادب فحسب، بل من خلال اكتشاف موروثه وجلوة ايجابياته وتعميم قيمه الفنية ومراميه وغاياته، ايضا.

إن التشبث بالثقافة الوطنية يعكس رغبة أكيدة في التشبث بالتراب الوطني. ومن خلال تأكيد الكفاءة الحضارية والبرهنة على استمراريتها واتصالها، يسعى الشعب الى تأكيد وشائج انتمائه واواصر انشداده الى الوطن، مما يمنحه صكا شرعيا يبرر التحامه بهذا الوطن وحقه فيه وعليه.

ومن هذا المنظور، نستطيع استيعاب ظاهرة الاهتمام الشديد الذي يمارسه الانسان الفلسطيني بشان ثقافته وتراثه ومخزونه الحضاري، ودأبه على ترسيخ موروثه الروحي (الثقافة) وتجنيده في المعركة الحضارية لاسترداد موروثة المادي (الوطن) المتعرض برمته للغزوة الصهيونية الكولونيالية.

لقد أسهم عدد كبير من المثقفين الفلسطينيين والعرب في مهمة جلو التراث الثقافي الفلسطيني. ومن خلال القراءات المتاحة في هذا المجال تكونت لدينا فكرة معينة عن الموضوع، مستفيدين من مؤلفات وابحاث اخوة قدموا لثقافتنا خدمات بارزة وطرحوا بين ايدينا مادة ممتازة بشموليتها وتمثيليتها ومن ثم فقد يسروا لنا اعداد هذه المشاركة المتواضعة في عرض ثقافتنا، من خلال الشعر، آملين تعميق الشعور بالثقة بالنفس، والمزيد من شحن النفوس وشحذ الارادات في المعركة الهائلة - معركة الحياة او الموت، لا بل معركة الحياة فحسب.

ولا بد من الاشارة الى ان فكرة هذه المشاركة تبلورت من خلال

قراءة عادية لاعمال تتعلق بالموضوع مباشرة او بالتداعي، بعضها كتب متكاملة وبعضها الاخر معالجات صحفية ومقالات في المجلات الدورية وانباء من جرائد قديمة وفصول من مؤلفات تاريخية تجمعت لدينا بحكم اهتمامنا الخاص حينا وبحكم المصادفة احيانا، وليس على نهج الباحث المتخصص الذي يطارد المراجع ويبادر الى تقصي المصادر واقتفاء اثرها في الارشيفات والمكتبات العامة.

وحين شرعنا في الكتابة كنا قد مررنا خفاف الوطء تارة، ومر الثقلاء طورا، باجتهادات ابراهيم عبد الستار واكرم زعيتر وغسان كنفاني والدكتور ناصر الدين الاسد ويوسف الخطيب وابراهيم ابو ناب وخليل السواحري وجعفر الخليلي وبعدد من المجاميع الشعرية. وينبغي التنويه بمؤلفات الدكتور كامل السوافيرى والدكتور عبد الرحمن ياغي التي حشدت امامنا اخبارا ونماذج عديدة وشاملة اعتمدنا الكثير منها في هذه المشاركة.

ثمة اشارة، لا بد منها، الى اننا لم نرم الى تحقيق بحث اكاديمي، فجل الغاية بل كلها السعي الى الاسهام في التصدي للغزوة الصهيونية التي استهدفت كامل وجودنا وحياتنا وحضارتنا. ولا نسوق هذه الملاحظات استباقا لنقد ودفعا لتهمة بل رغبة في اختصار السبيل الى القصد.

وعوضا عن ذلك فقد لا يشكل هذا العمل اضافة لدى الباحثين والمختصين، وهو لم يتحقق اصلا من اجل اضافة كهذه، الا اننا نرجو له لن يشكل مادة تعبوية - ثقافية لدى الجماهير العريضة التي لم تسمح لها ظروف حياتها وظروف كدحها بدراسة الاعمال المنهجية الاكاديمية في معظمها، التي وضعها الاخوة الباحثون المشار اليهم

وانسجاما مع الهدف الذي نرجو بلوغه فلا بد لنا من تسجيل بعض المعطيات الالفبائية على الصعيدين التاريخي والثقافي.

لقد جهدت المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة، كما جهدت الحركة الصهيونية العالمية منذ بدء طموحاتها الفلسطينية، في طرح الوجود العربي في هذه الرقعة من الجغرافيا بصورة مبتسرة وعشوائية تحدد هذا الوجود بالفتح الاسلامي في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (٦٣٨م).

بيد ان المراجع التاريخية المتوفرة لدينا تفتح هذا الوجود على الآلاف من السنين. ويرى بعض المؤرخين ان اول انتقال بشري من شبه جزيرة العرب شمالا بدأ مع نهاية العصر الجليدي، اي قبل ميلاد السيد المسيح بما يقارب العشرين الف عام، وذلك في اعقاب التغيرات المناخية وانتشار الجفاف والتصحر، الامر الذي دفع بالمخلوقات البشرية والحيوانية باتجاه المناطق الأكثر قابلية للحياة. ويرى هؤلاء المؤرخون ان الالف الرابع قبل الميلاد شهد انتشار الانسان القادم من شبه جزيرة العرب في ما يسمى اليوم بالهلال الخصيب ووادي النيل.

ويرى بعض المؤرخين والباحثين ان هجرة الاقوام العربية من شبه جزيرة العرب تمت في ست موجات اساسية على النحو التالي:

١- الاكاديون والاشوريون -الى بلاد ما بين النهرين (٣٥٠٠ ق. م).

٢- العموريون الى شمال سوريا، البابليون الى العراق، الكنعانيون الى الاردن وفلسطين، الفينيقيون الى لبنان (٢٥٠٠ ق. م).

٣- الآراميون، الى سوريا الداخلية (١٥٠٠ ق. م).

٤- الانباط الى جنوب الاردن (٥٠٠ ق. م).

٥- اللخميون الى العراق والغساسنة الى سوريا (١٥٠ م).
٦- الفتوحات العربية الاسلامية (٦٣٥م).

وليس لغاية انكار الجذور اليهودية في فلسطين بل لتأكيد جذورها العربية السابقة، تكفي الاشارة الى ان دخول اليهود الى فلسطين تم في عهد النبي موسى عليه السلام (١٢٠٠ ق. م). واقتصر الوجود اليهودي انذاك على مناطق محدودة فلم يدخلوا القدس مثلا الا في عهد الملك داوود (١٠٤٩ ق. م). ويتضح من سفر التثنية في العهد القديم ان بني اسرائيل كانوا انذاك رعاة بينما كانت ارض كنعان مزدهرة ومتطورة في مختلف مجالات العمران والتمدن والزراعة والتجارة. وقد "اقترض" الاسرائيليون مما لدى الكنعانيين وما زالوا "يقترضون" الى يومنا هذا فالوحدة النقدية "شيكل" المعمول بها الان هي نفسها الوحدة الكنعانية القديمة "شاقل" والتي تعني المثقال باللغة العربية الحديثة. وكان المؤرخ المعروف غوستاف لوبون واضحا حين كتب ان اليهود لا يمكن ان يعدوا في الامم المتحضرة اذا قيسوا بالامم آنذاك.

قد يقول قائل ان الكنعانيين والفينيقيين ليسوا من العرب لانهم يحملون اسمهم الخاص، وانهم من الشعوب السامية.

وليس من العسير تفنيد مثل هذا القول، ذلك ان تسمية الكنعانيين اطلقت عليهم بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب واستقرارهم في الارض الخانعة - الواطئة.

أما الفينيقيون فتسمية اطلقها الاغريق على القبائل الكنعانية التي واصلت هجرتها شمالا واستقرت في لبنان، وجاءتها هذه التسمية لاتجارها مع الاغريق بالزجاج والخرز الذي يسمى "فينيس"

بالاغريقية، وهكذا فالفينيقيون هم تجار الزجاج والخرز، وقد اطلق عليهم اسم بضاعتهم.

ويحق لنا التحفظ من مقولة "الشعوب السامية" لانها تسمية مستمدة من مرجع ديني لم ينسجم تماما مع معطيات البحوث العلمية اللاحقة.

وبلغ الوجود العربي في بلادنا ذروة حضارية من حيث العمران والنظام والادارة في منجزات الازديين الذين استوطنوها قبل ميلاد السيد المسيح بما يربو على المئة عام وانشأوا فيها ما يشبه الدولة قياسا بذلك العهد الذي غلبت فيه سمة البداوة على سائر شعوب المنطقة.

وكما كانت تسمية الفينيقيين وفينيقيا ذات جذر اغريقي، فكذلك الحال مع فلسطين. ذلك ان هذه التسمية لم تعرف الا في عهد الامبراطورية البيزنطية، في القرن الخامس الميلادي.

وكانت البداية بموجة من النزوح الايجي الى سواحل بلادنا جراء الزحف الهندو اوروبي على بلاد الاغريق عام ١٢٠٠ ق. م.

وقد استوطنت احدى القبائل القادمة من سواحل بحر ايجة (يرى بعض المؤرخين انها قدمت من جزيرة كريت)، المنطقة الساحلية من يافا والى الجنوب. ولما كان إسم هذه القبيلة بيليست فقد دعيت تلك المنطقة الساحلية "بيليستيا"، الى ان اتسعت رقعة التسمية واصبحت كلمة "بيليستيا"، ثم بيليستينا، ذات دلالة سياسية - جغرافية تقارب الرقعة الانتدابية التي حملت الاسم "فلسطين".

وتظهر فلسطين في المراجع العربية القديمة باعتبارها منطقة من بلاد الشام "كورة بالشام".

وفي عهد الروم كانت هناك ثلاث مناطق ادارية تحمل اسم

فلسطين وشملت شرقي الاردن.

أما الفتح الاسلامي فقد جعل فلسطين جندا (موقعا عسكريا) أسوة بجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين وجند العواصم (اقصى الشمال السوري).

واذا كان الصليبيون قد اجروا تغييرات جيو-بوليتية كبيرة فقد عاد العثمانيون واقتربوا من الصورة الراهنة واكتفوا بتقسيم البلاد الى الوية وقائمقاميات.

ورغم التغيرات السياسية الشديدة والسريعة التي شهدتها بلادنا بحكم موقعها الاستراتيجي العسكري والاقتصادي-التجاري، (ربما بفضل هذه التغيرات!) فقد مرت بها ونبتت من ارضها فعاليات ثقافية ذات اهمية بالغة محليا وعربيا وعالميا.

صحيح انه لم يصلنا خبر واسع وشامل عن امور ثقافة العرب في فلسطين قبل الاسلام، وذلك جراء انعدام وسائط التاريخ من جهة والموقف الاسلامي من ثقافة الجاهلية، من جهة اخرى. بيد انه يظل في مقدورنا الحكم بان عرب فلسطين ساهموا في الحضارة الاسلامية بشكل بارز، بحيث اصبح بيت المقدس والمسجد الاقصى مركزا حضاريا اسلاميا يضاهي الازهر الشريف.

وتدل اسماء جملة من الفقهاء والادباء والشعراء على انتمائهم الفلسطيني مثل المقدسي والغزي والرملي والصفدي والكرمي والعكي واليافي وهلم جرا الى نهاية القائمة الطويلة. وتظهر هنا اشكالية يسيرة لا يصعب حلها، بشان اعلام انتموا الى فلسطين على غير ميلاد مؤكد فيها. فبين الاوائل يبرز كشاجم الرملي المولود وفق بعض المصادر في العراق والذي ذاع صيته في سوريا الا انه قضى سني حياته الاخيرة في الرملة وحمل اسمها وتوفي فيها وثوى الى ترابها.

كما يبرز بين الاواخر، نسبيا، وديع البستاني الذي وان كان لبناني المولد الا انه قضى ردحا طويلا من حياته في فلسطين وكرس لها شعره ونعتقد ان ديوانه الذي يحمل اسم "فلسطينيات" هو الاظهر بين اعماله. ولا نرى غضاضة، مع حالات كهذه، في ادراج هؤلاء المبدعين تحت العنوان الفلسطيني، لاسيما وان حدودا وهمية كانت تفصل اجزاء الوطن العربي آنذاك، وكانت حركة الانتقال والتجوال ميسرة لكل راغب فيها.

ومما يلفت النظر ان شخصيات ذات شأن استثنائي في الحياة العربية الاسلامية، اقترنت اسماؤها بفلسطين، وان بمقادير متفاوتة.

ومن الذين استزادوا علما وزادوا عليه في بلادنا الصحابي الشهير سلمان الفارسي وحجة الاسلام الغزالي، والامام الشافعي احد أئمه السنة الاربعة، الذي ولد في غزة ونبغ في القدس.

وهناك العشرات بل المئات من الاسماء التي تؤكد سير حياتها على الدور الفلسطيني الهام في مسيرة الحضارة العربية-الاسلامية.

ويجمع مؤرخو الادب الفلسطيني على ان مرحلة الحكم العثماني شهدت في سنواتها الاخيرة تحركا سياسيا وفكريا هاما في فلسطين اسوة بسائر الاقطار العربية. واتخذ هذا التحرك طابعا راديكاليا يجيز اعتباره ارهاصا للادب الفلسطيني الحديث بالمفهوم النقدي الرائج.

كان المبرر الاساسي للحكم العثماني في الوطن العربي مستمدا من كونه حكما اسلاميا. وكان العامل الديني وراء استمرار هذا الحكم نيفا واربعة قرون من الزمن، شكلت بمعظمها ركودا ثقافيا يقترب من الموت اكثر مما يقترب من الحياة.

وفي الجو الاسلامي الذي ساد البلاد آنذاك، كان طبيعيا ان تحتل المدائح النبوية والمواضيع التقليدية الاخرى مكان الصدارة في الشعر

الفلسطيني. وأدى الظلم العام والشامل في المرحلة الحميدية الى خلق مزاج عربي-تركي مشترك ضد السلطة الغاشمة. وحين وقع الانقلاب وطرح الاتحاديون الاتراك دستور ١٩٠٨ توسم العرب خيرا، غير ان عتو الحركة الطورانية القومية التركية وشيوع دعوة التتريك اشعرا الجماهير العربية بخيبة رجاء تشبه الصدمة الكهربائية، ونما الشعور القومي العربي منتقلا من مطلب المساواة الى مطلب الحكم الذاتي (اللامركزية) الى مطلب الاستقلال التام.

وهكذا حل الشعور القومي محل الشعور الديني. ولم يتبلور الشعور الوطني الفلسطيني الا بعد صدور وعد بلفور وتحول الصهيونية من خطر خفي محدود وغير منظور بصورة شاملة، الى خطر واقعي ملموس.

ومن النماذج التي اوردها الدكتور عبد الرحمن ياغي في دراسته الهامة "حياة الادب الفلسطيني الحديث" (١٩٦٨) نستطيع تتبع هذه التحولات.

حين زار الشاعر الفلسطيني الشيخ يوسف النبهاني حاضرة الخلافة العثمانية الاستانة واحس هناك بالعداء الذي يكنه الاتراك للعرب فقد "فوجيء" الرجل، ولم يسعفه غير التحليل الديني لهذا العداء، فهو يقول:

ويممتُ دار المُلك أحسب أنها
إلى اليوم لم تبرح الى المجد سُلّما
فألفيتُها قد أقفرتْ من كرامها
ولم يبق فيها الفضلُ الا توّهما

وألفيت فيها أمّةَ عربيةً

يرى القومُ منها أمّةَ الزنجِ أكرما

وما نقموا مني-بني العرب- خلّة

سوى أن خير الخلق لم يكُ أعجما!

إذن فالتفسير الوحيد المتاح لفهم العداء التركي كامن في كون خير الخلق (النبي محمد صلعم) عربيا لا تركيا.

وبعد صدور الدستور، والخيبة التي المت بالعرب جراء سياسة التتريك، نلاحظ نفسا جديدا في الشعر الفلسطيني، ملتهبا بالمشاعر القومية الواضحة. فالشاعر الشيخ سليمان التاجي الفاروقي يخاطب السلطان محمد رشاد من منبر القومي العربي:

العُربُ لا شقيتَ في عهدكَ العربُ

سيوفُ مُلكك والاقلامُ والكتبُ

هُمُ الجبالُ فما حمّلتَهم حملوا

لكن اذا مسّهم ضيمُ النفوس أبوا

كنا نعلّل بالدستور انفسنا

بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ

حتى اذا جاء لم يُحدث لنا حدثاً

ولا استجيبَ لنا في مطلبٍ طلَبُ

وهكذا ينتقل الخطاب الشعري من المفهوم الديني الى المفهوم القومي، فلم تعد المسألة علاقة المسلمين بالمسلمين بل علاقة العرب بالاتراك.

ويتطور المفهوم القومي لدى الشاعر الى دعوة واضحة للوحدة العربية الشاملة.

ألا ليتَ شعري هل أرى العُرب أمّةً
يساندُ بعضٌ بعضها لا تجافيا
اذا صاحَ في وادي الكنانة صائحٌ
يبيتُ له الرّبع الشآميّ داويا
وإن أنّ في الصقع اليمانيّ مُثقل
أهابَ له القُطر الحجازي باكيا!

أما السمة الفلسطينية الاقليمية فقد برزت وتحددت، كما اسلفنا، بعد قرار الاستعمار البريطاني وريث الخلافة العثمانية، باقامة دولة يهودية في فلسطين.

في اعقاب الحرب العالمية الاولى والاحتلال البريطاني لفلسطين أبصر الشاعر وديع البستاني بلوحة على احد ابواب الحكومة كتب عليها (الوكالة اليهودية)، فامسكت به حمى القلق مما هو آت عبر هذه اللوحة، وقال:

أرى الوطنَ القوميّ يعلو بناؤه
أرى غرفةً في القصرِ تحجُبُه قصرا
فذكّرهُمو ذكرى ولستَ مسيطراً
مخافةَ يومٍ فيه لا تنفعُ الذكرى!

وجاء ذلك اليوم الذي جسد مخافة الشاعر، وان لم تنفع الذكرى آنذاك فلعلها نافعة اليوم.

إن الاحساس العميق والواعي بالخطر الداهم، والادراك الفاجع بالعجز (لستَ مسيطرا) مسحا هذين البيتين من الشعر بمسحة ملحوظة من الحزن المشوب بالخوف. والى جانب عنصري الحزن والقلق، تلفت الانتباه سمة تكاد تكون عامة لدى الشعراء الفلسطينيين في مرحلتي القومية والوطنية، ونعني سمة الفهم السياسي لاطراف "اللعبة" محليا وعربيا وعالميا. فقد ادرك معظم هؤلاء الشعراء ان الاستعمار الاوروبي هو حليف طبيعي للصهيونية وان بدعة "الحليفة بريطانيا" -كما كان يسميها بعض القادة العرب- ليست سوى وهم قاتل. وأدى هذا الفهم السياسي، بعيد النظر، على الخلفية غير المواتية من حيث اصطفاف القوى وميزانها، أدى الى نشوء مناخ من السخرية السوداء لدى هؤلاء الشعراء.

وكان احد مواضيع هذه السخرية الوعد الذي قطعته بريطانيا للشريف حسين "ببناء" الدولة العربية تحت قيادته. ويعقب البستاني على هذا الوعد، بحس سياسي متفتح:

أقصراً في الهوا أم بيتَ شَعْرٍ
ستبني للشريفِ يدُ الحليفة؟

لقد قدم شعراء فلسطين من انفسهم نماذج رائعة للجرأة الادبية في مقارعة الرجعية المراوحة بين الغباء والخيانة، وذلك في زمن لم تكن فيه الرجعية مفضوحة تماما أمام الجماهير، وكان في مقدورها انزال اشد "العقاب" بشاعر "يتطاول" على الشيخ والزعيم والمختار ورجال الدين.

في عام ١٩١٨ وضع حجر الاساس للجامعة العبرية. لم يكن هذا

المشروع مشروعا ثقافيا نقيا. كان جزءا من مخطط ارساء قواعد الصهيونية في مجالات الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع. كانت ستسمى الجامعة الفلسطينية لو ان هدف انشائها كان لصالح جميع السكان العرب واليهود. لم تكن مشروعا فلسطينيا بل كانت مشروعا صهيونيا يرمي لخدمة اليهود دون سواهم.

وكأنما رأى البستاني بعين قلبه وعقله هذه الايام التي نعيشها على جلودنا. كأنما هو رأى السياسة التجهيلية التي يمارسها حكام اسرائيل ضد الاجيال العربية الفلسطينية الباقية على ارض الوطن، كانما هو رأى العقبات والحواجز والموانع الجمة التي تكدسها هذه السلطات على طريق الشاب العربي، بحيث تضمن وجود الحد الادنى والرمزي من الطلاب العرب على مقاعد الدراسة الجامعية. واذا كانت الجماهير العربية هنا تشكل حوالي ١٧ بالمئة من مجموع السكان فان نسبة الطلاب الجامعيين من ابناء هذه الجماهير لا تتعدى ال٣ بالمئة وال٤ بالمئة في احسن حال.

حسنا، ها هم يضعون حجر الاساس للجامعة العبرية وها هما مفتي القدس ومطرانها يسهمان ايضا في هذا المشروع "الثقافي" فيضع كل منهما حجرا في الاساس، وتلمع الرؤيا في ضمير شاعرنا فيهتف وجعا ساخرا:

أفتني بالله بالكعبة بالحجرِ الأسود بالركن الأغرْ
ان علتْ في عزها شامخة: فوق رأس الطور تلهو بالعبرْ
وغدت جامعة عبرية: ونهى الحاخام فيها وأمرْ
أيقول الشيخ والقس: اتئد إن للمُطران والمفتي حجر؟!

ويمر عقد من الزمان، وفي العام ١٩٢٧ يفتتحون الجامعة العبرية .. وتوجه المؤسسات الصهيونية دعوة الى المؤسسات والشخصيات العربية في فلسطين وخارجها للمشاركة في "بهجة" الافتتاح. غير ان اغلبية المدعوين العرب تقاطع هذا الحدث. ويكتفي طه حسين بارسال برقية. اما احمد لطفي السيد الذي كان يلقب باستاذ الجيل فقد حضر شخصيا.

كان طبيعيا ان تشق هذه المشاركة على ابناء فلسطين الواعين، والذين افترضوا حسن الطوية لدى اثنين من كبار المثقفين العرب. ونحن نشاطرهم هذا الافتراض، ذلك ان عرب فلسطين هم الاشد انتباها لما يحيق بهم مباشرة من اخطار.

وعبر عن هذا الموقف الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي حين قال:

الله أكبرُ، كل هذا في سبيل الجامعة؟
إن السياسة أوجَدتْها، والسياسةُ خادعة
يا لورد! ما لومي عليك فأنت أصلُ الفاجعة
لومي على مصر تمد لنا اكفا صافعة
نشكو لكم منكم بني مصر ظروف الواقعة
أوهمتم الاعداء أنا أمة متقاطعة
لا تُشمِتوا أمما غدت فينا وفيكم طامعة!

ما أشبه الليلة بالبارحة .. انما لا نأخذ الامور على علاتها وتعميماتها. فان مصر التي مدت لنا بعض "الاكف الصافعة"، هي نفسها مصر الابطال والشهداء والوطنيين الشرفاء الذين ما تخلوا ولن

يتخلوا عن شعبنا وعن حقوقه المشروعة على ارض أبائه وآبائهم سواء بسواء.

في هذه المقطوعة، ايضا، نلتقي بالحس السياسي المتفتح:

"لا تشمتوا أمما غدت فينا وفيكم طامعه!"

أجل، لقد ادرك البيتجالي ان بريطانيا لا تضمر العداء لفلسطين وحدها، بل تضمر العداء لكل الامة العربية. وقادة بريطانيا البارزون كانت تعشش في نفوسهم حشرات عنصرية وصليبية سافلة، والا فكيف نفسر صيحة الجنرال اللنبي حين دنست جيوشه القدس:

"الان انتهت الحملات الصليبية!"

وأدرك شاعرنا البيتجالي ان مطامع الصهيونية لا تقف عند حدود فلسطين، فهي "فينا وفيكم طامعة". وهذا دليل أخر على ان قلق شاعرنا وقلق اخوته وابنائه من بعده لا يتقوقع في البؤرة الاقليمية الفلسطينية، بل يتعداها ليصبح قلقا قوميا شاملا.

كثيرا ما تضافرت السذاجة والخيانة في مواجهة الوعي الوطني. وكثيرا ما تداخلت الفواصل وانطمست الحدود بين السذاجة والخيانة. ولنتأمل الطرفة التالية:

في العام ١٩٢٠ احتفل بعض اليهود بافتتاح مصنع للخمور. ودعي المندوب السامي البريطاني للاشتراك في حفل الافتتاح. وامعانا في الاذلال القومي والديني فقد اصطحب ذلك المندوب معه .. مفتي يافا! من؟ اجل مفتي يافا.

جن جنون الشاعر البستاني فصاح:

يا مفتيَ الاسلامِ تعصر خمرةً
عند اليهود، وما مُنيت تهوبا
أنكرت دين محمد ومحمدا
أليومَ تعْصرُها، وتشربُها غدا!!

وهكذا كان حقا، فالذين عصروا الخمرة في اقبية الاستعمار والصهيونية، شربوها فيما بعد حتى الثمالة .. سكروا واسكروا الشعب ودوخوا الوطن وضلعوا بقسطهم التاريخي في الكارثة. ولم يكن شاعرنا مسيطرا، لكن الذكرى تنفع وستنفع .. وعسى ان تنفع!

قلنا قبل قليل انه ليس غريبا ان يكون الفلسطينيون اشد انتباها وقلقا على وضعهم من سائر اشقائهم واصدقائهم، لان الخطر يتهددهم مباشرة وبما يحسون به على لحمهم الاعزل الا من الامل. انه خطر يمس وطنهم وكيانهم ومستقبلهم. واذا انطلت المراوغات والاحابيل الصهيونية على بعض العناصر العربية المعروفة بوعيها في شؤون اقاليمها، فان للوعي الفلسطيني شانا آخر في قضيته هو ..

معروف الرصافي، شاعر بارز ليس على مستوى العراق فحسب، بل على المستوى القومي العربي. وتاريخ الرصافي حافل بالمواقف الوطنية وبأدلة رؤيته التاريخية الصحيحة.

لقد أدرك الرصافي الاخطار التي واجهت العراق جراء تحالف رجعيته مع الاستعمار البريطاني باحابيله "الديمقراطية" الشكلية. وادرك هذا الشاعر الوطني الكبير ان الخلاص من اعداء الشعب لا يتم الا بان "يتبلشف" الشعب، فقد كان واضحا للرصافي ان "البلشفة" هي الد اعداء الاستعمار استراتيجيا. ولذا كانت صيحته الشهيرة:

عَلَمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمةٍ
كل عن المعنى الصحيح مُحَرّفُ

للأجنبي مطامعٌ ببلادكم
لا تنتهي الا بأن تتبلشَفوا!

لكن، حين يحل الرصافي ضيفا على احد وجهاء مدينة القدس المتعاونين مع المندوب السامي البريطاني، الصهيوني هربرت صموئيل، وحين يسهر في منزل ذلك الوجيه بصحبة صموئيل هذا وصهيوني آخر يدعى يهودا، وحين يلقي يهودا خطابا "انسانيا" عن الاخوة والتعاون وهلم جرا، فان الامور تختلط حتى على شاعرنا، فيجد نفسه متورطا في كتابة قصيدة يقول فيها:

خِطابُ يهودا قد دعانا الى الفكرِ
وذكرنَا ما نحنُ منه على ذِكْرِ

لدى محفلٍ في القدس بالقومِ حافلٍ
تبوأهُ هربر صموئيل في الصَدرِ

ويا ليلة كانت وقد جل قدرها
تكونُ على علاتها ليلةَ القَدرِ

وإني أرى العُربي للُعرب ينتمي
قريباً من العبريِّ يُنمى الى العِبرِ..

وهكذا، فليلة القدر التي هي خير من الف شهر، والتي تتفتح فيها ابواب السماء ويستجاب الدعاء، هذه الليلة المقدسة لا تختلف كثيرا عن ليلة مع "هربر" و "يهودا" ووجيه رخو.

واذا كان الرصافي قدنبا وكبا هذه المرة، فلم يحدث ذلك في

رأينا، الا جراء "السذاجة وطيبة القلب". واذا كان الشاعر الفلسطيني لا يخلو من طيبة القلب فانه ابعد ما يكون عن السذاجة في مسألة الحياة والموت التي يكابدها شعبه. ولهذا فانه يرد على الرصافي:

أجل، عابرُ الاردن كانَ ابنَ عمّنا
ولكّننا نرتابُ في عابرِ البَحرِ!

إذن، فالمؤامرة الصهيونية لم تخرج شاعرنا عن طوره، ولم تدفع به الى الموقف الشوفيني الذي يميزها هي. ويؤكد الشاعر بما لا يقبل الجدل انه يحسن التمييز بين اليهود وبين الصهيونية، فلا ريبة لدى العرب في "ابناء عمومتهم" الذين طالما عاشوا بين ظهرانيهم على قدم المساواة، لكن الريبة المبررة تاريخيا تتجه نحو الحركة الصهيونية ومخططها الاستيطاني العنصري.

وخلال الاعوام التي مهدت للثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦، تلك الثورة التي اجهضتها الرجعية العربية الضالعة في المشاريع الاستعمارية، برز عدد من الشعراء الوطنيين الذين عبروا عن ارهاصات الثورة وانعكست احداثها وملابساتها في قصائدهم.

ومن اظهر هؤلاء الشعراء ابراهيم عبد الفتاح طوقان ومحمد حسن علاء الدين وعبد الكريم الكرمي (ابو سلمى) وبرهان الدين العبوشي وعبد الرحيم محمود ومطلق عبد الخالق. كذلك فقد طبعت الثورة بميسمها جملة من قصائد شاعرتنا فدوى طوقان وسيف الدين الكيلاني وعصام حماد والافغاني ومحمود الحوت وعبد المنعم الرفاعي وحسن البحيري وذياب ربيع وسعيد العيسى ومحمد العدناني ومحيي الدين الحاج عيسى وغيرهم.

وتابع عدد من هؤلاء الشعراء نشاطهم الادبي والسياسي فيما بعد ومروا بتجربة النكبة المروعة التي دافعوها فدفعتهم وواصلوا اطلاق صيحات الغضب والمرارة والثورة ولم يعدموا الامل بفجر قريب يهل على شعبهم ووطنهم بالخلاص.

وتبرز لدى معظم هؤلاء الشعراء - تصريحا او تلميحا - مؤثرات الادب الثوري والروح الصدامي التي اشاعتها ثورة اكتوبر الاشتراكية ضد النظام القيصري الاستعماري في الامبراطورية الروسية. هذه الثورة التي شجعت الامل ودربت التفاؤل لدى الشعوب المقهورة والمغلوبة على امرها تحت نير الدول الاستعمارية.

ونرى الى الوحدة بين الموقف الوطني والموقف الاممي في احد اهم تجلياتها لدى الشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي (ابو سلمى).

لقد مجد الشاعر ثورة ال ٣٦ برائعته "أنشر على لهب القصيد" التي استوحاها من مصرع الشيخ المناضل فرحان السعدي ابن السبعين عاما على أيدي الجلاوزة الانجليز:

أنشُر على لَهَبِ القصيدِ ... شكوى العبيدِ الى العبيدِ
شكوى يرددها الزمان ... غدا الى الأبد الأبيد

ايه ملوك العُرب ... لا كنتم ملوكا في الوجود

قوموا اسمعوا من كل ... ناحية يصيح دم الشهيد
قوموا انظروا "فرحان" ... فوق جبينه أثر السجود
يمشي الى حبل الشهادة ... صائماً مشي الأسود
سبعون عاما في سبيل ... الله والحق التليد

خجل الشباب من المشيب | بل السنون من العقود
قوموا انظروا الأهلين بين | الوعد ضاعوا والوعيد
ما بين ملقى في السجون | وبين منفيّ شريد
أو بين ارملة تولول | أو يتيم أو فقيد
أو بين مجهول يرى | عصف المنون من النشيد
قوموا انظروا الوطن النبيح | من الوريد الى الوريد
تتزاحم الاجيال دامية | الخطى حول اللحود

ثم يخاطب عدة الثورة وعديدها-الشعوب العربية:

أيه شعوب العرب انتم | مبعث الأمل الجديد
فلذ تقطعها سياستهم | من القلب العميد
اسكندرونة نبتة حمراء | من زرع حصيد
سيروا على الترب المخضب | والثموا أثر الجدود
حرية الانسان بالدم | تشترى لا بالوعود

ويعود الى وطنه الصغير فلسطين فيهتف بالم مقدس

ايه فلسطين اقحمي | لجَج اللهيبِ ولا تحيدي
لا تصهر الاغلال غير | جهنم الهولِ الشديد
حلفت دماء الثائرين | على العلوج بأن تسودى
والثورة الحمراء تطعمها | الجسوم مع الكبود
ايان تسأل نارها | فتجيبنا هل من مزيد
يا نار لا تتظلمي | وتقبلي شرف الوقود
يا من يُعزون الحمى | ثوروا على الظلم المبيد
بل حَرروهُ من الملوك | وحرروه من العبيد

وينطلق الشاعر بهذا الزخم الوطني المدهش الى آفاق العالم فيهيب بالثوار في كل مكان:

أيها الثائرون في العالم الرحب على الظالمين في الافاقِ
حطموا النير فهو من أثر الوحش على الارض واعصفوا بالوثاق
وأمسحوا الظلم والجهالة والفقر من الكون بالدم المهراق
اينما كنتم فنحن رفاق وحدتنا حرية الاعناق
جمعتنا مبادىء وعهود فالتقينا من قبل يوم التلاقي

ويكرر الشاعر هذا المعنى الثوري الاممي بصيغة اخرى:

قُم وناد الأحرارَ من كل قطر وانشُر الراية التي أنت تعلم
غدنا عالم الشعوب وإنّا في طريق التحرير جيش عرمرم
نحْطِمُ النير اينما كان في الكون ولن نستريح ما لم يُحطم.

ويبرز المفهوم الطبقي في قصيدة فذة نادرة كتبها شهيد أسمه عوض حسين بالفحم، على جدران سجنه ليلة اعدامه على ايدي البربرية الاستعمارية البريطانية ومع ان القصيدة كتبت بالعامية فاننا نعتبرها عملا ادبيا راقيا ليس على المستوى الفلسطيني او العربي فحسب بل على المستوى العالمي ايضا:

يا ليل خلي الاسير تايكّمل نواحو
رايح يفيق الفجر ويرفرف جناحو
تيمرجح المشنوق في هبة رياحو

يا ليل وقف تافضّي فيك حسراتي
يمكن نسيت مين انا ونسيت آماتي
يا حيف كيف انقضت بيديك ساعاتي
شمل الحبايب راح وتكسروا قداحو
لا تظن دمعي خوف دمعي ع أوطاني
وع كمشة زغاليل في البيت جوعاني
مين راح يطعمها بعدي واخواني
قبلي شباب اثنين عَ المشنقة راحوا

وبكره المرة كيف راح تقضي نهارها
ويلها علي وويلها ع صغارها
يا ريتني خليت بايدها سوارها
يومن دعاني الحرب تاشتري سلاحو

ظنيت النا ملوك تمشي وراها رجال
تخسا الملوك ان كانوا هيك انذال
والله تيجانهم ما تصلح لنا نعال
احنا اللي نحمي الوطن ونبّوس جراحو!

ومن القواسم المشتركة الهامة بين اغلبية الشعراء الفلسطينيين هذا التكامل العضوي بين الكلمة واليد، بين الموقف والمسلك، بين الفكر والممارسة، ويصح اعتبار الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود مثالا اعلى لهذه السمة المباركة فهو القائل:

إصهرْ بنارك غلّ عنقك ينصهر فعلى الجماجم تُركزُ الاعلامُ
وأصِبِ حقوقك قط لا تستجدها إن الأولى سلبوا الحقوق لئامُ
هذي طريقُك للحياةِ فلا تَحِد قد سارها مِن قبلك القسامُ!

ولم يحد عبد الرحيم محمود عن هذه الطريق، بل سارها حتى نهايتها اسوة بمثله الاعلى الشهيد عز الدين القسام.

ويتكرر هذا الموقف البطولي الاستشهادي من ذروة اعلى في قول الشاعر:

سأحمل روحي على راحتي وأهوي بها في مهاوي الردى
فامّا حياةٌ تسرُّ الصديق وإما ممات يغيظ العدى
ونفس الشهيد لها غايتان ورود المنايا ونيل المنى...

وحمل عبد الرحيم محمود روحه على راحته، واندفع الى قرية الشجرة المتعرضة للغزو في حرب ١٩٤٨، وبعد ساعات من بدء المعركة عاد الى الناصرة، لكن محمولا على اكتاف رفاقه المقاتلين، بينما يمتزج دمه بكلماته في فضاء الوطن وعلى ترابه.

ويزخر الشعر الفلسطيني بنماذج الشعراء الذين تمردوا على طبقتهم الارستقراطية وانخرطوا في صفوف الشعب المكافح، واكثر من ذلك راحوا يسخرون من هذه الطبقة التي، في احسن حال، اكتفت بطنين الكلمات "الوطنية" الفارغة.

والظاهرة الساطعة على هذا الصعيد، هي بلا ريب، ظاهرة الشاعر ابراهيم طوقان. فقد كوى الزعامات التقليدية الهشة وشواها بشواظ سخريته الحارقة:

احرارَنا قد كشفتم عن بطولتكم
غطاءَها يوم توقيعِ الكفالاتِ
انتم رجال خطاباتٍ منمقةٍ
كما علمنا وابطال احتجاجات
وقد شبعتم ظهوراً في مُظاهرة
مشروعةٍ، وسكرتم بالهتافات!

وينقض عليهم مرارا وتكرارا بسخريته فيمزقهم اربا اربا:

أنتم المخلصون للوطنية أنتم الحاملون عبءَ القضية
أنتم العاملون من غير قول بارك الله في الزنود القوية
وبيانٌ منكم يعادل جيشاً بمعدات زحفه الحربية
واجتماعٌ منكم يرد علينا غابر المجد من فتوح أميّة
وخلاصُ البلادِ صار على الباب وجاءت أعياده الورديّة
ما جحدنا أفضالكم غير أنا لم تزل في نفوسنا أمنيّة
في يدينا بقية من بلاد فاستريحوا.. كي لا تطير البقية!

وعلى مقربة من وجوه الجلد المفعمة بالغباء، يرى ابراهيم طوقان وجه الشهيد الطيب والجميل، فيتغير صوت الشاعر ويتبدل ايقاعه:

لا تسل عن سلاَمتِه روحُهُ فوق راحتِهْ
بدّلته همومُه كفناً عن وسادته
هو بالباب واقفُ والردي منه خائفُ
فأهدأي يا عواصفُ خجلا من جراءَتِه..

وفي هذه الغمرة الصاخبة من الاحداث بوتائرها العالية وتقلباتها المثيرة، عبر الشعر الفلسطيني عن نفسه بالشكل المسرحي ايضا، فظهرت مسرحيات مثل "وطن الشهيد" لبرهان الدين العبوشي و"امرؤ القيس" لحسن علاء الدين و"مصرع كليب" لمحيي الدين الحاج عيسى. واستمر الشكل الشعري المسرحي فيما بعد لدى عدد من الشعراء الفلسطينيين.

بهذا، نكون قد استعرضنا يسيرا من كثير من الشعر العربي في فلسطين، ولا يفوتنا اعلان الامل بان ياتي من ياتي بعدنا فيصلح ويزيد خيرا على خير، وفيما يلي نماذج مختارة من هذا الشعر اعتمدنا دراسة الدكتور كامل السوافيري القيمة "الادب العربي المعاصر في فلسطين" مصدرا اساسيا لها. والتزمنا ترتيب الاعلام وجزءا من المعلومات التي حشدها في مؤلفه الهام مع تعديلات وتبديلات هنا وهناك، ولم نقدم على الاختيار من نماذج الشعر الصادر في العقود الاخيرة، لا لسبب الا لاننا لا نريد الوقوع في لعنة ابي الفرج الذي تجاهل ابا الطيب المتنبي فسجل بذلك نقطة عليه لا لصالحه. وتفاديا للحساسية المهنية فاننا نوكل لمهتم سوانا، من اهل التأريخ واصحاب النقد الادبي مهمة الاختيار الصعب لشعراء ما زالوا على قيد الحياة، اطال الله اعمارهم وجنبنا جحيم سخطهم فلعل كل شاعر يرى في نفسه المتنبي، والله اعلم بما في السرائر.

وعلى أية حال فقد التزمنا في هذه المجموعة مبدأ الانتقائية التمثيلية بحيث تمتد النماذج على الرقعة التاريخية بشكل مقبول من حيث الخصوصية المحلية، وبحيث تؤخذ بعين الاعتبار ايضا القيمة الفنية اللائقة ولو بالحد الادنى والموضوع الاكثر شمولا وانسانية بمعنى القيم التي يعبر عنها.

وسنثبت في نهاية العمل قائمة بالمراجع التي توفرت لدينا. ومع أننا لم نستزد بعضها في هذا العرض المكثف، فاننا ندونها في هذه القائمة أملا في تيسير الامر للمنقبين عن المصادر والباحثين عن المراجع ذات العلاقة بهذا الموضوع.

مقدمة كتاب ومطالع من انتولوجيا الشعر الفلسطيني في الف عام

احتراق واسمه راشد حسين

تحويل الموت الى حياة، تحويل النار الى سنابل، تحويل صرخة المعركة الى صرخة ولادة: هذه هي مهمتنا وهذا هو أسلوب حياتنا.

أود أن أقف قليلا مع الموت. كان بودي أن أتعامل مع الموت الشامل، الموت العام والعالمي، لكن يا للحسرة، فها هو ينتصب كالمارد ويلقي ظله على كل موت سواه ... إنه الموت الفلسطيني.

تكاد تقصم ظهري محاولة مثابرة، لصياغة معادلة معقولة لهذا الموت الفريد. ولا اقترب من التبرير حتى أتبدد بين الضحك والبكاء.

هل يموت الفلسطيني حتف الانف ؟ الا حظ له من الشهادة وكبر الاستشهاد حين يموت في جناح السرطان من مستشفى الغربه؟

هل ينتحر الفلسطيني ؟ هل ينطبق قانون " الحاضر الغائب" على الفلسطيني في هذه الدوله التي أسمها اسرائيل أم في العالم باسره؟ وأين تقع اسرائيل؟ وأين يقع الفلسطيني؟ واين يقع الموت؟

(الان أريد ان اخاطبك يا راشد حسين! سواء احترقت او احرقت او تحرقت او انحرقت. لا ثقة لي بضباط شرطة نيويورك ولا ثقة لي بنيويورك. انت مت موتا فلسطينيا في جناح النار من مستشفى الغربة، لذا فانت شهيد بكل المعنى الفلسطيني لهذه الكلمة).

كل شعوب الارض تسكن اوطانها، الا نحن، فهذا الوطن يسكننا.

إنه وضع غير طبيعي، حالة شاذة. لا تقولوا روديسيا. لا تقولوا جنوب افريقيا. ولا تقولوا هنود امريكا الحمر او زنوجها. تصوروا منزلا أهلا بسكانه صاخبا بالحياة والحركه. فجأة يخلو البيت من أهله وفجأة يعود الصخب، تعود الحياة وتعود الحركه ويواصلون شرب فناجين القهوة الساخنة ويواصلون القطاف ويواصلون التناسل ويواصلون مشاهدة الافلام السينمائية... بيد أن كل ذلك يجري بلغة أخرى . كل شيء يستمر الا اللغة واصحابها.

في هذا الجو نشأنا. في هذا الواقع - الكابوس نشأ راشد حسين.

في حدود عام ١٩٥٦ - المدرسة الثانوية البلدية- الناصرة .

كنت طالبا يكتب الشعر وكان راشد شاعرا طالبا. انكم تلاحظون الفرق بين الصيغتين. في المدرسة ذاتها كان شعراء طلاب اخرون. كان شكيب جهشان (المدرس في ثانوية الرامة، اليوم) وكان فرج نور سلمان (المحامي، اليوم) وكان احمد ريناوي (الطبيب، اليوم) .. واخرون قد لا نعرف مصائرهم. كانوا اكبر مني بمعدل ثلاث سنوات تقريبا غير أنني اندمجت في شلتهم بحكم حماسي للشعر، ومنذ ذلك الوقت نشأت بيننا صداقات متفاوته .. وكانت صداقتي مع راشد حسين من أمتنها إن لم تكن أمتنها وابقاها.

والتقينا كثيرا فيما بعد اتفقنا كأخوين واختلفنا كأخوين. تسللنا معا عبر الارض البور لاحياء مهرجانات في قرى منعتنا السلطات من دخولها وسدت منافذها الشرعية بقوات البوليس. جعنا معا وسكرنا معا وبكينا وضحكنا وكتبنا ... ثم افترقنا.

على صوره صغيرة اهداني اياها راشد عام ١٩٥٨ بعد صدور ديوانه الأول "مع الفجر" كتب هذه الكلمات:

- الى اخي سميح

عله يتذكرني اذا اصابتني مصيبة".

وتذكرته يوم أصابته وأصابتنا المصيبة .. وكانت صورته هذه هي الصورة التي وضعناها على بطاقة النعي!

في ٣٠-٤-١٩٥٩ كتب راشد على ورقة ما زلت احتفظ بها:

"أخي سميح

والى غد مشرق سعيد

والى أمة عربية موحدة

ستلتقي على جراح علمٍ

يرفعه الأوراس فوق جرحِهِ

ستلتقي..أمتنا في زورق

مجدافه يخط رسم صبحه

والشمس تاريخ لنا مذهّب

يذيبه بستاننا لدوحه

أنا هنا..وأنت هل تبقى هنا؟

أم يحتوينا علم في جرحه؟"

اليوم أقولها لأول مرة. في ذلك الوقت كان في أوجه صراع عنيف بيني وبين السلطة الاسرائيلية الغاشمة التي حاولت قتلي معنويا بأن تطبق علي قسرا ووحشية قانونها اللا انساني، في أدنى وصف، قانون التجنيد الاجباري. آنذاك استحوذت علي فكرة الهرب من وطني الصغير الى وطني الكبير وصارحت راشد بالهاجس، فكتب هذه ألابيات واحتفظت بها لتكون صديقا في الغربة، وباشرت "تنفيذ المهمة".. وذات يوم، في ساعات المساء، كنت قابعا على سطح كنيسة

قرية الجش الجليلية بانتظار الليل لعبور خط وقف اطلاق النار، ولكن قبل أن يداهمني الليل، داهمتني "ثلة" من أبناء بلدي وعشيرتي وخيرتني الجماعة بين العودة الى أمي الناحبة والعودة الى مركز الشرطة، فاخترت أمي طبعا! وما زلت أتساءل حتى هذه اللحظة: هل كان لأخي راشد يد في "افشاء " سري .. لأهلي ليحول، مشكورا، بيني وبين الرحيل؟..

قال راشد في أبياته "سنلتقي".. والتقينا. عاد راشد الينا عبر بوابة النار الفلسطينية الرحبة. عاد محمولا على الأكتاف .. وكان عليه ان يعود عودته الكبرى الى أحضان الأم - الوطن، الى دفء التراب الذي طالما غناه وبكاه. وما أشد حسرتي ولوعتي حين اختارتني المأساة لا "القدر" .. لأكون أول من يقتلع نعش راشد من مصطبة المسجد الصغير في قرية "مصمص" الصغيرة، ولكن، العالية، لتزرعه الألوف المؤلفة من جماهير شعبنا على السفح الأخضر من وادي عارة.

وفي غمرة التهليل والتكبير والهتافات الوطنية الملوعة، وفي غمرة الدموع الساخنة الدامية وزغاريد الصبايا وذهول الأطفال، وبينما جسدك المحروق المحترق المتحرق، معا في آن يختلج على أكتافنا لتنطلق منه، مرة أخرى، عنقاء رماد عربية، في غمرة كل ذلك، كانت تعاودني من أعماق عام ١٩٣٦ عام الثورة العظيمة وعام ميلادك، أهازيج شعبنا الرائعة:

"يا طلت خيلنا من قاع الوادي
عوايد رجالنا تكيد الأعادي
ويا طلت خيلنا من وادي عاره
وعوايد رجالنا بتصد الغاره"

عدت الينا يا راشد، عودة " تكيد الأعادي " وخرجت لاستقبالك

الألوف المؤلفة من أبناء شعبنا لتجدد القسم بأن "تصد الغارة".. وانك لتجسد كلماتك، كما تجسد كلمات الشهيد الشاعر عبد الرحيم محمود ابن شعبنا البار:

سأحمل روحي على راحتي
وأهوي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظُ العدى!

وبعد يا راشد، يا أخي ورفيقي، لدي كلام كثير لك وعنك .. وسأقوله .. بيد أنني أودعك الآن بكلمة صغيرة كفرحنا، كبيرة كعذابنا: "صحيح أننا التقينا كما أكدت في أبياتك لي، غير أن العلم احتواك في جرحه، وأما أنا فما زلت انتظر دوري، أنتظره بكل الأمل والعذاب والحب!"

في ذكرى الرحيل السنوية العاشرة

قليل من القدرة على الاعتراف كان سيكفي، كنت سأفتح رسائلك على قلبي وأفتح قلبي على موتك باعتباره حقيقة في لغة الباحثين والمؤرخين. ولأنني لست باحثا أو مؤرخا ولأنني لا املك القدرة على قليل من الاعتراف ازاء أسمك الذي هو راشد، راشد حسين، راشد حسين محمود، راشد حسين محمود اغبارية، فلن أفتح قلبي الا على الحقيقة الوحيدة التي أعرفها الآن، حقيقة حياتك. ولست بحاجة الى مراودة التذكار لأنك ماثل كما كنت دائما، منذ العام الجميل ١٩٥٥، ففي ذلك العام كان تعارفنا في مدرسة الناصرة الثانوية البلدية. لا أذكر التفاصيل لكنني أذكر الأسماء والوجوه التي كانت معنا ومن حولنا: شكيب جهشان، طلعت صالح، فرج نور سلمان، أحمد ريناوي، فهد ابو خضرة، سمعان دعيم، دياب خوري .. وثمة أسماء ووجوه أخرى تذكرها أنت كما أذكرها. وكنت نجما مدرسيا اذا جاز التعبير، نجما بقامتك الفارعة وخصلات شعرك المنفلتة دائما وابدا على قسماتك الدقيقة السمراء بعينيك الحزينتين دائما وأبدا فوق ابتسامة منضبطة ينسجم فيها الكبرياء والتواضع والألفة والثقة بالنفس بحيث أستطيع اليوم من بعيد بعض الشيء أن أنشيء حوارا جادا بين ابتسامة راشد حسين التي أعرفها وابتسامة الجيوكاندا أو الموناليزا التي حاولت أن

أعرفها. وسأحاول أن أقارب بين صورتك على بطاقة النعي ولوحة دافنشي على جدار اللوفر. وانني لأتساءل عما يمكن ان يبقى لنا نحن اخوتك مهاويس القصيدة من مثل هذا الحوار العقيم. لا ليس عقيما لأن غموض الموت غير المبرر يظل حافزا لنا، لا لممارسة الذكرى بل لممارسة الحياة. وأستطيع اليوم أن أذكر انبهارنا نحن أطفال الشعر آنذاك بفتى الشعر الذي هو أنت يوم شحنت الجمهور في سينما أمبير هنا في الناصرة، بشحنة تتراوح بين الكهرباء والحلم حين أنشدت

من أسيا أنا من بلاد الحب والدم والأغاني

بلد الرجال الثائرين علي مماطلة الزمان

كان صوتك عميقا بنبرات العافية واليقين وكان شعرك ساخنا سخونة الدم والغضب واللوعة والأسى لدى شعب دمه مستباح وغضبه محظور ولوعته مقننة وأساه مرصود. ولم نكن آنذاك زملاءك الا مجازا. كنا نتلمس سراديب القصيدة وكنت أنت المغني. مع ذلك أصبحنا أفراد أسرة كثيرة الأبناء الأخ الأكبر هو راشد ومن حوله اخوته الصغار محمود وسالم وسميح ومن حولهم أبناء عمومة وخؤولة ما شاء الله.. وكم كنت ذكيا حين لاحظت أن أحد هؤلاء الاخوة يتخلى عن اسم عائلته ويكتفي باسم جده حتى لا يقرن أسمه باسمك. قلت له مداعبا: تبتعد عني لتجد نفسك. حسنا الله يسهل عليك! فرد بنزق بريء طالما غفرته له: لا أريد أن أكون أخاك الصغير. أريد أن أكون زميلك!

وتتابع الأسرة حياتها في الحياة وفي الشعر معا وتظل أنت النجم في ساحة كفر ياسيف حين أنشدت:

اليوم جئتُ وكلنا سجناءُ فمتى أجيء وكلنا طلقاءُ

ويظل صوتك هو الصوت وأنت تردد:

الله أصبح لاجئا يا سيدي صادر اذن حتى بساط المسجد

وانت تردد:

سنُفهم الصخر إن لم يفهم البشرُ أنّ الشعوب اذا هبت ستنتصرُ

وفي كل موقف، وعلى كل منبر كنتما معا: أنت الشاعر وأنت الانسان، وفي كل موقف وعلى كل منبر كنت ترحب باخوتك الباحثين عن ينابيع الشعر، وكنت تقيم الدليل تلو الدليل على نبل القائل وشرف القول: رب أخ لك لم تلده أمك!

وأذكر سراءنا بقدر ما أذكر ضراءنا، أذكر جوعنا بقدر ما أذكر نعمة الكأس. أذكر الفرح الغامر ممهولا بالحزن المقيم وأذكر شهامة الروح وسمو الفكر وطهارة القلب يوم ذهبنا الى صديقنا واستاذنا الكبير اميل توما في مكتب الاتحاد القديم ليستقبلنا وكأن شيئا لم يكن، وليدعونا الى العمل معه في الخندق الواحد والأخير بعد الخلاف العائلي العابر بين الوطنيين الشيوعيين والوطنيين الناصريين، ذلك الخلاف الذي حسمه التاريخ وحسمه حبيبنا وبطلنا جمال عبد الناصر يوم قال: لا اشتراكية الا الاشتراكية العلمية، وحسمه اخوتنا ورفاقنا حراس قلاع الحرية وحملة الراية الأرجوانية المباركة رآية الثورة والاشتراكية العلمية.

وعملنا معا الى ان تقمصت ابن زريق البغدادي على فارق جوهري، فاذا كان، قد استودع الله قمراً له في بغداد جادا في طلب

قوت العيال، فقد استودعت انت قمراً لك على سفوح وادي عارة جادا في طلب قوت القلب الجياش بالسخط والروح التي استروت فما ارتوت، فتنكبت عن غيث جادها على شح الى غيث في الحلم قالت فيه رسائلك الأخيرة إنه سراب في سراب، وتنكبت عن السراب لكن الى أين ؟ الى أين يا أخي وحبيبي ورفيقي؟

كان لك أن تعود وكل غائب الى اياب، وأية أوبة كانت تلك يا أخي وحبيبي ورفيقي، أية أوبة كانت تلك؟ ولماذا تشيح العين عن التفاتة القلب كلما جرفتنا سيول الحياة الى وادي عارة الحي؟ لماذا يجهش الروح على مشارف مصمص، حتى كأن مشارف صبرا وشاتيلا وعين الحلوة وبرج البراجنة لا تكفي؟

كان لك أن تعود؟ وها أنت هنا الى جانب مرج ابن عامر الذي خاطبته ذات يوم:

مرج ابن عامر هل لديك سنابلُ   أم فيك من غرس الحروب قنابلُ؟

وانني لأخاطب وادي عارة وأخاطب مرج ابن عامر وأخاطب الكرمل والجليل وأخاطب قلبي هذا المرهَف الثقيل: أعطوني قليلا من القدرة على الاعتراف حتى أفتح رسائل راشد على قلبي وأفتح قلبي على موته وأفتح موته على الحياة كلها،على الحياة كلها والى دهر الداهرين ...آمين..

مهرجان احياء الذكرى العاشره

الناصرة – الجمعة ٣٠/١/٨٧

في الذكرى السنوية الثالثة عشرة لرحيل راشد

ها أنذا اتورط مرة أخرى في حديث عن راشد حسين، ذلك أنني لا أتعامل هنا مع شاعر غاب، وتستدعي آثاره منتدى أدبياً للتحليل والتقويم (في حالة كهذه، سيكون أي مؤرخ أو ناقد أدبي أوفر حظا وأكثر توفيقا مني).

كنتُ أوثر أن أستمع الى زملائي، أصدقائي وأصدقاء راشد، لأحتفظ بسخطي الشخصي في موقع القرحة أو النوبة القلبية.

ومع ذلك فأنا مدين باعتذار خاص: راشد، يا راشد، أعتذر لك عن موتك وأعتذر لك عن حياتي.

أنت اليوم في الرابعة والخمسين، ومع ذلك فما زلت في الحادية والأربعين. أين ذهبت بفارق الزمن هذا؟ أي سطو مسلح جردك من وقت القصيدة الضائع؟ لماذا تربكني بكل هذا الخجل من أن ضحكتك المهذبة تجمدت مرة والى الأبد ذات مساء قارس في نيويورك؟ لماذا تخبيء حزنك اللاذع عن أيامنا اللاذعة؟

توغل في الذهاب لتوغل في البقاء. كأنك موشك على اقتحامنا هنا الآن، لتقول قصيدتك الساخنة كجرح طازج. كأنك تذرع شوارع الوطن بقامتك الفارعة، بقسماتك الممتحنة، بغرة شعرك المتفلتة أبدا، بأصابعك التي لا تكف عن المصافحة والكتابة واشعال السجائر. كأنك

هنا بخطاك المقتضبة وصوتك العميق المرن، كأنك هنا في لهفة الجماهير الى قصيدة القلب الجميل بغضبه وحزنه وعنفوانه.

كان من حقك أنت أن تعود ميتا فحسب، أما هم فيسرقون الحق ليسرقوا حياتك، وليسرقوا عودتك وليسرقوا بقائي وليسرقوا قبري وليكتبوا بالفولاذ قصيدة تنفي قصيدة لحمك ودمك، وليحفروا على لحمي قصيدة الخرافة الفولاذية .

راشد، يا راشد حسين محمود أغبارية، يا أخا لم تلده أمي، يا أخي يا ابن أمي وأبي.. لا تذهب، لأنهم يأتون، لن تذهب، لأننا سنعود، هذا ما قالته قصيدتك. هذا ما بشرت به نبوءتك الصادقة، صدق طفلة تولد للانتفاضة، صدق نارك التي ألمسها بأصابعي، صدق رمادك الذي أحمله في قلبي.

أما الآن، وقد رحلت أمنا الجليلية التي طالما زرناها معا فسأذهب وحدي، لأزور أمنا الباقية هنا على مرمى الوردة من ضريحك.

مصمص ٣/٣/١٩٩٠

المسافرون في قطار الموت

(تعليق على الانباء الواردة من ضفة الاردن التي لم تحتل بعد..)

لا الخجل ولا الحزن.. لا الالم ولا المذلة..
لم يعرف تاريخ العرب سلاما كالذي يعمر قلبي اليوم
لم ابصر وطني كما ابصره اليوم
ولم احب اطفال فلسطين كما احبهم اليوم
كم عدد القتلى والجرحى والمشردين مرة اخرى؟
لا يهم.. ابدا، لا يهم.
كم عدد الذين لم يقتلوا ولم يجرحوا ولم يشردوا مرة اخرى؟
لا يهم.. ابدا لا يهم.
النظام.سنوات الخدمة. الكعكة. الاتيكيت وحسن الجوار.
هذه هي الامور الاساسية.
ينبغي على الملازم الاول ان يموت برتبة لواء او مشير او ملازم اول.

نحن احفاد قريش

(برقيات التأييد تنهال على القيادة)

نحن احفاد قريش

(الرصاص ينهال على القيادة)

نحن احفاد قريش

(القيادة تنهال على القيادة)

وهم.. ما زالوا يواصلون السفر..

في الساعة الثامنة والأربعين

تحرك قطار الموت من محطة ما

ملاحظة من المفتش (المقاعد ملأى تماما)

في الساعة التاسعة والاربعين

تحرك المثلث في قطار الموت

ملاحظة من المفتش (الجليل ينتظر. النقب ينتظر. الكرمل ينتظر)

عشرون محطة اذاعة: اننا لعائدون

اننا لعائدون

عشرون بقرة سمينة: اننا لعائدون

اننا لعائدون

في الساعة السابعة والستين

تجول قطار الموت.. تجول بسرعة جنونية. بسرعة غير معقولة

من يافا الى عمان

من حيفا الى دمشق

من صفد الى بغداد

من غزة الى ج. ع. م. مصر الاقليم الجنوبي. لا بأس علينا

من عكا الى بيروت ليبان لبنون سويسره الشرق شرق سويسره..

لا بأس عليكم

في الساعة السابعة والستين

قطار الموت: بغداد القدس بيروت عمان القاهرة مكه المكرمة الدار البيضاء مجلس الامن الامم المتحدة يارينغ الشرق الغرب الشمال الجنوب قطار الموت الايمان الالحاد الاشتراكية الطريق غير الرأسمالي القيام القعود الموت..

ونحن .. نواصل السفر.

لماذا تلوح المناديل المشبعة بالدموع والدم؟

لماذا تزغرد الثياب السوداء؟

تستطيع الخيام الصفراء والجبنة الصفراء والوجوه الصفراء

تستطيع أن تحلم بعد..

اكثر من عشرين اذاعة (باللغة الفصحى فقط):

عائدون عائدون عائدون

اكثر من عشرين قتيلا في اليوم الاول

(تساقطي يا دموع الياسمين)

اكثر من مئة قتيل في الشهر الثاني

(لا حاجة للمدافن والمراثي. شكرا للشمس والرمال)

اكثر من الف قتيل في العام الثالث (في الذكرى الثالثة)

(لا حاجة لتبرير الموقف. شكرا جزيلا، فنحن نقدر ظروفكم)

ونحن نواصل الميلاد.. واقفين
نواصل الموت.. واقفين
نواصل السفر في قطار الموت.. واقفين
المقاعد ملأى بالرتب
المقاعد ملأى بالخطب
المقاعد ملأى بالمحادثات الاخوية والتحيات العربية والرتب المعربة.

من لا تقنعه القبلة لا يقنعه السيف
نحن لم نقتنع بالقبلة ولا بالسيف
وهم لم يقتنعوا بالقبلة ولا بالسيف
ولكن ثمة مجال للاقناع
الموت.اجل.الموت.
الموت في اية لغة كانت.

اسألكم سؤالا منطقيا:
الذي فقد ذراعه اليمنى، هل يستطيع ان يفقد ذراعه اليمنى

لا احد يعرف سعادتي اليوم
انني سعيد الى درجة الدموع
سعيد الى درجة الضحك
سعيد الى درجة الصراخ
سعيد الى درجة الموت.

مرحبا عمان مرحبا اربد مرحبا زرقاء (بالمناسبة ولدت فيك قبل النكبة بتسع سنوات وقبل النكسة بثمان وعشرين سنة وها انذا اموت فيك قرير العين)

مرحبا دمشق مرحبا بغداد مرحبا تل ابيب.

لا احد يعرف سعادتي اليوم انني سعيد حتى الغثيان ..

«الاتحاد» (٢٢ ايلول الاسود ١٩٧٠)

غسان كنفاني، وحركة الاستشهاد الفلسطينية

لا الوم ابن لاون ملك الروم، وان كان ما تمنّى، محالا
يجمع الروم والصقالب والبلغار فيها، وتجمع الآجالا
قصدوا هدم سورها فبنوه.. واتوا كي يقصروه، فطالا
واستجرّوا مكايد الحرب، حتى تركوها لها، عليهم وبالا
ربّ امر اتاك لا تحمد الفعاّل فيه، وتحمد الافعالا!

ما لمن ينصب الحبائل في الارض ومرجاه ان يصيد الهلالا!

ابو الطيّب المتنبّي

في التاريخ ان اجدادنا احتلوا الاندلس ومكثوا فيها ثمانية قرون او نيفا وسبعة هذه حقيقة !

وفي التاريخ ايضاء ان اجدادنا جلبوا الحضارة والرقي والنور الى اوروبا التي كانت يومذاك جاهلة متخلفة.. وهذه حقيقة!

وفي التاريخ حقيقة اخرى تقول ان جيراننا الاسبان لمّوا شتاتهم ورأبوا فلولهم، ثم اخذوا يناوشون اجدادنا ويقاومونهم، حتى فتح عليهم اخيرا، وحرّروا بلادهم، دون ان ينقذنا او يشفع لنا، استيطان

غير متحضر، دام قرونا على قرون...

وقد برزت في المقاومة الاسبانية التليدة، ظاهرة اصبحت فيما بعد حركة سجلت في ارشيف الزمن باسم حركة الاستشهاد.. انها حركة اليأس التي يقدم عليها انسان يغالب الانفجار والتمزق، بينما تنقض عليه وتنهش فيه، قوة عنيفة غاشمة..

كان من انظمة الطوارىء التي ابتدعها اجدادنا في الاندلس، ان من يشتم الرسول العربي يعاقب بالاعدام، فما كان من افراد حركة الاستشهاد الا ان اخذوا يجوبون الشوارع ويشتمون الرسول العربي جهارا، حتى يعلقوا على المشانق، وبهذا يمارسون شكلا من اشكال التعبير عن رفض الاحتلال ومقاومته، وتحقيق الذات ..

هل سيؤدي استمرار نكبة الشعب العربي الفلسطيني الى ظهور حركة استشهاد داخل حركة المقاومة الفلسطينية؟

ان الاجابة بالايجاب تنطوي على الخطر، لا بالنسبة الى حركة المقاومة الفلسطينية وحدها، بل بالنسبة الى صانعي النكبة ايضا، من اسياد واتباع وعملاء وطيب الله انفاسك حيث انت يا ابا الطيب!

غسان كنفاني- لاجىء فلسطيني. ولد في عكا عام ١٩٣٦. حين بلغ الثانية عشرة من العمر هربت اسرته الى لبنان. لماذا؟ -لان تلك كانت سنة ١٩٤٨. اتّم في المنفى دراسته الثانوية، ولكنه عمد الى التحصيل الذاتي فوسع ثقافته بصورة ملحوظة.

وساعده في ذلك حماسه الشديد لقضيته، وذكاؤه الحاد، واستعداده النفسي .. فرغم جسده المريض كان يتمتع بارادة قوية للغاية.

في الخمسينات، عمل مدرسا في الكويت، وبدأ ممارسة كتابة القصة القصيرة ونجح فيها واجاد. في الستينات استقر في بيروت وأخذ اسمه يتلألأ ويسطع في مجالي الادب والصحافة. وهناك عمل محررا لملحق جريدة الانوار الاسبوعي، ومحررا في مجلة الحرية وجريدة المحرر ثم محررا لمجلة الهدف الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، الى جانب اسهامه النشط في مجال الانتاج الادبي.

وضع غسان كنفاني قرابة ١٢ مؤلفا في الاقصوصة والرواية والمسرحية والنقد والسياسة منها: ما تبقّى لكم، ارض البرتقال الحزين، رجال في الشمس، موت سرير رقم ١٢، في الادب الصهيوني، ادب المقاومة في فلسطين المحتلة، عائد الى حيفا، عن الرجال والبنادق، الادب المقاوم تحت الاحتلال الصهيوني..

وقد حققت له مؤلفاته سمعة طيبة وواسعة، عربيا وعالميا.

حتى عدوان الخامس من حزيران ١٩٦٧، غلب الاتجاه الادبي على نشاط غسان كنفاني، وامتازت اقاصيصه ورواياته القصيرة بتكثيف فني عال، ورمزية شفافة يطل من ورائها الوجه الجارح لمأساة الفلسطيني المشرد، الموجوء من اعدائه الحقيقيين واخوته الوهميين..

وفي اعماله تلك تجنب غسان مزالق التعميم والمباشرة الخطابية المكرورة وترديد الشعارات المصممة سلفا. لقد كان فنانا اصيلا بكل ما في الكلمة من معنى....

وجاء دور كارثة حزيران ١٩٦٧، فزعزعت غسان كنفاني بقدر ما زعزعت الانسان العربي في كل اقطاره، او بما يربو على ذلك .. وهنا بدأ انعطاف خطير وحاسم في حياة هذا الاديب المتحرك في الطليعة من الادب الفلسطيني والادب العربي الثوري .. لقد بلغت مرارته وخيبته ذروة لا رجعة عنها، وملأت ضميره وعقله رغبة ملحة في منازلة الموت،وجها لوجه. انه الاحساس بالوحدة والعزلة في معركة المصير، ذلك الاحساس الذي بدأت ارهاصاته عند غسان في اعماله الادبية المبكرة، والذي تختزنه عبارة من كتابه ما تبقى لكم يقول فيها: اورثني يقيني بوحدتي المطلقة، مزيدا من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعا وحشيا!..

وفي اعقاب حزيران، غلب العمل السياسي والصحفي على نشاطات غسان كنفاني الابداعية. ورغم الاحترام والحب اللذين نكنهما له عميقا في قلوبنا ونفوسنا، لا بد لنا من تأكيد تحفظنا الشديد من بعض افكاره التي نعتبرها مغامرة، والتي تتجسد في موقفه المتحمس لعمليات خطف الطائرات، التي نرى انها الحقت الضرر بالثورة الفلسطينية، ولم تجلب نفعا او خيرا ملموسا.

بيد ان هذه الثغرة في موقف غسان كنفاني الرافض للمأساة الذي ظل يقرع بلا انقطاع ليوقظ ويثير ويعبىء ويجند، من اجل القضية العادلة، قضية شعبنا العربي الفلسطيني .. لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا؟ هكذا يقرع جرس غسان كنفاني في روايته الرائعة رجال في الشمس.

وبعد، فان الذين اغتالوا غسان كنفاني ليسوا اهلا لها.. ان اغتيال الادباء والمفكرين جريمة تدين العصر وتدمغ مقترفيها بالجبن والعار الابديين.

والذي يخمن ان مصرع فلسطيني آخر، يعني مصرع القضية الفلسطينية غر هو وقدم اخرق والحق الراسخ، العادل والمشروع، حي وسيبقى، ما دام الفلسطيني الاخير على قيد الحياة ..

وكما كانت حياة غسان كنفاني رمزاً لصمود شعبه، فان مصرعه رمز لجلال هذا الصمود في سبيل القضية الرابحة.. حتما!!!

شعراء... ودبلوماسيون..

قبل ست سنوات، بقدر ما تسعفني الذاكرة، كتبت في "الاتحاد" مقالا تحت عنوان "شعراء لا دبلوماسيون " ناقشت فيه فكرة اسهام الشعراء في العمل السياسي اليومي واعلنت رفضها بنزق وحماس شديدين .. ومنذ ذلك الوقت اوصلتني التجارب الى عكس ما ذهبت اليه آنذاك، واصبح واضحا لي ان الشاعر الملتزم، لا سيما العربي الذي يعيش في "اسرائيل" بالذات، لا يستطيع صرف النظر عما يدور من حوله، ولصق جلده واعصابه، وبالتالي، فانه لا يستطيع الا ان يكون شاعرا و"دبلوماسيا" في الوقت نفسه .. يكتب قصيدته، ويخرج الى خصومه مدافعا عن كلمته، داعيا لما ترفعه من مضمون، ومؤرثا ما تختزنه من حرارة.. باختصار: لا تستطيع ان تقول كلمتك وتمشي.. ينبغي ان تصحبها الى حيث تطمئن الى انها لم تكن بذرة على صخرة..

بدءا من هنا، ادركنا أهمية اللقاءات والندوات التي تعقد من حين لآخر بين الادباء والمفكرين العرب وزملائهم اليهود.. بتعبير آخر، عرفنا اهمية "الدبلوماسية الادبية"!

بعد نكبة ١٩٤٨ لم ينتهج حكام اسرائيل سياسة الجسور المفتوحة، كانت لديهم أنذاك سياسة البحر المفتوح باتجاه واحد .. لكنهم سواء في النكبة او النكسة انتظروا اللحظة المناسبة لاسدال الستار الحديدي بين العرب المقيمين وراء الدبابات والعرب المقيمين في مواجهتها .. وفي الوقت نفسه سدلوا ستارا جديدا أخر بين العرب المقيمين وجيرانهم اليهود، بينما راحت ابواقهم وصحفهم تحقن جماهير اليهود بسموم العنصرية والعسكرية، باذلين أقصى جهودهم لمنع بقية شعبنا في الوطن من اجراء حوار متكافيء ومنطقي مع السكان اليهود، ولعلهم ارادوا بذلك الحؤول دون امكانية ابطال مفعول التحريض الصهيوني، وجلوة الحقيقة بكل تفاصيلها التاريخية والانسانية والسياسية .. ومن هنا، فاننا لا نعجب من الهجمات العنيفة التي يشنها غلاة المتطرفين الصهيونيين على لقاءات معينة ومحدودة مع الجمهور اليهودي .. ولا ندهش للتهديد بالقتل الذي سمعناه أكثر من مرة في ندوات تل ابيب وحيفا وغيرهما ..

لا نزعم اننا نجحنا في نسف الستارين الحديديين، لكننا فتحنا اكثر من ثغرة، حركنا أكثر من ضمير، أثرنا اكثر من دماغ، وجندنا اكثر من قلم ..

في الوقت نفسه تواصل أجهزة الاعلام الرسمية التشويش علينا وتزييف مواقفنا. وعلى سبيل المثال، منذ اسابيع جرى نقاش بيني وبين ايسر هرئيل رئيس الشين بيت السابق، في ندوة محرري الصحف، في تل ابيب، تلك الندوة التي تطبخ فيها سياسة الاعلام. وبهدف احراجي، سألني: ما هو موقفك من القاء القنبلة على سيارة

فولكسفاجن في غزة وقتل ولدين يهوديين؟ قلت له: غزة مدينة محتلة وليست مدينة سياحية. اخرجوا من غزة ولن يقتل فيها اي ولد يهودي او عربي، الاحتلال هو المسؤول ..

بعد أيام جرى نقاش بيني وبين روت ديان، رئيسة منظمة جديدة تدعى "حلف ابناء سام" -وهي بالمناسبة، زوجة وزير الدفاع- وفجأة قذفتني بقولها: "انت اعلنت في تل ابيب تأييدك لقتل الاولاد اليهود!"

وهكذا، فانهم، فوق انظمة الطوارىء المفروضة علينا لتجميد نشاطاتنا وتقييد حرياتنا يعملون على تشويه مواقفنا وتزييف اقوالنا .. لكننا لن نقول كلمتنا ونمشي .. سنسير معها حتى تستقر حيث نريد ..

حين احسوا بأهمية لقاءاتنا هذه، سعوا الى ضربنا من الداخل.. وذلك بمحاولة "الموازنة" في تركيب الوفود العربية الى هذه اللقاءات .. "والموازنة" -في نظرهم- تعني دس بعض الكتّاب والشعراء العرب العاملين في المؤسسات الحكومية او الذين لا تسمح لهم ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية باعلان آرائهم جهارا، في صفوف المناقشين العرب لخلق البلبلة بينهم امام الجمهور اليهودي .. لكن هذه المحاولة منيت بفشل ذريع، فحتى هؤلاء الذين ظنوهم في الجيب، تكلموا بجرأة كبيرة ولعلهم كانوا اكثر "قسوة" منا في اكثر من مناسبة!

مرة اخرى "شعراء ودبلوماسيون".. ننقل للشعب الآخر هموم

شعبنا وتشوقاته .. ونعود الى مناطقنا المغلقة عبر الستار الحديدي الفظ لنحدث شعبنا بما يقوله الآخرون ..

قد تبدو هذه المهمة سهلة على السطح، بيد انها في حقيقتها شاقة مرهقة، تتطلب منك احيانا ان تضع اعصابك في ثلاجة، وقد تضطر احيانا الى اغلاق الغرفة عليك، لتصرخ وتصرخ .. حتى لا تجن!

«الجديد» ١٩٧١

من اجل شادي

لا تعطني كتابا عن الزهور .. اعطني زهرة حية واحدة، لاحب الزهور جميعا! لا تعطني مجلدات عن تاريخ الحروب .. اعطني مأساة صغيرة منها، لاكره الحروب جميعا! ثم لا تعطني الخطب والقصائد الحماسية .. اعطني اغنية بسيطة انسانية، لتحرك مشاعري وتجندها ..

سمعنا عشرات الاناشيد الحماسية عن الحروب والثورات والحقوق المغتصبة.. اثارت حماسنا، وسرعان ما انطفأ الحماس مع انطفاء اللحن .. وسرعان ما نسينا الكلمات الصاخبة الرنانة كالاجراس الكبيرة.

هل نستطيع الافلات من حنجرة فيروز حين تغنينا عن اي شيء .. عن الحرب والسنابل، عن الاعشاب والحب، عن الناس والسلام والنجوم والبيوت؟

اذا سألوني عن الادلة على تطور الانسان العربي منذ نكسة حزيران، فانني اضع بينها، وبلا تردد، الاقبال الشديد على فن فيروز.. وهو اقبال ملحوظ تشهد عليه الموجة الفيروزية في كل الوطن العربي، حتى اصبح واضحا ان فن الغريزة والحس اخذ يخلي مواقعه لفن فيروز الانساني العظيم.

من أعمال فيروز الاخيرة اغنية -قصة، كتبها ولحنها العربيان الجديدان منصور وعاصي الرحباني، طليعة الكلمة واللحن المشعين الوضيئين النظيفين في جيلنا..

تروي الاغنية -القصة، حكاية صبي كان أسمه "شادي".. كان يأتي من الاحراش ليلعب مع صديقته الصغيرة .. يكتبان على الحجارة قصص الهوى الصغيرة ويلوحهما الهواء .. في يوم من الايام اشتعلت الدنى .. وصار القتال يقرب على التلال .. وركض شادي ليتفرج فخافت صديقته ونادته .. لكنه لم يسمع واوغل في قلب الوادي المشتعل .. ومن يومها لم يعد شادي .. كبرت صديقته، وظل هو صغيرا وجاء الثلج وذهب الثلج .. عشرين مرة جاء الثلج وذهب الثلج .. وكبرت صديقته، وظل هو صغيرا .. يلعب على الثلج!

في الاغنية -القصة كلها لم ترد كلمة الحرب ولو مرة واحدة.. لم ترد الحماس الجرسي ولو كلمة واحدة .. لكننا سمعنا و"رأينا" مأساة مروعة من مآسي الحروب .. تزعزع قلوبنا وضمائرنا .. وتجندنا، بكل ما في الكلمة من مضمون، تجندنا ضد الحرب البشعة، وفي جبهة السلام الصافية كصوت فيروز العجيب .. تجندنا لنقاتل ونقاتل من أجل شادي .. حتى يكبر مع صديقته .. ومن اجل الاطفال جميعا ..

الانسان العربي، في الادب العبري

بين التحولات الهامة التي طرأت على الفكر العربي بفعل نكسة حزيران اياها، كان ذلك الاهتمام الواضح باستكشاف ما كان غامضا ومهملا، من جذور الفكر الصهيوني واذرعته، منذ بدأ التماس الاول بين الحركة الصهيونية وحركة التحرر القومي العربية.

وانه لامر طبيعي ان يسهم المثقفون الفلسطينيون بقسط كبير في عملية التنقيب عن اغوار الصراع الصهيوني ـ العربي. ومن ابرز ما وصلنا عبر خطوط النار، كتاب الاديب الشهيد غسان كنفاني عن الادب الصهيوني، وكتاب الشاعر معين بسيسو عن العربي في الرواية الصهيونية.

غير ان هذين العملين ـ الى جانب بعض الدراسات التي اتيح لنا الاطلاع عليها في ما طالته ايدينا من منشورات الوطن العربي- يعتورهما نقص واضح نرده الى العوامل التالية:

١- عدم معرفة الاغلبية العظمى من الباحثين العرب للغة العبرية.

٢- استخلاص النتائج، من خلال بعض الاعمال الادبية العبرية المترجمة الى الانجليزية او اية لغة اخرى، ونحن نعلم ان الترجمة اقتصرت على بعض الاعمال الحديثة التي لا تعطي

صورة كاملة عن الادب الاسرائيلي او الادب الصهيوني.

٣- الاستشهاد ببعض الاعمال التي كتبها صهيونيون غير اسرائيليين مثل ليون يوريس في كتابه اكسودس، وهذه الاعمال لا يمكن ان تعطي فكرة شاملة عن الادب الصهيوني، لا سيما ما كتب في فلسطين وما يكتب الان في اسرائيل.

٤- اتسم ما قرأناه في هذا المجال بالسرعة في التناول والادانة، الامر الذي جعل تلك الابحاث اشبه بالريبورتاجات الصحفية.

ومهما يكن من امر، فان هذه الملاحظات لا يمكن ان تستهدف التقليل من شأن ما انجز، وهي لا تعدو كونها دعوة لبحوث اعمق واشمل، تستوفي المهمة وتفي بالغرض.

لقد اسهب الكتاب العرب في التنبيه الى الاهتمام الذي تكرسه اسرائيل والصهيونية لفهم نفسية الانسان العربي وعالمه بكافة جوانبه وابعاده. ومما يثير الدهشة ان الاعلام الاسرائيلي يبدي اهتماما نشطا ومثابرا بهذه "اليقظة" العربية، وهذه الدعوة الى الانفتاح المقابل ودراسة الانسان الاسرائيلي والصهيوني. وقد قرأنا في صحيفة "معريب" في الشهر الماضي، ترجمة دقيقة لما كان الكاتب العربي رجاء النقاش قد كتبه في مجلة "الآداب" البيروتية حول اهتمام الجنرال متتياهو بيلد بالادب العربي وحصوله على شهادة الدكتوراه حول اعمال كاتبنا الكبير نجيب محفوظ.

انهم يتعقبون الفكر العربي خطوة بخطوة، واصبح لزاما على البحاثة العرب ان يتخلصوا نهائيا من النظرة القديمة، نظرة تجاهل الكيان الصهيوني والاستخفاف بشأنه والاستنكاف عن دراسة احواله واعتمالاته ومراميه.

لعلنا نطرح بدهية حين نشير الى الدور الهام الذي يستطيع

المثقف العربي المقيم في وطنه ان يؤديه على هذا الصعيد. ولا ريب في ان معرفة المثقف العربي في اسرائيل للغة القوم ومناخاتهم المعيشية والنفسية، تشكل اداة هامة للاستطلاع والغور حتى ادق التفاصيل.

عوضا عن ذلك، فان الاتصال المباشر المتاح بين المثقفين العرب واليهود في بلادنا من شأنه ان يغني اية دراسة حول الموضوع العربي في الادب والفكر الصهيونيين والعبريين.

وقد ادركت "الجديد" هذه الحقائق، فسعت من اعوام وما زالت ساعية على نهج التعارف من أجل الحقيقة الكاملة، فنحن لم نعرض للوجه الايجابي في الادب الاسرائيلي والعبري فحسب، بل اكدنا دائما على الوجه السلبي ايضا، وهو الوجه الاوسع والاشمل حتى الان لاسفنا العميق.

من منطلقنا هذا أجرينا في الأونة الاخيرة حوارا مع الكاتب الاسرائيلي الشاب ايهود بن عيزر الذي يكرس منذ سنوات اهتماما بالغا لبحث الموضوع، ويعد كتابا كبيرا -كما قال لنا- حول شخصية العربي والموضوع العربي في الادب الصهيوني والاسرائيلي.

وفي عدد قادم من "الجديد" نقدم للقراء حديثا طويلا مع الكاتب بن عيزر يلخص فيه دراسات سابقة كان نشرها في بعض الصحف العبرية ومحاضرة القاها -باسهام "الجديد"- في حيفا في الشهر الماضي، حول المسألة نفسها.

في حوارنا مع بين عيزر، ومع زملاء له من قبل، ابدينا رأينا القائل بان الادب العبري -الصهيوني منه وغير الصهيوني- عجز باغلبيته الساحقة عن تقديم نموذج ناجح واحد للانسان العربي، لا سيما الفلسطيني.

على وجه العموم، نفاجأ بالانسان العربي في اعمال ابناء عمومتنا، باعتباره شخصا احادي الجانب. وفي حالات عديدة نراه شيئا من اشياء الطبيعة، البعض يحبونه كما يحبون زهرة برية، والبعض يمقتونه كما يمقتون حشرة سامة..

وهكذا، فالعربي يمكن ان يكون اي شيء سوى نفسه، سوى الانسان المركب بكل ما فيه من خير وشر، سوى الانسان العادي. وقد لاحظ الاديب والشاعر العبري التقدمي مردخاي ابي شاؤول، هذه الظاهرة وعزاها الى جو الغربة الذي يسود العلاقات بين الشعبين. ورأى ابي شاؤول انه حتى الكاتب العبري الذي يرغب في التحدث عن الانسان العربي بروح ودية طيبة، فانه يتحدث عن شيء غريب عليه .. ويدعو ابي شاؤول الى تجاوز هذا الشعور بالغربة.

يطيب لنا ان نذهب الى ابعد من ذلك ونتساءل: ما هي مصادر الغربة؟ وكيف يمكن التغلب عليها؟

في اعتقادنا، ان الشعور بالغربة لدى الكاتب العبري ناجم عن الثقافة الصهيونية وعن الفكرة الصهيونية التي تقف جدارا مظلما بينه وبين جاره العربي. في لا وعيه -ان لم يكن في وعيه التام- يحسّ الكاتب العبري المعبأ بالثقافة الصهيونية ان وجوده على هذه الارض يتناقض اساسا مع وجود العربي ويدرك أن ذلك يتم على حساب العربي، من هنا يبدأ في ذاته الصراع الحاد مع ذاته من جهة ومع ذلك العربي من جهة اخرى، ويتخذ هذا الصراع احد اتجاهين:

- إما أن يتعاطف مع جاره العربي تعاطفا رومانسيا يتجاوز الواقع او يتجاهله ..
- وإما أن يقنع نفسه بحيازة الحق الالهي الذي تقوم عليه الصهيونية، فيعلن عداءه السافر لهذا العربي الذي يحاول ان

يقض مضجعه.

ومهما يكن من أمر، فلا ينبغي علينا تجاهل الفئة الثالثة -وان تكن ضئيلة- من الكتاب اليهود الذين يدركون الصراع الجاري على ارض هذه البلاد ادراكا ثوريا، ويعكسونه في اعمالهم بروح ثورية تتعامل مع العربي كانسان وصاحب حق. ولا شك في ان هذا الاتجاه يمثله في الاساس الكتاب والشعراء الشيوعيون الذين يمكن اعتبارهم الضمير الحقيقي للشعب اليهودي رغم ضآلة نفوذهم الادبي في الوقت الراهن.

لقد لجأت الصهيونية منذ خطواتها الاولى الى تزييف تاريخ البلاد وتاريخ انسانها. وهناك عشرات النماذج "الادبية" على ذلك، منها على سبيل المثال قصة لواحد يدعى بركوفيتش كتبها قبل قيام اسرائيل، بعد ان زار الخليل. وهو يصف العرب بانهم شعب تعيس ومنافق وجبان يرهب الاجانب ويفعل كل شيء من اجل البقشيش.

مثال آخر تقدمه لنا قصة لكاتبة تدعى حمده بن يهودا تقول فيها ان العربي حسن الاعمى كان يعيش على بيع اليهود ثمار التين التي يقطفها مع ابنته. وفي احد الايام تسقط ابنة حسن الاعمى (من الافضل ان يكون العربي فيالقصة الصهيونية ذا عاهة!) قلت تسقط عن شجرة التين فتموت. وماذا يفعل هذا الاب العربي المجرد من المشاعر الانسانية؟ (!) يذهب الى اليهود يبيعهم التين بسعر اغلى، لماذا؟ لانه أراد أن يضيف الى سعر التين سعر ابنته التي ماتت!

حتى الكاتب الصهيوني الاكبر شموئيل يوسف عجنون الحائز على جائزة نوبل للادب، لم يشذ عن هذه النظرة بكثير حين دعا في بعض قصصه الى اغلاق ابواب العمل في وجوه العمال العرب حتى لا يرفعوا رؤوسهم -على حد تعبيره هو.

لا شك في ان هناك تفاوتا في النظرة الى العربي بين الادب العبري والادب الصهيوني، في مرحلة الحكم العثماني وبينها في عهد الانتداب البريطاني ثم بعد قيام اسرائيل، غير ان هذا التفاوت يجري في اطار الموقف الشامل الواحد.

قبل ان يطفو الصراع على سطح العلاقات بين الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية كان هناك مجال شاسع لتلوين الشخص العربي بألوان الف ليلة وليلة المتكونة في الثقافات الاوروبية على اختلاف اقطارها. وحين احتد الصراع بدأ الصدام المرير بين الحلم والواقع، وبعد نكبة الشعب العربي الفلسطيني أصبح العربي "كابوسا وجوديا" بالنسبة للكاتب العبري -على حد تعبير ايهود بن عيزر، واصبحت القضية العربية قضية يهودية.

لعل اقدم صيغة لطابع العلاقات العربية -اليهودية في بلادنا، من وجهة النظر الصهيونية هي تلك التي وضعها هرتسل في كتابه "الت نوي لاند" (البلاد القديمة الجديدة) الذي وضعه باللغة الالمانية في عام ١٩٠٢. ومن تلك الصيغة بالذات يتضح قصر نظر الصهيونية وعجزها عن فهم حركة التاريخ وتطور الشعوب.

في ذلك الكتاب سجل هرتسل تصوراته لما ستكون عليه البلاد بعد عشرين سنة. وهو يطرح العلاقات بين الشعبين من خلال احد اشخاص كتابه ويدعى رشيد بك. رشيد بك هذا سعيد جدا بالمشروع الصهيوني ويرى ان هذا المشروع سيجلب له الحضارة والرفاهية لذلك فهو يتنازل عن اراضيه لمصلحة المشروع ويندمج في الخطة الصهيونية.

من هنا نرى ان هرتسل واتباعه اعتقدوا منذ البداية ان رأس المال الصهيوني قادر على شراء العرب وصرف انظارهم عن اية تشوفات

قومية استقلالية. ومن يطالع اليوم تصريحات المسؤولين الاسرائيليين حول العلاقات بين عرب اسرائيل والسلطة وعرب المناطق المحتلة حديثا وقوات الاحتلال، يلاحظ التطابق التام بين منطلقات هرتسل الاقتصادية ومنطلقات ورثة أفكاره في اسرائيل.

غير ان هذه النظرة الهرتسلية لم تكن الوحيدة ولا الاولى في الميدان. فقبل صدور كتاب هرتسل، وفي عام ١٨٩١ بالتحديد زار فلسطين الكاتب اليهودي المعروف أحاد هعام، وكتب فيما بعد مقالة حذر فيها من الاستخفاف بالعرب قائلا ان العرب ككل ابناء العرق السامي يتمتعون بعقل حاد وذكي وان مدنهم مليئة بالتجار الاذكياء الذين يعرفون كيف يستدرجون زبائنهم - بمن فيهم اليهود- للكسب منهم. ولا يتضح من مقالة احاد هعام اذا كان يدعو الى التخلي عن الحلم الصهيوني ام انه يدعو الى الحيطة والحذر في تحقيقه.

بعد كتاب هرتسل المذكور برز اتجاهان اثنيان داخل الحركة الصهيونية في فلسطين.

احدهما يمثله رز بنيامين الذي دعا إلى اندماج اليهود بالعرب لخلق شعب جديد -وهذا الاتجاه يقابله في أدب ما بعد قيام اسرائيل الاتجاه الكنعاني عند بنيامين تموز الذي تنبأ هو الاخر بظهور شعب جديد، قبل انحرافه القومي الشوفيني الاخير..

والاتجاه الثاني آنذاك كان يمثله برينر المتذبذب بين تفهم موقف العربي والعطف عليه وبين مناصبته العداء. وقد رد برينر على ر. بنيامين بمقالة في عام ١٩١٣ قال فيها أن دعوة الاخوة بين الشعبين هي دعوة مثالية وغير قابلة للتحقيق، فبين الشعبين تقوم كراهية عميقة وان هذه الكراهية امر ضروري.

الانتصارات العسكرية المتتالية التي حققتها الصهيونية، تركت

آثارها العميقة على الادب العبري في كافة مراحله. فيوم كانت شخصية يهودي المهجر ونفسيته هما السائدتان في الوسط اليهودي كان العربي يمثل نموذج القوة والسيطرة والجرأة العنيفة. ولا شك في ان هذه الصورة اخذت تتحطم بعد كل معركة عسكرية، واصبح العربي يتحول من "الشيء" الذي يشكل خطرا جسمانيا على الكاتب اليهودي الى "الشيء" الذي يشكل خطرا نفسيا وروحيا، ومن هنا بدأت ازمة "الكابوس الوجودي" الذي اشرنا اليه سابقا.

بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧، غمرت السوق الاسرائيلية موجة من الادب العسكري الشوفيني الرخيص، غير أنه من خلال هذه الغمرة برزت بعض الاعمال الهامة التي تعكس احتدام الازمة النفسية الناجمة عن اصرار هذا العربي على عدم الزوال واصراره على حقه المشروع في وطنه. وفي اعمال اورباز وا. ب. يهوشوع وبنيامين تموز وايهود بن عيزر وآخرين، نجد مصداقا لهذا القول.

ان هذا الموضوع -موضوع الانسان العربي في الادب العبري- من الاتساع بحيث لا يمكن اجماله في هذه السطور، ويبقى القسط الاوفر من المهمة ملقى على عاتق الباحثين العرب.

ونحن من جانبنا سنقدم كل ما نستطيعه من اجل ايفاء هذه المسألة حقها علينا.

«الجديد» ١٩٧٢

أيها الفاشيون العرب.. رفقا بالقادمين الجدد!!

إسمعوا جيدا ما اقوله لكم أيها المواطنون (من الدرجة الثانية) العرب .. اسمعوا وعوا ..

اذا شاهدتم في المدن والقرى وعلى اراضيكم المنهوبة ناسا يتكلمون لغات لا تفهمونها فلا تظنوهم مجرد سياح عابرين .. انهم مواطنون (من الدرجة الاولى) .. ويجب عليكم ان تعترفوا بأنكم عالة على هؤلاء الاخوان، عالة عليهم وضيوف عندهم لانهم هم اصحاب البلاد حتى لو انهم لم يقدموا اليها ابدا.

إنهم اصحاب البلاد وسادتها ومقررو مصيرها حتى وهم في نيويورك ولندن وباريس وطهران وتفليس.

وهؤلاء القادمون الجدد جاءوا ليمدّنوكم وليحيوا صحاري الشرق العربي .. إنهم رسل الحضارة اليكم أيها الجهلة المتخلفون!

سبحوا واشكروا واخرسوا ..

واذا انقضت جماعة من هؤلاء على عربي من الناصرة، وانهالت عليه ضربا حتى الموت، فما عليكم الا ان تواصلوا بيع السوفينير للسياح الاميركان .. جمال وحمير خشبية ومنافض سجائر من خشب الزيتون واكياس من التراب المقدس.. وما عليكم الا ان تستمروا في

قراءة جرائدكم وغسل الصحون في المطاعم .. وتجنبوا الالم والصراخ: المكم في هذا الزمان فاشية، وصراخكم همجية!.

هل تحبون القصص الجميلة؟

سأروي لكم قصة جميلة (من صميم الواقع -كما يقول الكتاب الرصينون):

قبل ايام كنت اتناول طعام الغداء بصحبة رسام عربي في مطعم حيفاوي. على مائدة مجاورة كان يجلس قادمان جديدان امامهما زجاجة بيرة .. مر في الشارع امام المطعم فلاح عربي (منا وفينا) .. واذا بأحد القادمين الجديدين يقفز من مقعده ويهجم على الفلاح العربي. غير ان عمال المطعم امسكوا به واعادوه الى مقعده. بعد قليل دخل رجل بالزي العربي الى المطعم .. واذا بالقادم الجديد يشهر سكينا وينقض عليه .. مرة اخرى، وبسرعة مذهلة تدخل عمال المطعم وباللين والشدة واللين واللين، اقنعوه بان يعيد السكين الى جيبه. ذهب الرسام العربي الى دورة المياه واذا بالقادم الجديد (المواطن القديم من بطن امه) .. اذا به يلحق بالرسام العربي الى دورة المياه ويصرخ في وجهه: "اراب ..اراب .." ويتأهب امامه في وضع يعجز عنه محمد علي كلاي. "بوكس؟بوكس؟" .. ودفعه الرسام العربي جانبا وعاد الى مائدتنا. إتصل صاحب المطعم بالشرطة. القادم الجديد (المواطن من صُلب ابيه وبطن أمه) يواصل استفزازاته .. نفقد كل شهية للطعام .. اتوجه اليه بما لدي من اللغة الروسية (بدا لي جورجيا):

أيها الرفيق، لماذا جئت الى بلادنا؟

ويرد علي بخليط عجيب من الروسية والعبرية ولغة اخرى لعلها الجورجية:

- جئت لاقتل العرب .. جميع العرب!

- لدينا كثيرون مثلك. لا نريد مزيدا!

- بوكس؟ بوكس؟ هل تريد الحرب؟

- اريد أن آكل بهدوء. لماذا تبحث عن المشاكل؟

عندنا كثير منها. اجلس بهدوء.

- اراب؟ .. اراب؟ ..

- اراب .. اراب .. وانت مخلوق رديء.

وجدتني اشتم السفن والطائرات ووسائل النقل جميعا، بينما راح رواد المطعم من علية القوم يواصلون ازدراد طعامهم بشهية ومتعة.تتوقف امام المطعم سيارة شرطة. يدخل شرطيان. صاحب المطعم يقودهما الى الداخل ويروي لهما ما حدث.

يبحثان في جيوب القادم الجديد عن السكين. مواطن يهودي يرشدهما الى مكان السكين في الجيب الخلفي .. يعثران على السكين. يكلمان القادم الجديد بالعبرية ولكنه يتظاهر بالجهل التام. يطلبان مساعدة مترجم واتطوع على الفور. يقول احدهما: "اسأله لماذا يحمل السكين".. وعجبني كثيرا هذا السؤال الرقيق واجد في نفسي رغبة ملحة في الرد عليه نيابة عن السيد القادم الجديد: "يحمل السكين ليقشر الفواكه!".. ويتخلى الشرطي عن خدماتي. في هذه الاثناء ينقض القادم الجديد على الرسام العربي ويصفعه، فلا يتمالك هذا الاخير اعصابه، ويركل المعتدي الوقح فيقذفه ارضا .. وهنا، كأن نعمة هبطت من السماء على رجل الشرطة الذي هتف: هه .. انني اعتقلكما (يعني القادم الجديد والرسام العربي) .. ويغيظني سلوك الشرطي فاقول له: بل تعتقلني معهما. ويرد علي بعنجهية: تذهب

سيرا على الاقدام الى مركز الشرطة وهناك اعتقلك ..

- هذا السلوك لا يليق بشرطة!
- تستطيع ان تحتج.
- انهم يهددون حياتنا وانتم تتهاونون معهم وكأنهم مجرد اطفال مشاغبين!
- تستطيع ان تحتج.
- بلادنا تتحول الى "غرب متوحش".. لا ينقصنا سوى قبعات الكاوبويز ومسدساتهم وخيولهم.
- تستطيع ان تحتج.

ويدفع رجال الشرطة الرسام العربي والقادم الجديد الى السيارة الفارهة. واتطلع حولي مشدوها: أيها الناس! لماذا تصمتون؟ هنيئا ومريئا، ولكن لماذا لم تقولوا كلمة .. كلمة واحدة؟

المواطن اليهودي الذي ارشد الشرطة الى موضع السكين يتململ على مقعده، يتفحص الوجوه من حوله ثم يخاطبني: "لا تسكت عن ذلك! يجب عليك ان تحتج!".

واتناول سماعة التلفون لابلغ المحاميين حنا نقارة ومحمد ميعاري بما حدث.

بعد قليل عاد الرسام العربي الى المطعم ليخبرني بانهم اطلقوا سراحه بعد مقدمة صغيرة عن ضرورة الصبر والتعقل!

- وماذا مع القادم الجديد ؟
- هو ايضا، اطلقوا سراحه !
- اطلقوا سراحه ؟!
- اجل، اطلقوا سراحه بذريعة انه كان في حالة سكر!

أيها "الفاشيون" العرب! أعطيكم تمرينا ذهنيا ممتعا: حاولوا ان تتصوروا تطور احداث هذه القصة بعد ان تستبدلوا الادوار قليلا .. ولنضع مثلا، مواطنا عربيا منا، مكان القادم الجديد -رسول حضارة السكين!

«الجديد» ۱۹۷۲

اعظم جائزة

مساء الخامس عشر من ديسمبر. الاجراس ترن في غرف فندق دبلومات الفخم في القدس. الادباء الضيوف يتجمهرون في قاعة الفندق الرحيبة استعدادا للبدء في تنفيذ البرنامج المعد لهم. هذا المساء يفتتح مؤتمر "القلم" الدولي اعماله، بزيارة ودية لبيت الكتاب الاسرائيليين في القدس المحتلة. على احد جدران الفندق الرخامية تتحرك كاميرا تلفزيونية صغيرة بشكل يغطي المداخل والقاعة. لا بد انها جزء من الاجراءات الامنية لحماية الادباء الضيوف. لماذا الحماية؟ لان المسؤولين الاسرائيليين يعرفون مدى الغضب الذي يغلي في صدور الفلسطينيين على هذا الاستفزاز الوقح: افتتاح المؤتمر في العاصمة الفلسطينية المحتلة، ردا على قرارات اليونسكو العادلة ضد تشويه المحتلين لمعالم القدس العربية.

من حقنا ومن واجبنا الا نسكت عن فضيحة مؤتمر "القلم" الدولي .. لذلك فقد أعددنا مذكرة بالعربية والانجليزية، وكان علينا - صليبا خميس وانا- أن نوزع المذكرة.

في التاسعة مساء "تسللنا" الى بيت الكتاب الاسرائيليين في القدس المحتلة.

لاحظ احد رجال الامن المنبثين هناك -علاوة على الجنود المسلحين ورجال الشرطة- لاحظ اننا نتأبط كمية مبالغا بها من الاوراق.. وما هي الا لحظات حتى كنا مطوقين بالمسؤولين السائلين :"من انتما؟ " وحين عرفوا "من انتما" راح محفلط مزفلط منهم (مع الشكر للشيخ امام واحمد فؤاد نجم) راح يولول ويلوب: "جاءوا ليخربوا علينا! .. جاءوا ليخربوا علينا!"

بلا طول سيرة، دار حوار جاف ومقتضب:

- لن تدخلا!

- سندخل.

- لن توزعا المناشير.

- سنوزع..

في تلك اللحظات وصل ضيوفهم الاجانب وفي طليعتهم هاينريش بل الحائز على جائزة نوبل سيئة الصيت.

ابتدرناهم بالمذكرة واستوقفنا السيد بل لحديث جاف ومقتضب:

- انت هاينريش بل؟

- نعم.

- تهانينا على جائزة نوبل، لكن هناك جائزة اعظم، بل اعظم جائزة، جائزة النضال مع الشعوب المقهورة، ونحن شاعر وكاتب من أبناء الشعب العربي الفلسطيني المقهور الثائر، ونعتقد ان مكانك يجب ان يكون الى جانب شعبنا في نضاله من اجل الحرية والاستقلال، ونرجو ان تقرأ مذكرتنا هذه.

تناول "بل" المذكرة وهو يكرر "طبعا.. طبعا.. سأقرأ هذه المذكرة" .. وتساءل احد الكتاب الاجانب: "ولماذا لا تدخلان معنا؟"..

وروينا لهم ما كان بيننا وبين رجال امن الاحتلال، وغادرناهم وشيء - لعله الدهشة - يختلط بملامحهم.

حين يصدر هذه العدد من "الاتحاد" تكون مذكرة اخرى قد "تسللت" الى الكتاب الاجانب عبر السياج الامني، غير ان هذا ليس كافيا، ونعتقد أن من واجبنا جميعا، أدباء وشعراء وقراء، ان نطارد هذا المؤتمر الاستفزازي ونفضحه محليا وعالميا..

«الاتحاد» ١٩٧٤/١٢/٢٠

صهيوني، ولكن، ذكي !

قبل أيام أعيد انتخاب ناحوم غولدمان رئيسا للمؤتمر اليهودي العالمي. بيد أن انتخاب غولدمان هذه المرة لم ينزلق بيسر. فلاول مرة واجهته معارضة "قوية الشكيمة" -كما درج اسلافنا على القول.

تمثلت المعارضة في جماعة حركة حيروت التي ما زال مناحم بيغن زعيمها الخرافي.

ما احلاكم وانتم لا تعرفون من هو بيغن وماذا يريد؟! طبعا تعرفون. إذن يحق التساؤل: لماذا يعارض بيغن ورهطه في انتخاب غولدمان؟ هل كف غولدمان عن أن يكون "صهيونيا جيدا"؟

ابدا، فان ناحوم غولدمان اشد وفاء من ان يتخلى عن جذوره. فما الذي حدث اذن؟

أشارت محاضر المؤتمر، او ما أذيع منها، الى أن هناك استياء شديدا، واستياء، وتحفظا في احسن حال، من التصريحات السياسية الكثيرة التي يطلقها الدكتور ناحوم غولدمان حول القضية العربية-اليهودية. وفي الكثير من التصريحات، المنسوبة إليه، يدعو الدكتور غولدمان الى التعقل والتحول السياسي والى ترميم الرؤية والرؤيا الصهيونيتين المنافيتين للواقع الجديد في المنطقة وفي العالم.

وبقدر ما نفهم فان الدكتور غولدمان يطالب حكام اسرائيل،او يدعوهم، للتحقق من المرئيات والملموسات الجديدة، كالواقع الفلسطيني، وتوازن القوى الدولي، والتضامن العربي، والتحالف الشيوعي-العربي ـ انه يدعوهم الى اليقظة على المتغيرات الهامة التي اكتسحت حساباتهم القديمة. واذا كان البعض يرون في ذلك تنازلا من جانب غولدمان، ضد الصهيونية، فنحن نرى العكس، نرى ان ناحوم غولدمان هو صهيوني، ولكن ذكي. انه يعلم أن مواصلة المسيرة الصهيونية بالاساليب التقليدية تشكل، في المستقبل، خطرا شديدا على ما حققته الصهيونية من مكاسب اقليمية وسياسية. وهو يعلم، كما نزعم، إن حركة التاريخ وعنصر الزمن ما عادا في صالح الفكر والممارسة الصهيونيين. لذا فهو حريص على ما هو قائم. ولعل الحلم الصهيوني بالدولة اليهودية، الممتدة من النيل الى الفرات، اصبح بالنسبة للدكتور غولدمان كابوسا مخيفا. ومن هنا رغبته في الخروج من هذا الكابوس الى أرض الواقع الصلبة.

كان ذلك في عام ١٩٦٨ -بقدر ما تسعفني الذاكرة .. في قاعة، على جبل الكرمل الحيفاوي، نظم لقاء بين عدد من محرري الصحف والدكتور ناحوم غولدمان. وبناء على الدعوة التي وجهت الينا ذهبت عن طيب خاطر، بل بحماس، لاستمع واناقش. ولا اخفي عنكم انني توقعت من الدكتور غولدمان كلاما غير عادي، بالقياس الى الاسطوانات والكليشيهات الصهيونية التي نسمعها كل يوم.

بينما كان غولدمان يتحدث عن ضرورة الحوار مع جمال عبد الناصر، هب احدهم صارخا بشكل هستيري: "مع من تريدنا ان نتحدث؟ مع ناصر؟ انه اسوأ من هتلر، وتريدنا أن نتحدث معه؟!".

أعذروني، فلم اتصرف أنذاك كما يليق بالناس المتحضرين، لم اطلب حق الكلام، ولم أرد عليه بهدوء. وجدتني اصرخ في وجهه:

"عمن تتكلم؟ عن هتلر؟ وما علاقتنا نحن بهتلر؟ اذا كنت تريد الخوض في التاريخ فانا انصحك بمراجعة ملاحق صحيفة هآرتس في الاسابيع الاخيرة، وسترى من هو الذي سعى لاقامة دولة يهودية برعاية هتلر؟ ثم اذا كنت تملك الوقاحة لدرجة مقارنة ناصر بهتلر، فانا أعلن أنه لا مجال للحوار معكم، ولا يبقى امامي سوى الانصراف!"

قلت إن ناحوم غولدمان رجل ذكي. ويبدو أنه اكتشف على الفور هويتي القومية. فاستوقفني ودنا مني واضعا يده على كتفي بصورة مسرحية (تلقائيةكما اعتقد) وراح يوجه الكلام الى جمهوره بصورة هادئة، مذهلة في هدوئها:

"أترون؟ هذا ما كنت اخشاه.. فاذا كان هذا الشاب قد نشأ في اسرائيل، وتعلم في مدارسها وقرأ صحفها وعاش مؤثراتها، ومع ذلك فهو يتكلم بهذه اللهجة القومية والجريئة، فكيف تتصورون أبناء جيله في العالم العربي؟ وكيف تتصورون الجيل الذي يليه؟ مع جيل آبائهم، كان تعاملنا سهلا.. أما مع هؤلاء فستكون المهمة شاقة للغاية اذا نحن لم نبحث عن طريق جديد.. ومن اجل ذلك لقائي هذا بكم"..

ان الدكتور ناحوم غولدمان صهيوني، ولكن، ذكي!!

وارجو ان نكون متفقين..

اذن، ماذا؟!

«الاتحاد» ١٩٧٥/٢/١٤

الحركات الاجتماعية في الاسلام

إن امرأ ينعم النظر في العملية الثقافية المحلية منذ النكبة، لا يسعه الا ان يلاحظ ظاهرة ذات بال. ففي حلبة الشعر تعاقبت أسماء تفوق في عددها حبات المسبحة المتعاقبة بين اصابع ناسك مفعم بالذكر. وفي ميدان القصة ترددت اسماء لا تقل عددا عن اصابع انسان سويّ. أما في ساحة البحث فقد جزلت الحاجة وشح العطاء .. وإذا كانت قد اومضت من حين لحين بضعة أسماء في بضع محاولات فان اسما فريدا يكاد يفرض سمة الوحدانية على ذاته في باب البحث، هو اسم الرفيق الدكتور اميل توما.

تكاد ابحاث اميل توما تغطي مجالات الجهد الثقافي كافة فهو يخوض في السياسة ويراجع في الفكر ويستقرىء في الفلسفة ويستقصي في الاقتصاد ويداخل في الادب ويجادل في الاجتماع. قد يرى البعض أن مثل هذه الاتساع الافقي لا يتم الا على حساب العمق العامودي،بيد أن اميل توما يكاد يكون في مهمة خاصة تفرضها عليه حقيقة الحصار الثقافي الذي كابدته جماهيرنا العربية في اسرائيل، فهو، بحكم رسالته كباحث شيوعي، يرى نفسه، ونراه، ملزما بتغطية مساحات شاسعة كان من شأنه ان يترك جلها لسواه في ظروف غير ظروفنا. ومن هنا يأتي الطابع التوجيهي المباشر الذي نستطيع نعته

بالتحريضية التعبوية دون الخروج على النطاق الاكاديمي العلمي.

ليست هذه المقدمة مجاملة لصديق ورفيق، فاميل توما اصون من أن يجامل وأنا أرصن من ان اجامل، ولباب الغاية اعتراف بفضل.. ولعل في الامر، من بعد، استباقا لوقيعة قد تضمرها نفس امارة بالسوء تستقبح المراجحة الصادرة عن مريد في حضرة شيخه. وكما يلاحظ القارىء الحصيف فقد احتطت لما قد يكون من بدء ما هو كائن، حين اردفت رغبة المراجحة بنية الموضوعية في مستهل مسعاي هذا. وما كنت بمقدم أصلا، على ركوب مركب البحث التاريخي العسير لولا قناعتي الراسخة بالمسؤولية الثقافية، مسؤولية المبادلة والمجادلة والاخذ والعطاء من اجل جلوة الحقيقة وارساء الحق.

درج السلفة من علماء العرب على تذييل كل رأي يذهبون اليه في ابحاثهم بعبارة "والله اعلم".. لعلهم، او بعضهم، نحوا هذا المنحى من قبيل "التقية" التي يحتاطون بها من تهمة الزندقة.. ولعلهم، او بعضهم فعلوا ذلك من قبيل التواضع العلمي والاقرار العقلاني بنسبية الحقيقة وجدلية الوجود .. ومهما يكن من أمر السلف -صالحا وطالحا- فان اصدار الاحكام القاطعة في مسائل البحث العلمي مسلك غير محبذ إن لم يكن مرذولا، لا سيما حين يدور البحث خارج اطر الرياضيات والفيزياء والكيمياء وما اليها من علوم يجوز نعتها بالعلوم الدقيقة.

من هنا،فقد يبدو ضرباً من التلهي ان يجادل المرء في حاصل جمع الرقم "واحد" الى الرقم "اثنين"، اما في مجال علم كعلم الاجتماع فان امكان الاجتهاد فسيح للغاية واعمال الاجتهاد مجد للغاية. وفي هذا المنصرف نتناول المؤلف الجديد لا الاخير لرفيقنا الدكتور اميل توما

"الحركات الاجتماعية في الاسلام" الصادر حديثا عن منشورات "صلاح الدين" في القدس -المحتلة الى يوم صلاح الدين!

تقوم عمارة هذا الكتاب من احد عشر فصلا، يتقدمها تمهيد في كيفية فهم التاريخ، والفصول جميعا مع التمهيد الهام مشدودة شدا بعامود فقري متصل الحلقات من الغلاف الى الغلاف فلا يعترض سبيل القارىء استطراد يجوز الاستغناء عنه.

لقد صدر هذا الكتاب في مرحلة تشهد مدا زاخرا من الانفعال الديني -السياسي- الاجتماعي في منطقتنا الامر الذي يجعله كتابا "استهلاكيا" او "مادة مقررة" لكل من يتعمق الظاهرة ولا يكتفي ببسطها الإعلامي السيار.

من هذا المنصرف قرأنا الكتاب ومنه نرى الضرورة في تهميش بعض الطروح الواردة في الكتاب أملين ان يجتمع صواب النظر بصدق الهمة.

التشيع والمآرب القومية

يرفض الدكتور إميل توما ما يذهب اليه "أحمد أمين" في "فجر الاسلام" من ان التشيع "كان مأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة او حقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته" .. ويرى الرفيق اميل توما ان اصحاب هذا الطرح هم من انصار الانظمة القائمة آنذاك وفي يومنا هذا.

وينهي الدكتور توما الفصل الرابع "التيار الثوري في الإسماعيلية" بالحكم التالي :"والحركات الثورية في الاسلام تبنت دائما ايديولوجية

شيعية.. وقصتها من أروع صفحات النضال من أجل الحياة الافضل ومن أجل حقهم في الخلافة باعتبارهم من آل البيت .."

في رأينا، وفي رأي الرفيق اميل توما كما نعرفه، فان التعميم والاطلاق لا يستقيمان مع جدلية البحث العلمي.

ومن هذا الموقف نبدي تحفظا من رأي اميل توما حول فكرة أحمد أمين..

فأحمد أمين لم يحكم على التشيع برمته بانه حركة معادية للإسلام، بل اكتفى بتسجيل حقيقة تاريخية معروفة عن "تسلل" عناصر قومية غير عربية الى التشيع، هناك جماعات من غلاة الفرس الذين لم يتخلوا عن المجوسية وراحوا يحاولون تسريب مبادئها تحت ستار الاسلام، اندست الى الشيعة لمجرد كونها حركة معادية للنظام، وقد اكتشف ائمة الشيعة اغراض هذه الجماعات، واتفق الحسينيون والحسنيون على رفض دعاوي اولئك الغلاة، بيد انهم (أي غلاة الفرس) واصلوا محاولتهم من خلال الفرع الحنفي في الشيعة. والى جانب قناعتنا بسلامة كفاح الاقليات القومية من اجل المساواة بالعرب في اطار الامبراطورية العربية الاسلامية، فاننا لا نستطيع تجاهل التيارات القومية "الشوفينية" بين ظهراني ابناء الاقليات القومية الذين خاضوا الصراع ضد العرب من منطلق ترجيح الغايات القومية على الاهداف الطبقية.

اما بالنسبة لحكم الرفيق اميل توما بان الحركات الثورية في الاسلام "تبنت دائما الايديولوجيا الشيعية .. وقصتها من أروع صفحات النضال من أجل الحياة الافضل ومن اجل حقهم في الخلافة باعتبارهم من آل البيت".. فان لنا ايضا ملاحظة في الامر ذلك ان اطلاق "الايديولوجيا" على التشيع لا يخلو من الابتسار، فالشيعة

تيارات متعددة وتكاد تكون متباينة ولا يجمعها تصور واحد وشامل وواضح لمسائل المجتمع والحياة .. ثم اذا كانت الصبغة الطبقية العامة للشيعة تشكل صفحة "من اروع صفحات النضال من اجل الحياة الافضل"، فاننا لا نستطيع الا ان نسجل الى جانب ذلك تحفظنا من التسليم "بحقهم في الخلافة باعتبارهم من آل البيت.." لان التسليم بمثل هذا الحق يتعارض تلقائيا مع السمة الطبقية الايجابية.. ومن وجهة النظر الدينية لا يتوفر نص يؤكد هذا الحق بصورة مطلقة، ومن وجهة النظر الاجتماعية ليس تدعيم إطلاقية هذا الحق ايجابيا بالضرورة.

عن الشعوبية

"الشعوبية ايديولوجية مساواة وتعصب قومي" .. هكذا عنون الرفيق الدكتور اميل توما الفصل السابع من مؤلفه .. ولا ريب في انه مدخل موضوعي للبحث، لكن الآراء التي يتبناها الرفيق اميل باعتبارها "الاراء الموضوعية" (جورجي زيدان، فيليب حتى وجوستاف جروينباوم) ليست في الحقيقة نموذجا للموضوعية، فالموضوعية تستلزم رؤية الجانب المظلم من موضوع البحث مع رؤية جانبه المضيء. وقد شملت الشعوبية ايضا تيارات متفاوتة بعضها يدعو مخلصا الى المساواة بين العرب والقوميات الاخرى، وبعضها قام على الانتقام من العرب في كافة المجالات والرغبة في استبدال سلطانهم بسلطان الفرس، رغم كون العرب العنصر الاساسي في الامبراطورية ومن الطبيعي أن تتجمع في ايديهم الحصة الكبرى من مقاليد السلطة لا سيما في مثل ذلك العصر. ومن قبيل الاستعجال، الزعم بأن

الشعوبية بدأت كحركة تسوية (مساواة) ثم انتهت الى التعصب القومي المعادي للعرب، فالعنصران معاً عنصر المساواة وعنصر التعصب تسايرا على طول الطريق وان تفاوت صوتاهما بين مرحلة واخرى.

وليس صحيحا قول فيليب حتى بان دعاوي الشعوبيين جاءت كرد فعل عل "ما يدعيه العرب من تفوق عقلي"، والعكس هو الصحيح، فالعناصر القومية الاعجمية المتطرفة التي سعت منذ دخولها الاسلام الى تحطيم السلطة العربية (ولا نحتج عليها في ذلك !) هي التي سعت لتشويه وتسفيه كل ما يعتز به العرب من أوجه الحضارة، وبلغت تلك العناصر مبلغ الانكار التام لاي فضل عربي في أي منزع من منازع الحياة.

ثمة مسألة يجدر بنا التنبيه اليها، وهي حقيقة البنية الاجتماعية العربية في صدر الاسلام، فلم تقم هذه البنية على التعصب القومي العربي، بل قامت على التعصب القبلي الامر الذي حدا بالموالي، لا سيما البارزين منهم، للانضواء تحت اكناف القبائل العربية من اجل النفوذ.

ثم ان الشعوبية لم تقتصر على عامة الفرس، بل اسهم فيها وايما اسهام، الدهاقين الفرس وهم الاقطاعيون وكبار ملاكي الاراضي الذين ازعجتهم الاجراءات الضريبية التي وضعها نصر بن سيار عامل الامويين على خراسان. لقد فرض نصر بن سيار الخراج على الارض وليس على الافراد، وبهذا اصبحت الحصة الكبرى من الضرائب تجبى من اسياد الارض بعد ان كانت تقع على كاهل الفلاحين عبيد الارض.

وانه لمما يدعو الى الاستغراب ان الرفيق اميل توما يستنتج ان السلطة العربية فشلت في تحقيق المساواة من يومها الاول (!) وان

ممارستها السياسية "تميزت منذ اليوم الاول بعد وفاة النبي واختيار الخليفة الاول ابي بكر الصديق بتمييز العرب عامة وابناء قريش خاصة" (!!)

ان حدا ادنى من التفهم (ولا اقول الفهم) يبرر اختيار الخليفة الاول من بين اقرب مقربي الرسول، وانه لضرب من العبثية (في اهدأ وصف) ان نتوقع من اوائل المسلمين العرب الذهاب الى اقاصي خراسان للبحث عن فارسي يقبل بالاسلام لتنصيبه من ثم خليفة على المسلمين.

ثم ان اختيار أبي بكر وسائر الخلفاء كان نتيجة لظروف موضوعية جعلت الاختيار يقع عليه دون سواه ليس من غير العرب فحسب بل من العرب انفسهم ايضا.

ويغلّب الرفيق اميل الظن بان الدعوة الشعوبية "ظهرت بعد قيام الدولة العباسية وقبل ان تحيق الكارثة بالبرامكة وزراء الخليفة هارون الرشيد". الا ان المعطيات التاريخية تؤكد ان بدايات الشعوبية تعود الى زمن ابعد من ذلك، الى بدء انتصار الدعوة الاسلامية خارج النطاق العربي وعدم تسليم بعض العناصر الاعجمية بهذا الانتصار وسعيها لنقضه وتحينها الفرص لنيل وطرها.

نتوقف قليلا عند استنتاجات الدكتور توما النهائية، فهو يستخلص "امرين جوهريين": ان الشعوبية "ساعدت على تقليص التعصب القومي العربي والاستعلاء العنصري".. وانها "خلقت مناخا لنمو حركات ثورية تقدمية".. وفي كلا الامرين لنا ما يقال:

أما ان الشعوبية ساعدت في تقليص التعصب القومي العربي، فامر عكسه صحيح، ذلك ان التأكيد العربي على الثقافة العربية كان من حيث التسلسل الزمني ردا على محاولة المثقفين الشعوبيين الحط

من قدر هذه الثقافة. وقد تصدى لهؤلاء عدد من كبار المفكرين العرب والمسلمين (من غير العرب)، مثل ابن قتيبة والجاحظ والبلاذري والمسعودي والثعالبي والتوحيدي .. ثم ان التطرف الشعوبي ادى الى تطرف مضاد من جانب معارضيه قادهم احيانا الى السقوط في وهدة التعصب المعادل في القوة والمعاكس في الاتجاه.

واذا جاز القول بان الشعوبية خلقت مناخا لنمو حركات ثورية تقدمية، فانه يجوز القول ايضا بانها من جراء السمات السلبية التي طغت عليها في نهاية المطاف، شكلت عقبة في طريق الحركات الثورية التقدمية، ذلك أن القوى الرجعية استسهلت الدس على الحركات التقدمية فعلا، بنعتها بالشعوبية.

"الطائفية في العهد العثماني"

في هذا الباب يعالج اميل توما مرحلة من اشد مراحل تاريخنا حلكة.. ويركز على البؤرة اللبنانية الدموية بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٦٠ حيث دارت رحى حرب العشرين سنة الطاحنة.

كاد التأريخ لهذه المرحلة يقتصر على اتجاهين قطبيين، احدهما يذب عن الموارنة ويلعن الدروز، والاخر يفعل العكس. غير ان المنهج العلمي لن يعدم من يتسلح به في سعيه نحو الحقيقة الكاملة في نسبيتها!

وقد قيض لهذه المهمة من يؤديها على وجه حسن، وتحقق هذا الكسب في دراسة هامة حقا وضعها الباحث اللبناني التقدمي فؤاد قازان ونشرتها مجلة الطريق اللبنانية في عددها الثالث من عامها التاسع والعشرين (اذار-مارس-١٩٧٠).

ولما كان المؤرخون والباحثون يبنون استنتاجاتهم على المعطيات المتوفرة بين ايديهم بعد تمريرها في مختبر مواقعهم الطبقية والفكرية، فاننا نميل الى القول بان فؤاد قازان كان محظوظا اذ توفر له من الوثائق والمراجع ما لم يتوفر لسواه كما يبدو، الى جانب منطلقه الايديولوجي الثوري.

واذا كان الدكتور اميل توما مسلحا بالايديولوجيا الثورية، فقد ضنت عليه في هذا الباب المراجع الكافية، الامر الذي ترك في بحثه ثغرة نأمل ان نعالجها فيما يلي.

يسجل الرفيق اميل مأساة الاحتراب الطائفي في لبنان عام ١٨٤٠ ثم عام ١٨٤٥ على انه صراع بين الاقطاعيين الدروز والفلاحين الموارنة. غير ان فؤاد قازان يرى من خلال الوثائق الدامغة، ونرى معه، غير ما ذهب اليه الرفيق اميل. فالمعركة منذ بدايتها كانت بين الاقطاع اللبناني (الماروني والدرزي) وبين الفلاحين اللبنانيين (الموارنة والدروز). وحين تهدد الخطر مجمل نظام الاقطاع فقد عرض الاقطاعيون الدروز مساعدتهم على ابناء طبقتهم من الموارنة. وحين سجل الفلاحون الموارنة انتصاراتهم فقد تعاطف معهم اخوانهم من الفلاحين الدروز وبدأ التململ يشمل مناطقهم غير أن الاكليروس الماروني وفي مقدمته "المطران طوبيا عون وزمرته" (على حد تعبير فؤاد قازان) هاله الشعور بعجزه عن السيطرة على "العامية" (الكومونة) فراح يحرض الفلاحين المسيحيين ليس على الاقطاعيين الدروز فحسب بل على اخوانهم الفلاحين الدروز المتعاطفين معهم، وراح رجال الاكليروس يدعون الفلاحين المسيحيين الى طرد جميع الدروز واقتسام ممتلكاتهم، الامر الذي اثار مخاوف الفلاحين الدروز وثبط من عزائمهم وجعلهم فريسة هينة

للاقطاع الدرزي الذي جندهم من ثم للدفاع عن انفسهم !!، وهكذا انحرفت الاحداث نحو مسار الاحتراب الطائفي.

ويقول فؤاد قازان ان نفوذ الاكليروس المرتبط بالدول الاستعمارية كان قويا الى درجة انه تمكن احيانا من ايقاع الفلاحين الموارنة في شراكه، حتى ان طانيوس شاهين نفسه انساق مرة لاحابيل الاكليروس فدعا الفلاحين الموارنة لمحاربة اخوانهم الفلاحين الدروز. غير أن هذه الزلة لا يمكن أن تشوه الطابع الاساسي لحركة الفلاحين اللبنانيين الرائعة بقيادة طانيوس شاهين العظيم.

وخلاصة القول انه لا يمكن إجمال أحداث القرن التاسع عشر بانها كانت وقوع الفلاحين الموارنة ضحية للاقطاعيين الدروز بل بانها انتهت الى وقوع فلاحي لبنان في براثن الاستعمار والرجعية الاقطاعية والاكليروس.

ويقتبس اميل توما رأي المستشرق السوفييتي ف. لوتسكي القائل بان "العامل المباشر الذي فجر الانتفاضة الشعبية المعادية للاقطاع والتي جرت في اعقابها المذابح الطائفية كان مرسوم الاصلاح -التنظيمات الخيرية لعام ١٨٥٦". وهذا الاجتهاد خاطىء من اساسه والصحيح هو ان هذا المرسوم جاء نتيجة للهبات الفلاحية ومحاولة لاجهاضها واحتوائها، ولا يعقل من ثم ان تكون المراسيم الرسمية انذاك غير ذلك. وهناك اسباب ودوافع اكثر مباشرة كزيادة الضرائب والتنكيل الوحشي الذي انزله الاقطاعيون الموارنة في فلاحيهم، والذي بلغ درجة القتل دون عقاب واغتصاب النساء والفتيات وقتل فتاة حملت نتيجة للاغتصاب واهانة شيوخ الفلاحين في كل مناسبة وما الى ذلك من ضروب الاذلال وفنون التعذيب.

ختاما...

ختاما لهذه الملاحظات والهوامش، نعود على بدء، فنؤكد على أهمية الكتاب ومغزى صدوره في مثل هذه الظروف حيث يحتدم الصراع الفكري في الوطن العربي وفي المنطقة بأسرها.

ورغم ما قد نراه مأخذا هنا وهناك، فان كتاب الدكتور اميل توما "الحركات الاجتماعية في الاسلام"، يظل سلاحا فكريا نشهره في وجه اولئك الذين يجهدون عبثا لتجنيد الاسلام في خدمة مصالحهم الطبقية وغاياتهم المعادية لروح الاسلام والمعادية للشعوب العربية والاسلامية. ونأمل ان يسهم هذا الكتاب في اعانة العرب والمسلمين على استلهام الصفحات المشرقة في تاريخنا، صفحات الكفاح الشعبي العادل من اجل المساواة والتقدم.

«الاتحاد» ١٩٨٠/٢/٨

تفو على شواربكم

هكذا أتصور ما جرى .. شبان وشابات، طلاب في جامعة اليرموك الاردنية يقرأون الصحف العراقية جيدا يشاهدون التلفزيون ويتتبعون باهتمام حقيقي افتتاح معارض الرسم في مدينة الحسين لشباب ومحاضرات الامير الحسن الجادة عن الحضارة والتطور الاجتماعي ومؤسسة آل البيت والمجمع الملكي وينبهرون بتواضع صاحبة الجلالة في عيد غرس الاشجار .. وباختصار شديد فانهم يؤمنون بما يقال لهم خمسا وعشرين ساعة في اليوم من انهم يعيشون أسرة أردنية واحدة في كنف اب أردني واحد ويبنون حضارة اردنية واحدة من أجل مستقبل أردني واحد.

ولانهم يصدقون الخطب الكلاسيكية عن الوطن والكرامة والنخوة والشرف القومي فانهم لا يجدون غضاضة في التظاهر ضد قطاع الطرق الامريكيين الذين يمارسون القرصنة التكنولوجية المسرفة في التطور لضرب الشعب الليبي على يديه وعلى رأسه لا لشيء الا لانه يؤمن هو الاخر بانه يبني حياة جديدة من أجل أمة عربية جديدة ..

لا تكاد المظاهرة تبدأ حتى تقترب الجلبة .. يظن بعض الطلاب ان قطيعا من الدواب عائد لتوه من المرعى، وسرعان ما يتضح أنه قطيع من عسكر البادية مدجج بالاسلحة والاوامر الواضحة.

وتنهال الهراوات وينطلق الرصاص ويسقط القتلى .. ويذهل الطلاب .. ومع صرخات طالبتين فلسطينيتين تغتصبان في شهر رمضان المبارك يتفجر الذهول مثل مدفع الصيام ويفطر صاحب الجلالة افطارا حلالا. أما الحرام فهو أن يغضب العربي لعروبته وأن يثور الوطني لوطنه وأن يمارس الانسان حقه الاولي في التعبير عن النفس. كل العالم يتظاهر ضد عصابات ريغن ودفاعا عن الشرف العربي والوطن العربي. أما الانسان العربي فله أن يمارس هذا الحق في اي مكان من العالم الا في وطنه هو!

لماذا؟ لان عبيد امريكا واقنان اسرائيل وحراس مواخير اوروبا هم الذين يحكمون الوطن العربي وهم الذين يملكون الجيش والشرطة والمخابرات. وبما أن اوطانهم هي اعضاؤهم التناسلية، وأدمغتهم وافكارهم وشرفهم القومي وحضارتهم وسياستهم كلها تبدأ وتنتهي باعضائهم التناسلية، فانهم يصممون الاستراتيجية ويخططون التكتيك ويقيسون العلاقات الدولية والامن القومي والحرية والاستقلال والوحدة والمشاريع الاقتصادية باعضائهم التناسلية ولاعضائهم التناسلية. وبهذه النزعة البهيمية يتصورون أن اغتصاب فتاة فلسطينية يحمي فخارهم وامجادهم وعزتهم القعساء من كلمة فلسطين التي تذكرهم دائما وابدا بعجزهم وقصورهم وجبنهم وحقارتهم وقد لا اغالي لو قلت إن فلسطين تذكرهم ايضا بعجزهم الجنسي!! فمن الناحية العلمية الصرف يعرف الناس المتحضرون حقا أن الرجل الذي يقدم على الاغتصاب هو رجل ناقص ومختل ومريض. وعسكر البادية الذين اغتصبوا الشابتين الفلسطينيتين عبروا في واقع الامر عن حالة النظام الذي جندهم ودربهم ووجههم وأصدر اليهم الاوامر.

ومما يثير الدهشة حقا أن اغتصاب النساء بهدف الاذلال والتحطيم المعنوي اصبح اليوم اسلوبا متخلفا ويكاد يكون غير معمول به في اية بقعة من العالم اللهم الا في الوطن العربي. فنحن ندرك أننا أمة متخلفة وأن التخلف من شأنه ان يفرز الوحشية في ظل هذه الانظمة بيد اننا لا ندرك كما يبدو أن البحر الميت نفسه اعلى بكثير من هملايا تخلفنا.

امامنا طريق واحد ووحيد لاثبات جدارتنا بوطننا وبتاريخنا وباحلامنا: كنس هذه الانظمة مرة والى الابد. كم أتمنى أن التقي الان وفي هذه اللحظة بالشقيقتين الفلسطينيتين المغتصبتين لاقول لهما: لن يقوى عبيد العصر على تدنيس شرفنا. لانهم لا يعرفون شرفنا. شرف النضال من أجل الشعب والوطن والحرية والكرامة.

وكم أتمنى أن التقي الان وفي هذه اللحظة ليس بمن نفذوا الاوامر بل باولئك الذين اصدروها أيضا لاقول لهم بهدوء تام: تفو على شواربكم يا كلاب الزمان.

«الاتحاد» ٨٠/٥/٣٠

شيء من الحسد

حتى لو صح أن الحسود لا يسود!.. ومهما يكن من شر الحاسد اذا حسد ومع ايماني الراسخ بانه من غير اللائق أن يخامر الضيوف شيء من الحسد، اي شيء منه، في اثناء تجوالهم بين غرف المنزل المضيف وردهاته. فلا يسعني الا ان اعترف بما يعتريني من الحسد حين اتجول في رحاب هذا البلد او ذاك من اقطار العالم، ولا ريب في أنّ الاعتراف راحة للبال وبلسم للضمير.

والنوبة الاخيرة من نوبات الحسد التي ابتليت بها كانت قبل أيام وفي جزيرة قبرص التي يصح فيها قول الشاعر: حتى على الموت لا اخلو من الحسد ..

قبرص، صديقتنا الصغيرة (اصغر من لبنان)، وشريكتنا في بلوى الاحتلال والتمزق والحرب الاهلية والمؤامرات الدولية، قبرص، على علاتها وويلاتها كانت مثار غيرتي وساحة حسدي في هذه الايام.

في البدء حسدت القبارصة جميعا، فلديهم موانئهم الخاصة، ولديهم مطار وصناعات خفيفة ومشاريع زراعية، ولديهم سواحلهم وحرس السواحل الخاص بهم، ولديهم مدنهم وقرميدهم وغاباتهم (على ضآلتها) وهم يملكون جبالا وفنادق، وعندهم فوق كل هذا نبع صغير على جانب الطريق الجبلي بين نيقوسيا وبافوس، تستطيع أن

توقف السيارة على مقربة منه لتشرب ماء قراحا ولتغسل وجهك وترطب صدرك وذراعيك. ولا يجوز لي أن أنسى مكاتب السياحة التي تقدم لك مجانا خريطة الجزيرة (قياس ١: ٥٠٠،٠٠٠)، الملونة بالاعلانات السياحية والمزوقة بالتحية الطيبة (أهلا وسهلا بكم في قبرص!). وحين تطلب فنجان قهوة فان النادل المهذب يسألك على الفور: هل تريد قهوة قبرصية؟ ويدفعك الفضول لاكتشاف هذه القهوه القبرصية فيتضح لك بعد قليل أنك طلبت قهوتك الخاصة القهوة المنزلية التي لا قهوة لك سواها والتي عرفتها منذ طفولتك في الوطن الذي لا وطن لك سواه.

كان هذا في البدء. وحين تنبهت الى ان قبرص مجزأة الى قبرصين فقد حسدت الاثنتين كلا على حدة. فالقبارصة الاتراك يشكلون ٢٥ بالمئة من مجموع السكان وهم يسيطرون اليوم على ٣٢ بالمئة من مساحة البلاد. وهم يتصرفون على هواهم في مناطقهم وسواء كان الجيش التركي جيش احتلال أم جيش حماية فان حوانيتهم مفتوحة للسياح ولا توجد لديهم دائرة اراضي اسرائيل ولا كيرن كييمت ولا دوريات خضراء ولا يقتلع الجيش اغراس زيتونهم ولا تخرب الدبابات مقاثيهم وحقول حنطتهم.

ولدى القبارصة اليونانيين مساحة كافية من الارض ليشقوا طريقا جديدا وليرفعوا على جانب هذا الطريق شعارا كبيرا: (لا تنس الاحتلال التركي في شمال البلاد!) ولديهم حكومة ووزراء وسفارات ومناسبات رسمية واحتفالات شعبية واعراس يغنون فيها ما يشاؤون دون ان تستدعيهم شرطة اسرائيل للتحقيق معهم حول الاغاني (المتطرفة) التي أنشدوها في أعراسهم.

كان ذلك اسبوعا واحدا. ليس كثيرا وليس قليلا. كان اسبوعا

حقيقيا بكثير من الشمس والبحر والفنادق والشوارع. بكثير من السفر والتحيات، بكثير من الحزن والفرح واللقاء والوداع. بكثير من الناس والبيوت والشجر وبشيء من الحسد!

على فطنة،

هل هو الحسد حقا وبكل معنى الكلمة؟ .. الذين يعرفون الحب لا يعرفون الحسد. وبما انني "ادين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه" وسفنه وطائراته، فان الحسد يصبح هنا امرا مجازيا. وكل ما يبقى في النفس هو من قبيل الم الحامل التي تتعسر ولادتها بينما ترى الى جاراتها وصديقاتها المرضعات يهدهدن اطفالهن ويهللن بطير الحمام المكرس للذبح، (مجازا هو الاخر) في سبيل تهويمة انسانية صغيرة على مشارف الحلم.

ويحز في القلب والروح ان نرى الى بعض اخوتنا الفلسطينيين وهم يقدمون فعلا على ذبح طير الحمام الراقد على اطراف الحلم لا لسبب الا لان قضيتنا تبدو لهم أكثر تعقيدا في هذه الايام.

والذين شاهدوا مثلي مقابلة الحاج رشاد الشوا على شاشة التلفزيون الاردني يدركون ما اعنيه. فحالة اليأس والتخلي الكامل عن أبسط الحقوق الفلسطينية، حق تقرير المصير واقامة الدولة المستقلة، هذه الحالة المغرقة في سوداويتها، المفرطة في تعاستها، لا يجوز لها ان تمر ولا يحق لنا ان نهادنها.

لا بأس بشيء من الحزن

لا بأس بشيء من الالم

ولا بأس بشيء من الحسد المجازي، الا ان القضية الفلسطينية لا تحل في قبرص ولا في المملكة الاردنية الهاشمية. واغلاق المكاتب الفلسطينية في عمان ليس أزمة فلسطينية بقدر ما هو أزمة المخطط

الامريكي الاسرائيلي -الاردني- المصري. فقد توهم أصحاب هذا المخطط انهم من خلال اتفاق هنا ولجنة هناك ووعد امريكي ووعيد اسرائيلي وخضوع مصري وخنوع اردني، سيتمكنون في نهاية الامر من احكام قبضتهم على مقدرات الشعب الفلسطيني وتجريده من الحلم بعد تجريده من الجغرافيا. ولم يقدم حكام الاردن على اغلاق المكاتب الفلسطينية بالتنسيق مع اسيادهم الاسرائيليين واسياد اسيادهم الأمريكيين الا بعد ان تأكد لهم عجزهم عن اغلاق ابواب التاريخ في وجه خمسة ملايين فلسطيني اقسموا وتعاهدوا وتواعدوا على ان تكون لهم فلسطينهم الخاصة، أسوة بانغولا الانغوليين واندونيسيا الاندونيسيين ونيكاراغوا النيكاراغويين وقبرص القبارصة!

هذه هي المسألة.

لا حسد ولا يحسدون.

لا يأس ولا من ييأسون.

لا إنابة ولا من ينوبون.

هذه هي المسألة.

شعب حقيقي يريد وطنه الحقيقي .. مكاتب سياحة .. شواطيء، منازل، مدارس وخريطة ملونة كتب فوقها بالخط الديواني، وربما بالكوفي :(اهلا بكم في فلسطين) (فلسطين ترحب بكم) .. هذه هي المسألة.

«الاتحاد» ١٩٨٠

ياربعام العصري

بعد وقوع القبائل العبرانية في ما اصطلح على تسميته اليوم "حروب اليهود"، انقسمت مملكة سليمان الى مملكتين: يهودا في الجنوب واسرائيل في الشمال.

حدث ذلك في اواخر القرن العاشر ق. م. وكان ياربعام اول ملوك اسرائيل واشتهر باقامة المعابد للالهة المعبودة آنذاك.

وفي أعقاب العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ اعلن دافيد بن غوريون (هل تذكرونه؟) عن انبعاث مملكة سليمان .. واقترحنا انذاك ان يصبح أسمه "سليمان الثاني" الا ان الاقتراح اصبح غير عملي خلال فترة وجيزة اذ اضطر "سليمان الثاني" الى سحب قطعانه الغازية من اراضي مصر العربية تحت ضغط الشعوب العربية وقوى السلام المحلية والعالمية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي.

وحين بسطت الدوائر الأسرائيلية الحاكمة نفوذها الواسع على جنوب لبنان المحتل، خيل لنا أن الجماعة على وشك اعلان مملكة سليمان الثالثة .. ويوم أعلن المايور سعد حداد قيام "دولة لبنان الحر" قلنا في سرنا: ها هي مملكة سليمان الثالثة تنقسم شكليا، على الاكثر وعلى الاقل، ولعل الجماعة يرغبون في اعلان سعد حداد ملكا باسم "ياربعام اللبناني".. وان "ياربعام اللبناني" هذا سيشتهر باقامة

المعابد لحكام اسرائيل وعساكرها واصحاب ملاهيها وطواقم نواديها الليلية ..

ولعل الرابي كهانا أدرك خطورة الموقف فهب ليعلن رغبته (صحف الايام القليلة الماضية) في اقامة دولة يهودية جديدة في المناطق الفلسطينية المحتلة بعد عدوان حزيران ١٩٦٧ ..

ومن يدري؟ فقد يكون في وهم الرابي كهانا هذا أن يعلن نفسه ملكا للدولة اليهودية الجديدة وربما يطلق على نفسه لقب "ياربعام العصري"..

فيما مضى كان البعض يسمون امريكا "بلد الامكانيات غير المحدودة".. وكان هؤلاء يقصدون الامكانيات الاقتصادية طبعا .. أما اليوم فتجوز تسمية اسرائيل "بلد الامكانيات غير المحدودة" ونقصد الامكانيات والاعاجيب السياسية والفكرية والاقتصادية على السواء!

ويظل هناك امر غريب، وغريب جدا، في الأمر، ذلك ان "ملوك" اسرائيل والحالمين فيها بالعروش يعيشون حالة انسلاخ رهيبة عن الواقع وعن العصر. ويبدو لنا احيانا أنهم ناس قدموا في آلة الزمن من قبل ثلاثة الاف سنة، وارتدوا ملابس العصر الا انهم ظلوا منفصمين بشكل فظيع عن عقلية العصر وروح العصر.

يقينا أن الرياح تجري بما لا تشتهي سفن هؤلاء الملوك والمستملكين .. ولا يبقى لنا سوى أن نحمل اوهامهم الرهيبة على محمل المضحك المبكي. وعزاؤنا ازاء هذه التراجيكوميديا أن هذا الزمن تكتب تاريخه الشعوب لا الملوك الواهمون والموهومون سواءا.

«فلسطين الثورة» ١ حزيران ٨٢

أذن روبرت ورأس محمد!

نحن أثرياء، وأثرياء جدا بعبارات التهديد وامثلة الوعيد. قلنا "طفح الكيل"، وقلنا "بلغ السيل الزبى" وقلنا "سأكيل الصاع صاعين". وعلى السدة كثير من هذه العدة انما ماذا بعد هذا؟

لقد تندر العالم في الخمسينات على "انذارات الصين"، واصبحت الصين أنذاك مضربا للمثل في القول بلا فعل. بيد إن الصين تمكنت من تجاوز محنتها وإستردت شيئا من هيبتها.

واذا كان لا بد للعالم من مادة للتندر فقد اصبحنا نحن هذه المادة. بينما تصم الآذان اناشيد اذا عاتنا للعزة والشمم، وبينما تنضح جرائدنا بحبر الإباء والعنفوان، فان الاهانات تنهمر على خدودنا المصعرة .. وبقدر ما ترتفع فرقعة اناشيدنا الحماسية.

لم يترك المثل شيئا الا وقاله. ومن اشياء المثل :"الخد الذليل يعلم الجبان المرجلة". وللاسف الشديد فان خدنا اليوم ذليل ذليل. فلماذا لا يتمرجل علينا الشجاع والجبان والطويل والقصير والقريب والبعيد والاسود والاصفر والابيض والازرق؟

إنهم يجرحوننا اربعا وعشرين ساعة في اليوم وثلاثين يوما في الشهر وعلى مدار السنة. لو كنا في عداد الموتى لاكتفينا بحكمة الشاعر: ما لجرح بميت ايلام! الا اننا نتألم..وانا اتألم اذن انا موجود.

ونحن موجودون. ما زلنا موجودين. يكفي ان نتحسس ارواحنا وأن نتلمس اجسادنا لنكتشف اننا لم نغادر عتبة الحياة بعد. ويكفي أن نصرخ قليلا حتى يحسب لنا الاعداء حسابا، ولو بعض الحساب.

تهيننا اميركا فلا يتحرك لنا عصب. وتهيننا بريطانيا فلا يندى لنا جبين وتهيننا فرنسا فلا ينبض لنا عرق. حتى الدول اللقيطة مثل كندا واستراليا اصبحت مهيأة تماما للتمادي علينا واهانتنا دون أن تتلقى منا رد فعل مناسبا.. اي رد فعل!

وأما عن "اسرائيل" فماذا اقول ولا اقول؟ لم تحمل لنا "اسرائيل" الحب في يوم من الايام وهي لا تحب احدا منا اليوم، لا السادات ولا حسني ولا حسين ولا الحسن.

وهي لم تحترمنا في يوم من الايام ولا تحترم احدا منا اليوم. وكل ما بقي لنا منها هو بعض الكراهية الحقيقية التي تسرها وتعلنها ضد اولئك الذين يجرؤون على مواجهتها واحترام الذات.

لقد بلغت جرأتهم علينا ما بلغه استخفافهم بنا، حتى ان "محمد" أصبح هدفا للتدريب العسكري!!، وبناء على ما نشرته صحفهم في الاونة الاخيرة فان الامر العسكري باطلاق النار في احد معسكرات التدريب هو ببساطة: "محمد .. نار".

وقد يكون المقصود هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام! او ولدي محمد او محمد محمد او محمد حسني او محمد الياس او محمد حنا.. او اي محمد بمعنى اي عربي.

"استضعفوك فوصفوك" .. وما انطبق في حينه على الدجاجة ينطبق اليوم علينا نحن. فماذا نفعل بدجاجيتنا المزرية هذه؟

لنأخذ العبرة من حيث تاتي انصع خبرا واوقع أثرا.

بالامس القريب، ويوم كانت لندن تنهش لحمنا كنا نحن

نستضعفها ونتوعدها منشدين:

مندوب خبر دولتك لندن مرابط خيلنا

لندن هذه التي جعلت عروشنا مرابط خيلها، ذاقت مرارة الاهانة هي الاخرى الا إنها لم تسكت عن الاهانة ولم تلعق جراحها استكانة وتسليما.

لندن هذه، وقبل قرنين ونصف القرن تقريبا شنت على اسبانيا حربا لا رحمة فيها بسبب "اذن"! فقد اعترض الاسطول الاسباني سنة ١٧٢١ سفينة انكليزية وقطع الاسبان احدى اذني قائد السفينة روبرت جانكن مهددين: " قل لملكك في لندن انه لو كان هنا لقطعنا اذنه".

وكانت النتيجة أن الانكليز استعدوا ثمانية اعوام بكاملها حتى شنوا حرب الرد على الاهانة.

حرب في سبيل اذن روبرت .. فماذا بشان رأس محمد؟!

«صوت البلاد» ١٩٨٧/١١/١٩

الخجل

أكتب من كوكب اخر.

ليس بحكم الفلك. وليس بحكم الجيوبوليتيكا.

أكتب من كوكب اخر.

إسمه الحزن تارة. والخجل طورا. الحزن يوما والخجل دوما. الحزن من واقع غير مبرر والخجل من الواقع ذاته.

أيها الاخوة والاخوات، سلام عليكم. وحتى يفهمني العرب جميعا فانني اخاطبكم باللغة الاكثر رواجا في هذه الايام: "شلوم عليخم"!.

ولما كنت غريقا منذ نيف وخمسة وثلاثين عاما فلا اخشى من بلل العام السادس والثلاثين.

أيها الاخوة والاخوات. انني اتصبب خجلا لاضطراري الى مخاطبتكم عبر "لندن" التي ربطت خيولها في مضافات ابائنا ودواوين اجدادنا. لندن التي تفاجئني حين اتجول في شوارعها بالف "اللنبي "واللنبي". واسمع من شرفاتها ومشارب بيرتها وفتريناتها ومسارحها صيحة.

ذلك الجنرال الفاتح الذي هتف حين دخل القدس ظافرا:"الان انتهت الحروب الصليبية!".

وكم تشظيت خجلا بالامس القريب حين لم اجد نافذة اطل عليكم عبرها غير باريس بونابارت وسالان!

أكاد اسمع صيحات احتجاجكم: ليست كل لندن اللنبي.. وليست كل باريس سالان.. أجل اعرف ذلك، بيد انني نهب الاحساس لا نهب المعرفة في هذا الزمن العسير. وسواء ادانتكم وغفرانكم فلقد طفح الكيل ولم يبق لي انا المنفي في ذاته الموجوء بالحسرة سوى ان ارجمكم بعاري.

أتكون لندن خلاصة الوطن العربي؟ اتصبح باريس نهاية مطاف اللغة العربية؟ لماذا لا استطيع مصافحتكم الا في المنفى؟ ولماذا احرم مواجهتكم بالقصيدة؟

يخيل الي ان كل شيء اصبح مترجما في هذه الايام. وانني لاتساءل احيانا باية لغة يتخاطب القوم في مؤتمرات القمة ومجالس الرئاسة. ويخيل الي ان الاشياء اخلت حيزها للظلال. ظل للغة، ظل للانسان، ظل للثورة. ظل للحضارة. ظل للجواد. ظل للدبابة. ظل لشجرة النخيل. ظل للنبي ظل للصحابة. ظل لماركس. ظل لتروتسكي ظل لله وظل للشيطان. لا شيء يرسخ في الحقيقة سوى تسيب العدوان والمعتدين والانكماش المذهل ازاء جنازير الغزو وحراب الاحتلال.

حتى أنا، الثائر الفلسطيني، الذي وهبكم الى حين حلم الخلاص تنقض علي البيانات الرسمية والجيوش الرسمية لتمسخني ظلا لنفسي.

وما أشد خجلي أيها الاخوة والاخوات حين أبوح لكم بما يعنيه لي اليوم قاموسنا العصري. فالقيادة تعني الحكم والزعامة تعني

الامريكي الاسرائيلي -الاردني- المصري، فقد توهم أصحاب هذا المخطط انهم من خلال اتفاق هنا ولجنة هناك ووعد امريكي ووعيد اسرائيلي وخضوع مصري وخنوع اردني، سيتمكنون في نهاية الامر من احكام قبضتهم على مقدرات الشعب الفلسطيني وتجريده من الحلم بعد تجريده من الجغرافيا. ولم يقدم حكام الاردن على اغلاق المكاتب الفلسطينية بالتنسيق مع اسيادهم الاسرائيليين واسياد اسيادهم الأمريكيين الا بعد ان تأكد لهم عجزهم عن اغلاق ابواب التاريخ في وجه خمسة ملايين فلسطيني اقسموا وتعاهدوا وتواعدوا على ان تكون لهم فلسطينهم الخاصة، أسوة بانغولا الانغوليين واندونيسيا الاندونيسيين ونيكاراغوا النيكاراغويين وقبرص القبارصة!

هذه هي المسألة.

لا حسد ولا يحسدون.

لا يأس ولا من ييأسون.

لا إنابة ولا من ينوبون.

هذه هي المسألة.

شعب حقيقي يريد وطنه الحقيقي .. مكاتب سياحة .. شواطيء، منازل، مدارس وخريطة ملونة كتب فوقها بالخط الديواني، وربما بالكوفي :(اهلا بكم في فلسطين) (فلسطين ترحب بكم) .. هذه هي المسألة.

«الاتحاد» ١٩٨٠

بلادي - تأريخ روحي
(عصر الجليد)

في البدء كنتِ انتِ واما بعد فالكلمات × وهكذا يقال ايضا إنك الاصل × منك يبدأ سواك جزءا جزءًا × الكلي ايضا يعود اليك × وانت البدء والاصل × أما أنا فالامتداد السعيد لانك اخترته × مبارك القلب الذي جعلت له عقلا × المجد للعقل الذي انعمت عليه بقلبك × اومن وأشهد أنك أنت البداية × ابدأ منك ولا انتهي.

كل كتبك تحمل اسمي كلمة اولى × وها انذا الجُ عتبة نورك فلتتقدس بك الكلمة الثانية × ولتتقدس كلمتك الخالدة وما من كلمة اخيرة بين ازلي وابدك.

أيتها المرأة الرجل × ايتها الشجرة الموجة × ايتها الرملة المناخ × تتجانس فيك المتناقضات وشد ما تناقضت عناصرك × قبل الجليد بكثير وبعد جز النواصي واللمم × اخيتِ الزمن وكنت ابدا غزالة التاريخ النافرة × أسميك الهامي وخبزي أسميك وردتي وكآبتي. وادعوك الشهوة جهارا × يا التي في حالة السهل وفي حالة الجبل تحتفظين بجلالك. يا التي يمسح كبرياؤك صور الملوك والقياصرة وامجاد الاكاسرة والمغامرين.

يا التي تجرّين ذيل طيلسانك على الاضرحة والقصائد وعلم الآثار. كيف أسميك مرة اخرى؟

اغنية مسمارية على الواح الاجر × ذلك هو فلك القديم وقبل الجليد وقبل الماء والنار والتراب وقبل الهواء بكثير × أيتها السيدة الام أيتها العذراء الغلام × كيف أسميك مرة اخرى؟

قصاري جرأتي أن أحبك × وأن أمقتك غاية طموحي × لا تنظري الي × لا تنعطفي عن مدارك المخيف لا تتنازلي عن عصيانك.

اكونك كما تشائين × تكونينني كما اشاء × سيان عندك السخط والرضا × سيان عندي النور والظلام لانك الاصل × لانك الاولى والثانية والابدية ..

منذ فجر التاريخ تعشقك الحواة والسحرة × كنتُ نطفتك وحدك تعلمين اي اله كان ابي

اصغي قليلا ايتها القديسة الفاسقة × اصغي قليلا لتسمعي هدير دمك في عروق جسدي اصغي قليلا ولا تنظري الي × لا تعتذري عن خيولك الجامحة.

حليب نهديك على شفتي × بدني في احشائك وانني لارتعش عبادة وضلالا × وكم بكيتك جثة مغتصبة على قارعة السبيل × خانا للغزاة × مقبرة للانبياء والصديقين × كم بكيتك اناء خزفيا مهشوما تحت سنابك الخيل × قنطرة عالية في الليل والمطر × مدخنة ولادخان حقلا ولا سنابل × بيتا ولا اهل × شجرة ولا ثمر × كم بكيتك وكم رقصت غبطة بين يديك مطلقا ذراعي في زوايا بخورك × عاريا سائبا في قطيفة سمائك × كم صليت اغنياتي الجارحة محرجا حساسينك × كم حدجت نسورك من علياء فرحي × مبايعا دهشتي هاتفا بكل جوارحي :سمعا وطاعة. أنت الاصل × عندك يبدأ كل شيء وما من

نهاية.

أحبك بلا يقين لان لغاتك كثيرة × أحبك فماذا افعل بلغتي الوحيدة هذه أيتها الطفلة اللعوب × ايه أيتها النبية الفاجرة × ايتها العجوز الشمطاء الفاتنة الى الابد × انذا أشيب وأحبك × تداهمني العلل وأحبك × تتساقط اوراق روحي واحبك × أمقتك وأحبك × أحبك وأحبك

في البدء كنتِ× وفي الختام × يمامة من صبوات × لاعجة للحجر وياقوتة للتاج × حملك الجبابرة على صهوات جيادهم وتناثروا شررا تحت قدميك.

الزينات والشعائر كلها لك × والناووس انت، ام حنوطهُ؟ يا شجرة العائلة × ما اطيب حسرات مريدك × ما اطيب ثمراتك.

قولي حتى اكون فماً لك × واصمتي حتى التقط انفاسي × وليكن النهر والكثيب شاهدَي زواجنا.

عصور - منيهة تنزلق عن خاصرتك وتواصلين السير بخطى الهية على سجادة العشق حيث أصطف صرعاك ميمنة للحكمة وميسرة للجنون.

شتاءٌ على القلب فلتهدر العاصفة وليتحلّق الاطفال الموعودون بحكاياتك الخارقة أيتها الجدة الطيبة × ولينتشر دفء يديك أملا للتعساء وخبزا للمساكين اليتامى.

ربيع في الذاكرة × تتقمصك الفراشات × ترتعش الورود في عظام الموتى وفي مسام الزمن × ولينفجر العبق الترابي في ارواح معاميدك.

صيف على الاكتاف × وانني لانوء باثقال شهواتك يا امرأة البساتين يا مليكة النحل الابدية.

خريف في الروح × فانظريني × خذي بيدي قليلا × ارجئي

سخطك وافتحي نافذة واحدة على متاهات جرحي الشاسع هذا × خريف في الروح وكم افتقدك.

سابرأ من جذامي × سانطق على ركام دهوري البكماء × لو لمست قلبي فقط بسريرة اقداسك سابرأ وسانطق.

أنذا اهبط سفح الجبل، ذاهلا عن تحرشات القندول، متسامحا مع البلان الساذج، لانك هناك، برقوقة وحيدة تنطف دما لاذعا على خرائط الكون وقواميس اللغات.

أقول أحبك وأخجل × ماذا لدي لاعطيك أيتها المانحة المانعة × مباتك قناديل وما أشد حلكة ليلي حين تحبسين نعماءك.

أقول أحبك واتهاوى: ما اعظم خطيئتي! ما امر كفري! ما اقسى جحودي!

أقلّب صفحاتك واقرأ الغابات العملاقة. اقرأ في شغف جارف × وقبل تهويمة الاعياء بكثير تأتيني جلبة الوحوش الراكضة في جنون الخوف نحو الآفاق المسدودة بالبراكين والهزات الارضية المتعاقبة × ها أنذا أرى الى قطعان الايل المتهاوية من حافة الجرف المفاجيء × ها انذا اسمع زئير الاسود الساقطة في فضاء الطبيعة الساخطة × ولتنهمر دموعي ودموع ذراري على جبال الجليد المتلاشية امام البصر الزاحفة على اطرافك نحو اعماق المحيطات المجهولة × وداعا ايتها الغابات الغائمة في اغوار الارض وداعا ايتها الطيور والافاعي وداعا يا ذئاب السهوب ويا بنات آوى المصعوقة بالرعب × وداعا ايتها الفيلة والسلاحف × وداعا يا صخب الادغال المفعم نُضرة أيها المزهو بالالوان أيها المتكبر بهدير انهارك ..

وداعا يا خُضرة النعناع البري × مرحبا أيتها الصحراء × مرحبا أيها الربع الممتلىء الخالي × مرحبا ايها الكل الذهبي × أيها الذهب ×

أيها العسل مرحبا ايتها الصبية البدوية السمراء.

في لحظة الكشف اكون عرافك × انثر نجومك على قطيفة السماء × ينبلج نور الحق والهداية واصيح في بهرة الوجد: ويل لي كم أحبك..!

اليوم السابع/ ٨٥

كلمة في مؤتمر الادباء العالمي في صوفيا
٢٨-٣١/١٠/١٩٨٦

أيها الاصدقاء الاعزاء

"شعر المستقبل" هو الموضوع الذي اخترته من بين المواضيع المطروحة على جدول ابحاثنا في هذا اللقاء المحترم. ومن بعد اذنكم فساقلب الموضوع رأسا على عقب، وعوضا عن "شعر المستقبل" فسأتحدث عن "مستقبل الشعر".. وهذا يعني "مستقبل الشاعر" وأكثر من ذلك فهو يعني مستقبل الشعراء جميعا، الشعراء والقراء وعمال الطباعة ودور النشر، وبعبارة مباشرة ومقتضبة، مستقبل البشرية جمعاء.

واغفروا لي القول ان الحديث عن "شعر المستقبل" هو ضرب من الرفاهية الثقافية التي يتسلون بها في اوساط الادب الهشة والمبلبلة التي اصطلح بعض النقاد على تسميتها باوساط الأدب البورجوازي.

إن هؤلاء السادة مشغولون كثيرا بالبحث،في دور التكنولوجيا الثقافي وامكانيات انتاج الشعر والموسيقى بواسطة الكمبيوتر وقد انتجوا بالفعل شعرا "الكترونيا" وموسيقى الكترونية ولوحات الكترونية وتدل افلامهم السينمائية والتلفزيونية على انهم يحلمون بانتاج الانسان الإلكتروني الكامل.

لا شك في مشروعية الحلم الفني والعلمي، الا اننا نريد للحلم ان يكون قائما على العلاقة بالواقع وليس على التهرب من هذا الواقع. ففي الوقت الذي يعاني فيه الملايين من البشر مآسي الموت جوعا وامراض فقر الدم والتشوه الجسماني يصبح الحلم بالطعام لكل فم أجمل الاحلام واكثرها انسانية.

وحين يحلم هؤلاء السادة بامكانية ابداع قصيدة الكمبيوتر، فانهم مطالبون بمتابعة احلام انظمتهم السياسية التي تدرس بجدية امكانيات ابداع الموت بواسطة الكمبيوتر ذاته.

شعر المستقبل. او مستقبل الشعر، او أية صيغة اخرى لا تعفينا من واجب مواجهة الحقيقة الكبرى التي تنشر جناحها القاتم والهائل على عصرنا هذا برمته: الحرب، الارهاب، العنصرية، الجوع، التلوث.

ماذا عن الحرب؟ قبل فترة وجيزة كانت قمة ريكيافيك بين القطبين العالميين غورباتشوف وريغن. وفي الوقت الذي مارس فيه الاعلام الغربي او ما يسمى ب"العالم الحر" لعبة خلط الاوراق والبلبلة وتوزيع المسؤولية على الطرفين بحيث يبدوان وكأنهما يشكلان معا بالتساوي الخطر المشترك على الجنس البشري، فقد اتضح للمراقبين الجادين، مرة اخرى، ان اللقاء لم يكن سوى مواجهة واضحة بين قطبين واضحين، قطب السلام السوفييتي وقطب الحرب الامريكي. وتأكد مرة اخرى ان الادارة الاميركية ماضية على نهجها المرعب، وغير مستعدة للانصياع الى نداء العقل والضمير، وجاء التفجير النووي في صحراء نيفادا وابعاد الدبلوماسيين السوفييت دليلا اخر على خبث النوايا لدى حكام واشنطن.

لقد تسرب الينا عبر وسائل الاتصال ان السيد رونالد ريغن يقضي كثيرا من وقته في مشاهدة افلام الكاوبوي الرديئة التي قام ببطولتها

في شبابه، واعلن هو شخصيا اعجابه الشديد بافلام سلفستر ستالوني المثيرة حين هددنا نحن العرب بان يرسل الينا بطله الخارق السوبرمان رامبو لتأديبنا لعدم خضوعنا لاملاءاته. ولعل العاب الحرب الالكترونية التي تروجها الصناعات الاميركية بين اطفال الولايات المتحدة والعالم، الالعاب التي اثارت موجة من الاحتجاج في امريكا نفسها لانها تشوه نفوس الاطفال البريئة، لعل هذه الالعاب الالكترونية هي التي اتلفت عقل السيد ريغن وشوهت نفسه وجعلته يتشبث الى هذا الحد ببرنامج "حرب النجوم" المخيف. وهنا نجد انفسنا أمام معضلة اخلاقية تربوية. لقد علمنا اهلنا على محبة الاطفال واحترام الشيوخ، الا انهم لم يعلمونا كيف نتصرف مع شيخ طفل. رجاء يا مستر ريغن، لا تورطنا اكثر في هذه المعضلة.

وماذا عن الارهاب؟

إن دوريات الاساطيل الاميركية ومناوراتها في اعالي البحار وقبالة السواحل الليبية وقصف غرف النوم في ليبيا وتونس وضرب القرى اللبنانية المسالمة بقنابل حاملة الطائرات نيوجيرسي، التي تزن كل قنبلة منها طنا ونصف طن من المتفجرات، واجتياح جزيرة صغيرة اسمها غرينادا، وعمليات التخريب في نيكاراغوا وكوبا واغتيال الزعماء والقادة الوطنيين، كل ذلك يعتبر اعمالا عسكرية نظيفة ومشروعة اما الساندينيستيون والفلسطينيون واللبنانيون والموزمبيقيون والكوبيون والليبيون فهم جميعاً ناس رضعوا الإرهاب مع حليب أمهاتهم ويجب تأديبهم في حظائر الشركات الاميركية الكبرى.

وإقدام السيدة الحديدية مارغريت تاتشر على اجتياح جزر ملفيناس الارجنتينية التي تبعد عن انجلترا الاف الاميال، هو عمل عسكري نظيف ومحترم. أما سورية فينبغي قطع العلاقات الدبلوماسية معها. سورية الارهابية هذه ترفض التهديدات الامريكية الاسرائيلية، ترفض التفريط بالشعب العربي الفلسطيني وحقوقه المشروعة، ترفض التسليم باحتلال مرتفعات الجولان وضمها الى اسرائيل، ترفض مخططات كامب ديفيد المهينة والمذلة .. يا لها من دولة ارهابية! وحافظ الاسد لا يريد اتخاذ جورج شولتس صديقا عزيزا مثلما اختار انور السادات هنري كيسنجر صديقا عزيزا حتى الموت رميا بالرصاص .. حافظ الاسد لا يريد ان يعدمه شعبه. يريد ان يعيش مع هذا الشعب وله، لذلك فهو ارهابي غير متحضر ويشكل خطرا على الكوكا كولا والسكوتش ويسكي.

اسف، نسيت أن اخبركم ايضا بان دييغو ارماندو مارادونا هو الاخر ارهابي خطير لانه هزم مارغريت تاتشر في العاب مكسيكو الاولمبية.

وماذا عن العنصرية؟

إن موقف الادارة الاميركية وحلفائها في ما يسمى ب "العالم الحر" وبضمنهم حكام اسرائيل. هذا الموقف يتجسد ببساطة في التعبير الامريكي المعروف: "انني اكره اشد الكره أمرين اثنين:العنصرية والزنوج"!

وماذا عن الجوع والتلوث؟

لقد حققت الشركات المتعددة الجنسيات والمؤسسات الاقتصادية الكبرى في العالم العبد للرأسمال والعدوان والاغتصاب، حققت ارباحا هائلة انعكست تلويثا للبيئة في العالم الصناعي وجوعا وموتا في ما يسمى بالعالم الثالث.

من اجل مستقبل الشعر وشعر المستقبل يتحتم علينا هنا ومن هنا ومن هناك ان نرفع صيحة الاحتجاج وقبضة التحدي: أعطوا أهل الارض حقهم من نتاج الارض، لا تجعلوا الامن الغذائي وسيلة للابتزاز السياسي. ارفعوا يد الارهاب الامريكي-الغربي-الصهيوني عن شعوب العالم وفي مقدمتها الشعب العربي الفلسطيني المناضل من اجل حقه البسيط والاولي في الحياة الحرة والكريمة على تراب آبائه واجداده. هاتوا ايديكم لنقف صفا واحدا في مواجهة العنصرية وحروب الارض وحروب النجوم، في مواجهة الجوع والتلوث والتعصب.

تعالوا ننقذ الشاعر حتى ننقذ الشعر، ماضيا وحاضرا ومستقبلاً.

شكرا لاصغائكم.

بلادي - تأريخ روحي
عصر الرمل

هيذي انت × شمس ترقص على قرني جؤذر مجفل × برج من المجاهيل × يم من السوافي × هيذي انت × فلتمر القافلة بسلام ولتقترب تهامة × ولتملأ نعمة الطلع نخلة فارعة في الحجاز × هيذي أنت × ريح تصفر في قصب الواحة البكر الحانها المدهشة × وأقول إنك راحة مخضوبة بالحناء تظلل عينين حالمتين على كثبان نجد× واقول انك فولاذ يُضرب مهندا يمانيا × واقول هيذي انت × خفّ ينغرس في العروض × قلب يخفق بالوجد × قافية تنبض بالجوى × هيذي انت: بائدة - عاربة - مستعربة.

أي يعرب النابت من قحطان

أي عدنان القادم من اسماعيل

هيذي وانني لاخاطبها: مكنيني منك اخصبك عد رمال البيد وكواكب السماء، عادا وثمودا، طسماً وجديسا، عماليق واراما × مكنيني منك × ايتها الانثى الانثى الانثى × انذا افلح الزمان والمكان × يباركني رحمك وتباركك ثماري × اي بضاضة النعمة، نعمى الترف، ترف الشهوة × اي شهوة الروح والجسد × مكنيني منك انذا افلح الارض والتاريخ × اشهر بداوتي لوحا للجسد × وارفع حضارتي ميثاقا

للروح × تمكني مني × لاكون سيد الكائنات والاقاليم.

صحراء × بين الصقيع والبرودة، ابد من التكوينات الخارقة × بين الهجير والدفء تتكامل طقوس التحول السحيقة في الولادة والموت والولادة × فانظري في احوالك × وكوني على بينة من أمري × هوذا عصر الرمل وزمن التفاعلات المدهشة عمقا وامتدادا × زمن الدفء والنقاء زمن النخيل والهوى العذري × هيهيا بني عذرة! واحد سركم احد× هيهيا بني عذرة! لا تخذلوا نساءكم. ها هم الغزاة على المشارف، وللجسد تقاليده × فامتشقوا الرغبات واغتسلوا فيما بعد × ها هي اللغات قادمة على مهوات الجياد الجامحة، ولا وقت للهدوء × حلم صغير يكفي × لا وقت للملوك الضليلين× لم تضيعنا امهاتنا صغارا فلنحمل دماءهن من ازل الى ابد × ولننثر خصب كثباننا وروح الخماسين على برد القارات الشاسعة!

لنعد قليلا الى مشارف الواحة × ولندع السيوف آمنة في اغمادها× مَن ذلك القادم في الهجير؟ شبح زائغ في البيداء، لا نجاد ولا مهند، لا عصا ولا سنان × فلنخرج اليه خفافا بقطرة ماء وكسرة خبز..

- من انت ايتها السيدة الام؟
- "هاجر" المهاجرة من بلاد الله في بلاد الله الى بلاد الله، باحزاني ولوعتي وهذه المضغة البائسة!
- لعله ولدك. ومن ابوه؟
- لا اب له سوى هذا المدى السحيق.
- وما شانكما؟
- ما تراه هذه البادية يكون شاني. اما شانه فما ترونه انتم
- وكيف يدعوه الناس؟
- قيل له "اسماعيل" وناديت فلم يسمع "بعل".. ونادى ولم يسمع

"ايل".. انتم سمعتمونا فبوركتم.. وجادكم غيث السماء وماء الاديم.
وماذا بعد؟

- لعلك غاربة ايتها الغريبة؟ أما هو فيكون ابانا ويكون ابننا ويكون لنا جدا وحفيدا × قدمتما اهلا ووطئتما سهلا ايها النازحان الطارئان.

وبعيدا في اقاصي الشمال تضحك "سارة" ويبكي "ابراهيم" × ويمر "ملائكة الرب" بسلام على بضاضة الجسد الجائع مثنى وثلاثا× وتضحك "سارة"، ويصمت ابراهيم × وتبتدىء الاسطورة اكذوبة خالدة في الايمان المطلق.

اين انت يا "هود"؟

يا "صالح" اين انت؟

لا بد من رؤيا خلف الرؤيا × لا بد من روح متناسق مع هذا الجسد الممتلىء × دم كثير في الشرايين. يغلي فمن يفصد؟

هيهيا قيس وعبس

يا حذيفة ويا ذبيان

يا داحس ويا غبراء

هيهيا خطار ويا حنفاء!

كثيرا من الدم × كثيرا من الدموع والعرق × وكثيرا من الدم × ثمة نخلة في ارباض مكة تحلم بقطوف جزيلة من التمر. ثمة بطون وافخاذ وقبائل شتى، كفافها قصعة من لبن الناقة، وحفنة من حشف.

أما الرطب فللالهة × واما الالهة، فلأيام السغب واللغب، لايام الحزن الكافر الممض.

إنه عصر الرمل × عصر الشمس المحرقة واعمدة الزوابع الكاسحة × عصر الغضب واليباس × جفاف في السماء × ضروع للجفاف × شفاه

مشققة وقلوب × تضيق الاحداق المحمرة، ترتفع عاليا وما من مغيث.
لا عنقاء ولا طائر رعد × اما السنونوّة فبعيدة جدا × تحوم على الهلال الخصيب بانتظار المعجزة القادمة من ركام المستحيل.

ايل × بعل × لات × عزّى .. وماذا بعد؟

لا مطر ولا شجر × فليخرج القوم للاستسقاء × لتهدر الجموع بصلواتها الشحيحة للسماء الشحيحة في الزمن الشحيح.

من كل الجهات كلها والى لا جهة × نقع وجلبة × ظمأ وذهول × هوذا عصر الاستسقاء × فاين انت ايها الغفاري المتمرد؟ اين انت يا ابا ذر؟ لم لا تخرج في قومك؟

- انا لا استسقي الحجر الصلد!

- اتقعد والناس قيام؟

- لن اقعد × ها انذا ماضٍ في سبيلي × فلقد نما الي نبأ عظيم عن رجل في مكة ..

دخان بلا نار
نار بلا نور!

لا أصعب من أن تكون شاهدا غير مدعو للادلاء بشهادته. ولا اصعب من ان تدلي بشهادتك للخواء .. لا قضاة لا محلفون .. ولا دفاع. النيابة وحدها تتكلم. النيابة تطالب بانزال اقصى العقوبات. النيابة تصدر الحكم وتتخذ الاجراءات على هواها. اما انت فالشاهد الضحية، الشاهد غير المدعو، الشهادة الخواء.

لا اصعب من ان تكون فلسطينيا امام محكمة الرأي الدولية .. تشهد جريمة اغتيالك لحظة بلحظة وجرحا بجرح وتصرخ الما فلا تسمع سوى صرخة التشفي القادمة من منصة النيابة. النيابة وحدها تتكلم. ووحدها تحدد العقاب ووحدها تختار صيغة موتك مرة اخرى.

وبغض النظر عن مصادر الصعوبة، بغض النظر عن فضائح الاعلام العربي التي قدمت رأسنا للاعلام الصهيوني، على طبق من فضة الوهم وذهب الرعونة، بغض النظر عن ضلوع الاعلام الغربي الرسمي في خدمة الدعوى الاسرائيلية، بغض النظر عن كل هذا فانه يظل من حقنا ان ندهش ازاء الحصيلة النهائية التي تطرحنا على جدول ابحاث العالم باعتبارنا مخربين ارهابيين غير مرغوب فيهم.

كان من حقنا ان نبتلع السنتنا دهشة في غمرة عدوان الخامس

من حزيران ١٩٦٧ يوم حققت اسرائيل نجاحا باهرا في الظهور بمظهر الضحية بينما هي تمارس مهنة الجلاد في ابشع صورها.

آنذاك تدفق "المتطوعون" الاوروبيون "لحماية" اسرائيل من "العرب الموشكين على القائها في البحر" بينما تمتد اذرعة اسرائيل "المسكينة" بكل ما اوتيت من فولاذ وجشع ترابي، لتسحق القوة العسكرية العربية "الجبارة".. وتنشر ظلها الثقيل فوق مزيد من الارض السائبة.

وانذاك كان الاعلام الاسرائيلي متالقا في دور الحمل على مسرح الاحداث الامر الذي بلبل كتيبة باكملها من رجال الفن والفكر في العالم، لا سيما اولئك الذين كان لهم قسط ملحوظ في معارك الدفاع عن حرية الانسان وكرامته من امثال جان بول سارتر وجون بابيز وجين فوندا وايف مونتان وغيرهم من الاعضاء البارزين في نادي سقوط الشرف الانساني، وراء ستار من دخان الدفاع عن الشرف الانساني.

قل لي يا فرعون، من فرعنك؟

ها هم نابر الحكم في اسرائيل على دين ملوكهم في واشنطن. فالولايات المتحدة التي فرعنها عربها فاخذت تكيل لهم الاهانات بمناسبة وبلا مناسبة هي المثل الاعلى لمريديها واتباعها في اسرائيل.

واذا كانت واشنطن قد "شلطت" على العرب وعلى الرأي العام العالمي وعلى رجال الفن والفكر، فلماذا لا "تشلط" اسرائيل ايضا؟

لقد شاهدنا هذا "التشليط" الاسرائيلي قبل ايام حين اتضح ان القوم ما عادوا بحاجة الى ستار الدخان الاعلامي فالقوا على ميكيس ثيودوراكيس قنبلة من الدخان وهو في "حرم" هيكل الثقافة التل ابيبي.

ستار من الدخان، ودخان بلا نار، هذا هو الاعلام الإسرائيلي القديم. اما جديده فهو نار بلا نور. نار تحرق اصابع مشعليها ولا تتيح منفذا لوجه الحقيقة.

وماذا نحن فاعلون؟ ماذا سنقول لميكيس ثيودوراكيس الذي رفض تسجيل اسمه في قائمة اعضاء النادي اياه، نادي سقوط الشرف؟ وماذا سنقول لرجال الفكر والفن في هذا العالم الكبير والمبلبل؟ كيف نضمن لانفسنا مكانا لائقا على منصة الشهادة؟ متى نجُرُّ العالم من انفه ونرغمه على التمييز بين الضحية والجلاد؟ متى؟ كيف؟ اين؟

احباءنا
لحمنا ودمنا
عرسان الحركة الوطنية في لبنان وعرائسها

من اعالي الجليل والكرمل، من هضاب المثلث وكثبان النقب، من برتقال السواحل وزيتون السهول والاودية، من ازهار البرقوق البرية التي يستعيرها الدم وتتقمصها شهوة الحياة وفتنة الحرية، من تلال السنديان النازفة على جرافات المستوطنين، من القناطر الباقية في انقاض القرى المفجوعة، من شواهد القبور المحاصرة بالاسلاك الشائكة.. ثم أخيرا واولا، من مئات الوف القلوب العامرة بعبادة الوطن وقداسة المستقبل، من كل هذا وبهذا كله نزفها اليكم أيها الاخوة والاخوات تحية الابناء الذين لن تاكلهم ثورتهم الى الثورة التي لن تأكل ابناءها.

من انتم؟ ماذا تريدون؟ ومتى بدأتم؟

إنها تساؤلات العالمين علم اليقين، الواثقين ثقة الحق. نعرفكم لاننا نعرف انفسنا، وندرك ما تريدون لان امهاتنا ولدتنا احرارا. ونعلم متى بدأتم لاننا شهرنا سيوفنا وخرجنا على الناس مع الغفاري المعدم سيدنا ابي ذر. وصدق القائل ان التاريخ يعيد نفسه مرتين: مرة على شكل مأساة وثانية على شكل مهزلة. وقد كانت المأساة في

لبناننا الرائع العظيم يوم تألبت قوى الشر والظلام على ذلك الفلاح الثائر طانيوس شاهين لتطفيء فيه شمس العدالة والحرية والكرامة التي ارادها مشاعا لكل لبناني. يومذاك افرز الزمن شخصا يدعى الخواجه حبيب كان همه التقويد للكولونيل تشرشل جاسوس بريطانيا الباغية في بلاد الشام. ومن عاميات القرن التاسع عشر الى عاميات القرن العشرين، ويظهر خواجه اخر يدعى فيليب حبيب (هل تذكرونه؟) كان همه التقويد لرعاة البقر في واشنطن وعبيدهم في تل ابيب. وتتكرر المأساة- الملهاة ويتكرر يوضاس. اما بيروت الانسانة الالهة فتستعصي على شهوات الهمج الغزاة وازلامهم وافزامهم، وينتفض لبنان من رماده الحار عنقاء عربية خالدة من ازل الى ابد.

هؤلاء انتم- هؤلاء نحن، اخوة في الهم، اشقاء في الحلم، ورفاقا في الكفاح.

اخوتنا واخواتنا

لحمنا ودمنا ومستقبلنا

معركة لبنان هي معركتنا ومصير لبنان هو مصيرنا. فقد كنا، ما زلنا وسنبقى دعاة وحدة. ووحدة الامة والوطن تعنينا قبل وحدة الانظمة. نحن أهل القاعدة ولنا حساب طويل وعسير مع أهل القمة. ومن هذا المنطلق نناشدكم الوحدة، بين اللبناني واللبناني، بين اللبناني والفلسطيني وبين الفلسطيني والسوري نناشدكم باسماء الشهداء القديسين واحدا واحدة ان صونوا أمانة فلسطين المودعة في اعناقكم، ابناءها اللاجئين العائدين، ضيوف الرحمن في بلد الرحمن، لا تشمتوا بكم وبنا عدوا في شكل عدو وعدوا في شكل صديق.

احبونا كما نحبكم. انزعوا الاقنعة عن سحنة الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس واقطعوا دابر الفتنة وتدبروا امر المحنة.

أيها الناس يا اهلنا في الشمال لصق القلب والرئتين، ثمة من يحاول في بلادنا ان يخرس قلوبنا ويسد رئاتنا، انها الفاشية المتسيبة التي تتهدد اخضر اليهود قبل يابس العرب وكل نصر تحققونه على صهاينة الداخل والخارج هو نصر لنا على قوى العنصرية والتوسع والخراب، وما أنتم بوحيدين في جبهتكم ولا نحن بمقطوعين من شجرة. ان شعوب العالم التي تحررت من نير "العالم الحر" وفي الطليعة منها شعوب الاقطار الاشتراكية وحركات التحرر القومي والاجتماعي والشرائح السليمة في العالم الرأسمالي نفسه، كل هذه الطاقات المباركة تشكل الظهير الامين والسند الصادق والعمق الاستراتيجي لقضايا امتنا العربية العادلة. نحن عدالة التاريخ وحتميته وسينتصر شعبنا في لبنان وسينتصر شعبنا في فلسطين وستنتصر ارادة الحق ومشيئة السلام.

أماما وأماما وأماما

دائما وابدا حتى منبلج النور

«الرامة» ١٩٨٥/٩/٩

شو يعني عربي؟

حاولت صياغة هذا العنوان بالفصحى على النحو التالي: "ماذا يعني العربي؟" ولاحظت على الفور انه لا يفي بالغرض، ذلك ان صيغة السؤال بالعبرية (هارتس ٢٩-٥-٨٦) تحمل معنى الاستخفاف واللامبالاة الى درجة الاحتقار، "شو يعني عربي؟" هكذا افضل.

والموضوع وما فيه ان مواطنا اسرائيليا صالحا جدا لهذه المواطنة يستغرب، في رسالة الى صحيفة "هارتس" الرصينة كما يقولون، اثارة الضجة ضد رئيس قلم المخابرات لا لشيء الا لانه متهم باصدار الاوامر لقتل اسيرين فلسطينيين.

ويقول هذا المواطن ببرود اعصاب نموذجية: لو انه متهم بسرقة الف دولار او بفتح رصيد في احد البنوك الامريكية لما وقف احد الى جانبه. أما اذا كانت المسألة تتعلق بعربي ميت، فشو يعني عربي؟

ويذكر هذا المواطن الصالح ارباب السلطة وذوي الشأن بأن مئير كهانا أنما ينفذ ما يفكرون هم به.

ولنعد قليلا الى مواطن اسرائيلي صالح أخر هو اريك شارون. ففي حينه ثارت حوله ضجة مماثلة بدعوى إنه أمر جنوده في حرب ١٩٦٧ "بلا اسرى!" ولا حاجة للشرح فهذا الشعب اللبيب اصبح

يفهم من الاشارة وعلى الطاير ما يدور على لحمه وارضه ودمه ودموعه من فظائع لا تعد ولا تحصى.

كالعادة تهدأ الضجة وترتاح الضمائر. أما القتلى فلهم الله ودموع امهاتهم.. وعلى كل حال شو يعني عربي؟.. وما دمنا قد ذكرنا الرابي الكاشير مئير كهانا فلا بأس من ايراد "النكتة" الاسرائيلية الجديدة.

تقول "النكتة" من يريد الانضمام الى حركة كاخ بقيادة مئير كهانا يتوجب عليه ان يقتل عربيين وقطة!.

اين النكتة؟!

في تساؤل المستمعين الكرام: قتل العربيين مفهوم ولكن لماذا القطة؟!

هل فهمتم؟ ستفهمون، ومن لا يفهم فسيُقتل، وستظل القطة أهم منه ومن ابيه وامه، والسلام عليكم.

لا لم انته بعد فلا بد من كلمة للجماعة اصحاب نظرية "شو يعني عربي؟"

من يحمل مثل هذه النظرية لا يحق له اطلاقا ان يتلمظ ويثرثر حول الارهاب وحماية المدنيين وطهارة السلاح لانه سيجد بالمقابل من يقول له: شو يعني يهودي؟!

وشلوم عليخم...

«الاتحاد» ٢ حزيران ١٩٨٦

ابعدونا .. نقترب

الجنراليزيمو فرانكو، ديكتاتور اسبانيا النافق، راقد على سريره المذهب. إنها ضجعة الموت المقترب بخطى ثقيلة على ايقاع القلب المريض. حشود من الشعب الاسباني تطوق قصر الرعب، كانما لتمنع الموت من مغادرة المكان الا برفقة ذلك الرجل الكابوس الذي اطاح باحلام اسبانيا دفعة واحدة وبلا رحمة. يلتقط النمر العجوز شيئا من لغط الجماهير فيسأل افراد حاشيته دون أن يستطيع النظر اليهم:

- ماذا يجري خارج القصر؟

ويهمسون برفق: إنها الجماهير يا سيدنا. جماهير شعبك المحتشدة لوداعك!..

وعاود عدو الشعب النموذجي سؤاله:

- جماهير الشعب تودعني. والى اين ستسافر جماهير الشعب؟ ..

في كل قطر عربي هناك جنراليزيمو فرانكو صغير. صغير حقا الا انه فرانكو حقيقي.

هؤلاء الفرانكويون العرب الصغار - الملك الصغير والرئيس الصغير والوزير الصغير ورجل المخابرات الصغير والموظف الصغير الصغير - الذين يكابدون سكرة الموت السياسي - رغم نفطهم

وعسكرهم وامريكتهم وإسرائيلهم - يؤمنون كما يبدو بان جماهير شعوبهم قد سافرت حقا، ولم يبق في ساحة الدار سوى ذلك الولد العفريت المشاغب والذي يسمى بالشعب العربي الفلسطيني. وهؤلاء الديكتاتوريون العرب الصغار لا يرون مبررا لبقاء هذا الولد المشاغب (اقرأ الشعب المناضل) الذي يقلق راحتهم ويشوش عليهم تلك الاورجيا القذرة التي يمارسونها مع ملك الايدز والمافيا فرانكو الامريكي الكبير وبداديقه السياسيين في "اسرائيل" الاسرائيلية واسرائيلات العرب من المحيط الى الخليج.

ولان الشعب الفلسطيني يرفض السفر الا باتجاه بوصلته الخاصة المؤشرة دائما وابدا باتجاه القدس فان هؤلاء الصغار يتعمشقون المهمات الكبيرة- المهمات الكبائر- ولا يجدون غضاضة في اصدار اوامر الابعاد والنفي والاغتيال.

مرة اخرى يخطئون الحساب ومرة اخرى يتورطون مرتين: مرة مع شعبهم (الذي يبدو انه لم يسافر!) ومرة مع الشعب الفلسطيني الذي قرر ان يختار بنفسه تذاكره ووسائط نقله ومحطته الاخيرة ..

فالذين اغلقوا المكاتب الفلسطينية في عمان لم يكن في مقدورهم الا ان يغلقوا جامعة اليرموك والذين ابعدوا القائد الفلسطيني "ابو جهاد" ورفاقه لم يكن في مقدورهم الا ان يبعدوا رئيس جامعة اليرموك وخمسة عشر استاذا من زملائه الذين قرروا ان يعلموا العلم لا ان يعلموا الخيانة !.

إن اعظم ما في الشعوب هو قدرتها الخارقة على الحلم. واعظم ما في الشعب الفلسطيني هو قدرته الخارقة على الحياة، هذه القدرة المجربة والمضمونة والمكفولة الى دهر الداهرين، والتي اصبحت بارادة الشهداء وعنفوان المنذورين للشهادة، طاقة هائلة لتوليد الحلم

المشرق الحي الاخضر والشاسع لدى الانسان العربي الصامد في كل شيء والصابر رغم كل شيء والمهيأ حتما لاسترداد هويته ووجهه ويده ولسانه.

ويا أيها الديكتاتوريون الصغار، يا شيوخ القبائل المنصوبين (لا المنصبين)، ولاة من ابواب العدو العالية! لقد اغلقتم بايديكم ابواب التاريخ في وجوهكم، وابعدتم انفسكم مختارين طائعين عن كل ما يمت بصلة ما، اية صلة، الى اشد القيم العربية سذاجة واكثرها اصالة. فماذا انتم فاعلون بلعبة ابعادنا الدموية هذه؟ ..

ابعدونا .. نقترب. لانكم انتم ولانكم ما انتم فلن تستطيعوا غير ابعادنا. أما نحن فلا نستطيع الا ان نقترب ونقترب. لا خيار امامنا سوى إن نقترب. انه الوطن انها الحرية انه الصراط المستقيم. انها القدس، قاب أبعاد وادنى. قاب مجزرة وادنى. انها القدس. من هناك نخاطبكم ومن هناك نمد ايدينا ونفتح نوافذ الانسان وابواب الشمس.

«الاتحاد» ١٩٨٦/٨/١

ماركس - العقدة والحل

كان امرا طبيعيا للغاية ان طالبا فلسطينيا في مدرسة ثانوية نصراوية يعتبر نفسه مشروعا حقيقيا لشاعر طليعي وسياسي ثائر، يتلقف بلهفة صارمة كل ما يبدو له هاما وضروريا من أجل تحديد مساره الشخصي في تيار العمل النضالي لصالح قضيته المحرقة وضد اعداء شعبه ووطنه.

في اواسط الخمسينات كنت انا ذلك الطالب او واحدا من هؤلاء الطلاب. انذاك لم اقرأ "رأس المال". اتيح لي ان اقرأ تلخيصا للكتاب بدا لي معقدا انذاك وبقدر ما انكر فان مفكرا باسم الدكتور مصطفى هيكل هو الذي وضع ذلك التلخيص.

بيد ان قوة الجذب الهائلة بالنسبة لي آنذاك تركزت بشكل يكاد يكون دينيا، في الظاهرة العملاقة التي اوقفت الانسان العربي على ساقين قويتين فوق ارض صلبة في تلك المرحلة المفعمة بالحماس والحلم، اعني ظاهرة جمال عبد الناصر. واعترف ان قامة الرجل امتدت امامي من المحيط الى الخليج ومن الارض الى السماء الامر الذي حجب عن عيني لسنوات اي افق بديل واية رغبة في اكتشاف افق بديل. الا ان مطالعتي في اعمال اعمدة الماركسية لم تنقطع تماما واذكر ان اعجابي كان منصبا بدرجة اولى على فريدريك انجلز. لماذا؟ ربما لانه

اقل صخبا وكلاما من زملائه، وربما لانه كان نقيض ظروفه بقدر هائل. ويجب ان يكون اعترافي كاملا فاسجل ان العنصر اليهودي في شخصية كارل ماركس عرقل الى حد ما، وربما الى حد كبير، عملية التفاعل بيني وبين اعماله. كان هناك شيء من الشك وفيما بعد حين قرأت مقولة ماركس عن الشك العلمي ادركت مدى الخطأ الذي ورطتني فيه مشاعري رغم صدقها وعفويتها وبراءتها.

لم تكن الاشتراكية بالنسبة لي "فكرة ناصرية". لم تفاجئني الدعوات التي تفجرت انذاك الى الاشتراكية العربية والاشتراكية الاسلامية، فان تكويني النفسي والذهني والثقافي بكشل عام كان مشحونا بارواح علي وعمر وابي ذر الغفارى، وكان السبيل معدا ومضاءا امام الانسان العظيم ابي ذر الغفاري ليملاء وجداني حتى يومي هذا، وذلك لسببين أكيدين: اولهما تجربة الغفاري المذهلة على المستويين الشخصي والعام. وثانيهما، المكانةالدينية الخاصة التي يشغلها الغفاري في مذهب التوحيد (المذهب الدرزي) الذي تنتمي اليه اسرتي. ورغم ابتعاد اسرتي عن التعصب الديني فلا شك في أن أثرا من الجو الاسطوري الميتافيزي الديني ترسب عميقا في النفس وأسهم في احاطة الغفاري بهالته الخاصة. لقد قرأت كل ما كتب عن الغفاري او معظمه.. وما زالت تدهشني الحالة التي تصيبني لدى قراءة اي نص حول هذا الرجل.. حالة الحلم والصفاء الى درجة البكاء والبكاء المر احيانا

ما كان من المعقول ان يستمر المرء في مثل هذه الغيبوبة المثالية. فالزمن الاحداث وصروف الدهر كما يقولون، لا يمكن الا ان تفرض نفسها هي الاخرى. ويبدو انني كنت مهيأ للانتقال الى ما اصطلح على تسميته بالمرحلة الارقى او الاعلى. وكانت صاعقة

الخامس من حزيران ١٩٦٧ هي المفجر الكبير لبركان الروح والعقل وكان علي ان اختار بين كهف الصوفي وبين خندق جديد للمقاتل. وكان ماركس قريبا جدا ولم يحجبه عن عيني اية صورة عملاقة لان زنازين السجون الاسرائيلية الضيقة لا تتسع للاوهام العريضة الشاهقة. وفي احد هذه السجون اعلنت قناعتي الماركسية.

في اثناء عملي محررا لمجلة "الجديد" صدف ان وقع بين يدي عدد من مجلة "الطريق" وكان هناك نص جديد بالنسبة لي، من اعمال كارل ماركس وكان حول موضوع "الاستنكافية" واعجبت بالنص واعدت نشره كاملا في الجديد. ثم اتيحت لي الدراسة في موسكو وتعمقت علاقتي بالنصوص الماركسية لا سيما "رأس المال".

كما تلاحظ ايها الرفيق العزيز محمد دكروب، فقد تكررت كلمة الاعتراف في رسالتي هذه اكثر من مرة. واسمح لي ان اضيف اعترافا اخر لتبرئة ضميري ازاءك وازاء ماركس وازاء نفسي: في السنوات الاخيرة، وعلى ضوء مجريات الامور في عدد من الاقطار الاشتراكية، وعلى ضوء صيغ التفاعل العالمي مع مأساتي الفلسطينية فقد اخذت تشغلني بضع مراجعات وتساؤلات حول العلاقة الجدلية بين الماركسية في النظرية والتطبيق. ولعل بعضا من هذه المراجعات والتساؤلات حول ظواهر الثورة الثقافية في الصين وتقديس الشخصية في رومانيا وكوريا والانعزالية في البانيا والجمود العقائدي والطفيلية والانتهازية والتحريفية التي اسهمت في بروز ظاهرة ليخ فاليسا، اصبحت هما كابوسيا بالنسبة لي ومست باليقينية الجارفة التي تولد (او يولدها) الحماس البريء الى حد السذاجة احيانا.

في هذه الايام تبرز مرة اخرى مسألة "الشك العلمي" في قضايا عدة حول الحزب الشيوعي المعارض والحزب الشيوعي الحاكم، الحركة

الشيوعية واسرائيل، الحركة الشيوعية والعالم الرأسمالي، الحركة الشيوعية وحركات التحرر القومي، ثم قضية العلاقات داخل الحركة الشيوعية ذاتها. فحالة التشتت التي جعلت اكبر دولة شيوعية (الصين) حليفا موضوعيا لاكبر اعداء الشيوعية (الولايات المتحدة). "وحيادية" رومانيا "ولا مبالاة" البانيا والتفاوت داخل الاحزاب الشيوعية في العالم الرأسمالي كل ذلك يستدعي ما يمكن ان نسميه عملية اعادة نظر شاملة او عملية ترميم تاريخية.

عوضا عن مؤتمرات البحث والتنسيق في الشؤون الاقتصادية والسياسية الدولية فان حركتنا بحاجة ماسة للغاية الى مؤتمرات النقد والنقد الذاتي على المستويين الايديولوجي والتطبيقي. ان كنس الغبار تحت السجادة كما يقول المثل، لا يمكن ان يلغي الضرورة الملحة لعمليات جرد الحساب الجريء والمخلص والثوري فعلا.

قد يأخذ البعض من اخطار العدو الامبريالي الرأسمالي ذريعة لكم الافواه بحجة المسؤولية المرحلية. بيد إن المسؤولية المرحلية مرتبطة عضويا بالمسؤولية التاريخية ولا يجوز التغاضي عن اي خلل مرئي او شرخ عميق في النموذج الاشتراكي العلمي المطروح منذ عقود كبديل وحيد امام الجنس البشري.

إن البديل الماركسي هو بحق البديل الوحيد، وحتى يظل بديلا وحيدا بحق، فاننا مدعوون الى اقصى درجات الجرأة والمسؤولية في المراجعة والمتابعة وتطوير الذات بما يكفل تغيير العالم -هدفنا الانساني الثوري العظيم.

«مداخلة خاصة بمجلة "الطريق" ١٩٨٤»

عسكرة الثقافة في اسرائيل

"أكثر من مرة ترجمنا الى العبرية الحكمة العربية القديمة: النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله .. وأكثر من مرة حذرنا منتجي الثقافة الاسرائيلية من آلية الرقابة: يبدأ القمع ضد النتاج العربي ولا يتوقف الا على جثة النتاج العبري، وتفهم بعضهم وجهة نظرنا فهب ليدافع عن نفسه من خلال الدفاع عنا .."

" لا يتحملون مشهد طفل يذبح على المسرح، يستطيعون تحمل ذلك في الواقع فقط " !!.

من السمات المميزة للصهيونية إنها تتعامل مع الثقافة، تماما كما تتعامل مع قطع الغيار للدبابات ومع خرائط الاستيطان الكولونيالي. وفي "سبارطة العصر" التي هي اسرائيل لا تستطيع الثقافة الا ان تكون نقيض مضمونها في المجتمعات الاخرى، من الاكثر تقدما حتى الاشد تخلفا. ومثل هذا النموذج الثقافي هو احد اعراض انعدام الثقة بالذات، التي يمكن تشخيصها في كل بنية تقوم على التنافي الحاد مع العدالة والحق والصدق، بغض النظر عن الانتماء الطبقي والتاريخي لهذه المفاهيم.

وعلى طول الادبيات الصهيونية وعرضها تتيسر الادلة القاطعة

على حالة انعدام الثقة المزمن الذي تكابده هذه الحركة منذ نشوئها والى يومها هذا.

وارتكازا الى هذه الخلفية نستطيع تفسير الموقف الصهيوني العاجز عن تحمل اي نقد، الموقف المأزوم العصابي ازاء الحوار مهما تبلغ موضوعيته وحياديته. وهكذا نستطيع ان نفهم اقدام المؤسسة الصهيونية على وضع النقد الموجه اليها في خانتين لا ثالثة لهما:

١- اللاسامية.. وهي شتيمة جاهزة للرد على كل اجنبي (غوي) يجروء على تقريع اسرائيل او لومها او ابداء ملاحظة لا تروقها في هذه المسألة او تلك. ويبدو لي انه يكفي القول ان الطقس في تل ابيب رديء هذه الايام، حتى تجد من ينعتك باللاسامية!

٢- الكراهية الذاتية.. وهي شتيمة جاهزة للرد على كل يهودي يوجه لوما او شبه لوم الى هذه الممارسة الاسرائيلية او تلك.

أما خارج هاتين الخانتين فيبقى امر واحد مقبول اسرائيليا: كل شيء للجيش والجيدون للطيران .. وقد تكون موسيقيا عبقريا وكونك لا تصلح للطيران يعني ان موسيقاك شيء ثانوي وانك لست جيدا. لقد اصبح الجيش قيمة القيم وكتاب الكتب في اسرائيل وكم كان دقيق الملاحظة وذكيا ذلك الظريف الذي قال: كل دولة تملك جيشا أما في اسرائيل فالجيش يملك دولة!

ومن اجل الامانة التاريخية نسجل هنا ان التعبير الاكثر رواجا في اسرائيل هو تعبير "الامن". الا ان الامانة التاريخية ذاتها تقتضي الإيضاح بان للامن في اسرائيل مفهوما مغايرا تماما لما تعارفت عليه الشعوب والامم عبر التاريخ. فالاحتلال يبرر بالامن والاستيطان الكولونيالي يبرر بالامن والتمييز القومي يبرر بالامن والعنصرية

تبرر بالامن ونهب ما تبقى من الارض الفلسطينية يبرر بالامن والتعاون المفضوح مع جنوب افريقيا وسائر الانظمة المفرقة في الرجعية في اي مكان من العالم، كل ذلك ايضا يبرر بالامن. الامن هو البقرة المقدسة التي لا سبيل للمساس بها مهما يكن الثمن .. حتى ان شاعرنا الهازل "ابو الهول دمدم" زفرها مرة:

باسم الامن فقدنا الامن.

وصار الامن عدو الامن

وباسم الامن كانت الرقابة العسكرية على كل صغيرة وكبيرة في الحياة الاسرائيلية ومن البديهي الا تنجو الثقافة من عصا الرقيب العسكري ومقصه الرهيب.

بحكم البنية الايديولوجية (باهدافها السياسية- التاريخية المحدودة والمعروفة) فقد كانت الثقافة العربية، لا سيما ما ينتجه منها المقيمون في وطنهم المعروفون ب"عرب ال٤٨" وفلسطينيي الداخل، هدفا مباشرا ومكشوفا لعملية القمع الرقابية.

أكثر من مرة ترجمنا الى العبرية الحكمة العربية القديمة: "النار تأكل نفسها ان لم تجد ما تأكله".. واكثر من مرة حذرنا منتجي الثقافة الاسرائيلية من الية الرقابة في نظام كالنظام الاسرائيلي: يبدأ القمع ضد النتاج العربي ولا يتوقف الا على جثة النتاج العبري. وتفهم بعضهم وجهة نظرنا فهب ليدافع عن نفسه من خلال الدفاع عنا.

واستمر البعض الاخر في تبني موقف المؤسسة التي يشكل هو نفسه برغيا صغيرا في التها، مختارا الانتحار على الجبهة الثقافية تماما، مثل اولئك الذين اختاروا الانتحار على الجبهة العسكرية.. الانتحار الذي أجاد التعبير عنه اكبر روائيي اللغة العبرية عاموس

عوز.

عرفت الثقافة الاسرائيلية سلسلة من الفضائح الرقابية، معظمها في اطار التعامل مع الثقافة العربية الفلسطينية كما اسلفنا، وبعضها ضد اعمال عبرية "كشير" اي وفق المقاييس الدينية القوموية!.. وكان للكاتب المسرحي حانوخ ليفين القسط الاوفر من الملاحقة القمعية.

"هابتريوت" مسرحية ساخرة أسوة بسائر اعمال حانوخ ليفين المرة الدامية لشدة سخريتها وعمقها. وتتناول هذه المسرحية قضية الاستيطان اليهودي في الاراضي الفلسطينية المحتلة على حقيقته، اي باعتباره عملية تجارية (بزنس) بكل معنى الكلمة وبغض النظر عن الاكاذيب الميتافيزيكية والهالات الدينية القوموية التي تحاول الحركة الصهيونية احاطة الاستيطان بها، بهدف التعويض عن الشرعية التاريخية والقانونية المفقودة، بشرعية مختلقة زائفة وهشة.

تنسجم حدة هذه المسرحية مع حدة العدوان الهمجي الاخير على الشعبين الفلسطيني واللبناني والذي كتبت المسرحية أصلا على خلفيته. وهي تتحدث عن "الوطني" الاسرائيلي العادي الذي يسعى الى تحقيق حلمه الكبير بالهجرة الى الولايات المتحدة الأمريكية. ومن أجل تمويل هذا الحلم فانه يستولي على الارض في المناطق المحتلة في العام ١٩٦٧ ويتدين ويطلق النار على الفلسطينيين.

ويخيل لهذا "الوطني" الاسرائيلي ان حلمه موشك على التحقق. فها هو يحتل مقعده الوثير على متن الطائرة التي ستقلع بعد لحظات الى .. الولايات المتحدة. بيد ان الرياح، رياح التاريخ والمنطق، لم تجر بما تشتهي طائرة احلام هذا "الوطني" الاسرائيلي، ففي اللحظة الاخيرة تماما يتلقى هذا الخواجه الامر العسكري رقم ٨ وهو اشد الاوامر العسكرية خطورة .. انه أمر حالة الاستنفار العام كما يبدو..

وعليه ينزلونه من الطائرة ويبعثون به للموت على الجبهة .. الالبانية! (أجل الالبانية، وما من خطأ مطبعي هنا، ولعل الكاتب يضرب عصفورين بحجر واحد، فمن جهة يوحي برحابة احلام التوسع الاستيطاني الصهيوني، ومن جهة اخرى يستفيد من الجناس القائم بين لفظتي البان ولبنان). كالعادة، اجتمع مجلس مراقبة الافلام والمسرحيات الاسرائيلي للبحث في مسرحية "هابتريوت" وبعد ثلاثة اسابيع من البحث والتمحيص تقرر رفض المسرحية برمتها.. كانت هذه هي المرة الاولى التي يلغى فيها نص باكمله. فقد درج الجماعة على اجتزاء مقاطع وفقرات يسهل تبرير حذفها بذريعة الحفاظ على امن الدولة.. ونظرا لعنف الاجراء استقال عدد من اعضاء المجلس احتجاجا على التصعيد الذي لم يسبق له مثيل في الوسط العبري.

من المفارقات الطريفة ان المسرح الذي اعد "هابتريوت" للعرض هو مسرح "نفي صدق" اي (واحة العدالة) بادارة المخرج والممثل عوديد كوتلر .. وهددت "واحة العدالة" بالتوجه الى الرأي العام العالمي والى منظمة "الاونيسكو" ولجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة ومنظمة الكتاب العالمية .. وواصلت العرض متحدية القرار المجحف حقا، الا ان السلطات سارعت الى التهديد باستخدام الشرطة فاجتاحت موجه واسعة من الاحتجاج الوسط الثقافي في البلاد وفي الخارج تحت مبررين مفهومين: اولهما إن اسرائيل في وضع مترد للغاية على الساحة الدولية من جراء جرائم المحتلين في لبنان، ولذا فهي في غنى عن "فضيحة ديمقراطية" اخرى وثانيهما أكثر مباشرة واشد التصاقا بالموضوع وقد حمل لواءه عدد من الفنانين الليبيراليين الذين يرفضون اصلا التسامح مع مقص الرقيب المصلت على اعناقهم.

وبوتيرة مذهلة السرعة جرت عملية استقطاب واضحة: من طرف

يتحرك معارضو الرقابة جملة وتفصيلا ومعارضو الرقابة على هذا العمل بالذات، ومن الطرف الاخر يقف صقور الثقافة المطالبون ليس فقط بالغاء المسرحية بل بمعاقبة الفرقة المسرحية ايضا وعلى سبيل المثال فقد طالب الرابي غورن كبير حاخامي اسرائيل انذاك لدى افتتاح مؤتمر "حركة هتحيا" الفاشية بمحاكمة المسؤولين في هذه المسرحية " وفق القانون الجنائي" لا اكثر ولا اقل! وحتى المستشار القضائي للحكومة البروفسور زمير الذي اتخذ في البداية موقفا معتدلا اخذ يهدد فيما بعد بتقديم المسرح الى المحاكمة في حالة استمرار العروض .. والشيء الوحيد المؤكد الان هو ان مسرحية "هابتريوت" لا تعرض في اي مكان .. في غمرة الضجة الكبرى التي اثارتها هذه المسرحية علق بالذهن تعبير مخيف لشدة اصالته وعمقه ودقته.. كان ذلك تصريح الشاعرة داليا رابيكوفتش الذي اطلقته في احد الاجتماعات الاحتجاجية في تل ابيب: "هناك اناس لا يتحملون رؤية مشهد يتم فيه ذبح طفل على المسرح .. انهم يستطيعون تحمل ذلك في الواقع، فقط!!".

برغم كل ذلك فان الاعلام الصهيوني ماض قدما، وبصفاقة غير معقولة، في اشاعة الوهم عن حرية التعبير في اسرائيل. واذكر ان جمهورا بريطانيا واجهني قبل حين بهذا الوهم وكان ردي عبارة طالما كررتها من قبل ولا شك في انني ساردها وقتا طويلا: "أستطيع وفق الديمقراطية الاسرائيلية أن القي قصيدة أهاجم بها رئيس وزراء اسرائيل. الا ان رئيس وزراء اسرائيل يستطيع وفق الديموقراطية ذاتها ان يصادر الارض التي اقف عليها ملقيا قصيدتي .. وهو يفعل ذلك فعلا!".

١٩٨٤/٧/١٠

هذه هي العقدة

توقفت قليلا قبل ايام، في مواجهة خبر صغير في احدى الصحف المهيونية الهابطة، عن "الرأس اليهودي" الذي حصل على الحصة الكبرى من جوائز نوبل. ولان مسألة "الرأس اليهودي" هذه عولجت كثيرا على امتداد التاريخ المعاصر، ولانني اسهمت شخصيا في معالجتها، فقد قذفت الصحيفة الهابطة جانبا وانتقلت الى صحيفة هابطة اخرى بحثا عن مادة تصلح للمعالجة.

التاسعة مساء على شاشة التلفزيون الاسرائيلي حين امتلأت الشاشة فجأة برأس السيد شمعون بيرس اليهودي (اليهودي تعود هنا الى الرأس!).

كان بيرس يقف خطيبا في جمهرة من جماعته حين قال: "تتحدث سورية عن الرغبة في تحقيق التوازن الاستراتيجي مع "اسرائيل"، لكن التوازن الاستراتيجي لا يتحقق بين الجيوش بل بين الشعوب"..

لسنا بحاجة الى "رأس يهودي" حتى نفهم أن شمعون بيرس يريد "طمأنة" السوريين الى انهم لن يحققوا التوازن الاستراتيجي، لان الرأس الذي يواجههم ليس رأسا بشريا عاديا بل هو رأس يهودي!

إنها الحالة المرضية ذاتها التي انتجت الصهيونية منتجة بذلك

الحارس الامين على الحالة المرضية ذاتها. فان الصهيونية لا تعمل على خلق التوازن الطبيعي بين "اليهودي" وبين "المجتمع البشري" بل تعمل جاهدة على استمرار "التناقض" المفتعل بين اليهود والغوييم "الاغيار".

وهنا ينشأ التناقض الحقيقي بين الصهيونية وبين نفسها. فمن جهة ترفع هذه الحركة لواء انقاذ اليهود واعطائهم مكانا طبيعيا تحت الشمس وبين الشعوب، ومن جهة اخرى تضع مبدأ "العدو الخارجي" في صلب ايديولوجيتها وممارستها، بحيث يبدو ان اليهود لا يستطيعون البقاء الا بوجود عدو خارجي .. ولما كان العدو الخارجي يتجسد في ما يسمى باللاسامية فهذا يعني ان الصهيونية التي جاءت لتنقذ اليهود من اللاسامية تصر بوعي كامل على ضرورة استمرار اللاسامية كشرط لاستمرار اليهود واليهودية.

إن الوجود اليهودي في الفكر الصهيوني هو وجود سلبي -وجود لا يكمل الاخرين بل يتناقض معهم ويحقق ذاته من خلال هذا التناقض .. وهنا يكمن عجز الصهيونية المأساوي عن تقديم حل لليهود يضمن لهم انسانيتهم ويتيح لهم وجودا تكامليا مع العالم.

وتضع الصهيونية اتباعها في غيبوبة دائمة عن حقائق التاريخ البشري وتحجب عنهم معادلات الحياة وتفاعلاتها الجوهرية، فحين يمنح صحفي مستلب مثل ايلي فيزل جائزة نوبل للسلام فان ذلك لا يتعدى كونه رشوة او مكافأة صغيرة عن اتعاب كبيرة تقدمها الصهيونية في خدمة المصالح الرأسمالية الاوروبية والامريكية. انها اشبه بقطع الحلوى التي يقدمها مروض السيرك للفيل او للحصان لاستدراجه الى القيام بدوره على أكمل وجه.

واذا كان هناك يهود اخرون قد حصلوا على هذه الجائزة في

موضوع الفيزياء او الرياضيات فان الاشارة الى يهوديتهم تبدو سخيفة تماما كالاشارة الى نصرانية الفائزين الاخرين او اسلامهم.

وحين منحت هذه الجائزة الى السادات وبيغن فهي لم تمنح للرأس اليهودي او للرأس العربي بل منحت للرأس الامبريالي الطامع الى تصفية القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني والرأس الفلسطيني!

ومن الامور المضحكة فعلا ان يتشبث بعض الصهاينة بنظرية "التفوق" العرقية التي لا تنسجم مع الواقعين العلمي والسياسي.

فعلى الصعيدين العملي والسياسي، منيت نظرية التفوق العرقي بهزيمة نكراء وبسقوط كامل يتجسد في سقوط النازية التي الحقت "بالعرق اليهودي المنحط" ويلات وكوارث لا ينبغي ان تنسى، دون ان تتمكن من البرهنة على تفوق العرق الاري او انحطاط العرق اليهودي.

ثم ان اليهود الذين يشكلون خليطا من جنسيات واعراق عديدة لا ينبغي الزج بهم في صراع عرقي وهمي وموهوم. واذا كان العدو الخارجي (اللاسامية) قد فشل في عزلهم عن المجتمع الدولي فان الصهيونية تحاول إنجاز ما عجز هذا العدو عن انجازه، الامر الذي يشكل تهديدا مباشرا لليهود ولليهودية على السواء. ذلك ان الصهيونية اختارت الانحياز الى الجانب المظلم من المجتمع الدولي، جانب الاستعمار والاستغلال والعنصرية، الجانب الذي الحق باليهود وبشعوب الارض قاطبة ويلات لا تنسى ولا تغفر!

من الامور المعروفة في علم النفس ان عقدة "الشعور بالتفوق" هي الوجه الاخر لعقدة "الشعور بالنقص" وهي في كثير من الاحيان رد غير واع وغير مدروس على عقدة الشعور بالنقص... وتظل

العقدتان -العقدة، ظاهرة مرضية تستدعي التشخيص الدقيق والعلاج السريع والمواظب.

كيف يتم التشخيص وكيف يجري العلاج؟ هذه هي العقدة!!.

«صوت البلاد» ١٧ كانون الاول ٨٦

« نعم للجوع ..... لا للركوع !»

خلاصة القلب وغاية السلام الروحي، تتجمع في هذه الصرخة الواضحة كالدم، المباشرة كالوطن، والصادقة كالانسان الانسان.

"نعم للجوع .. لا للركوع!"

نداء الايمان حتى الشهادة .. واذان الشهادة حتى النصر.

"نعم للجوع .. لا للركوع!"

صيحة سجناء الثورة وعرسان الحرية في معسكرات الاعتقال الاسرائيلية، اخوتنا، لحمنا ودمنا وشرفنا، الذين لم يفقدوا كبرهم وكبرياءهم في اشد حالات الاذلال والمهانة، فسخروا من السجن وهزئوا بالسجان.

وجدوا في كآبة الجراح منفذا للدعابة فاطلقوا على سجن كفار يونا إسم الدلع الرشيق "باستيل كفار يونا"..

وكما جرت العادة منذ بدء الخليقة، فان شموخ الضحية يثير جنون الجلاد ويدفعه الى مزيد من العنف .. وقد تنحني الضحية فتسقط الى الابد جسديا ومعنويا.. وقد تتصدى لمزيد من العنف بمزيد من العنفوان فتعبر مطهرها الخاص الى فردوس هو جدير بها بقدر ما هي جديرة به.

إنها لعبة عض الاصابع .. تعض اصبعي فاعض أصبعك، وويل

للذي يصرخ اولا.

إنه الالتحام الكامل، حرب الشوارع الحقيقية بين الفكرة ونقيضتها وبين الموقف ونقيضه.

ويقف سجناء شعبنا في معسكرات الاعتقال الاسرائيلية.. يقفون للاذى والمذلة .. يقفون للهراوات والغازات السامة .. يقفون للنوافذ المعدنية المنصوبة في وجه الشمس، شمس الوطن وهوائه..

ويكابر السجان مداريا جبنه وضعفه بقناع من الجبروت المهزوز والقوة المتهافتة على فجاجتها وركاكتها وانسحاق ثقتها بنفسها.

إذن فليكن الاضراب..

وليكن اضرابا عن الطعام، وليكن اضرابا مفتوحا،

وتدوي الصيحة: "نعم للجوع .. لا للركوع!"

تلطم على جدران "باستيل كفار يونا" فتصدى على جدران الدامون، وتدمدم على اسوار الخليل ارتدادا الى جنيد، وتتدفق لتصعد من جديد عبر قضبان معتقل نفحة الصحراوي واسلاكه الشائكة الدامية!

"نعم للجوع .. لا للركوع !" وتتحقق "الوحدة الفلسطينية".

ويتجسد "التضامن العربي" في عتمات المعتقلات الصهيونية.

ماذا هنا؟ ومن هناك؟

هل حجب الله تعالى نعمة السمع ونقمته عن امة بأسرها وخصنا نحن بها دون سوانا من العرب او الناطقين بالعربية؟

"نعم للجوع .. لا للركوع!"

هل يسمع الواطئون والمتواطئون؟

هل يسمع "ذوو الشأن" القاعدون في "دست الحكم" الممسكون بعدة الحل والربط وعديد العسس ورصيد النفط؟

هي يسمعون زغرودة الولادة في اقبية الموت ام انهم لا يسمعون سوى خفق المقاعد الوثيرة تحت اقفيتهم الوفيرة؟

بيد ان الوطن سئم موته البطيء على يد حاكم اكتفى كما يبدو بملك لا يفيض عن عرشه، وعرش لا يفيض عن قفاه.

"نعم للجوع .. لا للركوع!"

نحن معكم يا فرسان الوطن وعرسان الحرية .. الا انكم الاحرار ونحن السجناء ..

نعم للجوع .. لا للركوع!!

«الاتحاد» ١٠/١٠/١٩٨٦

الطويسيون

يستطيع علماء النفس أن يجدوا مادة ذات بال لابحاثهم في ظاهرة انسانية اجتماعية تتسع لما يتيسر من الجهد والاجتهاد. ولن اذهب بعيدا لالتقاط نموذج لهذه الظاهرة .. انذا امد سبابتي وابهامي بحذر شديد لامسك بسبابتهم المرهفة واضعها برفق على تراث ذلك الفنان المخزومي عيسى بن عبد الله المعروف بطويس.

لقد شهدت المدينة المنورة صولات ذلك المغني الحماسي وجولاته، فشهدت له بزخم الابداع، وضربت به المثل حتى قيل "اهزع من طويس"!

الا ان خلة ما غنصت على اهل المدينة متعتهم بفنانهم القدير، ذلك ان حضرته كان مغرما بالفتنة بين الناس واحترابهم واضطرابهم .. واطيب ما كان يطيب له هو حروب الاوس والخزرج.. وهكذا اهدر الرجل طاقته الفنية على ما يسوء الناس ويكدرهم.

لا فيه ولا قي فنه .. لا فيه ولا في أدبه .. لا فيه ولا في سياسته .. لا فيه ولا في صحافته .. لا فيه ولا في شعره .. لا فيه ولا في نثره .. هذا ما سيقوله الخلف الصالح للسلف الطالح من اولئك الذين يملكون اليوم طاقات فنية كبيرة. ويصح فيهم القول "اهزع من طويس" بيد انهم يبذرون طاقاتهم على كل ما من شأنه ان يسوءنا ويكدرنا. واعني

اولئك الذين باعوا وبايعوا وراحوا يتغنون بحروب الاوس والخزرج المعاصرة، يروجون للاقليمية ويباهون بها، يكرسون مفاهيمها وينظرون لسعاتها ودعاتها، ممهدين للفتنة بهوى يتبع وحكم يبتدع مقيمين الدليل على صحة قول الامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه: "انما بدء الفتن أهواء تتبع واحكام تبتدع!"

لقد تفشت اعراض المذهب الطويسي في العقد الاخير من الزمن: وليس على الصعيد السياسي فحسب بل في مجالات لم تكن تخطر لنا على بال.

واعطيكم مثالا بسيطا لغاية السذاجة، ففي اثناء دورة العاب كأس العالم الاخيرة في المكسيك لاحظت ظاهرة مرعبة: حين خسر العراق تركوا هم الخسارة للعراق وحده وقالوا: "خسر العراق. وحين خسرت الجزائر تنصلوا من بلد المليون شهيد وتمتموا: خسرت الجزائر، وحين كسب المغرب! غمرتهم نشوة النصر القومي فصاحوا: لقد كسب العرب! وحين خسر المغرب عادوا الى انكماشهم الاول: لقد خسر المغرب..

اذا تحقق نصر فهو للعرب جميعا واذا نزلت هزيمة فالمهزوم هو ذلك القطر دون سواه!

لم تقتصر هذه الظاهرة على مجتمع دون سواه. باتت وباء قوميا شاملا حتى ليتساءل المرء: "اين هو الروح القومي العربي؟ ماذا حل بفكرة الوحدة العربية؟ ماذا اصاب الانسان العربي؟"

ويذهب التساؤل الى ابعد من هذا الحد.. يزلزل القلب والروح رعب من صورة ما قد يكون عليه المستقبل: هل يتحلل الوطن العربي من ضوابط القومية المشتركة؟ هل تحل العصبية الاقليمية محل الوحدة العربية؟ هل نصبح "امريكا لاتينية" اخرى؟

وبعد ذلك، وقبل ذلك: هل عدمنا القدرة على مواجهة الطويسية التي تقضمنا من الداخل. وهل يصح فينا المثل القديم:

"دوده من عوده؟!

«الاتحاد» ١٧/١٠/١٩٨٦

غصن اخضر

رغم كل الملاحظات الانتقادية الواردة بشأن منظمة العفو الدولية (امنستي إنترنشنل)، فان هذه المنظمة تظل بفكرتها الجوهرية غصناً اخضر على شجرة العائلة البشرية المهددة باليباس.

من الاقوال المأثورة عن وزير الدعاية الهتلري غوبلز: "كلما سمعت كلمة ثقافة امتدت يدي الى المسدس". ويخطيء من يظن ان الروح الغوبلزية قد ولت مع عهد غوبلز، فما زال في هذا العالم وفي هذا اليوم وفي هذه اللحظة، كثيرون وكثيرون ممن تمتد ايديهم الى مسدساتهم كلما سمعوا كلمات الثقافة والحرية والدمقراطية والعدالة.

إن قطيعا لا يُستهان به من الدبلوماسيين والساسة واصحاب النفوذ، يُعنى افراده بتقليم اظافرهم وتهذيب مظهرهم الخارجي، بينما يربون مخالب ارواحهم ويتحينون الفرص للانقضاض على الفرائس المتاحة حتى من مواطنيهم هم الذين يجرؤون على القول "انا اعتقد" .. فمجرد الجرأة على الاعتقاد، تشكل سببا لاقتناص المواطن وادانته بالخيانة العظمى دون الحاجة الى تقديم لائحة الاتهام والاستماع الى الشهود والمرافعات.

هنا يرفع المواطن المسحوق ذراع الاستغاثة، وما من مغيث .. ويسجل أسمه فيما بعد على قائمة اعداء الشعب والوطن، او في عداد

المفقودين. واذا واتاه شيء من الحظ فانه سيحظى بزاوية ما في قبر جماعي مجهول ..

وتنزف الروح ويجهش القلب، اذا حاول انسان ما استحضار حالات التعذيب ومقادير الاسى المقموعة في اعماق اولئك الناس المطفأين كأعقاب السجائر في منافض الانظمة المنافقة التي تخفي الات تعذيبها التكنولوجية المتطورة وراء ستائر وردية من المخمل الحالم.

يبدو لي احيانا إن هناك تناسبا طرديا بين قدرة الانسان على تطوير معارفه وقدرته على تطوير وحشيته بالمقدار نفسه وفي الاتجاه ذاته.

واذا كان الامل هو سلاحنا الاخير في خندقنا الاخير، فانه يجوز لنا ان نتصور الاهمية الكبرى التي يعلقها السجين او الاسير على ذراع ما قد تمتد الى زنزانته من فضاء العالم الخارجي، وقد لاحظت شخصيا ان عددا كبيرا من الاسرى والسجناء يعلقون املا ما على الرأي العام العالمي وعلى المنظمات الدولية ذات العلاقة بمسائل السجون وقضايا الحرية.

ومع احتفاظنا بحق التحفظ المشار اليه بشأن منظمة "امنستي"، فان تقاريرها السنوية تظل مصدرا هاما لدراسة احوال الانسان في سجونه الصغيرة والكبيرة، والى جانب الامور السلبية التي يعرضها تقرير المنظمة للعام ١٩٨٥، فان هناك امورا ايجابية تعزز امل الانسان بالا يسقط في ذاته نهائيا والى الابد. فاقدام ٢٨ دولة على الغاء حكم الاعدام هو بلا شك ظاهرة ايجابية .. بيد ان هذه الايجابية ليست هي الامر المقرر والسمة الغالبة، فما زالت انظمة كثيرة وفي مختلف القارات تمارس احراق السجناء وهم على قيد الحياة،

والتعذيب الجنسي والنفسي، واقتلاع الاظافر، والتعريض للتيارات الكهربائية والضرب على مختلف اعضاء الجسم والاغتيال السياسي والاختطاف والطرد من الوطن واعتقال رافضي الخدمة العسكرية.

يتجاهل التقرير اقدام اسرائيل على اعتقال رافضي الخدمة العسكرية بصورة منهجية، الا انه ينتبه الى اعمال التعذيب التي يتعرض لها السجناء والاسرى العرب والفلسطينيون في المعتقلات الاسرائيلية.

ويشير التقرير الى فعالية المنظمة من جهة والى محاولة التملص التي تمارسها بعض الانظمة بهدف طمس الحقائق وخلط المعلومات وبلبلة الرأي العام العالمي.

إن العلائق الانسانية لا سيما في العالم الذي يسمي نفسه بالعالم الحر زورا وبهتانا، تتعرض الى اخطار التيارات العنصرية والفاشية ومخططات الرعب العالمي، متجسدة في مشاريع "حرب النجوم" الامريكية، الى جانب الدمار الروحي والمادي المترتب على عوامل الطبيعة كالفيضانات والتصحر والهزات الارضية والبراكين .. وفي دوامة العنف الم تلاطمة هذه، يسعد المواطن العادي والبسيط القابع في زنزانة السجن او في الوطن الزنزانة حين يلوح له عبر قضبان مهانته وامتهانه، غصن اخضر ما ..

«الاتحاد» ١٩٨٦/١٠/٢٤

الموالي والاولياء

بغض النظر عن تعددية الرأي حول الحرب العراقية-الايرانية، ملابساتها، تطوراتها وابعادها، وبغض النظر عن الاجتهادات الفكرية والسياسية القابلة للمراجعة في هذا الشأن، وفي مسألة النظامين الحاكمين في بغداد وطهران، فان هناك حقيقة اصبحت معروفة لكل من "يفك الحرف" حقيقة التواطؤ الامريكي في هذه الحرب التعيسة.

ولم يكن التواطؤ الامريكي انحيازا للعراق او لايران، بل كان ولا يزال حلقة من سلسلة من مخطط يرمي الى حرمان الشعبين العراقي والايراني من عائدات النفط، وتحويل هذه العائدات الى وقود حربي يدمر ما انجزه الشعبان ويدمر حلمهما الانساني البسيط بمزيد من الانجازات العمرانية والحضارية.

إن امريكا لا تريد للعراقيين او للايرانيين ان يبنوا مصنعا لعامل ومهندس او منزلا لاسرة او مدرسة لطفل. ما تريده امريكا هو بقاء الشرقين العربي والاسلامي ارضا قاحلة لا تنبت سوى الجهل والنفط والجوع والنفط والضعف والنفط .. وبكلمات اخرى فان امريكا متواطئة تاريخيا مع التخلف، لانها لا تستطيع ان تزدهر الا بتخلف الشعوب ولا تستطيع ان تشبع الا بجوع الامم ولا تستطيع ان تضيء نواديها الليلية الا بدم الانسان .. هذه هي طبيعة النظام الامريكي. ولا

يستطيع موالي امريكا في العالمين العربي والاسلامي ان يجملوا وجهها البشع. كل ما يستطيعونه هو اظهار المزيد من بشاعة وجوههم وقلوبهم كلما بذلوا المزيد من الجهد دفاعا عن امريكا واذدنابا لها.

ولا يعنينا هنا الحديث عن اسرائيل، فقد اعلن حكام اسرائيل دائما ومنذ بداية هذه الحرب التعيسة ان اقتتال العرب والايرانيين والتدمير والتدمير الذاتي الذي يمارسه الطرفان هو في الايديولوجيا الصهيونية -لصالح اسرائيل.

الذي يعنينا هنا هو الصمت المطبق الذي "يجهر" به عرب امريكا ومواليها ازاء الفضيحة الدموية الجديدة، فضيحة تزويد ايران بكميات من الاسلحة يصفها رونالد ريغن بانها دفاعية ويصر الخبراء العسكريون في العالم وفي امريكا نفسها على انها اسلحة قادرة على ارهاق العراق وانهاك جيشه.

ماذا يقول اولئك القومجيون الاسلامجيون الذين تتفجر دموعهم مع كل مضخة نفط تفجعا على افغانستان؟

ماذا يقول اولئك القومجيون الاسلامجيون الذين وضعوا شرفهم المفقود في خدمة امريكا الموجودة، بحجة الدفاع عن العروبة والاسلام بينما يلغ السلاح الامريكي في دم بغداد وعرض القدس ؟

واولئك الذين "اتخذوا عدوي وعدوهم أولياء".. هم "هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون".. صدق الله العظيم !

«الاتحاد» ١٩٨٦/١١/٢٨

وردة الى حرسنا الفتيّ

الان، وأنا أفتح شرفة القلب لاخاطبكم، يحضرني دفعة واحدة ذلك الاحساس الكاسح بقدرتنا الهائلة على مواجهة التحديات ومقارعة الموت شخصيا!!

الان، وانا استعرض ببصر الروح وبصيرة التاريخ قاماتكم المنتصبة وقسماتكم الاليفة، لا استطيع الا ان أرى ذلك الوجه الدميم، وجه الطاغوت الهمجي المتربص بنا كيانا والكامن لكم مستقبلا، وعلى ايقاع الصراع الشرس بين وجوهكم الصبيحة ووجهه القبيح، تنبض الاعصاب والشرايين بكلمات هي مني لانها منكم وهي لكم لانها لي:

إقطَعْ غصناً
نزرع شجرة
واقتل طفلا
ننجب عشرة!

وانني لاذكر ايها الاخوة والاخوات ان هذه الكلمات لم تكن وجيب قلب بل عاصفة قلوب ولم تكن صيحة حنجرة بل هدير حناجر، ويقينا انكم انتم كنتم حلم الشجرة الطالعة حتما وامل الاطفال القادمين اهلا وسهلا، على رحب من التفاؤل وسعة من

المستقبل..

ليهرفوا بلغو الاقليات والطوائف .. ها نحن نقيم الدليل بكم على ان شعبا قام من بين الاموات وقهر الموت بالموت ورفد الحياة بالحياة الى دهر الداهرين.

أمين

وإننا لنباهي بكم الامم جيلا جميلا على اعقاب جيل جميل. واسمحوا لي مرة اخرى أن أستعيد خفقة قلب كنتم فيها الواقع والمتوقع:

جيل يمضي

وهو يهز الجيل القادم

قاومت،

فقاوم!!

وإنكم لتقاومون الكوابيس والجرافات، وتقاومون التهويد والتشريد، تقاومون الترغيب الباطل والترهيب الاشد بطلانا، تقاومون بميلادكم، بدفاتركم ومقاعد دراستكم، باحلامكم وحبكم، بالاحسان للوالدين وبما توفون معلميكم من تبجيل، وبما تخصون شعبكم من محبة وما تشهرون لوطنكم من وفاء، وتقاومون بقلقكم وابتساماتكم، بطموحكم وكفاحكم، بتشابك اصابعكم في موعد وبتلاحم اذرعتكم في تظاهرة.

أيها الاحبة،

لقد غرس آباؤنا فأكلنا، ويغرس آباؤكم فتأكلون .. وستغرسون، يقينا، فتأكل الاجيال القادمة، شبعا وريا من فاكهة الحرية الطيبة وكوثر السلام القراح، وانني لارى بكم ومن خلالكم شمسا جديدة على افق جديد. وزرعا ممرعا على ارضنا الكريمة، وانني لامزج ابتسامتي

بدمعتي واقدمهما لكم وردة، وردة حمراء كدماء اخوتنا في الوطن وفي المنفى، قانية مثل راية الكفاح.

«المستقبل» ١٩٨٧

نشرة اللجنة القطرية للطلاب الثانويين العرب

خيانة البطولة .. بطولة الخيانة

خارج الرأي العام، خارج قاعات المحاكم والملفات، بكل العالم وبمعزل عنه، يجلس المرء في نفسه وحيدا ساخطا، يبحث عن وجه للبركة فتجحظ من حوله اللعنات ويحتشد الظلام ملء البؤبؤين، يتسلل الى الشبكية، الى الدماغ ويتفجر في القلب.

إنه الاختلاط الباهظ في المفاهيم، تبادل الادوار المسف، الأختلال الكامل في الاعراف وسقوط المقولات تباعا. انه الحزن الناجز عاريا واضحا، مفهوما وغير مفهوم.

مسائل شتى تقبل وتمضي، يندلق كثير من الحبر وكثير من الدم، فينتصر "السكوب" الصحفي، ويثري الاعلام. تتكرس المعلومة، اما الانسان موضوع هذه المعلومة وغايتها فينقذف بقوة صاروخية الى مكان ما من هذه الارض مسحوقا مثل عقب سيجارة او محتقنا مثل بالون عائم في الفضاء.

أما أنت، الشخص، مواطن العالم المنفي عن العالم، فلا يبقى لك سوى هذا الجلوس الكئيب في نفسك الكئيبة وحيدا ساخطا على شفير البكاء.

قلت، مسائل شتى تقبل وتمضي. تشحن الناس بالاثارة وتنطفيء مع رنين التلفون، مع نداء ما، مع صوت ما، ويعود كل شيء الى

مجراه.

ومن المسائل التي اقبلت ومضت واحدة لا تكف عن مطاردتي رغم انها اصبحت "خبرا قديما" وفق المقاييس الاعلامية. ولهذه المسألة اسمان: "شرانسكي" و"فعنونو".

شيرانسكي:

مواطن سوفييتي. قصير القامة، وغير ذلك لا يبقى من ملامحه ما يلفت النظر. سمع اذاعات "العالم الحر" ووصلته الدعاية الصهيونية سرا وعلنا فقرر اعلان الحرب على الاتحاد السوفييتي -وطنه، وقدم اخيرا الى بلادنا من اجل ترحيل اكرم هنية. واصبح شيرانسكي بطلا قوميا في اسرائيل وقابله زعماء "العالم الحر" من ريغن حتى تاتشر حتى كل موظف في اي قلم استخبارات يضمر الشر للعدالة والاشتراكية والسلام، لا لشيء الا لان مخصصاته الشهرية تتناقض مع العدالة والاشتراكية والسلام.

واصبح شيرانسكي شخصية دولية هامة، ونجما تلفزيونيا ومعلقا سياسيا يقرأ في المؤتمرات الصحفية تصريحات مكتوبة ويستطيع الارتجال ايضا. انه بطل قومي فقد ألحق الضرر بالاتحاد السوفييتي!!

فعنونو:

مواطن اسرائيلي معتدل القامة، يميل الى الطول، وغير ذلك لا يبقى من ملامحه ما يلفت النظر. عمل خبيرا في مفاعل ديمونا النووي ادرك إن اسرائيل تنتج سلاحا نوويا. وبحس انساني بسيط، تملكه القلق. ولعله فكر في اثناء العمل: لماذا هذا السلاح النووي، ألضرب العرب؟ لكن العرب قد يمتلكون هم ايضا سلاحا نوويا وقد يضربوننا، فماذا ستكون المحصلة؟ دمارا هنا؟ دمارا هناك؟ هل خسارة العرب هي بالضرورة فائدة لليهود؟ هل سيخسر العرب

وحدهم؟ الا تكفي اليهود خساراتهم السابقة؟

وفي دوامة القلق هذه يبحث فعنونو عن متنفس لمخاوفه. ولانه لا يتجاوز قيمة البرغي الصغير في الة هائلة فلا يجد امامه سوى الخروج الى العالم الكبير. هناك يهمس وهناك يصرخ، مؤمنا انه بتحركة الضئيل هذا يفعل شيئا من اجل السلام شيئا ما. لا لصالح العرب بل لصالح اليهود اولا وقبل كل شيء.

برغي صغير يتمرد على آلته. أهي البطولة أم انه الجنون؟ أهي البطولة ام انها الخيانة؟ خيانة ماذا؟ خيانة من؟ ما هي البطولة؟ ما هي الخيانة؟

فعنونو- مردخاي فعنونو، هو اليوم سجين رهن المحاكمة في اسرائيل بتهمة الخيانة العظمى! إنه أسير آلته وهو أسير قلقه. الا إنه سجين لدى نظام "ديمقراطي". ما هي الديموقراطية؟ ولديه محام يدافع عنه. ويصف المحامي اوضاع موكله اليوم:

"يجلس ٢٢ ساعة يوميا بين اربعة جدران. اصدقاؤه الوحيدون هم الصراصير وحشرات الزنزانة. مرة كل اسبوعين يسمحون لابناء اسرته بالزيارة، وحينذاك ايضا يقف الى جانبه سجان بيد ممدودة، حتى يغلق له فمه وقت الضرورة. لا كتب عنده ولا تجوز له قراءة الصحف".

عشنا هذه التجربة. عشناها على جلودنا واعصابنا. مضغتنا هذه الدوامة ومضغناها. تساءلنا ونتساءل: اين تقع البطولة؟ اين تقع الخيانة؟

آخ.... يا جغرافيا الروح الضائعة

«الاتحاد» ١٩٨٧/١/٢٣

نور للأمم ؟!

يستطيع القرد، قبالة المرآة، ان ينبهر بجماله الفتان .. ويستطيع القرد ان يبدو غزالا في عين امه، بيد ان مقاييس الجمال المتعارف عليها في كل قطر على حدة، وعلى المستوى العالمي بشكل عام، تستطيع هي الاخرى ان توقف القرد عند حده وان تجاهره صراحة وبلا مواربة: "انت قرد، وانبهارك الشخصي بجمالك المفقود لا يغير من الحقيقة ولا يبدل. انت قرد، ونعت الجمال ليس من حقك. الان على الاقل. اما اذا كنا نحن مقاييس الجمال قد تغيرنا، واذا كانت الطبيعة قد اختارت الوقوف على رأسها فهذه مسألة اخرى، آنذاك ستكون يا سيادة القرد مرشحا طبيعيا لاعتمار تاج الجمال الكوني!"

نخرج الان من كليلة ودمنة وندخل الواقع مباشرة: قبل ايام تحدث موظف اسرائيلي رسمي الى اذاعة اسرائيل الرسمية عن دورة تدريبية ما تستضيف دائرته فيها عددا من اخواننا الافارقة. فجأة صاح المذيع منبهرا بجماله:"نحن فعلا نور للامم!".

وللذي لا يعرف، فان "نور للامم" (اور لغوييم) هذه، هي تعبير ديني يهودي، اصبح حلقة اساسية في عمود الصهيونية الفقري، لما يمكن استشفافه منه، من معان يجوز استخدامها في صالح الدعاوي العنصرية لدى هذه الايديولوجيا التعيسة.

لا شأن لي هنا بالدين والايمان الديني. الذي يعنيني هو الهوة السحيقة وغير القابلة للجسر، بين شعارات الحركة الصهيونية من طراز "شعب الكتاب"، "نور للامم" و"واحة الدمقراطية" الخ، وبين الواقع المشين الذي تجسده هذه الحركة بممارساتها المشينة، والتي تعدت بلادنا لتنشر "نورها" على العالم.

من المسائل المعروفة اليوم ان اسرائيل لم تعد مجرد مراوة في يد الولايات المتحدة بل اصبحت قاعدة واشنطن الاساسية في المنطقة. ولهذه القاعدة اذرعة اخطبوطية فظيعة في كل مكان تبلغه مصالح الكوكا كولا والجنرال موتورز وغيرها من الاحتكارات الامبريالية الامريكية والمشاركة لها والضالعة معها والمتقربة منها.

ومن الاسرار الشائعة ان حكام اسرائيل يوزعون السلاح والمؤامرات المعادية للشعوب على سبع عشرة دولة في امريكا اللاتينية حيث ينتشر "نور" الدكتاتوريات والفاشية والقمع الهمجي والاغتصاب والنهب على اوسع نطاق.

لاجل هذا "النور" تتحرك قوات الانتشار السريع الامريكية ومشاة البحرية (المارينز) سيئة الصيت. واذا كانت امريكا مشغولة بفضيحة ما او اذا كانت راغبة في نوم الضحى فانها تجد صبيانا متطوعين لخدمتها بما تيسر من فضة. وفي طليعة هؤلاء المتطوعين يقف اليوم، بلا ريب، حكام اسرائيل على اختلاف اسمائهم.

وليس حكام اسرائيل هم المصدر العريق الوحيد "لنور الامم" هذا، فهناك حكام بريتوريا الذين لا يقلون انبهارا بجمالهم بل يزيدون ويزاودون. ولم ننس بعد "الاهانة" المدوية التي وجهها احد حكام جنوب افريقيا الى وفد اسرائيلي زار بريتوريا ذات يوم ظانا نفسه وفدا ابيض كالثلج فراح يبدي بعض الملاحظات التي لم تعجب

بيض بريتوريا الاصليين فانفجر احدهم في وجه ضيوفه الاسرائيليين: "لا تنسوا انتم ايضا انكم لستم من البيض الحقيقيين! انتم ايضا ملونون!!".

وضعت كلمة "الاهانة" بين اقواس مزدوجة لان كون المرء ملونا او اسود او اصفر او احمر ليس اهانة الا لدى القرد المنبهر بجماله قبالة المرآة!!

ومن الامور المأساوية الملهاوية ان حكام اسرائيل تربطهم بحكام بريتوريا علاقة متميزة وغريبة لا تنسجم اطلاقا مع ادعائهم بانهم يمثلون شعبا سحقته النازية. فكيف يمكن ان نفسر علاقة الحب هذه بين ضحايا العنصرية الهتلرية وبين نظام الابرتهايد، هذه الصداقة التي حولت النظامين معا الى ترسانة عسكرية ضخمة تحت تصرف لصوص العالم الكبار، قتلة الحرية، ومغتصبي الدمقراطية، ومستعبدي الكرامة الانسانية؟!

وفوق ذلك يعودون الى المضحك المبكي دائما وابدا: نور للامم!

اي نور؟

واية امم؟!

«الاتحاد» ١٩٨٧/٢/١٣

الحملة الصليبية
موديل ١٩٨٦

في اعقاب الحرب العالمية الاولى، ويوم دنست حوافر الوبش البريطاني المعروف بالجنرال اللنبي شوارع القدس مدينتنا المقدسة، تمتم ذلك الوبْش من بين اسنانه المصطكة حقدا وهمجية: "الان انتهت الحملات الصليبية"!.

وطلعت خضراء الدمن على ضريح "اللنبي" ويبست وعادت "طلعت" والقدس على حالها ومحلها بأملها وتاريخها ومصيرها، فستطلع خضراء الدمن على ضريح الاحتلال وستيبس وتطلع وتيبس. "ولن يبقى في الوادي غير حجارته" ولا فض فوك يا "لاز" الطاهر وطار الجزائري الحكيم، حكمة النار والدم والكفاح المجيد حقا.

وكما يبدو فان الحملات الصليبية لم تنته عند "اللنبي" المنتهي، فها هم اليوم فرسان "الصليبيين" الجدد يعاودون الكرة علينا. واذا كان الصليبيون القادمى قد جردوا جراد جيوشهم علينا تحت شعار "انقاذ الديار المقدسة من المسلمين"، فان احفادهم يجردون جراد طائراتهم وحاملات طائراتهم تحت شعار: "انقاذ العالم من الارهاب العربي". فلا تحدث صغيرة او كبيرة الا وينبح نابحهم :"هذا هو الارهاب العربي"!.. وخلاصة هذا "الارهاب العربي" ان امة كبيرة ذات

تاريخ عظيم وحضارة رائعة سقطت تحت سنابك الغزاة في زمن من الزمن، وجرؤت على الرغبة في التحرر وكبح جماح الطامعين في ارضها وتاريخها ومقدراتها.

هناك "ارهابيون عرب". وهذا لا يعني ان الارهاب هو سمة قومية عربية. والذين يعملون على تلطيخ تاريخ الامة العربية وتشويه صورتها ينبغي عليهم اولا ان يحدقوا في مرآة التاريخ ليروا وجوههم هم. ان "مافيا" السياسة الدولية بزعامة الكاوبوي وعضوية حكام "اسرائيل" واشكالهم، لا تملك الحق الادبي والاخلاقي في ادانة الارهاب، علما بان الارهاب الرسمي والنظامي اصبح في نظر هؤلاء حقا الهيا يمارسونه حينما يشاؤون وحيثما يرغبون لتأمين حصصهم من عمليات السطو المسلح الكبرى التي يشنونها بمنتهى الصفاقة بين الفينة والاخرى، منصبين انفسهم قراصنة رسميين في اعالي البحار وعلى شواطيء خلق الله، وقطاع طرق (وفق القوانين والشرائع)، جاعلين من النهب العلني والاغتصاب المقونن سنة دولية لا يجوز التصدي لها، ومن يفعل فهو ارهابي.

في ألمانيا .. يعمل تنظيم ارهابي يسمى "بادر -ماينهوف" ومع ذلك فلا نسمع في اعلام "العالم الحر" اي تنديد بالارهاب الالماني!

وفي ايطاليا.. يعمل تنظيم ارهابي يسمى "الالوية الحمراء" ومع ذلك فلا نسمع في أعلام "العالم الحر" اية ادانة للارهاب الايطالي!.

وفي امريكا.. يعمل تنظيم ارهابي يدعى "كو كلوكس كلان" يعقد المؤتمرات ويصدر البيانات تحت سمع واشنطن وبصر السي. آي. أيه. والبنتاغون .. ومع ذلك فلا نسمع في اعلام "العالم الحر" اي شجب للارهاب الامريكي ..

المسألة واضحة تماما .. إنها حملة صليبية من طراز جديد .. حملة

ضد العرب والفلسطينيين، ويبقى على العرب والفلسطينيين ان يعدوا الرد المناسب على هذه الحملة الوسخة.

وانه لمما يثير القرف والغثيان ان تتهافت انظمة لا هي في العير ولا هي في النفير متطوعة لخدمة هؤلاء الصليبيين الجدد.

ففي كراتشي "ضياع" الحق يشنون حملة اعتقال واسعة بين الطلاب العرب والفلسطينيين لان طائرة اميركية اختطفت، ولا يحركون ساكنا حين يقوم الجيش الاميركي بالاعتداء الدموي على بلد "اسلامي" شقيق.

وفي اسطنبول، يشنون هجوما على كنيس يهودي فتكون النتيجة اعتقال مئات السياح والطلاب وعابري السبيل العرب والفلسطينيين، بحيث يبدو أن كل عربي وكل فلسطيني هو ارهابي بحكم الفطرة!.

نحن لسنا ارهابيين .. نحن ضحايا الارهاب. ويخطيء كل من يتوهم بان وسائل اعلامه وادوات تضليله قادرة على طمس قضيتنا العادلة وصرف الانظار عن حقوقنا المشروعة.

نحن هنا .. وهنا حقنا .. وهنا مطالبنا .. ولن يضيع حق وراءه مطالب!.

«الاتحاد» ١٩٨٦/٩/١٧

ماذا نعني لهذا العالم؟

أيها الاصدقاء الاعزاء

يطيب لي ان استهل مخاطبتكم بالتحية العربية التقليدية "السلام عليكم". ولعلكم تعلمون ان التحية التقليدية لدى ابناء عمومتنا اليهود هي "شلوم عليخم". وتلاحظون أيها السادة مدى التجانس اللفظي والصوتي في التحيتين. هكذا فاننا ازاء تقارب شديد في اللغة وهاوية سحيقة في السياسة. وكم امل وأتمنى ان يأتي ذلك اليوم الذي تنسجم فيه الكلمات مع الواقع السياسي، في بلادنا ومنطقتنا.

لقد استمعنا في الجلستين السابقتين الى مداخلات طيبة واقوال جميلة تشير الى اهتمام حقيقي بالموضوع الذي يشكل جوهر لقائنا، موضوع السلام وضرورة انقاذ البشرية من خطر السلاح النووي. الا اننا لاحظنا اعتماد التعميم في كل ما طرح هنا من قبل واعتقد انه آن الاوان للانتقال الى شيء من التفصيل.

هناك اجماع واضح على خطورة التسلح النووي ومشروع حرب النجوم، ولا بد من مناقشة الاخطار الملموسة الى جانب البحث في الاخطار المنظورة، لا بد من معالجة القضايا العينية والوقائع الراهنة، التي تشكل خطرا مباشرا على السلام المنطقي والعالمي، كالقضية

الفلسطينية والقمع العنصري والجوع والعدوان والتلوث الاجتماعي والبيئي، اننا مطالبون برؤية العلاقة الجدلية بين مسائل الحرب والسلام الصغرى والكبرى، الملحة والمؤجلة، في هذه المنطقة او تلك وفي العالم بأسره.

إن التعميم سواء كان مقصودا او عفويا من شأنه ان يؤدي الى المساواة وتوزيع المسؤوليات بشكل غير عادل اطلاقا، فهل تجوز المساواة بين الشركات متعددة الجنسيات وبين اطفال بيافرا؟ وهل تصح ادانة نظام بريتوريا العنصري والافارقة المقاتلين من اجل الحرية وكرامة الانسان؟ وهل تليق بنا ادانة الشعب الفلسطيني وشعب نيكاراغوا حتى ندين امريكا واسرائيل؟ اما من ضحية؟ أما من قاتل؟ اتجوز المساواة بين القاتل والضحية؟

أيها الاخوة المحترمون،

قبل خمسة عشر عاما زرت بريست ليتوفسك على الحدود السوفييتية الغربية. وتأثرت كثيرا بقصة البطولة في مواجهة الحصار، حيث اضطر الناس السوفييت المقاومون الى التهام طعام الخيول لمكافحة الموت جوعا داخل الحصار .. لقد هزتني واقعة البطولة في حصار بريست ليتوفسك حتى الاعماق، وعبرت عن مشاعري انذاك بقصيدة. واليوم، في المخيمات الفلسطينية، يستصدرون فتوى واذنا من السماء لاكل جثث الشهداء، فهل تحرك شعور واستيقظ ضمير؟ ام اننا نحن واطفالنا لا نعني شيئا لهذا العالم؟

وانا هنا لا اطلب قصيدة. اكتفي باحتجاج نثري للغاية، على ما يجري الان وفي هذه اللحظة في المخيمات الفلسطينية.

انني اتكلم اليكم

ان لم تكونوا انتم، فمن؟

وان لم يكن هنا، فاين؟

وان لم يكن الان، فمتى؟

أيها الاصدقاء الاعزاء!

لقد عممنا كثيرا وهذا يجعلنا نبدو جميلين. أما الدخول في التفاصيل فمسألة اخرى تتطلب شيئا من الشجاعة. وانه لامر جيد أن نبدو جميلين انما الافضل من ذلك هو ان نكون جميلين وشجعانا في أن.

شكرا، ثانك يو، سباسيبا وتودا رابا!!

«الاتحاد» ١٩٨٧/٢/١٧.

(كلمة سميح القاسم في لقاء موسكو العالمي للمثقفين، الذي انعقد في ٨٧/٢/١٤ بدعوة من ميخائيل غورباتشوف. وهذا النص مترجم عن الأصل الانجليزي الذي ألقيت به الكلمة.)

بمنتهى الموضوعية

يوم ادينت الصهيونية دولياً ورسمياً باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية، قامت قيامة عدد لا بأس به من مثقفي "العالم الحر" ذوي الاسماء الواسعة الشاسعة. وبقلوب تقطر أسى قام هؤلاء السادة بتأبين هيئة الامم المتحدة التي "سقطت" على حد تعبيرهم، في "غوغائية" العالم الثالث. وحين رثى هؤلاء الخوجات مفهوم "الموضوعية" كانوا يرثون في حقيقة الامر "أممهم المتحدة" التي أضفت فيما مضى قناعا من الشرعية على مخططات تقسيم العالم الى أسواق للصوص عالمهم "الحر".

نحن نعرف هؤلاء المثقفين على حقيقتهم. نعرف انسانيتهم الزائفة واقلامهم الدجالة. وفي اوساطهم هم تروج النكتة السوداء عن انموذجهم الذي يقول: "هناك أمران أكرههما أشد الكره-العنصرية والزنوج!" وبين الذين انتفضوا سخطا على هيئة الامم المتحدة لادانتها الصهيونية جملة من النماذج التي كأنما تقول: "هناك أمران أكرههما أشد الكره-إدانة الصهيونية واليهود!".

على كل حال، سأمسك اعصابي (كما يريد عادل امام) وسأقدم لهؤلاء الانسانيين، لدرجة التقزز، عيّنة من زبدة التراكم الفكري

والروحي المهيوني، ملتزما منتهى الموضوعية ومن خلال وثيقة جديدة نشرت في صحيفة "يديعوت احرونوت" الصهيونية بما لا يقبل الشك، في عددها الصادر بتاريخ ٨٦/٧/٢٢ الموافق يوم ط و من شهر تموز سنة ت ش م وحسب التقويم العبري!

تسجل الوثيقة كيفية قبول الاعضاء في منظمة "غوش ايمونيم" التي تعتبر نفسها المتابع الحقيقي لمسيرة العمل الاستيطاني الطلائعي المهيوني من قبل قيام "الدولة اليهودية".

وهذه الوثيقة لا تختلف نصا وروحا عن النكتة الاسرائيلة الرائجة في هذه الايام حول شروط الانضمام الى منظمة "كاخ" التي يقودها الرابي مئير كهانا:

يسألون المواطن المتقدم بطلب الانتساب اذا كان قد قتل عربيا وقطة. فاذا سأل: ولماذا القطة؟ يقبلونه على الفور عضوا عاملا في التنظيم.

تنتهي النكتة ويبدأ الجد في مواضيع المحاضرة التي تتلوها منظمة "غوش ايمونيم" على المتقدمين للانتساب (الترجمة حرفية عن النص العبري المشار اليه):

محاضرات

محاضرة قبل اجتماع الاعضاء الوقت المتاح لنا من ١٢،٣٠ حتى ١٢،٤٠ ليرتجل كل واحد منكم موضوعا يحاضر فيه امام اجتماع الاعضاء في غضون اربع دقائق. لديكم عشر دقائق لاعداد المحاضرة. اذا سجل احدكم رؤوس اقلام فالرجاء ان يسلمها لي عند انتهاء الاستعداد وسياخذها مني حين يصعد لالقاء محاضرته".

فيما يلي تقدم الوثيقة ملحقا بعدد من المواضيع المعدة للمحاضرين ومنها مثلا:

في رحلة لاولاد المستوطنة رأى التلاميذ عربيا يركب حمارا فقالت المعلمة: انظروا يا اولاد، ها هو حمار يركب حماراً!

ومنها مثلا:

هناك جمال تتجول بحرية حول المستوطنة، قبل اسبوع ابادت الجمال حديقة الخضار. عدد من الاعضاء يريدون قتل الجمال".

وهناك مواضيع اخرى حول العرب الذين يسرقون المحصول الزراعي والبدو الذين يعرقلون المهمات العسكرية الى جانب مسائل سياسية توضح بما لا يقبل الشك ان هؤلاء الجماعة اصبحوا مهيأين تماما للقيام باية اعمال تجسد الاحساس بان العربي هو مجرد حمار او جمل ويجوز التعامل معه على هذا الاساس فقط!

وتقول الكاتبة شولميت هارئيبن التي كشفت الوثيقة ان هذه النصوص تذكرها بمحاضرات القيت على منظمات اخرى في زمن اخر وفي بلاد اخرى، وكان موضوعها "اليهودي هو جشع وقذر بطبيعته".. او "اليهودي هو مخلوق تحت بشري". وحتى نقطع الطريق على اولئك الذين يحاولون التملص بدعوى ان "غوش ايمونيم" و "كاخ" وما شابههما هي تنظيمات هامشية فاننا نود الاشارة الى ما حدث بالامس القريب والذي يسمونه اليوم قضية جهاز الامن العام. فلم يتورع احد من الرسميين ولجان التحقيق والصحافة من "الاعتذار" للجمهور بان القضية الحقيقية ليست قضية قتل عربيين بل ملابسات الحادث التي أدت باسرائيليين الى الحاق الاذى باسرائيليين أخرين!

إنها لحقيقة فاجعة أن هناك تناسبا طرديا بين تفاقم العنصرية

في المجتمع الاسرائيلي وبين تفاقم السقوط العربي الرسمي على اعتاب واشنطن وتل ابيب. فالايغال العربي الرجعي في تضييق الخناق على الشعب الفلسطيني وعلى منظمة التحرير الفلسطينية والاسراف العربي الرسمي في الانحناء الذليل امام الغطرسة الاميركية والرعونة الاسرائيلية، والتراخي المشين ازاء حلف "العالم الحر" من تاتشر الى ميتران الى ريغان وبالعكس والقصور الناجز في مواجهة الجشع الصهيوني، والتستر وراء الاناشيد الحماسية والاف الصور الكبيرة للمسؤولين، المهزومين المأزومين، كل ذلك لن يعني سوى المزيد من الشراسة العنصرية والتسيب الاستيطاني والشهوة الاحتلالية.

ما العمل حيال هذا الواقع؟

إننا نطرح السؤال في فضاء العالم الكبير، بانتظار الاجابة الشافية. لدينا اجابتنا المعروفة.. اجابتنا التي جربتها شعوب اخرى في اصقاع اخرى فشفت وكفت. وماذا بالنسبة لشعبنا نحن وامتنا نحن؟ اننا نسأل ونسأل فمن يسمع؟ ومن يجيب؟ نسأل بمنتهى الموضوعية وليكن الجواب بمنتهى الموضوعية. وعاشت الموضوعية!.

«صوت البلاد» العدد ١٠١ ١٩٨٦/٩/٣

زمن الهامبورغر

لا أحب لحم الخنزير. أهي الخلفية الدينية؟ ربما وربما ايضا لان موقفي من اللحوم منسجم مع موقفي من مصادرها. لا احب الضفادع وسرطانات البحر وافاعي المياه والفئران البيضاء لذلك فلا سبيل امامي الى قابلية التهامها كما يفعل الناس المتحضرون والذواقة في مطاعم باريس الفاخرة.

بناء عليه احاول تفهم موقف ذلك الطالب الياباني الذي وضع حبيبته في الثلاجة وراح يلتهمها بتلذذ فظيع على ايقاع شريحة كل يوم!

واحاول ايضا ان اتفهم موقف الديبلوماسي الافريقي الذي التهم زوجته المصرية في ليلة الدخلة (يبدو انها كانت، رحمها الله، من الصنف الذي يؤكل شرعا !!).

وحين يغني الناس "أكلك منين يا بطة" فان هؤلاء الخبثاء يدركون في طويتهم ان البطة المقصودة ليست بطة القفص، بل بطة الخِدْر!.

وأنا أحب الهامبورغر، ويبدو انه علي تسجيل هذه الحقيقة باعتبارها اعترافا خطيرا على سُنّة الرقابة المصرية.

أحب الهامبرغر قوي قوي .. وحين يدعوني صديق الى احد مطاعم

"ويمبي" الشعبية الشهيرة بساندويشات الهامبرغر مع الشيبس فانني افرح حتى كانه يدعوني الى اكلة "المجدرة" التي تحرمني منها زوجتي.

هامبرغر مع شيبس .. يا سلام! اما الخنزير، حتى مع شيبس، فاعوذ بالله! وتأتي الرقابة المصرية لتحرمني هي الاخرى لا من المجدرة، بل من الهامبورغر.

ومن قبلي حرمت هذه الرقابة مخرجا مصريا يدعى شريف عرفة من اختيار اسم "موسم صيد الهامبورغر" لاحد افلامه، لماذا؟ لان بعض انواع الهامبورغر يصنع من لحم الخنزير. لقد درج بعض اجدادي واعمامي واخوالي من ائمة وشيوخ وفقهاء على تعداد مساوىء الخنزير مبررين تحريمه بما اصبح بالنسبة لي خلفية دينية مخيفة.

أما الهامبورغر فلا اذكر انهم "جابوا سيرته على السنتهم" في اي وقت وفي اي مكان.

ربما سمعوا بالهامبورغر فظنوه احد الاسلحة السرية التي خبأها هتلر في عنابره المرعبة. او انه احد ملوك الجن في بلاد الفرنجة. هكذا نجوت من تحريم الهامبورغر وظل بالنسبة لي اكلة مفتخرة.

وما دامت الرقابة بالرقابة تذكر، فان تحريم الرقابة المصرية اسم فيلم "موسم صيد الهامبورغر" يذكرني بتحريم الرقابة الاسرائيلية اسم احدى قصائدي "اعدكم بان ترثوا جيادا نفاثة"..

تعددت الاسباب والرقابة واحدة. ففي تحريم "الجياد النفاثة" خوف دفين في اللاوعي من الطائرات النفاثة. ولابد ان تكون من طراز "ميغ" السوفياتي كما قال لي الرقيب الاسرائيلي بلا رفة هدب.

أما الرقيب المصري فهو رجل تقي يخاف الله وتحسبا من دنس الخنزير فقد استبعد الهامبورغر تمشيا مع مبدأ: "الباب اللي بتجيك

منه الريح سدّه واستريح"!.

ولا يهم الرقيب المصري ان يقذف الطفل مع مياه غسله. المهم عنده هو الحصول على نعمة البركة وبركة النعمة.

ولأن الرقيب المصري الصغير لا يجرؤ على مواجهة ارباب السياسة الكبار فانه يتفشش في هامبورغر مخرج سينمائي يطمح الى ان يصبح كبيرا.

لا يعني الرقيب المصري ما يتكدس من حوله وعلى رأسه ورأس ابيه من دنس سياسي واجتماعي واقتصادي (وقد يكون في ذلك نمطا للرقباء العرب جميعا!!) إنما ما يعنيه هو اضافة سمة بدن اخرى الى سمات البدن الكثيرة التي تنغص عيشتنا وتمسخ احلامنا كوابيس. وأعوذ بالله من شرّ ما خلق!.

«صوت البلاد» العدد ١٠٢ ١٠/٩/٨٦

تصبحون على قلق

هناك شعوب بأكملها تكابد امراض سؤ التغذية ولسنا مطالبين باية شهادات في علم الطب لمعرفة السبب، ومعلوماتنا الطبيّة المشبوهة تدّعي بأن النقص في الفيتامينات هو السبب (ارجو الاطباء الا يتدخلوا).

نحن العرب لا خوف علينا من امراض سؤ التغذية، صحيح اننا لا نأكل ما نزرع، بيد اننا نأكل ما نشتهي، فالبترودولار هو مصباح علاء الدين العصري، نأمره فيطيع ويشتري ويبيع. اما المرض الخطير الذي يتهدد صحتنا فهو مرض النسيان، والسبب قدرة هائلة على النوم العميق ونقص هام في فيتامين القلق، ينتبه احدنا الى خطر داهم، فينفخ في الصور ويتبع النفير بالنفير، ونحن نغرب في النوم ونطنب بالشخير.

وتذكرني قدرتنا على النوم العميق بتلك الطرفة:

أحدهم: أنا مدين بمليون جنيه.

صديقه: مليون جنيه؟ وكيف لا تقلق؟ كيف تستطيع النوم؟

الاحدهم: أنا أنام الليل الطويل، أما الذين يجب ان يقلقوا فهم الدائنون!

طرفة لا بأس بها، لكن في حدود الطرفة، اما حين يحين الجد

فلا نستطيع التسليم بهذا المنطق، ولجعل التحفظ اكثر ملموسية فانني اقترح ان نتصور معا مثل هذا الحوار

احدهم: نحن تحت الاحتلال الاجنبي.

صديقه: الست قلقا لذلك.

الاحدهم: ولماذا اقلق انا، ليقلق الاحتلال الاجنبي.

وليس صدفة انني انتخب الاحتلال لهذه الطرفة المغرقة في سوادها وسوداويتها، فكثيرا ما اتساءل-ضد التاريخ: ماذا لو لم يأخذنا النوم في احضانه الشاسعة يوم حذّر من حذّر وانذر من انذر، الا اننا اكتفينا بالجنرال خالد بن الوليد واللواء طارق بن زياد والمشير عبد الرحمن الداخل قيادة لجيوشنا الهلامية في خنادق الأوهام ومطارات الخَدَر وقواعد الغيبوبة ماذا لو؟ ماذا لو؟

ويوم كان الحوار في العالم العربي محتدما حول شكل تدمير "اسرائيل" وتصفيتها، بحرا او جوا او برا، والجماهير على الاكثر والاقل -مؤمنة بعلمانية هذا الحوار وحكمته كان القادة الاسرائيليون يتحاورون (سرا وعلى غاية السرية) حول مجالات التوسع الاسرائيلي والاولويات الاستراتيجية لهذا التوسع.

ومن خلال معلومة نشرتها جريدة يديعوت احرونوت الاسرائيلية(٢/٧/٨٨) عبر رسالة من الجنرال رحبعام زئيفي (زعيم حركة الترانسفير التي تدعو الى ترحيل الفلسطينيين، خارج وطنهم) نكتشف ان الجنرال-الوزير اسحق رابين كان يثقف جنوده وضباطه في اواسط الخمسينات على الاهمية الاستراتيجية الكامنة في الضفة الغربية وعلى ضرورة الهجوم الذي يكفل الاحتلال السريع "يظهر ويتضح ايضا ان رابين حدّث عسكره عن المخططات الجاهزة في مقر قيادة يغال ألون (صديق العرب!؟) لاحتلال الضفة الغربية برمتها!"

هل حدث في العالم العربي منذ ذلك الوقت ما يدفع القادة الاسرائيليين الى النكوص عن مشاريعهم ومخططاتهم التوسعية؟ لست بحاجة الى من يحدثني عن الانتفاضة، فأنا اسأل عن العمق الاستراتيجي للانتفاضة، عن العالم العربي الشاسع بملايينه الطيبة والمجيدة.

وحين يتصاعد الحوار حول المؤتمر الدولي وقرارات هيئة الامم المتحدة ومجلس الامن والمفاوضات المباشرة والمنظمة الدولية وهلمجرا. هل تطرأ لاحد منا فكرة التساؤل عما يعدّه القادة الاسرائيليون من مفاجآت غير واردة في الحسبان؟

أم اننا نكتفي بالدعاء على الاحتلال بالقلق!

هل نعستم؟ انتم ذاهبون الى اسرتكم؟

لا بأس ايها الاخوة الاحباء.. احلاما سعيدة..

ناموا.. ولكن تصبحون على قلق!!

«صوت البلاد» العدد ١٥٩

كلمة في افتتاح المهرجان الوطني الثاني للادب الفلسطيني

أيها الاخوة الاعزاء، أيها المنتشرون المنكمشون مع نبضات القلب: من بيروت الى مقر الامم المتحدة .. ومن القدس الى بيروت

يبدو لي ان عقودا من الزمن تفصل بين لقائنا السحيق آنذاك في المؤتمر الاول وبين هذا اللقاء الثاني.

مياه كثيرة جرت في الاردن ثم استقرت في انابيب الري الحديثة في مستوطنات اليهود.

ودماء كثيرة، دماءنا، تغورت تراب الكرة الارضية بحثا عن اجابة ولو مقتضبة على السؤال المتكرر في اسئلة : كيف؟ لماذا؟ اين ومتى؟ حتى لقد اصبح دمنا المهدور عادة مألوفة من عادات الشعوب وتقليدا عاديا من تقاليد الهيئات والمؤسسات. من في هذا العالم من القطب الى القطب، لم يتسل بدمنا؟ ومن لم يتذوق هذا الدم بترفع ذواقة الخمر في معاصر الكروم العريقة؟ مع ذلك ورغم ذلك ينعقد هذا المؤتمر الثاني والذي سيعقبه حتما ثالث ورابع وهلمجرا، حتى نهاية الوجود غير المرجوة. هل هو التحدي؟ ولم لا؟ فليكن تحديا ما دمنا في زمن اذا فقدت فيه القدرة على التحدي فاتك فاقد عقلك وروحك لا محالة.

في الحرب العالمية الثانية كثر اللغط عن السلاح السرى الاميركي وسرعان ما تحقق ان ذلك السلاح لم يكن سوى القنبلة الذرية بحالها وكثر اللغط عن العنبر الالماني رقم ١١ .. ويقينا ان الالمان امتلكوا هم الاخرون سلاحا سريا فتاكا.

وعندنا .. ماذا عندنا في ظل الانظمة القبلية الحاكمة؟

اذكر اننا اطفال حرب ١٩٤٨ - كنا نتوشوش بفخر ومهابة عن مدفعين فظيعين عند الجيش اللبناني، احدهما يسمى "سفير جهنم" والثاني يسمى "الغضب" وكنا نكرر بفخر واعتزاز ما نسمعه من الاباء والاخوال والاعمام من ان هذين المدفعين كفيلان بمحق اليهود محقا عن وجه البسيطة، وسرعان ما خاب الفال واصبح الجيش اللبناني على السنة الاباء، والاعمام والاخوال وعلى السنتنا نحن الاطفال "جيش علبة العطارة".

وفي حرب ١٩٦٧ كنا -شباب النكسة- نمتليء حماسا مكررا "وفق تصريحات المشير عبد الحكيم عامر المكررة عن "اكبر قوة ضاربة في الشرق الاوسط وثاني او ثالث الاساطيل في البحر المتوسط"..

ونعود الى حرب تشرين ١٩٧٣ انذاك أصبحنا القوة السادسة في العالم على ذمة صحافة الانظمة .. واليوم، على ضوء الحرائق في بيروت الغربية، لا يبدو لنا في الافق سوى جريدة اسمها "تشرين" واكوام من الخردة تحت جزمات الغزاة الصهاينة.

كان هناك من يقول ان سلاح العرب السري هو "التضامن العربي" واذا كل الامر، بارادة الانظمة، لا يتعدى الخطأ المطبعي. واذا كل ما لدينا، لم يعد على ايدى الانظمة سوى "التطامن العربي"..

مع ذلك ورغم ذلك ينعقد هذا المؤتمر .. وانه التحدي عينه، لاننا

اهل للحياة عينها. والصك الشرعي باهليتنا للحياة هو ذلك الموقع بالدم يوميا بدءاً من بيروت وانتشارا مع نبضات القلب التي تغطي خريطة العالم باسره.

هل اقول ان الكلمة الشريفة الملتحمة بالموقف الشريف وبالارادة المستحيلة هي اذن سلاحنا السرى؟ اجل اقول ذلك، وبكل ايجابية القول وليس كرد فعل يائس على واقع ميئوس منه. اجل: الكلمة - الفعل، الفكرة - الطاقة، الموقف-التغيير.

وهناك ايضا اصدقاؤنا الثوار في العالم والعناصر النظيفة في الشعوب العربية الشقيقة والتي اصابها ما اصاب ابناء العقيد اوريليانو بوينديا في رواية "غابرييل غارسيا ماركيز" العظيمة (مئة عام من العزلة)، فقد اعلن ذلك العقيد المسكين في سورة غضب: "سوف اسلح يوما اولادي كي انتهي من تلك المزابل الامريكية".. وكان يعني بذلك احتكار شركة الموز الامريكية الشمالية فلم يكن من سفاحي شركة الموز الامريكية الشمالية الا ان راحوا يصطادون اولاد العقيد واحدا تلو الاخر وهم عزل من السلاح، غير دارين بما يجري من حولهم .. لم ينج سوى واحد من ابناء العقيد، هو "اوريليانو العاشق". وهذا شان شعبنا. انه أوريليانو العاشق الذى نجا من عنعنات الانظمة العربية وشنشنات الزعامات العربية والاذاعات القحطانية وما الى ذلك من الزبل الامبريالي -الصهيوني- الرجعي العربي، زبل الاكاذيب والخيانة والتآمر وكل ما يجعل المرء عرضة للتقيؤ لمجرد رؤية صور الملوك العبيد والرؤساء العبيد على شاشات التلفزيون العربية الاشد عبودية والملونة بال - سيكام.

ما زالت امامي مئة وثلاث وثلاثون صفحة حتى افرغ من رواية ماركيز العظيمة منذ صفحتها الاولى، ولا ادري بمصير أوريليانو

العاشق.

أما شعبنا العاشق فانني أرى مصيره الرائع بقدر ما أرى يدي هذه. وما هذا اليقين الا من اليقين المتجسد يوميا وفي كل ساعة وفي كل لحظة، تحت هدير القصف الجوي والبري والبحري، يقين البطولة الاسطورية والفداء غير المحدود والحب الذي خلق بجدارة، واحدة من اروع قصص الحب عبر التاريخ كله.

هذا، قطعا، هو سر انعقاد المؤتمر الثاني.. وهذا ما سنحتفل به ذات يوم قريب -اقرب مما نتصور- هنا في القدس العربية، عاصمة للانسان الفلسطيني وللمبدع الفلسطيني وللحضارة الفلسطينية..

«الطليعة»

أنت تطلق النار وأنا ابكي

رواية عاموس كينان "الطريق الى عين حارود" اصبحت بين ايدي القراء العرب بعدما ترجمها انطوان شلحت وراجعها وقدم لها سميح القاسم (دار الكلمة -بيروت). "ألقَبَس" قرأت الرواية، والحقيقة ان من الصعب جدا اضافة اى شيء الى تقديم الشاعر الفلسطيني الكبير والذي نثبته في ما يلي:

من حق عاموس كينان عليّ ان اقدمه للقارىء العربي، ومن واجبي ازاء القارىء العربي ان اهيىء له قراءة عاموس كينان بتمهيد صريح، فلا بد من استباق التأويل، بوضع النقاط على الحروف، كما يقولون.

منذ حوالي عشرين سنة ونحن نجد عاموس كينان الى جانبنا في معاركنا مع السلطات الصهيونية من اجل حقنا في التعبير الحر، وفي الحياة الكريمة على تراب آبائنا واجدادنا. وكان من الطبيعي ان تتحول علاقات العمل المشترك في القضايا السياسية والثقافية الى صداقات عادية متكافئة لا سيما جين تحول عاموس كينان من نصير لضحايا الرقابة على الادب إلى ضحية لهذه الرقابة. فحين نشر

مسرحيته "الاصدقاء يتحدثون عن يسوع" داهمه مقص الرقيب الاسرائيلي، واكثر من ذلك فقد حاولوا تشويه مضمون مسرحيته لاثارة الطوائف المسيحية الفلسطينية ضده. أنذاك جاء دوري للوقوف الى جانبه. وكتبت في مجلة "الجديد" مقالا ضافيا لنصرة عاموس كينان على دهاء رقابته من جهة، وعلى سهولة استثارة مشاعرنا الدينية من الجهة الاخرى. بيد ان صداقتنا لم تكن عادية. ذلك ان عاموس كينان مفعم بالتناقضات، بحيث يبدو احيانا اشد اعداء الصهيونية مراسا، ويعود من ثم ليبدو وكأنه حامي حمى الصهيونية. فتسأله حائرا هل انت صهيوني يا عاموس؟ ويرد بهدوء يكاد يكون خبيثا: انا ابن هذه البلاد ولا تهمني التسميات.

أما اختيار هذه الرواية "في الطريق الى عين حارود" (هي عين جالود او عين جالوت عندنا) للترجمة الى اللغة العربية فليس منوطا بدعاوى الصداقة والعداء، انه موقف موضوعي من العمل بحد ذاته. فالى جانب الاهمية الفنية للرواية هناك اهمية بالغة الخطورة للمضمون الذي بنيت الرواية به وفيه ولأجله. وفي صعود "نجم" الرابي الفاشي مئير كهانا، وفي اتساع رقعة السرطان العنصري بين خلايا بلادنا المنكوبة، نجد المصداقية الكافية لناقوس الخطر الذي يقرعه عاموس كينان في روايته هذه فلسنا هنا امام قصة من قصص الخيال العلمي. نحن نتعامل الان مع ضوء احمر قان يستمد مبرره الحاسم من حمرة الدم المسفوك في بلادنا، وفي منطقتنا، على ايدي "المارينز العبريين"، بحارة اكبر حاملة طائرات اميركية "تدعى اسرائيل" على حد تعبير مناحيم بيغن (هل تذكرونه)؟

وتشكل هذه الرواية تسجيلا دقيقا لكابوس مرعب يقض مضجع كل انسان في بلادنا لم تهدر انسانيته بعد. انها رواية الفوضى

والانقلابات العسكرية المتعاقبة التي تنتظرها اسرائيل، حيث تجري عمليات التصفية الجسدية والغاء الصحافة (على اليابانيين ان يهتموا بشأن اليابان) وذبح ما يتم ذبحه من المواطنين العرب، وطرد من تكتب له السلامة الى مكة، وسقوط الانسان في الانسان، والانحطاط الى درك الخنازير وما شابه ذلك من العذابات والهلاك والفساد والتلاشي. وفي غمرة الفوضى والتسيب فان "جمهورية فايمر" جديدة تنشأ في عين حارود الحرة، وتتحول هذه البقعة السليمة من الجسد المتعفن الى حلم الناس الاحرار الذين يتكبدون وعثاء اللجوء ومخاطر الدفاع عن كيانهم الانساني المجرد، من أجل بلوغ رأس النبع -الحلم-الامل-الملاذ الاخير.

إذن فعاموس كينان ماض الان "في الطريق الى عين حارود" ولا يسعنا الا ان نتمنى له رحلة موفقة، بيد ان الكاتب لا يمضي في الطريق وحيدا، ثمة شخصيات اخرى ترافقه في رحلة الهلاك والحلم: محمود، ورافي، وليئورة، والمؤسسة العسكرية، وباخ، والحمير المسموح لها بالتجول لانها من سلالة حمير سيدنا ابراهيم، وطيور مهاجرة، ومصفحات، وطائرات هليكوبتر، وهلمجرا.

وعليه فمن الطبيعي ان تجري حوارات، وان تعلن مواقف، وان يتم تبادل الاراء ووجهات النظر في هذه المسألة او تلك. وهنا اجدني مضطرا للتدخل طارحا جملة من الملاحظات سلبا وايجابا. وابدأ بالملاحظات السلبية حتى يكون الايجاب مسكا للختام.

١- يصر الكاتب على ان لليهود حقا تاريخيا في فلسطين، ويتجسد هذا الاصرار في التعامل المفرط مع مسائل الاركيولوجيا اليهودية، وفي الحوار غير المتكافىء مع محمود، وفي الاستطراد

المقحم والاسهاب في ذكر الاسماء والوقائع اليهودية الى جانب تلميحات طفيفة (لتبرئة الذمة) بالنسبة للاخرين الذين عاشوا في هذه البلاد، او عبروا فيها. على سبيل المثال، فان الكنيس الذي عثر عليه بطل الرواية في كهف مجهول يبدو وكأنه انتظر بطله هذا طيلة ١٨٠٠ عام. غير ان هذا البطل اليهودي يتجاهل حقيقة جد بسيطة وهي ان فلسطين لم تنتظر اهلها العرب سوى ٣٦ عاما. ذلك انهم عاشوا فيها منذ ظهر اسلافهم اليبوسيون والكنعانيون قبل ظهور اليهود واليهودية والتوراة بآلاف الاعوام. ان بدعة الحق التاريخي اليهودي هي بدعة صهيونية لا مبرر لها على اي مستوى من مستويات الفهم الانساني السليم. وما هذا الحق التاريخي المزعوم سوى وسيلة غيبية لتمرير مؤامرة امبريالية، استهدفت تمزيق الامة العربية والوطن العربي، وها نحن نلمس على جلودنا آثار هذه المؤامرة.

٢- لم يكن الكاتب عادلا في حواره السياسي مع محمود. فهو يزعم ان محمود يضع المعادلة السياسية على هذا النحو: "يوجد فقط اما واما"، اما العرب واما اليهود.

ولنلاحظ اجابة رافي: "لا يوجد فقط اما واما". وخلاصة الامر بالتبسيط النثري المباشر هي كالتالي: الفلسطينيون يرفضون التعايش، اما اليهود فيقبلون به. وهذا تزوير مفضوح لحقائق السياسة البسيطة والمبذولة على الاصعدة كافة. فان التزمت الصهيوني وشهوة التوسع والاحتلال والعنصرية، فكرا وممارسة، من الجانب الاسرائيلي، هي العقبات التي تعترض سبيل اي حل سلمي يضمن لاصحاب الوطن الشرعيين حقهم التاريخي في العودة الى وطنهم الشرعي، واقامة دولتهم المستقلة بقيادة منظمتهم الشرعية، منظمة التحرير الفلسطينية.

٣- في مواجهة نوع من توبيخ الضمير فان الكتاب العبريين الليبراليين يحاولون التملص من الحقيقة الدامغة (شعبهم يضطهد شعبا آخر) بتوزيع المسؤولية على الطرفين (القاتل والضحية). ويقع عاموس كينان في المطب نفسه: "وسألت راشد" (المقصود هو المرحوم الشاعر راشد حسين الذي ربطته بعاموس كينان علاقة صداقة طويلة ومعروفة) "لماذا لا يذرف دمعة على ولدي الذي مات وليس على ولده فقط ولم يعرف كيف يجيب".

كان راشد سيجيب. واية اجابة! ولعله من الظلم الفادح ان يوجه الاسرائيليون سؤالا الى راشد حسين بالذات لانه اليوم لم يعد قادرا على الاجابة. القتلى لا يتكلمون. وراشد حسين هو شهيد اخر من شهداء الغربة والتشرد تحت وطأة الكابوس الصهيوني. ولا عدالة اطلاقا في هذا الحوار غير المتكافىء بين القاتل والضحية.

٤- اذا جاز التعميم فان الاسرائيليين يكرهون سوريا والسوريين كرها مرضيا. ولهذا المقت منابع دينية. حيث يعتقد المتدينون اليهود بأن "من الشمال تأتي الضائقة". والسوريون لا يرفضون الاحتلال الاسرائيلي فحسب، ولا يشكلون حجر عثرة في طريق الشهوات الصهيونية فحسب، انهم فوق ذلك موجودون في الشمال، و"من الشمال تأتي الضائقة". وفي هذه الرواية، فان السوريين يذبحون اسيرا حتى يستنطقوا الاخرين، وهم يغتصبون أسراهم. انهم القساة المتوحشون وغلاظ القلوب. وبقدر ما هو واضح في المعطيات، حتى الامس القريب، فان هذه الصورة الشائهة ليست سوى قناع لاخفاء الحقد الصهيوني البهيمي على السوريين. وما كنت اريد لكاتب خبير مثل عاموس كينان ان يسقط مثل هذه السقطة، التي لا تتنافى مع الواقع السياسي فحسب، بل تتنافى اصلا مع روح الادب، اذا كنا نعتبر

الادب طموحا انسانيا صادقا الى تغيير الوجود البشري، وتطويره، وتثويره نحو الافضل والارقى والاجمل. ولتأت الضائقة أنذاك من حيث شاءت.

٥- من مميزات الذهنية الاسرائيلية الشائعة ذلك الايمان المطلق بتفوق العنصر العسكري الاسرائيلي، جيشا، وافرادا، وقيادة، وسلاحا، وتخطيطا، وتنفيذا.

بعبارة اخرى، التفوق الكلي الشامل والناجز، ومن هنا فان الجندي الاسرائيلي هو محارب اسبارطي بمنطق الماضي، وهو سوبر مان بالمنطق المعاصر على الطريقة الاميركية. وعسكريو هذه الرواية من السائق الى الجنرال هم من الطراز السوبرماني، فهم دائما رابطو الجأش وعلى اهبة الاستعداد، ومبدعون في الارتجال، ومتميزون على كل المستويات. وعداء عاموس كينان الواضح للعسكرية الاسرائيلية لا يستطيع التعتيم في هذه الرواية على اعجابه الشديد بالعسكري الاسرائيلي.

فالعسكري الاسرائيلي يتشبث بعنفوانه، وعجرفته حتى حين يكون في مأزق رهيب، علما بأن الوقائع التي يعرفها بعضنا تناقض هذه الصورة وتدحض هذا الزعم. ولاننا مناهضون للعنصرية فاننا نرى في العسكري الاسرائيلي رجلا عاديا يخاف ويجرؤ، يتفاءل ويتشاءم، يتقدم ويتقاعس، وفق الحالات التي تكتنفه وتفرض نفسها عليه. فحتى في اعقاب النصر الاسرائيلي اثر عدوان ٥ حزيران ١٩٦٧، عرفنا قادة اسرائيليين تقيأوا وسلحوا في بززهم العسكرية حين تعرضوا لمواقف خطيرة او حرجة، في اثناء الحرب. والعالم كله يعرف حالات الانهيار العصبي والتفكير بالانتحار التي انتابت بعض

كبار القادة الاسرائيليين في اثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣. وما كنت اتوقع من كاتب بحجم عاموس كينان ان تجرفه روح السوبرمانية العسكرية الاسرائيلية، مع احترامي الشديد لعدائه الواضح للمؤسسة العسكرية ذاتها.

أما مسك الختام، فملاحظات هي قطعا في صالح هذا العمل الروائي الفريد في هذه المرحلة الفريدة.

١- في عدة مواقع من الرواية نجد تعبيرا صادقا عن التأزّم، واعادة الحساب والخيبة والاحباط ازاء ما كابده الشعب الفلسطيني من تشرد ودمار وعذاب على يد الصهيونية.

٢- يؤكد الكاتب على ضرورة التعاون العربي -اليهودي في سبيل الخلاص من كابوس العسكرية الاسرائيلية، وهو لا يفعل ذلك من خلال شخصية محمود فحسب، بل يعلنه بالنص المباشر "يتعين علي ان اجد عربيا.. كل خطتي للهرب مبنية على العرب".

٣- يتحقق في هذه الرواية مبدأ مهم من مبادىء فهم الفاشية فهما انسانيا ومعالجتها من الموقع العلمي الصحيح، الموقع الاممي، فالعنصري اليهودي الذي يحقر الانسان العربي بتعبير "عربوش" يتوصل بالضرورة وبالمنطق التاريخي المجرب والمعروف والمؤكد الى ان يحقر الانسان اليهودي المعارض لافكاره بتعبير "يهودون" الامر الذي يقيم الدليل على صحة التحليل الطبقي للفاشية، ويدحض الزعم بان النظريات والمقولات القومية هي فوق الطبقات، وتتجاوز مفاهيم الصراع الطبقي.

٤- تسجل هذه الرواية، وبطريقة فنية لامعة، عملية الفرز والاستقطاب الجارية في البنية الاسرائيلية. فحين تحاول

العسكرية الصهيونية الناطقة بلسان البريغادير ان تتستر بدعاوي الاجماع القومي والسلام الاجتماعي: "نطلق النار ونبكي" فان القوى الديمقراطية الهائمة على وجهها "في الطريق الى عين حارود" تتصدى لهذا المنطق المزور وعلى الفور: "انت تطلق النار وأنا أبكي".

ليس هذا كل ما في الامر. هناك مسائل اخرى يثيرها هذا العمل الروائي. الا اننا غير ملزمين الان، وهنا، باستكمال الحوار. وعلى عكس ما تراه القصيدة التي يستشهد بها عاموس كينان في مستهل روايته، فانني أرى ان الطريق الى عين حارود طويلة، وطويلة جدا ولا يبقى لنا، اذن، ما نضيفه في تلك الطريق الطويلة والشاقة حقا.

«القبس» ١٩٨٧/٩/٢٦

هل هي سبعة اعوام حقا

يسير رئيس التحرير باصابع يده على مساحات الزمن الهائلة. يتوغل في النظام المرعب فوق سطور الاجندة المستقيمة. سيعثر على موضوع للعدد القادم:

خمسون عاما على الحرب العالمية الثانية

خمسون مليون قتيل

سبع شعرات بيض على الصدغ (الشعر الابيض هو ارشيف الماضي -ادغار الان بو)

سبعة اعوام على مذابح صبرا وشاتيلا.

هل هي سبعة اعوام حقا؟

لنخرج من الاجندة. لنقف في زاوية محايدة على كوكب اخر. وآنذاك سنكتشف ان للحدث، اي حدث، اكثر من زمن واحد. ثمة زمن في الجسد. زمن في الروح. زمن في الذاكرة وزمن في الزمن.

أي زمن لي انا ذبيحة صبرا وقربان شاتيلا؟ ان كان لي زمن البَنْدورة القديم افلن يكون لي زمن البَنْدورة هذا القائم بجحيمه المتداخل في جحيمي؟

هل خرجت صبرا من صبرا؟

هل رحلت شاتيلا عن شاتيلا؟

لنترك الاجندة جانبا -ولنقترب من صبرا وشاتيلا في ذاكرتنا الملتهبة كبيروت الجسد وبيروت الذاكرة.

لنترك بيروت جانبا ولنقترب من القدس.

ولنترك القدس في الاجندة ولنقترب من غزة ونابلس. لنقترب من قبورنا المفتوحة بلا هوادة، بلا رحمة وبلا اجندة. هناك نبني كنيسا لدمنا ونهدم ديرا على رماد اوشفتس.

سبعة اعوام؟

ليكن. لا اعترض على دقة الحساب. لا اعترض على مشيئة الله وعلماء التقاويم، وانني لاذكر، اذكر جيدا.

في ساعات الفجر الاولى عرقلت القذيفة الصاروخية مسار الشعاع الاول. كان ذلك شعاعا غير مبرر. أما القذيفة فاسميها المحبة والقبها الوحدة. ولم يكن ذلك الطفل مبررا لانه لم يولد في فلسطين. اما الصلية التي مزقته فاسميها التسامح والقبها الحرية، ولتكن الاسرة النائمة اسرة ميتة. أما الدبابة فاسميها القومية ولتكن نواقيس القيامة، كل شيء في مكانه. ولكل شيء مكانه.

تبرير كامل من شأنه ان يفند قشرة بشرية طارئة على تراب صبرا وصفيح شاتيلا.

أذكر جيدا. أذكر كان هناك ملاك ابيض وطائرة زرقاء. اما اللهيب فلبرتقال يافا. جافا اورانج للتصدير (لم يعجب الانجليز ان يجير الاسرائيليون اسمه الى جافو اورانج فامتنعوا عن شرائه حتى خضع الاسرائيليون اخيرا للجنيه الاسترليني وعادوا الى التسمية القديمة بلون له وهج الحرائق في صبرا وشاتيلا.

ولندخل الاجندة. لا بأس. ولنبحث هناك عن التاريخ، لنكتشف مدى العبث في البحث عن التاريخ داخل الاجندة. سيكون في مقدورنا ان نعثر على مواعيد القصف بدقة متناهية، وسنعثر على نصوص الاوامر العسكرية. هذا ما يفعله المؤرخون. أما الادباء فيذهبون في فارق الزمن بين خطوط العرض والطول على حبة البَنْدورة تارة وعلى حبة البَنَدورة طورا.

وماذا يظل لي أنذاك؟ ماذا يظل لذبائح صبرا وقرابين شاتيلا؟ يقول المسيو اندريه مالرو ان الحياة لا تساوي شيئا، لكن لا شيء يساوي الحياة.

أنا اصدقه. صبرا تصدقه وشاتيلا. أما المؤرخون فسيظل لهم رأيهم الاخر. رأيهم اللائق بالأجنده.

سبعة اعوام؟

كان بودي ان اقيس سرعة القذيفة لاكشف على الملأ مدى حمق المعايير المتداولة والمقاييس المكرسة.

وكان بودي ان اقيس سرعة النزيف وتلاشي الرمق الاخير لاسلح نفسي بما يليق بصبرا وشاتيلا من سخرية طاهرة.

كان بودي. لكنها سبعة اعوام. هكذا يقول المؤرخون هكذا تحكم الاجندة. لا اعترض. لا اعتراض على شيء ذلك ان الاعتراض يفترض التصديق. ولا ينبغي الافراط في التصديق. حسبي انني صدقت المسيو اندريه مالرو مرة واحدة.

صبرا وشاتيلا ميتتان. انا على قيد الحياة. ولا اصّدق. صبرا وشاتيلا على قيد الحياة. وانا انا الميت. واذا كان باستطاعة الموتى ان يسيروا فسأسير الى المؤتمر الدولي وهناك سأقدم التماسا خطيا إلى هيئة الامم المتحدة: اضيفوا الى مائدة المفاوضات مقاعد خاصة بوفدي الخاص: ذبائح صبرا وقرابين شاتيلا..

سبعة اعوام على الاكثر

سبعة وسبعون مقعدا على الاقل

«صوت البلاد» ١٥/ايلول/١٩٨٩

الانتفاضة والثقافة

اخي الشهيد الحبيب

لا قياس للوقت الموغل في دمك، لا حدود لزمنك. انما يقول القائلون بذهابك. يتبارى النعاة في ميدان روحك. واركن الى ضمت يتشبه بالموت ليتشبث بالحياة. الا ليت لي من حياتي ما كان لك من موتك. انني لاعتذر لمضجع راحتك بقدر اعتذاري لمرجع قلقي وشقائي. ذلك انه في الحق الحق ان الذين قتلوا في سبيل الله والوطن لا يحسبون في الاموات بل هم احياء في ضمير احيائهم ينعمون، ومخلدون عند ربهم يرزقون.

أما بعد

فقد كلفني صديق صدوق بالنظر، لأجلك، في امر يشق على النظر، لما فيه من حكمة الخالق وتدبير البشر. وما دمنا نحن الشعراء منذورين لجس المرئيات بحاسة السمع، ولتخويل القلب حق التعامل مع المجسمات ببؤبؤ الوجدان فكيف لي إذن أن اضبط انفاسا متلاحقة في وتيرة الطلقات (الرصاصية والمطاطية والبلاستيكية) وانفجارات قنابل الغاز الشعثاء، لأتحدث برصانة الباحث وأناة العالم عن اثر

الانتفاضة في ثقافتنا؟

إن تحطيم العظام وقتل الاطفال واجهاض الامهات ودفن الاحياء واقتلاع الاشجار المثمرة وتدمير المنازل واهانة الشيوخ وتجويع الرضّع واعتقال الطالبات ودفع الشبان الى الحائط واغلاق الجامعات ورفع الحواجز الاسمنتية الشائكة في الشوارع واقتحام المساجد ومصادرة الأذان وغزو المستشفيات وتحطيم اجهزة الصحفيين وضربهم ودفع عصابات لصوص الارض المسلحة للتنكيل بأصحاب الارض المسروقة وعمليات السطو القانوني المسلح وتزوير التاريخ والجغرافيا وبكاء القاتل "المتحضّر" على ضحيته "الهمجية" وولع المجرم بمكان جريمته والرد بالراجمات التكنولوجية على حجر في راحة طفل يتصدى لدبابة وحوّامة ومجنزرة، كل هذه الامور العادية والمألوفة في وطننا وزمنهم، كلها تصلح مواد اولية للنتاج الثقافي. واذا كنا قد تناولناها في اعمالنا فاننا لم نتناول اكثر مما يمكن ان يعلق بطرف الشوكة من مائدة عامرة بأطباق جسدي المطبوخ وفق قوانين "الكوشير" الالهية.

وأما بعد،

فلا يجوز لنا اقتحام هذا الموضوع (الانتفاضة والثقافة) بمنظور السبب والنتيجة. فلم تكن الانتفاضة سببا فحسب، هي نتيجة ايضا، وسيبدو ذلك واضحا اذا نحن ابتعدنا قليلا لتتسع رقعة التاريخ المنبسطة امامنا. وبالمنطق نفسه فان الثقافة ليست نتيجة فحسب، بل هي سبب، بشكل من الاشكال، وقد هالني، وأنا في غمرة اعداد انتولوجيا الشعر الفلسطيني ان الحجر والغصن وحفنة التراب والجذور والصخرة والبذرة، كلها كانت رموزا طاغية في الشعر العربي

الفلسطيني لا سيما منذ ارهاصات النتاج الثقافي الفلسطيني (الوطني-الاقليمي) في مواجهة المشروع الصهيوني الاستيطاني.

لا يجوز ولا يمكن ان تعني هذه الملاحظة تقليلا من شأن الانتفاضة في الثقافة العربية. وازعم ان الاثر الحقيقي لهذا الزلزال الذي اعاد اصطفاف طبائعنا وافكارنا بشكل ارقى، سيظهر مستقبلا. ذلك ان تعبيرنا عن اللحظة المعيشية يختلف قطعا عن انعكاسات هذه اللحظة وتداعياتها بعد عبورها. ويجوز القول ان هناك شكلين او صيغتين للتعبير عن التجربة: الصيغة الراهنة المتعاملة مع حركة التجربة وتلك الصيغة المرجأة التي تتعامل مع سكون التجربة، مع الدخان الذي يدوم طويلا وفي تشكيلات شتى بعد خمود النار. ولا مبرر للمفاضلة بين ما يكتب اليوم، في غمرة الحدث، وبين ما سيكتب او قد يكتب مستقبلا، فلكل نتاج مقوماته الفنية والنفسية. فلا تستطيع قصيدة الانتفاضة الناجزة الآن الا ان تتفجر وتتشظى على ايقاع المجابهة الدموية المشتعلة في الشوارع والساحات العامة وفي غرف النوم نفسها. اما قصيدة الشاعر في مرحلة بناء دولته المستقلة -غاية الانتفاضة- فبمقدورها ان تكون اكثر هدوءا وتأملا وتغورا للذات.

وليسمح لي بالتمييز بين "قصيدة الانتفاضة" والقصيدة عن الانتفاضة .. انهما مختلفتان قطعا، ولكل منهما جماليتها ومبررها الفني.

واذا نحن اتفقنا على ان الادب محكوم بكل ما يحيط به ويكتنفه ويتفاعل معه من مسائل الثقافة الاخرى والتي تعني الحياة برمّتها، فانه يصبح امرا ذا بال، ان نسجّل بعض الملاحظات السريعة (لا يمكن الا ان تكون سريعة) عن المتغيرات العميقة في معادلات

البنية الاجتماعية الفلسطينية ذات الاثر (وأي اثر!) في البنية النقيضة نفسها، البنية الاسرائيلية.

إذا كانت عواقب الاجتياح الاسرائيلي للبنان قد أدت الى خلخلة حقيقية في النفسية الاسرائيلية (الرسمية والشعبية على السواء)، فانه من شأن الانتفاضة ان تجهز تماما على جملة من المسلمات الاقليمية والعالمية التي طالما عرقلت خطانا وشوهت صورتنا وغنصت عيشتنا على ساحات الارض قاطبة.

اليوم، لم نعد نحن المطالبين بالبرهنة على انسانيتنا، لم نعد نحن المطالبين باقامة الدليل على تحضرنا، لم نعد ملزمين باقناع الرأي العام العالمي بان الضحية هي الضحية حقا وان الجزار هو الجزّار حقا. لم نعد مضطرين لمجابهة الديجاتيف الاعلامي والاخلاقي الذي طالما قايض المعتدي بالمعتدى عليه.

نستطيع القول ان العالم يستعيد رشده ويتحرر تدريجيا من جرعة البنج الضخمة التي حقنه بها سدنة الصهيونية والامبريالية العالمية على امتداد نيف واربعين عاما.

ونستطيع القول بوضوح وبجرأة (اذا كان ثمة داع للجرأة هنا) ان الفلسطيني تغير في عين نفسه وأن العربي تغير في عين نفسه كما أن الاسرائيلي تغير في عين نفسه، وعبر كل ذلك فقد تغير المستر عالم في نظر نفسه.

لم تعد لدى العربي شكوكه المطلقة بنفسه. ولم يعد لدى الاسرائيلي يقينه المطلق بنفسه. ولم يعد لدى المستر عالم ما كان لديه من بلادة وتجاهل وانحياز.

هل انتصر الضمير الانساني في قضيتنا العادلة؟ لا. من السابق لأوانه القول بمثل هذا النصر. الا انه منتصر في نهاية المطاف، مطاف

المعاناة، مطاف التجربة، مطاف الانتفاضة.

وتنعكس هذه الامور بجلاء تام في النتاج الثقافي العربي والاسرائيلي والعالمي.

أمتلك المثقف العربي (من خلال الانتفاضة) مادة جديدة لمعنى جديد، امتلك المصداقية الاخلاقية والسياسية والثقافية ازاء ما هو مألوف، اي ما هو ميّت في الحياة العربية والنظام العربي.

وامتلك المثقف الاسرائيلي مدى من الحرية في مواجهة القمع الروحي المزمن المفروض عليه منذ الطوفان النازي الهجمي. لم يعد مطالبا (طواعية !) بالتماثل الكامل مع سلطت (ة) ونظام (ة) وصهيونيت (ة). اصبح قادرا على النطق بلاءاته هو وعدم الالتزام بلاءات شمير وبيرس وما يمثلانه من جشع توسعي استيطاني على حساب شعبنا المنكوب.

واذا كان المثقف الأورو -امريكي ملزما بالدفاع عن اسرائيل حتى في اوج عدوانها الفظيع (حزيران ١٩٦٧) ليثبت لبيئته (وربما لنفسه ايضا) انه في المكان المناسب من الخندق الصحيح، فقد تغيرت اطراف المعادلة الآن، واصبح الموقف من الانتفاضة (اللفظة العربية الاولى في معجم لونغمان الانجليزي) هو بارومتر الصدق والشجاعة والعدالة.

أذكر، في مستهل عصر الانتفاضة، انني دعيت الى بلجيكا للمشاركة في مهرجان تضامني مع شعبنا. وحين انشد المغني البلجيكي اغنيته الفرنسية "*Intifada*" فقد بكيت. كانت الاغنية مؤثرة جدا، لكنني اعترف بأن هذا لم يكن السبب الحقيقي لبكائي.. لقد تذكرت دفعة واحدة حجيج فناني العالم الكبار الى اسرائيل وغناءهم للجنود المنتصرين على عذابنا وحزننا ودمى اطفالنا ..

تذكرت دفعة واحدة تظاهرات التضامن الثقافية في مناخ نكبتنا ونكستنا وهزيمتنا، لا مع الجديرين بالتضامن بل مع الفاتحين الذين اتقنوا غزو الضمير العالمي قبل اتقانهم غزو اراضينا واشواقنا وطموحاتنا.

كما في النظام الفلكي، كما في الاوزون والطقس، كما في معدلات البرودة والحرارة السنوية، كذلك في الانسان .. انماط وظواهر تتلاشى لتحل طرز جديدة وحالات جديدة ومسلكيات مختلفة (للافضل كما نرجو).

وإذا كانت شروط الانتفاضة محكومة الى حد ما بالموروث السلوكي والفكري فانها تفرض بطبيعتها الثورية -الجماهيرية- التقدمية شروطها هي وتقدم لنا، على طبق من سيقان الحنطة، امكانات جديدة لمفاهيم اجمل ولطقس ارقى في علاقاتنا الاجتماعية على طريق الخلاص الذي لا طريق لنا سواه.

ومن حق الانتفاضة علينا ومن واجبنا ازاءها ان نجزل لها الشكر لانها ردمت الهوة بين الشعار والممارسة وقلبت الامزجة والقناعات في شؤون شتى.

ففي الاقتصاد: تعمق الوعي في مسألة الانتاج الوطني وضرورة تحقيق الاكتفاء الذاتي. صارت بضاعة الاحتلال رذيلة لا يصح تعاطيها، وتلاشى الاحساس بتفوق المستوردات الاجنبية. وتضعضع التسليم باعتبارها محصلة الجودة العالية. وبغض النظر عن مدى "علمية" هذا التحول فانه يظل تحولا ايجابيا في المرحلة الراهنة. وكان في اقتلاع ازهار الحدائق المنزلية واستبدالها باشتال الخضار، في مواجهة الحصار الاسرائيلي، دليل يتداخل فيه الصمود المعنوي بالصمود المادي ويرقى بالنفس الفلسطينية الى افق المقاومة الشاملة

الناجزة.

وفي السياسة: تبدلت صورة الزعيم التقليدية، فلم تعد شجرة العائلة والشهادة الجامعية بين الاقانيم الاساسية للزعيم. ثم ان اللفظة نفسها تراجعت امام لفظة القائد، واصبح للزعامة مدلول يميل الى السلبية مقابل القيادة. وبرز بقوة الميل العام الراسخ للقيادة الجماعية وللعقلانية بمعناها الثوري، لا بالمعنى التبريري التراجعي.

وفي الاجتماع: تراخت الاطر العشائرية والطائفية وتحقق تماسك ملحوظ في الاطر الوطنية - القومية، وتناثرت مع أزيز الرصاص وصفير الزجاجات الحارقة ثارات قديمة، وتأكدت ضرورة ملحة للتشبث بمعنى "المصير المشترك".

وقدمت الانتفاضة لجماهيرنا درسا رائعا في الانضباطية والتفاؤل الثوري والتلاحم بين اليد واللسان والتماثل بين العقل والقلب.

كما انها أكدت مرة اخرى على ان الثقافة ليست مجرد بضاعة استهلاكية- وفق الاخلاق الرائجة في المجتمع الاستهلاكي- بل هي قطعة حياة من لحم ودم، ومدى حلم لا يعترف بالمدى.

وأما بعد، يا اخي الشهيد الحبيب،

فلا قياس للوقت الموغل في دمك. ولا حدود لزمنك. فبشّر الناهضين على الاذى المنتفضين على الضيم بأن الذين قتلوا في سبيل الله والوطن احياء عند شعبهم، راضون عند ربهم مرضيّون ولهم جنات تجري من تحتها الانهار ووطن تجري من فوقه الحياة. وشعب يَستَلهم ليُلهِم. وبَشّر الناس قاصيهم قبل دانيهم بأن هذا الانسان جدير بهذا الوطن.

مجلة «٤٨» ١٩٨٩/٩

أما بعد!

"فان قيل ما العالم؟ فيقال هو المصوّر للشيء على حقيقته. فان قيل ما العلم؟ فيقال صورة المعلوم في نفس العالم. فأن قيل ما الحي؟ فيقال المتحرك بذاته. فأن قيل ما القادر؟ فيقال هو الذي لا يتعذر عليه الفعل متى شاء. فأن قيل ما الفعل؟ فيقال اثر من مؤثر..." (من رسائل اخوان الصفا)

ثم اعلم أيها الاخ: ايدك الله وايانا بروح منه ان هذه الاضبارة تختزل في حقيقتها اكداسا من الاضابير وانها شخصية بقدر ما هي عامة. وانها قادمة اليك عبر سبعة استار حديدية تكتنفها سبعة فراسخ من الاسلاك الشائكة. وانك لترى حبر الكلمات دون دم الاصابع وانك لتسمع الصوت وتقصر عن الحنجرة والقسمات. وليس الحق عليك، ولا هو على الطليان !!

أما بعد،

فقد روى الرواة -والله اعلم- انه حين تلطخ وجه العالم وضميره بدم شعبنا العربي الفلسطيني عام نكبة وتسعمئة وثمانية واربعين، ضاع من ضاع وشرد من شرد وذبح من ذبح ووقع اتفاقيات الهدنة من وقع. ولم يبق على تراب الوطن من ابناء شعبنا (داخل امبراطورية

مهيون الفتية!) سوى بضعة نازفة مبلبلة مروّعة لا يزيد تعدادها على مائة وسبعين الفا جلهم من المسنين والمعدمين .. واذا كان بين "المنزرعين" نفر من الابطال الحقيقيين، فقد كان بينهم ايضا عناصر لم ترحل شمالا او شرقا. لا حبا بتراب الوطن فحسب، بل عجزا عن دفع ثمن تذاكر السفر، ايضا.

وأما بعد،

فان بضعة الشعب الطاعنة في السن وجدت نفسها امام خيار من اثنين: اما الصمود حتى النهاية.. واما الموت حتى النهاية...

وكما ترى ايها الاخ فقد وقع الخيار الحسن على قرار المجابهة الحادة والمباشرة والمستمرة منذ نيف وثلاثين عاما ..

واليوم تحولت الاشلاء الى جماهير يربو تعدادها على نصف المليون. وبين مطرقة الظلم وسندان العنصرية، فقد انصقلت هذه الجماهير وتفولذت واستبدلت شيخوختها المروعة بشباب مدهش.. فأكثر من ٥٠ بالمائة من اخوتك في الجليل والمثلث والساحل والكرمل والنقب هم دون سن الـ ١٤، وقرابة ٧٥٪ هم دون سن الـ ٣٠ .. وحوالي ٩٠٪ هم دون سن الـ ٤٠ ..

لقد وقع حكام اسرائيل اتفاقيات الهدنة مع حكام الدول العربية المجاورة، انذاك، لكنهم واصلوا حربهم ضد الاقلية العزلاء المصدومة تحت حكمهم ..

فرضوا علينا الحكم العسكري ومارسوا ضدنا انظمة الطوارىء الانتدابية البريطانية التي كان وزير عدل اسرائيلي سابق قد وصفها بانها "انظمة شبيهة بالقوانين النازية" ..

ورثوا عن الاستعمار البريطاني سياسة "فرق تسد" الرهيبة

وحاولوا تمزيقنا طوائف وعشائر وحمائل، وان كنت غير واثق من انهم يهوون جمع الطوابع فانني لواثق تماما من انهم يهوون جمع قوانين مصادرة الاراضي، ولذا تجمع لديهم اكبر مخزون في العالم من هذه القوانين!

وبالفعل، فقد راحوا يقضمون اراضينا شبرا شبرا.. وظل الكيل يطفح الى ان طفح الدم في يوم الصمود والفداء، "يوم الارض" الخالد، الثلاثين من آذار (مارس) ١٩٧٦... يومذاك غمر السيل الزبى وبلغ الذقون ولم يبق امام جماهيرنا سوى مجابهة الدبابات والرشاشات بالصدور العارية والحجارة والزجاجات الفارغة ..

سقط منا الشهداء والجرحى والاسرى غير ان الراية لم تسقط .. لم تسقط راية الدم والكرامة القومية التي بدأ نسيجها اجدادنا الكنعانيون قبل الميلاد بحوالي ٢٥ قرنا.. وواصل النسيج اجدادنا الانباط والغساسنة والازديون... وواصله عز الدين القسام ليسلمه من بعد راية مكتملة الى ايدي ورثته من الثوار الاشاوس...

لم يستنكف حكام اسرائيل عن وسيلة للقمع الجسدي والروحي ضدنا ..

واذا كانت كفر قاسم وسخنين ومجد الكروم وكفركنا تقيم الدليل على عمليات القمع الجسدي .. فأن عملية القمع الروحي تجد شاهدا من اهلها في الاستنتاج الذي توصل اليه الباحث الاسرائيلي "يوحنان پيرس" في دراسته عن "التربية القومية في مناهج التدريس العربية في اسرائيل" .. فقد اعلن ذلك الباحث بكثير من السخرية، ولا ريب، ان برامج التدريس في الوسط العربي في اسرائيل تقول للطالب العربي انه ينبغي عليه ان يحب هذه البلاد لانها كانت دائما عزيزة على قلب الشعب اليهودي!!

منتهى العبث.. منتهى اللا معقول.. وحضيض الالم.

أما بعد،

فاعلم ايها الاخ، ايدك الله واياها بروح منه، اننا نحب هذه البلاد لانها كانت دائما عزيزة على قلب شعبنا العربي .. وإذا كان لا بد لنا من ضريبة ندفعها عن هذا الحب، فأننا ندفع بسخاء .. ندفع من اعمارنا ودموعنا ودمائنا .. ندفع بلا خوف وبلا ملل .. واننا لقادرون على الدفع لاننا نملك ثروة قومية هائلة ..

والصمود، أيها الاخ .. الصمود هو ثروتنا القومية ..

أما بعد،

ففي هذه الايام تعجّ الصحف الاسرائيلية واجهزة الاعلام الاخرى بالانباء والدراسات والمراجعات حول ما يسمى ـ "الخطر الديموغرافي" .. وهم يريدون لهذه الضجة انْ تخلق التبرير لهجمتهم التهويدية الجديدة على ما تبقى من ترابنا القومي لا سيما في منطقة "الجليل"، انهم يتحدثون صراحة عن "تهويد الجليل"، اي جعله يهوديا .. وجليل اليوم ليس إنجليزيا ولا فرنسيا ولا استراليا .. انه كما تعلم عربي بن عربي .. ومما يكتبونه في صحفهم هذه الايام يبدو انهم مقبلون على بناء اكثر من ٣٠ مستعمرة يهودية جديدة في ارض الجليل .. وقد باشروا السيطرة على مساحات كبيرة مما تبقى لنا في النقب وفي المثلث .. وكل ذلك يجري في ظل "عملية السلام التاريخية".

إنهم يشنون حملتهم الجديدة تحت ستار كثيف من دخان كامب

ديفيد .. واننا لنكاد نختنق في دخان البارود الذي اكتشفه (او اخترعه، لا ادري!) السيد نوبل .. واننا لنكاد نختنق في دخان الاكاذيب السافلة عن "السلام" الذليل السافل الذي لا يعني في حقيقته سوى بيع شعبنا ووطننا بثلاثين ليرة اسرائيلية(قد تكون مربوطة بالدولار...).

إنما لا بأس ايها الاخ، الصمود هو ثروتنا القومية.

ختاما،

قد يكون بيننا "العالم" وقد يكون فينا "العلم" وقد لا نعدم "الحيّ" وقد لا نُحرم "القادر".. انما المسك "الفعل".. وصدق القائل ان "الفعل هو أثرٌ من مؤثّر .. فلنؤثر ولنترك لنا أثراً تحت الشمس!

«الوطن العربي» العدد ١٠٠

لن تقف الشمس
على اسوار بيروت

لعل ما حدث لمناحم بيغن على قلعة الشقيف الاسطورية يشكل بحد ذاته تلخيصا مدهشا لغزوة اسرائيل الفندالية في اللحم اللبناني والدم الفلسطيني.

هناك، عالياً، وحيث سجل المقاتل الفلسطيني مأثرة جديدة من مآثر البطولة والفداء توجه بيغن، بغطرسته المهزوزة المعهودة، الى احد جنوده المبهورين:

بيغن- هل استسلموا؟

الجندي - لا

بيغن - اذن هربوا..

الجندي - لا

ومضى بيغن دابا على عكازه وكأن احدا دلق عليه سطلا من الماء المثلج...

وتدخل الجنراليزمو شارون في محاولة يائسة لاشباع شهوة رئيسه:

شارون: ماتوا أو هربوا...

لاحظوا كلمة "ماتوا" هذه وما تحويه هنا من معنى الشماتة

الهمجية.. الا ان ارتعاشة الجانب الايسر شبه المفلوج من انف شارون كانت دليلا واضحا على ان الرجل ليس على ما يرام!

وحتى تكتمل الصورة فلا بد من الاشارة الى انزواء الجنراليزمو الآخر رفول ايتان بعد سقوط نائبه في الغزوة المقززة والتي سيكون لها ما بعدها من مضاعفات حتمية وبعيدة المدى.

هذا على المستوى "الرسمي". اما على المستوى الشعبي فيتلخص الموقف في ردود سكان تل ابيب على مراسل "يديعوت احرونوت" (٦-١٢) الذي استطلع رأيهم في الحرب الاخيرة: "القلب مهموم والحياة ماضية"... ولم تخف الصحف الصهيونية الصادرة في الايام الاخيرة قلقها من ردود الفعل الشعبية في العالم بأسره واللهجة غير المؤيدة لاسرائيل في وسائل الاعلام حتى في الولايات المتحدة نفسها، من شدة الدمار والهلاك اللذين رافقا جيش الغزاة في رحلته غير الميمونة اطلاقا.. وتنتقل كاميرا التلفزيون فورا الى فيينا حيث وقع انفجار بجوار منزل فيزنتال المسمى في اسرائيل بـ "صياد النازيين". ويتساءل المرء: من كان وراء هذا الانفجار؟ وما هي اهدافه؟ ثم، أليس واضحا ان وقوع الانفجار في اثناء غياب فيزنتال عن منزله (صدفة؟!) استهدف صرف الانظار عن جرائم الحرب البشعة التي ارتكبها الغزاة في لبنان، والتلويح مرة اخرى بالقميص اياه، قميص ضحايا النازية؟ الا ان خبراء الحرب النفسية والمخابرات لن "يأكلوا حلاوة" بعقول عقلاء العالم بعد ان اصبح التستر او الدفاع عن جرائم حكام اسرائيل مهمة مستحيلة. وبعد ان غطى الدم الفلسطيني واللبناني المسفوك بأيدي هؤلاء السفاحين خريطة العالم برمته.

إن هذه الحرب الجديدة، اسوة بكل حروب اسرائيل، لا تتعدى كونها محاولة مستميتة لقمع نواميس التاريخ الانساني واستبدالها

بنواميس قطاع الطرق والقراصنة علما بأن قطع الطرق والقرصنة اصبحا نهجا قانونيا وفق اعراف لصوص العالم الرأسماليين والاحتكاريين، وفي طليعتهم النظام الاميركي، رأس الافعى. فاسرائيل، كما يعرّفها رئيس وزرائها المنتخب مناحم بيغن، هي اكبر وافضل حاملة طائرات اميركية. ومن هذا المنظور يصبح جيش اسرائيل عبارة عن "فرقة اجنبية" في الجيش الاميركي. وعليه فلا يجوز لنا التعامل مع حروب اسرائيل من خلال التسميات والشعارات التي يلصقها بها مشعلو هذه الحروب.

الحرب الاخيرة، مثلا، تسمى في اسرائيل "عملية سلام الجليل"، وهذه التسمية الايجابية لفظا وشكلا تحمل-عبر ما هو حاصل-المضامين التالية:

١- الشهوة الحيوانية لتصفية الفلسطيني إنساناً وقضية وثورة.
٢- اقامة دويلات طائفية على النسق الاسرائيلي في لبنان تكون ظهيرا للصهاينة في عدوانهم المبرمج والمعد لهم خصيصا على حركات التحرر في المنطقة وفي العالم.
٣- اقتطاع قطعة من الارض اللبنانية لتصبح قاعدة عسكرية لما يسمى قوات الانتشار السريع الاميركية أسوة بما حدث في سيناء.
٤- العمل على تحقيق الحلم الصهيوني المعروف بضم جنوب لبنان الى اسرائيل.
٥- تركيع سورية وجرها الى حظيرة كامب ديفيد.

كان الهدف الاسرائيلي المعلن من هذه الحرب هو اخلاء شريط لبناني بعمق ٤٠ كلم من الفدائيين الفلسطينيين .. ومنذ ١٠-٦ اخذت الصحف الاسرائيلية، لاسيما هآرتس وجروزلم بوست ودفار

وعل همشمار، تتساءل عن مبررات الاستمرار في الزحف ما دام قد تأتى للجيش الاسرائيلي تحقيق هذه الغاية!

ولم تتردد "هآرتس" (١٠-٦) في الايحاء بأن اريك شارون ومناحم بيغن خدعا الحكومة وان الحكومة خدعت الكنيست. صحيح ان الحديث عن "خديعة" هو نفسه خديعة. الا ان وقائع الحرب وارتفاع عدد الخسائر الاسرائيلية البشرية والمادية وعنف المقاومة الفلسطينية-اللبنانية والصدام مع الجيش السوري، كل هذه الأمور كفيلة باثارة بعض التساؤلات عن جدوى هذه الحرب ايضا. وتحولت التساؤلات في بعض الاحيان الى اعادة نظر في المواقف السابقة والانتقال الى مواقف جديدة اكثر ايجابية ووعيا ومنطقية.

ففي "عل همشمار" (٩-٦) كتب الصحفي المعروف يغآل جلاي كلاما واضحا يعتذر فيه الى عيزر وايزمن .. كان وايزمن قد قال: (كل مكفود) اي كل الاحترام للجيش المصري الذي دمر خط بارليف. وفي حينه غضب جلاي وهاجم وايزمن. الا ان جلاي نفسه يكتب الآن عن المقاتلين الفلسطينيين:

"ان هؤلاء لا يتركون احذيتهم ليهربوا من القصف الجوي ربما كنت انا ايضا سأهرب. وانني لاعرف كثيرين من الجنود الاسرائيليين الذين اصيبوا في اقفيتهم. ولا بد من تذكيركم بأن الجندي المهاجم يصاب على العموم في صدره"!

ويرفض جلاي نعت "المخربين" الذي يطلقه الاعلام التخريبي الصهيوني على المقاتلين الفلسطينيين، ثم يؤكد:

"إن الجيش الفلسطيني يشكل اليوم تحديا حقيقيا. لم يعد الامر كما كان في سنوات السبعين. كل حملة على لبنان كانت تبدو آنذاك مثل شمة هواء. ليس ممتعا وليس مريحا ان نفكر بهذا الشكل، انما

من الافضل لنا رؤية الوقائع كما هي، حتى نستعد نفسيا لما هو أسوأ بكثير.

إن شعباً يملك جيشا كهذا سيكون له ايضا وطن. وذات يوم سنستقبل قائدهم في القدس وسنحييه: كل مكفود (كل الاحترام!)".

إن ما ينشر الان في الصحف الاسرائيلية من احتجاج على هذه الحرب الهمجية ومن دعوات للاعتراف بالحق الفلسطيني ليؤكد ان المئات بل الالوف من جيراننا اليهود اصبحوا على يقين من عبثية الشهوات والمطامع الصهيونية. ذلك ان رونالد ريغن لن يقوى على ايقاف الشمس فوق اسوار بيروت. ولن تتمكن قوات مناحم بن نون من ابادة كل ما هو حي في بلاد العرب. وحتى شهوة الدم والدمار التي هي مصدر مفضوح لنشوة الصهاينة الكبرى، لم يتح لها هذه المرة ان تبل غليلها تماما. فرغم الموت والتدمير اللذين يشيعهما الهمج والغزاة المتوحشون في كل زمان ومكان، واللذين أصابا فلسطين ولبنان بما يدمي الوجدان الانساني، فان الغزاة سيلعقون جراحهم زمنا طويلا.

والشعب الفلسطيني، الذي اصبح تجسيدا ماثلا لضمائر الناس الشرفاء والمتحضرين في كل بقاع العالم، هذا الشعب الصغير والجميل والاسطوري في بطولته وفدائه، اصبح صيحة واحدة تزلزل اركان الوجود من أسّها:

لا نسيان... ولا غفران!

«كل العرب» باريس

نحن الآن ..
(وثيقة تاريخية)

نحن الآن معي، هنا في داخلي، هنا في المصعد المعطوب بين دورين لا ثالث لهما. اباريق وطاسات نحاسية على الشرفات. وضوء غير مكتمل ابدا. ونساء عاريات عاريات في المقابر العسكرية الخاوية.

نحن الآن معي، هنا في داخلي. فلاحون يحرثون قنوات التلفزيون ويسقون بدموعهم اشتال الفيديو. عمال ارقون. ارقاء بلا عتق. كتب عتيقة. اجهزة اعلام مواخير. هيئات تخطيط قومية، بملاعق الخشب اياها، بقصعات الفخار اياها، بالليل المحيط-الاوقيانوس.

نحن الآن.

نحن الآن معي. هنا في داخلي. زبد. نراجيل. سيارات اجرة قذرة. مصابيح عمومية نسيها طاقم البلدية لذاكرة العسس. موانىء تتذكر وتبكي. تتذكر وتضحك. وتتذكر وتصمت الى الأبد. نحن الآن.

هنا. لا نحن. لا آن. لا هنا. سياح يتورطون مرة واحدة ولا يعودون ابدا. "باي باي" بابتسامة صفراء. "باي باي"، "فكّ أف". الموسوعة الاقل دقة من مهرج. الشعراء الاقل شعرا من مخبر. الصحف

الاقل صحافة من حضيرة. والمؤتمرات المؤتمرات المؤتمرات الاكثر يتما من يتيم فقد والديه في غارة جوية طازجة. فقد دموعه. فقد رعبه. نحن الآن.

أعود قليلا. اتريث كثيرا من اجل الدقة. محاولة اخيرة للفكاك من التعميم المحرج. لا فكاك. لا فكاك. وردة مفترسة تمد مجساتها المعدنية الى القلب. القلب المتعب المريض الوحيد والاخير. ميشيل دبغي، بالمناسبة. شعب بوان، بالمناسبة. والأفاق الذي اسمه وصفته وطالعة احمد بن الحسين المتنبي. لعبة. ضربة العمر. تكسب او تخسر. سيان الترجمات والاصول، الصمت والكلام. الهيولى وبراميل النفط الخام. سيان التعب جنونا والجنون تعبا. نحن الآن.

على مفترق الطرق تصهل الأفعى. يخرج الخيالة من لوحات الزيت المغبرة ويقفون طابورا امام فرقة الاعدام. يوزع جنود الاحتلال حلوى على يتامانا ويطلقون نيرانهم الرشاشة في الهواء المنعش لنجد الوقت الكافي للسقوط مرة اخرى. مرة في الفراش ومرة على احذية العسكر. نوزع الحلوى على شهدائنا ونرقص في الاعراس حتى ساعة متأخرة من الليل. حتى نعاس بنات أوى حتى سقوط نجمة الحلم الاخيرة عن شجرة لم تثمر من قبل ولم تقطع من قبل لأن البلطة معدة للعنق وشهادة الماجستير مريضة بالدهشة المزمنة والأطباء يتسفعون على سطح المستشفى في المدينة الطبّية، الثكنة العسكرية، البار، الكازينو. ويقول له: امي رأت أمك هناك. فيقول له: وماذا كانت امك تفعل هناك؟ ويقول له: سأقول للعالم ان اختك زانية، واذهب انت لتثبت للعالم ان لا اخت لك. ويقول له نحن

الآن في حضيض الحضيض يا بني. نحن الآن في قرارة الهاوية. لن تدركنا يد امرىء القيس لأنه مشغول بملك ابيه. ابن الكلب الملتجىء الى الروم هونا يصبح نَسَقا. يصبح انموذجا تاريخيا. شرعية غير شرعية. شرعية. ويقول له: وماذا كانت امك تفعل هناك؟ نحن الآن.

لعله المرض. لعله الخوف على الأولاد. لعله المستقبل المصنوع من بلاستيك لا نصنعه. لا اصنعه انا بالتأكيد. والاولاد، ماذا يفعلون؟ ماذا يستطيعون ان يفعلوا بما اورثهم من صيغ ضائعة في لغة ضائعة في وقت ضائع ضائع ضائع؟ خدعة الامل هذه. العمر الذي ملكتني بدايته ولم تورثني نهايته. الاولاد السذج الابرياء. يلعبون بلا خرائط. لا يرون في الجرائد الملونة سوى طيارات ورقية موعودة. الارض الموعودة. اية كذبة؟ اي عبث؟ لا تضحك يا بني. لا تضحك. نحن الآن.

كيف حدث ما يحدث؟ بأكواع متورمة غيظا. بأنابيب الإنفوزيا في غرف العلاج المكثف. والانتظار في الممرات المضاءة بالنيون المرعب. كيف حدث ما يحدث؟ لا احد يذهب الى شواطىء السباحة. لا استجمام للموتى. لاضحك للمفلوجين. لا وقت للمراجعات. اصمت تناول طعامك واشكر. لا تتوقع. لا تحسب. لا تستطرد. طرادات. حاملات طائرات. جلبة في ملاعب الغولف. يأتي الملك. يذهب الملك. ضحكات مقتضبة. غمزات ثرية على المرجة الخضراء دائما قبالة البيت الابيض. وهدوء على ملاعب الغولف. انها القيلولة المطمئنة. القيلولة المتخمة الملفة ولا شيء سوى ذلك. نحن الآن.

أذكر ايضا دوخة الخزي الدامي في المطارات. تلك الشبهة الوصمة. اذكر الاستهبال الواضح في سلوك البائع الصغير وخادم الفندق. اذكر

الوجام الحيواني لدى تلك السيدة الدهشة: عربي وجنتلمان؟ اوه فانتاستيك. واذكر النوري والسعدان، الطبلة والمزمار. ولم لا؟ لم لا تسير الامور كما ينبغي ان تسير؟ لماذا تهدد اغنيتي استقرار البورصة في نيويورك او طوكيو؟ لماذا؟ لماذا؟ ونحن الآن؟

سيمشي كتّاب السيرّ على الشوك. يقبض الشعراء جمر قصائدهم. يعض الخطباء السنتهم وحقائب السمسونايت الموصدة بحذر شديد على هواء معقّم. من التربة تأتي الشجرة. من الشجرة يأتي ما يأتي، ثانويا، هامشيا، ومن حقيبة السمسونايت تاتي الخديعة الجوهرية. هنا يكمن السر هنا تبدا المعضلة. تتفلع اكواز الرمان عما اثمر الجهد، عن الاطفال الجدد في الظرف غير المناسب. وماذا يقول المخبر الصحفي؟ ماذا يستطيع ان يقول. ما دام هو الاخر لا يملك سهما في صناعة البلاستيك، في ورشة المستقبل.

ونحن الان.

أمد يدي الى مداها فترتجف. أمد قلمي الى ورقته فيرتجف. أسال قلبي الا يخذلني فيرتجف. تمشط ريح الليل اشجار الحديقة فترتجف. هكذا تتضح معاني الهزات الارضية لا في ارمينيا فحسب. ولا في ايران فحسب. بل في اصقاع الروح جميعا وفي تضاريس الجسد ماخوذا مملوكا مستهلكا. والصحراء التي اشتهي والتي تجعل الملاذ ممكنا ثم تجعله مستحيلا ثم تنغلق على ذاتها داخل جسدها المباح المستباح، داخل امرئ القيس المتكرر بملكه الضائع ورومه القادمين كالجراد. نحن الآن.

من اغادير الى قلبي مرورا بالمكلا

قلت كلا

الف كلا

والى قلبي، من الموصل والشام

مرورا بصفد

بلد ينسى بلد

قل هو الله أحد

قل هو الله احد

ونحن الآن معي وبدوني. في سحابة القصدير في وشم البدوية الاخيرة. ثلاثاء تغادر اسبوعها تفاحة تتقمص حجرا. وردة مدججة بمجساتها المعدنية السامة. تحاصر وجعي. تحضني على نسيان حبها العالق في القلب مثل دراجة هوائية في زحمة السير.

ميادين مكتظة بلا احد. شوارع تحاذيها شوارع تحاذيها ارياف متراجعة امام التصحر والغزو الاجنبي. ونحن الان .

بين لحمي المقيم على صلوات مرارته الجارحه

ورحيل دمي

أخ. كم تشبه الليلة البارحه

بين صوتي وبين فمي

لغة واضحه

أن لي

أن أن اقرأ ألفاتحه..

ونحن الان ..

توقيت محلي على ساعات الوطن الخربة.

ساعات على الوطن الخرب. خراب على الساعات والوطن وطن بلا ساعات وبلا وطن. جماهير تزدرد الخراب. الخبز. الخبيزة. الخبث. الخطيئة. الخطر. الخصيان. الخصب بلا ثمر. ثمر بلا طعم. ثمر من بلاستيك لم نصنعه نحن. وبالتأكيد لم أصنعه أنا. وأسئلة اخرى لا تنتظر جوابا.

ماذا؟ كيف؟ لماذا؟ متى؟ اين؟ من؟ هل؟ ا؟هب ؟اف ؟ اس؟ اسئلة بلا إجابات. إجابات بلا اسئلة. توقيت محلي خرب. موازاة تامة وبلا مكان على الاطلاق. ونحن الان.

لن تحاول الارض ان تنشق لتبتلعني. فلأحاول اذن ان انشق لابتلع الارض. انا الان ..

«الناقد» / ١٩٩٠

خبط عشواء
وفي منتهى الدقة!

لا نكتشف اميركا حين نقول ان الهجرة اليهودية الى بلادنا كانت دائما وابدا اقنوما مقدسا لدى الصهيونية فكرا وممارسة.

ومع ذلك فاننا قادرون على اكتشاف كثير من الاثارة في ملابسات هذه الهجرة ومضاعفاتها.

فمن الملفت للنظر ان العرب والفلسطينيين اصحاب الشأن المباشر بشكل خاص، تعاملوا مع مسألة الهجرة بكثير من الحذر دون ان ينزلقوا الى مستنقع العنصرية.

ومن اشد اخبار هذه الحقيقة طرافة، تلك الحادثة التي وقعت لشاعر عربي كبير زار فلسطين قبل النكبة والتقى نفرا من عربها ويهودها فجاشت نفسه بقصيدة ساذجة جاء فيها:

واني أرى العُربي للعُرب ينتمي

قريبا من العبري ينمى الى العبرِ

ونرى في هذا ان شاعرنا اكتفى بالجانب الجناسي اللفظي: اما الشاعر الفلسطيني غير المسموح له باللعب البلاغي، فقد رد على زميله القادم

من قطر آخر:

اجل عابر الأردن كان ابن عمنا

ولكننا نرتاب في عابر البحرِ

ولكم كان من حق الفلسطيني ان يرتاب "في عابر البحر" الذي لا ينتهي عبوره الا بانتهاء الارض التي يقف عليها الفلسطيني. فعابر البحر هذا ليس مجرد سائح اجتذبه جمال البلاد ومناخها السلس. انه مستوطن جاء ليقتلع وليزرع. وبهذا فأنه يصبح موضع ريبة مبررة على المستويين التاريخي والجغرافي ..

بالمقابل فاننا نلاحظ كيف ان "الهجرة اليهودية" تحول قادة اسرائيل الى معادل لتلك المخلوقات التي ما ان تشم رائحة الدم حتى تصاب بما يشبه لوثة الجنون.

والا، فكيف نفسر تصريح اسحق شمير الأخير عن "ارض اسرائيل الكبرى لشعب اسرائيل الكبير"، في غمرة الانتفاضة الفلسطينية وفي المناخ السياسي الدولي الراهن؟

ومن الامور المروعة ان قادة اسرائيل لم يتورعوا عن ممارسة التمييز العنصري ضد اليهود انفسهم، حين اعلنوا في اكثر من مناسبة انهم معنيون بهجرة يهودية من الاقطار المتطورة، اي من اوروبا، بمعنى انهم لا يريدون لاسرائيل حقا، وكما يدعون، ان تكون دولة كل اليهود، بل دولة لليهود الاوروبيين. يريدونها دولة النخبة اليهودية. وما اهتمامهم باليهود الفلاشا الا ستارا من الدخان لاخفاء النية الحقيقية التي تحرك مخططاتهم الاساسية. ثم ان تأكيدهم على الهجرة الاوروبية هو محاولة مستميتة لصيانة الطابع "الغربي"

لاسرائيل علما بأن يهودها الشرقيين اصبحوا اكثر عددا بتوالدهم غير المتناسب مع الهجرة الغربية المرجوة لدى هؤلاء القادة.

ومن المفارقات المضحكة حقا ان يهود اميركا مثلا، يأتون للتضامن مع اسرائيل، ويتخذون بأغلبيتهم موقفا مؤيدا لها بلا تحفظ، ومع ذلك فانهم يتشبثون بأمريكيتهم ويرفضون الهجرة بينما يتجندون بكل طاقاتهم من اجل هجرة اليهود السوفييت الى بلادنا.

وحين اعرب بعض العرب في اسرائيل عن قلقهم من الهجرة اليهودية التي ستكون على حسابنا في اي حساب، فقد هاج بعض المسؤولين وماجوا مطالبين بتجريد هؤلاء العرب من الجنسية الاسرائيلية. هؤلاء المسؤولون يريدوننا ان نحب الهجرة وان نرحب بها، ويؤكدون مرة اخرى ما قاله الباحث الاسرائيلي يوحنان بيرس عن مناهج التدريس العربية في بلادنا، من ان هذه المناهج "تسعى لاقناع الطالب العربي بأن يحب هذه البلاد لانها كانت دائما عزيزة على قلوب .. اليهود!!".

وللخنزير ايضا علاقة هامة بالهجرة اليهودية، لا سيما تلك القادمة من الاتحاد السوفييتي.

فحين اعلنت بعض الاوساط الحكومية عن استعدادها لحظر مزارع تربية الخنازير في بلادنا، اكراما للأصوليين اليهود اصحاب الباع والذراع في السياسة الاسرائيلية الراهنة، فقد تصدى لهم اصحاب هذه المزارع باسم الهجرة اليهودية، فالمهاجرون اليهود من الاتحاد السوفييتي يحبون لحم الخنزير، واذا ما حظر هذا اللحم في اسرائيل فان هؤلاء اليهود سيكفون عن الهجرة، وسيتزعزع المشروع القومي الصهيوني. وهكذا فمزارعو الخنازير لا يهمهم الربح الخنازيري!! الذي يهمهم حقا هو الهجرة اليهودية التي يشكل الخنزير احد عواملها

التاريخية الهامة!!

ويستطيع القادرون على الضحك ان يضحكوا.

ويستطيع القادرون على البكاء ان يبكوا.

أما أنا فلا استطيع الضحك ولا البكاء .. وذلك هو الحال الاسوأ، بخنازير وبدون خنازير.

وانها لدنيا.. دنيا خبط عشواء.. وفي منتهى الدقة..

«العربي» ١٣/٤/١٩٩٠

ضد العالم!.

لطالما افلح الاعلام الصهيوني في تجنيد الرأي العام اليهودي وراء شعارات لا علاقة لها بالواقع. وأكثر من ذلك فانه يبدو لنا ان هذا الاعلام يحتفظ بجملة من الشعارات في أرشيفه الخاص، يمتشقها في الظرف المناسب للايغال في عملية التضليل التاريخية المستمرة، والتي الحقت الأذى باليهود انفسهم، وقدمت يد العون-من حيث لا تقصد، طبعا - الى "اللاساميين" انفسهم.

وعلى سبيل المثال، فان شعار "العالم ضدنا" هو من قبيل الافتراض المرضي، ولا تتوفر له على ارض الواقع اية براهين او ادلة قاطعة.

لم يكن "العالم كله" في اي يوم من الايام "ضد اليهود"، واذا نحن استنجدنا بتاريخ اليهود منذ التوراة وحتى يومنا هذا فسنكتشف مدى التجني "العنصري" الذي ينطوي عليه هذا الشعار، ومدى تجاهل الحقائق الذي يبلغ درجة نكران الجميل، ايضا.

حين احتل اليهود ارض كنعان، هل كان العالم كله ضدهم؟ وحين اقاموا عصرهم الذهبي في الاندلس العربية المسلمة، هل كان العالم كله ضدهم؟

وحين اقاموا دولتهم على ارض فلسطين مرة اخرى، هل كان

العالم كله ضدهم؟

وحتى حين تعرضوا لجرائم النازية في ألمانيا الهتلرية فهل كان العالم كله ضدهم.

وحين اصبحوا قوة اقتصادية واعلامية في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، في مختلف اقطار الارض، فهل يعني ذلك ان "العالم كله ضدهم"؟

واذا كان "العالم كله ضدهم" فهل كان من الممكن ان يمارس حكام اسرائيل اليوم ما يمارسون من سياسات "ضد العالم"؟

لنأخذ القضية الأخيرة، قضية الهجرة والاستيطان، نموذجا على ما نقوله.

العالم كله، بشرائعه وقوانينه الدولية، واطره ومؤسساته يطالب اسرائيل بألا تقضي على فرصة السلام الأخيرة بتحويل ما ظل للعرب من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة) الى ميدان لتحقيق شهوات التوسع والاستيطان الكولونيالي.

ويقف ميخائيل غورباتشوف معلنا في الولايات المتحدة (عقر دار اسرائيل) انه يعارض الهجرة اذا كانت ستتحول الى استيطان معاد للسلام وللحق وللعدالة في ابسط معانيها. فكيف يرد عليه السيد اسحق شمير: "لن نقيم في هذه البلاد غيتوات وحدود استيطان للقادمين الجدد".

انه يعني بوضوح رغبة السيد شمير في تكريس احتلال اراضي الغير. وحين يعارض العالم ويصر شمير فذلك لا يعني بالعقلية الشميرية ان اسرائيل ممثلة بحكومتها تقف ضد العالم، بل العكس. فعلى العالم ان يقبل بالاحتلال والنهب والظلم والقتل ما دامت هذه

الامور مبررة لدى السيد شمير وصحبه.

والى اين يمكن لهذا المنطق ان يؤدي؟ ان الحالة الوحيدة التي يحق لنا تصورها هي حالة التناقض بين الشرائع والمواثيق والمفاهيم الدولية وبين كل ما ينفيها لدى حكام اسرائيل، ليعودوا، من ثم، الى تكرار الشعار البائس اياه: "كل العالم ضدنا!".

وليست هذه الحالة امرا لا مرد له. والموقف الاخير منوط بلا ريب بتطورات الوضع السياسي والاجتماعي داخل المجتمع الاسرائيلي، ونحن في غمرة العمل، ولن نكف ابدا عن أملنا وعملنا في سبيل انتصار العقل والحكمة والمنطق في اسرائيل ايضا.

نحن لا نؤمن بأن "كل العالم ضد اليهود".. ولا نريد لحكام اسرائيل ان يظلوا "ضد العالم" ..

«العربي» ١٥/٦/١٩٩٠

مسألة الافتراض الضمني هذه...

كنت أتمنى ان تسرني المكالمةالتلفونية المسجلة التي تركها الشاعر الاسرائيلي المعروف دافيد افيدان في مكتبي.

هو شاعر مرموق له مكانته الخاصة. وهو انسان ذو خلفية يسارية، قديمة بعض الشيء الا أنها لا تزال قادرة على الظهور من حين لأخر في بعض مواقفه السياسية والاجتماعية.

وكانت لنا فيما مضى فعاليات مشتركة على صعيد الرغبة في علاقات أفضل بين العرب واليهود في بلادنا وبين اليهود والعرب الفلسطينيين والعرب جميعا.

وللأسف فلم تسرني مكالمته. وأكثر من ذلك لم أجدد الاتصال به، ليس لعدم الرغبة في تجديد الاتصال بل بسبب الموضوع الذي أثاره بعد طول غيبة.

منذ بدء الانتفاضة، مرورا بتحطيم العظام ودفن الأحياء واقتلاع المزروعات وهدم المنازل والتفنن في اختراع أدوات القمع والقتل والتعذيب في المناطق المحتلة، لم يتصل دافيد افيدان للتشاور في ما يمكن أن نقوم به معا في مواجهة هذا الواقع الهمجي بأرق وصف.

ومع ذلك، ورغم ذلك، فهو يتصل الآن مقترحا أن يتحرك الأدباء العرب واليهود (والعرب بشكل خاص)، للرد على تدنيس القبور

اليهودية في حيفا.

أنا شخصيا، وجميع زملائي وأصدقائي من العرب واليهود على السواء، ندين تدنيس القبور في حيفا والقدس وباريس وبلد الشيخ (قبر عز الدين القسام)، ونعلن سخطنا واشمئزازنا الواضحين والكاملين من كل تصرف وعلى أي تصرف يمس بالموتى وبالأحياء معا، في بلادنا وفي كل مكان على سطح هذا الكوكب الضيق.

إنما يظل مبرر الأسف في الافتراض الضمني لدى افيدان بأن الذين دنسوا القبور في حيفا هم من العرب، ومن هنا فهو يحس بأنه مستفز ويطالب بالرد، علما بأن كل الكوارث السابقة والراهنة واللاحقة، كما يبدو، لم تكن كافية بالقدر الذي يدفع دافيد افيدان الى رفع سماعة التلفون للتشاور مع رفيق كفاح قديم.

ومسألة الأفتراض الضمني هذه تتجلى ببؤس كامل في معظم ردود الفعل الرسمية والاعلامية التي أعقبت عملية تدنيس القبور في حيفا.

وتجنبا للتعميم الظالم فانني أود الاشادة بموقف رئيس بلدية حيفا الذي أشار منذ اللحظة الاولى الى أن هناك من يعمل على تخريب أسبوع الثقافة العربية ومعرض الكتاب العربي في حيفا، لأنه لا يريد لفكرة التعايش والتفاهم والعمل المشترك من أجل السلام أن تمر، دون اللجوء من جانب السيد غورئيل الى الافتراض الضمني بأن العرب هم الذين ارتكبوا هذا الاثم. ولا نية لدي في الزعم بأن الرجل هو الصالح وأن القوم هم ثمود.

ومن حقنا التساؤل عما كانت ستؤول اليه الأمور لو أنه لم يتم القبض السريع على المتهم اليهودي الذي يسمي نفسه "المسيح المنتظر".

إن "لعبة" التحريض على العرب أشبه ما تكون بلعبة الروليتا الروسية، وفي الوقت نفسه فان "لعبة" التفاهم مع العرب أيضا تبدو أحيانا شديدة الشبه بالروليتا الروسية.

وليس الوقت وقت لعب ولا هو وقت روليتا. والأوضاع أشد قابلية للانفجار مما يتصور العقلاء والمجانين معا. وقد آن أوان الجد ولم يعد متسع في التوتر لمسألة الافتراض الضمني هذه.

«العربي» ١٨/٥/١٩٩٠

بين البناء الذاتي والتدمير الذاتي

"والأوضاع أشد قابلية للانفجار مما يتصور العقلاء والمجانين معا".

حين كتبت هذه الكلمات (العربي-١٨/٥)، أمسكت بي القشعريرة. ولم تكن تلك القشعريرة وليدة حمى النبوءة أو حمى التهاب الأسنان التي تعذبني أيما تعذيب.

كانت ببساطة نتاج نظرة هادئة فاحصة في ظروف صاخبة تضرب في الأرض خبط عشواء.

لقد سادت الحياة السياسية في بلادنا نظرية ذات شقين:

١- لا يمكن أن تسقط دولة اليهود في ما سقطت فيه دول مضطهدي اليهود. ونشأ هذا الاعتقاد عن مقولات غير علمية اطلاقا كالزعم بأن الذي ذاق مرارة العنصرية حتى الثمالة لا يمكن أن يصبح هو نفسه عنصريا. أو الزعم المكمل حول الأخلاقيات اليهودية التاريخية التي تلفظ العنف والهمجية.

٢- ان عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية لا يسمح بتكرار الأسباب التي أدت الى اندلاع تلك الحرب، وان ميزان الرعب النووي كفيل بجعل الحرب أمرا مستحيلا.

وتشير أحداث الأيام الأخيرة الى هشاشة هذه النظرية التطمينية،

فضحيّة العنصرية يستطيع أن يتحول الى عنصري بكامل معنى الكلمة. والأخلاقيات التاريخية مرهونة بالتطور السياسي والاجتماعي ولا يمكنها الصمود في مواجهة العوامل المضادة لها، القائمة والمتحركة على الساحة.

وما من ضمانة بأن عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية لن يكرر مسببات الحرب، فليس من المفروض أن تتكرر المسببات ميكانيكيا وبالصيغة ذاتها، غير أنها تظل قابلة للظهور بأشكال شتى (غير تقليدية!).

واذا كان ميزان الرعب النووي قادرا على لجم خطر الحرب بين الدول العظمى، فها نحن شهود على امكانية اختلال هذا الميزان في منطقة الشرق الأوسط.

ان حربا نووية-كيميائية-بيولوجية، في منطقتنا ليست أمرا مستحيلا أو بعيدا .. انها امكانية ذات ملامح حادة. ويخطىء من يظن أن القرار النهائي في مسألة الحرب والسلام هو قرار دولي مرهون برغبة هذه الدولة الكبرى أو تلك.

لقد نشأ وضع خطير للغاية، ولا بد من قرار جريء يتيح امكانية الخروج من هذا الوضع. وعلى هذا القرار أن يكون اسرائيليا. فالكرة الآن في منطقة الفريق الاسرائيلي.

لم يعد لدى العرب بشكل عام ولدى الفلسطينيين بشكل خاص ما يتنازلون عنه. فمشروع السلام الفلسطيني هو مشروع عربي. وعلى حكام اسرائيل أن يدركوا حق الادراك أن البديل عن السلام بصيغته الوحيدة الممكنة، هو بديل مرعب لا نريده، لا للعرب ولا للاسرائيليين.

وعلى شعب اسرائيل أن يتحمل المسؤولية كاملة عن مشاريع

حكومته ومخططاتها ونواياها المنافية لروح العصر ولحلم السلام.

ولا أريد البحث عن قشعريرة جديدة. أكتفي باستنتاج هادىء آخر: أميل الى الاعتقاد بأن الاسرائيليين سيرجحون كفة العقل على كفة الجريمة.

وليس هذا الميل للاعتقاد ناجما عن الأخلاقيات التاريخية أو موازين الرعب الدولية، بل عن الاحساس العميق بأن قوة البناء الذاتي تظل لدى البشر أقوى، ولو بعض الشيء، من قوة التدمير الذاتي..

«العربي» ١٩٩٠/٥/٢٥

ألعز .. والمعزى

هناك كما تعلمون عربي ابن أجانب وعربي ابن عرب. حين يضيق ابن الاجانب بما يكتنفه من شؤون ذات شأن فانه يتشبث بأستار ثقافته الاجنبية ليحافظ على توازنه. فتلتقط اصابعه مباشرة وبلا مقدمات حكمة بروميثيوس والنار المسروقة، وصخرة سيزيفوس، وكلمات هملت، وغودو الذي لا يأتي. ولا يعف محسوبكم ايضا عن العزاء القادم من هذه الحكم،الا انه، احيانا، يكتشف انه مهما يدر ومهما يلف، فانه يعود دفعة واحدة الى حقيقة كونه عربيا ابن عرب، وآنذاك لا يجد العزاء الا في حكمة خرجت قديما ولتوها من مقلع الحياة والتجربة المحلية، والمحلية جدا، فيصيح بلا صوت: "هكذا الدنيا يا عمي .. ناس عز وناس معزى".. والمعنى واضح.

ويصبح المعنى اكثر وضوحا حين تكون مسألة التسلح العربي والاسرائيلي هي موضوع البحث.

فاسرائيل المدججة بالسلاح حتى اسنانها " كما يقولون بالعبرية" كانت دائما موضع "شفقة" عالمية مزمنة. واسرائيل التي انتصرت في جميع حروبها، العدوانية اشكره خبر، ظلت دائما موضع "شفقة" عالمية مزمنة. والتغيرات الطفيفة التي طفت على السطح من حين لحين " بعد الحرب اللبنانية مثلا، او في غمرة الانتفاضة " لم

تلبث ان تضاءلت الى جانب تلك الشفقة المزمنة.

وليس هذا الواقع قضاء وقدرا. انه إفراز موضوعي لميزان دولي ما زالت كفته الراجحة هي كفة القوى ذات المصلحة التاريخية في اسرائيل على صورتها الحالية، والموتى وحدهم هم الذين يتوهمون امكانية العدل لدى هذه القوى في تعاملها مع العرب ومع اسرائيل . فهي ترى في اسرائيل اداة ناجعة جدا في بلبلة المسيرة العربية على طريق التكامل الاقتصادي والسياسي، عبورا الى حلم الوحدة القديم - الجديد .

إن اسرائيل لا تشكل خطرا استراتيجيا على "امبراطوريات" العالم الراهنة، فليشتد ساعدها اذن، بحيث تتمكن من عرقلة الممكن الاستراتيجي العربي بقيام دولة كبرى ذات مؤهلات مادية وبشرية غير محدودة، من شأنها اضعاف امبراطوريات ما بعد الحرب العالمية الثانية او الحد من طموحاتها ولجم مشاريعها، في احسن حال.

وعليه فان القوى الاورو-امريكية معنية باسرائيل قوية، وهي معنية بعدم تحقيق توازن استراتيجي، ليس بين اسرائيل واية دولة عربية فحسب، بل بينها وبين الدول العربية مجتمعه.

من هنا نفهم موقف الكونغرس الاميركي السلبي من تسليح اية دولة عربية، حتى حين تكون السعودية هي الدولة المعنية. ومن هنا نفهم "التسامح" الفرنسي مع اسرائيل حين اختطفت، "كأنما اختطفت؟" زوارق الصواريخ من ميناء فرنسي. ومخططات طائرة الميراج.

ومن هنا نفهم "جنون" بريطانيا الجديد ازاء صفقة تكنولوجية عادية تعقدها بعض الشركات مع العراق.

ومن هنا نفهم الهستيريا الاميركية ضد ليبيا، والتي بلغت درجة

العدوان العسكري المباشر.

ومن هنا نفهم التهديد الغربي الديموغرافي باكراه يهود الاتحاد السوفييتي على الاستيطان في بلادنا، تحت غطاء حقوق الانسان، ظاهرا، وبهدف باطني هو تشديد الضغط على العرب باتجاه الشرق، والتلويح لهم بأن "يلزموا حدهم" والا !!

أكثر من مصدر عالمي مطلع يؤكد ان اسرائيل تملك اسلحة نووية وكيماوية وتقليدية بمقادير رهيبة، ومع ذلك فان اسرائيل التي رفضت التوقيع على الاتفاقيات الدولية لحظر السلاح النووي، لم تلق من النقد شيئا يذكر ازاء الهجمة الحيوانية التي يتعرض لها العراق اليوم، رغم اعلانه المتكرر انه لن يستعمل السلاح الا للاغراض الدفاعية، وانه على استعداد لاتلاف اسلحته الكيماوية اذا وافقت اسرائيل على اتلاف اسلحتها النووية.

صحيح ان العالم يتغير باستمرار، وللارقى دائما. وصحيح ان التراجعات التي تحدث من حين لاخر، في هذه المنطقة او تلك، تظل في اطار حركة التاريخ اقل شأنا من منجزات الانسانية، غير ان حكاية الذئب والحمل الذي يعكر عليه ماءه، على سذاجتها الظاهرية، ما زالت هي "الطرفة" العبثية الاشد شبها بالمواقف السياسية الدولية السائدة، والاكثر التصاقا بواقع الحال في التعامل الدولي مع القضايا العربية.

لقد شاع في الاونة الاخيرة تعريف السلاح الكيماوي بأنه "قنبلة الفقراء النووية"، ولا يسعنا الا ان نرفض هذا التعريف "الخبيث". فالحقيقة ان بعض الدول التي يدور الحديث عن امتلاكها القنبلة النووية " ومنها اسرائيل وباكستان والهند" لا يمكن اعتبارها دولا غنية بأية حال من الاحوال، ان لم نقل انها دول "مشلحة" لشدة فقرها.

ونرى في هذا التعريف محاولة لصرف الانظار عن الحقيقة القائلة بأن الدول المقتدرة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية واتباعها في الغرب كانت وما زالت معنية بتوفير السلاح النووي للدول التي تدور في فلكها وتعمل في خدمتها شرطيا بكرباج نووي يلوح به متى يشاء في وجه كل شعب او حكومة او حركة تحرر تجرؤ على عصيان الاوامر العليا الصادرة من مكاتب اجهزة المخابرات الغربية وشركات الاحتكارات صاحبة المصلحة الاقتصادية في تكريس خريطة العالم السياسية على النحو القائم: تابع ومتبوع، دائن ومدين، مخيف وخائف، مانح ومانع من جهة، ومتسول متوسل من الجهة الاخرى ..

نحن لسنا مع السلاح النووي او الكيميائي او البكتريولوجي او اي سلاح آخر.

نحن لسنا مع السلاح .. نحن مع السلام .. ونحن على قناعة من ان السلام لا يمكن ان يتحقق بين قوي وضعيف .. ولا يمكن ان يتحقق الا بين الاكفاء، وكنا نتمنى ان يكون التكافؤ سلبيا، اي خاليا من ادوات القتل ووسائل الهلاك والدمار، بيد اننا لا نملك ما نحقق به امانينا سوى محاولتنا الدائبة لتحقيق التوازن بأي شكل من الاشكال، سلبا وايجابا.

ومن حقنا ادانة القوى الدولية التي اوجدت بأنانيتها السافلة مثل هذا الوضع ذلك اننا نؤثر السلام لانفسنا، لأطفالنا وللاجيال القادمة خارج ميزان الرعب. فكل قنبلة وكل قذيفة وكل رصاصة يتم اقتطاع نفقاتها من قوتنا ومن حليب اطفالنا ومن هدوء بالنا.

«عبير» حزيران ١٩٩٠

كأس ويسكي في جنازة الشهيد

لا أظن المتنبي قادرا دائما على النوم ملء جفونه عن شواردها. وأميل الى الاعتقاد بأنه يصاب من حين لآخر بوعكة حزن، حين يتداخل طنين الذباب في هدير دمه.. ولكنه يكابر.

ولا يضيرني، ولا يضير المتنبي، أن أجد فيه أسوة، فأبوح ببعض ما أضمر من هاجس ازاء هجّائيه النيف والألف، مع اعترافي العلني بالحسد لأنني لم أصب بعد ما أصاب من قدرة على استدراج الحشرات المعتمة الى الهواء الطلق المشمس حيث تكتمل فضيحتها في نور الحقيقة الكامل.

وبما أنني على غير اطلاع منتظم على أكداس الورق التي تقذفها المطابع العربية المهاجرة أو المقيمة، فلا يبقى لي الا ما يمن به علي أصدقائي الطيبون في جهات الارض، من انجازات الحركة الثقافية ومتابعاتها.

أما الوجبة "الثقافية" الاخيرة التي زودني بها هؤلاء الاصدقاء مشكورين، فلا تتعدى أنباء الهجوم "البطولي" الذي يشنه علي من حين لحين فرسان دون كيشوتيون سلبتهم طواحين الحياة الهائلة أرواحهم وتوازنهم، واستدرجت رماحهم القزمة الى هواء الانتفاضة الطلق المشمس حيث اكتملت فضيحتهم في نور الشعر الكامل.

فعلى طريقة أيام البطالة الثقافية والسياسية، ينصب هؤلاء دواوينهم (يستحسن أن يتم ذلك في مقهى رصيف..)، يغمسون سباباتهم الرخصة في أفكارهم "الأوروبية الحديثة" ثم ينهالون بالسباب، خطيا وشفهيا، على شعراء اقترفوا خطيئة الصدق الفني حين غمسوا أقلامهم في دمهم الطازج وراحوا يكتبون الحياة والحلم شعرا في حجم الحياة والحلم.

ولما كانت "الانتفاضة" هي هم الحياة فلا غرابة في أن يكون شعر الانتفاضة هم الثقافة.

واذا كانت الانتفاضة مقدسة فهذا لا يعني بالضرورة أن كل ما يكتب فيها وعنها هو تنزيل مقدس.

ولا شك اطلاقا في أن شعر الانتفاضة يظل دائما وأبدا خاضعا لمقاييس النقد الأدبي، بقدر ما تظل الانتفاضة نفسها خاضعة لمقاييس النقد السياسي. ولا يحاولن أحد الالتفاف علينا لأنه ضائع لا محالة.

لكن لنتوقف قليلا عند لفظة "المقاييس" هذه، وسنلاحظ دونما حاجة الى المراقبة المتأنية أن هناك أكثر من مقياس وأكثر من منهج في المجال النقدي العربي. وسنلاحظ أيضا أنه منذ أواخر الستينات بشكل خاص، نشطت جدا في الصحافة الأدبية العربية تيارات ضحلة مجتزأة-وبمقدار محدود من الثقافة- من بعض مدارس النقد الغربي، دون استيعاب حقيقي لشروطها ودون فهم لملابساتها. ونلاحظ أن دعاة هذه التيارات من أشباه شعراء وأشباه مثقفين وأشباه نقاد، مارسوا ويمارسون نوعا متخلفا من "الارهاب" الفني باسم "الحداثة".

ويتضح دون جهد تأملي تحليلي، أن هؤلاء المتغربين

"المستغربين" أخذوا بما يلمع على السطح من نيون الثقافة الغربية وبلاستيكها، وانحلت مفاصلهم ازاء شعر جيرانهم وفنهم لا سيما وأن سيقانهم الضعيفة لم يقدر لها أن تقف على أرض الشعر العربي والثقافة العربية الصلبة. ومن هنا، فقد ذهبوا الى أن الشعر العربي لن يكون جيدا الا اذا كان فرنسيا أو انجليزيا مترجما. وبالمناسبة، وقبل أن تفوتني الملاحظة، فلا بد من الاشارة الى أن هؤلاء المصابين بعقدة القزامة، ما كانوا ليبتلوا بهذا الداء لو أنهم ثقفوا الشعر الأوروبي بعمق ولم يتجمدوا على أبواب الانبهار والحب الأعمى من النظرة الأولى.

لقد قيض لي العبور بحشد من هؤلاء الاخوة المسحورين، وتعمدت في أكثر من مناسبة وفي أكثر من حوار تنبيههم الى أن مفهومهم او مفاهيمهم حول الشعر والحداثة هي مفاهيم تعيسة لأنها تقوم عندهم على أساس عدائية التراث، وهو أساس لا يمكن أن يؤدي الى حداثة حقيقية. فمقولة الحداثة ينبغي أن تنسب الى شيء ما.. استجابة الى السؤال المشروع: حداثة بالنسبة لماذا؟ وفي حالة جهل هذا "الماذا" أو في حالة الخوف منه والتنكر له بدوافع استشراقية سياسية في جوهرها، فلا يظل لدينا أي مجال لاحترام هذه المفاهيم التعيسة وللتعامل معها بجدية.

إنهم يطرحون "الاستحداث" في مقام "الحداثة"، ويطرحون الغموض المبتذل في مواجهة الوضوح العسير، ويقدمون الهذيان المرضي على المباشرة الفنية، ويعتبرون الخلل العروضي الناجم عن الجهل والقصور ابداعا حرا من قيود الوزن، ويجزمون أن الهر بتهوفين كان سيتحول الى موسيقي عظيم لو أنه "تحرر" من نظام النوتة الموسيقية السلفي الأصولي الخطابي المباشر المنبري الخ ...

الأعرابي الذي يقود بعير الرولز رويس هو عندهم "حديث". أما الشاعر الذي يمسح التفاحة بكمه ويقضمها مقطوفة للتو عن أمها فهو عربي متخلف من العالم الثالث آسيوي أفريقي ميؤوس منه (ثمة سكين للتفاحة!).

ولما كانت الانتفاضة "ألامود" فانهم يخاطبونها باحتشام واضح: يا مدام انتفاضة لا يليق بك أن تعبري عن نفسك بهذا الشكل. من الأفضل لك أن تستبدلي الحجر وزجاجة المولوتوف بصاروخ حديث، ويستحسن ان يكون عابرا للقارات.. عليك بالتكنولوجيا الحديثة. ولا يليق بك أن يكون شعرك مباشرا مثل انفجار الشريان. أنت سيدة غامضة فليكن شعرك غامضا. العاطفة عيب. الحرارة عيب. الألم عيب. الفن عيب. خذي جهازا حديثا لضبط المشاعر. تعلمي برود أوروبا العظيمة. جربي كأس الويسكي في جنازة الشهيد. قولي شعرا لا تحفظه طالبات المدارس ولا يردده الأشبال في مواجهة جيش الاحتلال. ما هذه "تقدموا تقدموا" ؟ ما هذه "لا تعدوا العشرة؟" ما هذا الكلام الذي يدوي في شرايينك وفي ساحاتك وفي أزقة مخيماتك. لماذا لا تنفجر براكينك بايقاع "السلو"؟

.. وبعد،

لكل نظرية فنية نماذجها. ووفق هذه النماذج نستطيع الحكم على هذه النظرية. وبالطبع، فقد "أبدع" هؤلاء المنظرون نماذجهم بالأطنان. وبالطبع، فقد كسدت هذه النماذج بحيث لم يجد شاعرهم قارئا سواه هو نفسه وبما أنهم يدركون مدى تخلف الجمهور المتنكر لعبقريتهم فقد لجأوا الى الترجمة وفوجئوا مرة أخرى بأن جمهور الشعر في أوروبا يستقبل النماذج المترجمة من شعراء "المباشرة"

و"الخطابية" و"المنبرية" الخ .. بما يليق بها من احترام وتقدير. وقد عبر الأوروبيون عن اعجابهم بتقديم الجوائز الأدبية لهؤلاء الشعراء الخطابيين الكيت وكيت. وحين قرأوا ترجمات مقلديهم فقد أهملوها على الفور لأن لديهم رأس النبع فما لهم ولبضاعتهم التي ردت اليهم بتقنية أدنى تبلغ في معظم النماذج درك الاسفاف.

اذا كان النقد حقا مقدسا فان الشعر أيضا هو حق مقدس، لأنه نتاج الحياة المقدسة والموت المقدس.

لقد حاول بعض الاستحداثيين تجريح قصيدتنا والنيل من عملنا بدعوى أننا نستمد مشروعيتنا الشعرية من قضيتنا السياسية.

وأولا لا عيب في كوننا شعراء قضية كبيرة، وأكثر من ذلك فنحن نعتز بأن شعرنا يقوم بدوره كاملا في تعميم هذه القضية والدعوة لها فنيا بما يزيد من اعتباره عالميا وبما يسهم في تحويلها الى هم بشري كوني.

وثانيا، ليس كل ما كتب ويكتب في هذه القضية هو فن كبير حقيقي وأصيل. وكما يبدو، فان ما يزعج هؤلاء السادة الاستحداثيين ليس الشعر الرديء الذي يكتب في القضية الجيدة. الذي يزعجهم هو الشعر الجيد بالذات، لأنه يقيم الدليل على تفاهة تنظيراتهم وعلى سقوط نماذجهم عربيا ودوليا، فنيا وسياسيا.

وبما أننا نفهم مسائل الضعف الانساني، فأننا نتعاطف مع مواجعهم وكثيرا ما نغض السمع عن ثرثراتهم وتسليتهم الذاتية. بيد أننا لا نستطيع القبول بقشور بزرهم المتناثرة أحيانا على أوراقنا الخاصة.

وأما بعد،

فقد كنت أوثر أن أنام ملء جفوني عن شواردها. غير أنني معترف وعلى رؤوس الأشهاد بأنني لم أجد سبيلا للنوم ملء الجفون بينما يتداخل طنين الذباب في هدير دمي.

لقد كابر أخونا المتنبي.

ولا قبل لي بالمكابرة.

«الناقد» العدد ٢٦ آب ١٩٩٠

الانتقائية: نفي الشرائع!

وأمبت لريعخ كموخ!

هكذا علمونا منذ قرروا ان يعلمونا الاقرار بانهم اكثر انسانية منا. وتعني هذه الوصية التناخية ان "أحِبّ لصديقك كما تحب لنفسك".

انه لكلام طيب وأيم الحق!

" كلام جميل وكلام معقول" يرضي ليلى مراد وحمورابي على السواء، كما انه يرضيني شخصيا والله.

مع ذلك يظل مكان للاسف، فهذا الدرس الانساني مفخخ تفخيخا لا مهرب منه، ليس على مستوى النص الحرفي، بل على مستوى التفاصيل.

تحت كلمة "ريعخ" او صديقك، هذه، تكمن قنبلة اللفظة الموقوتة، لان السلطة التي قررت تعليمنا الانسانية لم تشأ مواجهة ذاتها بالدخول الفوري في التفاصيل، كأن تتوقف عند كلمة "صديقك" لتقدم تعريفا ملزما وشاملا واستمراريا لهذه الكلمة.

اليوم، وبعد اطنان من الممارسة، يستطيع المرء ادراك التفاصيل عبر الدروس الخصوصية مدفوعة الثمن عدا ونقدا من اعصابنا ولحمنا ودمنا.

ويضعنا هذا الادراك ازاء حالة عبثية محبطة تماما، اذ يتضح لنا ان وصايا الدهور العشر او الاكثر او الاقل "لا يهم" ينبغي ان تكون مرفقة بملاحق ومعاجم واستطرادات ايضاحية الزامية والا فسيظل منتصبا امامنا سؤال ليس كالاسئلة: لا تقتل .. من؟ لا تسرق .. ماذا؟ لا تشهد بالزور .. في اية محكمة؟ وضد من؟ ومع من؟ وهكذا الى اخر القائمة بحيث تصبح الانتقائية هي القانون الى ان تنتفي الشرائع.

وحتى لا نؤخذ بالغيبة فلا بد لنا من مثال، وليكن مثالنا طازجا مشهودا وملموسا غير قابل للدحض، قبل ايام كنت عائدا الى منزلي من مكان ما في البلاد، وكان علي ان اصطحب طريق عكا-صفد، ومقابل محطة الباص قرب مفرق البعنة-دير الاسد وقفت سيارة جيب "امنية" وراح عدد من افراد الشرطة يتفحصون شعارا على جدار المحطة.. وكان الشعار مكونا من ثلاثة احرف م. ت. ف.

لا غرابة في الامر، فمن الطبيعي ان تهتم الشرطة بالشعارات الامنية، وقد بلغ اهتمامها حدا جعلها تقتحم منزلي قبل حين بحثا عن شعارات معادية للدولة فعثرت على ولدي الاصغر ياسر.

"ليس!".

إنما غرابة الغرائب ان سيارات الجيب "الامنية" لم تكلف نفسها مشقة الاهتمام بعشرات الشعارات العنصرية السافلة التي تلوث جدران البلاد من اقصاها الى اقصاها: ترانسفير.. العرب بره.. استفتاء فورا.. كهانا .. ترانسفير .. وما شابه.

ويعني الحد الادنى من الاهتمام ان تعمل الشرطة والسلطات المحلية على تنظيف هذه القاذورات والقاء القبض على ابطال المراحيض، هؤلاء الذين لا يكفون عن استفزازنا في عقر دارنا ودار ابينا وجدنا اليوم وغدا والى دهر الداهرين ..آمين.

أما لماذا نسميهم ابطال المراحيض، فذلك لانهم كانوا يكتفون بكتابة شعاراتهم القذرة على جدران المراحيض العمومية في محطات النقل والمطاعم والفنادق .. اما اليوم فقد افعمتهم حمى الهجرة الجماعية والاستيطان الجماعي والاحتلال الجماعي بقدر كاف لخروجهم من مراحيضهم الى جدران البلاد كلها.

يعتقلون الشعراء والمغنين ويصادرون الكتب حين تكون الانتفاضة هي الموضوع وحين يكون العدل هو المحور وحين يكون السلام هو الجوهر. اما دعاة الترحيل والقتل والهدم والسلب فيتمتعون بالحصانة البرلمانية ويرتعون في نعيم الديمقراطية!!

"وأهبت لريعخ كموخ" درس تعلمناه ايام زمان لاقناعنا بالتفوق الانساني لدى ما تمثله هذه السلطة من قيم ومفاهيم.

ولاننا طلاب نجباء حقا فقد حفظنا هذا الدرس، غير اننا لم نقتنع. لا لم نقتنع. ذلك ان وقائع الواقع اكثر قدرة على الاقناع، واكثر مصداقية من كل الحبر والورق والكلام.

وهذه الانتقائية التعيسة التي تتحكم بالرأي العام الاسرائيلي بصورة خطيرة من شأنها ان تنفي الشرائع الى حين، غير انها عاجزة قطعا عن نفيها الى الابد، فعبر التراكم التاريخي لا بد للإنسانية من ان تكون قد اكتسبت قدرا كافيا من المناعة يحول اليوم دون انتشار العدوى الهمجية من مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية والاخيرة ان شاء الله.

«عبير» تموز ١٩٩٠

مع هذا، ورغم ذلك،

مع هذا، ورغم ذلك، فانهم يظهرون على شاشات التلفزيون. يقلدون كلارك غيبل ومحمود المليجي. بكوفية وعقال وعباءة تنساب من واشنطن الى بئر نفط من موسكو الى بئر نفط. من برلين ولندن الى بئر نفط. ومن عدسة المصور الى بئر نفط. مع هذا ورغم ذلك يظهرون. وهم يتكلمون أيضا ويبتسمون ويغطون أفواههم بأناملهم حين يتجشأون (ليس من اللائق ألا يغطي المرء فمه بأنامله حين يتجشأ). يتجشأون ويتوضأون مع هذا ورغم ذلك.

وكم كان أسامة بن منقذ سيحسدهم لو أتيح له هو الآخر أن يشاهدهم على شاشات التلفزيون مطوقين برجال الصحافة ومراسلي وكالات الأنباء العالمية. على رؤوسنا الطير. وعلى رؤوسهم هالات الأبهة والعظمة والقدرة على تحديد المصائر.

أما ذلك الكردي صلاح الدين الأيوبي فلن يفقه من أمرهم شيئا. كردي. قلت لكم كردي. يقول ما يؤمن به ويصدق ما يقال له دون أن يسمع ودون أن يريد أن يسمع: "أريد سيوفكم لا دعاءكم" هكذا قال الكردي ابن الكردية. انه يستخف بالماس ميديا. كان سيفقه شيئا لو كان اسم القمر الاصطناعي "كُردسات" أما أن يكون اسمه "عربسات" فمسألة عصية على فهمه. الكردي. قلت لكم . لا يسمع ولا يتكلم.

يجاهد فحسب. قلت لكم، وقد قال الشاعر قديما:

وانما الأمم الأخلاق ما غشفت

فان همو شخفت أخراشهم، غُود باي !

وأقسم لكم أنني لم أصافح كردينالا في حياتي. صافحت بطركا وأكثر من بطرك. لكن لا كردينالات في حياتي. وانني لأقسم بشرفي. انما ما يعنيكم أنتم من حكاية الشرف هذه؟ ألم يقل الشاعر:

لا يسلم الشرفُ الرفيع من القذى

حتى يراق على الفراش العندُم !

ها! ألم يقل ذلك أيها الحمقى التنابلة الطاعمون الكاسون القاعدون؟ لا أمازحكم. انني أشتمكم. وانني لأرى أقفية قد أينعت وحان جلدها. فمن لي بسوط يطالكم من المحيط الهادر، الى الخليج الثائر، لبيك عبد المعطي؟!

وأصل الحكاية أن صديقا (هو في الحقيقة عدو على صورة صديق)، اتصل بي قبل أيام ليقول:

- هالو. أعتقد أنك على وشك الجنون. وأقترح عليك مراجعة طبيب نفساني.

قلت:

- راجعت أربعة أطباء نفسانيين.

قال:

- حسنا. وماذا حدث؟

قلت:

- حسنا. أصيبوا، أربعتهم، بالجنون.

قال:

- حسنا. وماذا بعد؟

قلت:

- حسنا. راجع كل منهم أربعة أطباء نفسانيين آخرين.

قال:

- حسنا. وماذا حدث؟

قلت:

- حسنا. أصيبوا هم أيضا بالجنون. وأصبح لدينا عشرون طبيبا نفسانيا مجنونا.

قال:

- حسنا. وماذا بعد؟

قلت:

- حسنا. لم يبق لي سوى أن أشرب من البئر حتى أصبح عاقلا مثل سائر المجانين. ولم أشرب من هذه البئر ولن أشرب منها لأن العقلاء ينبغي أن يكونوا عقلاء، ولأن المجانين ينبغي أن يعقلوا، فلا يعقل أن يحكمنا الجنون لأن الجنون لا يحكم بل يدمر. والجنون لا يستفتي بل يقرر. والجنون لا يؤمن بالشورى ولا بالتعددية ولا بالغيرية. انه جنون، ذاته، ولذاته الذي لا يمكن أن يكون ذاتا، ما دام محكوما بالجنون الذي لا يحكم بل يتحرك، خارج المقاييس والموازين والجهات. وهو يتحرك بفعل الجاذبية وبطاقة الغريزة فحسب.

وأما بعد،

فكرادلة بطرابيش واكليروس بعمائم وفتاوى وفق الطلب وصكوك غفران كل صك ببئر نفط في الجنة.

ويتخرج فوج اكاديمي أثر فوج عسكري أثر فوج مغترب أثر فوج من الشعراء والراقصات والشهداء. ونقول للوحدة العربية اقتربي فتقترب. ونقول لها ابتعدي فتبتعد. ونقول اقتربي فتقترب وابتعدي فتبتعد. كأية أم عربية تحب اطفالها وتمتثل لأوامرهم لأنها تشك في حبهم لها وتشك في مؤهلاتها لأن تحب وتحب على قدم المساواة. وتقترب وتبتعد. ونقترب ونبتعد. ويظل هو الحاكم المطلق الصلاحيات الكأنما ولد حاكما أو ولد ليحكم بالتجريد وفي الأبد. لا يقرأ سوى بياناته ومراسيمه ولا يفكر الا بحذائه العسكري ويتدفق الأطباء والأدباء داخل الحذاء العسكري. وتعقد دورة الألعاب الاولمبية داخل الحذاء العسكري. وتتم الولادات وتجرى العمليات القيصرية وتذاع الاعلانات لحليب نيدو ونستلي والأراجيح الأقل خطرا وملابس الأطفال الأكثر اثارة .. داخل الحذاء العسكري. بجوارب او بدون جوارب. انما داخل الحذاء العسكري. وكل شيء يسير بانتظام عسكري الا الحرب!

قلت الحرب لم أقل السلام فأي سلام يرد الآن بالحسبان؟

وقلت الحرب لم أقل الحرية. فأية حرية ترد الآن بالحسبان؟

وقلت الحرب لم أقل مشاريع الري والهندسة المعمارية وشق الطرقات والجسور. كل هذه الصغائر تأخذ مجالها وتحقق ذاتها داخل الحذاء العسكري المعد لكل شيء، عدا الشؤون العسكرية!

وأما بعد.

فأنني أتساءل بشأن الخلافة. لم يوفق سلاطين آل عثمان بلكنتهم التركية في أن ينجزوا خلافة للعروبة. ولم يأخذ الحظ بيد الفاروق

بن فؤاد بن أبيه لينجز خلافة للعروبة، فهل ينجح قابوس بن سعاد بن أبيه حيث فشل هؤلاء؟

سؤال وجيه وأيم الحق! فآمض يا ثعلبة الى مضارب قريش واستفتِ تغلب وقضاعة في الأمر.

وأما بعد،

فماذا بعد؟

ويا أيتها السماء.. كم أنا قريب.. وكم أنت بعيييييييده..ه..ه..ه

«الناقد» ـ ١٩٩٠

المونديال بين الروح الرياضية والروح السياسية

أخيرا أصبحنا قادرين على ارسال أولادنا الى أسرتهم دون مقاومة فعالة من جانبهم. فحتى المباراة الأخيرة ما كنا مؤهلين لدفع الأولاد الى النوم حتى لو استعنا بقوات وارسو والأطلسي معا.

من حين لأخر تعترضنا صرعة جماعية معينة تفرض نفسها على نظام حياتنا كله كأنها ظاهرة طبيعية لا سبيل لمواجهتها الا بالصبر وانتظار الفرج.

مثلا، كانت مقالب غوار الطوشة كفيلة بافشال مهرجان سياسي بحاله. وبعدها طلعت علينا حفلات المصارعة الدموية التي تجمد الدم في العروق وتحول آل فون ايريك (كيري وكيفن وسائر السلاله) الى قديسين يحلف بعض الناس بحياتهم.

ويروى في احدى قرانا الجليلية أن مشكلة ما نشأت بين رجلين فتدخل أهل الخير لاصلاح ذات البين ففشلوا فشلا ذريعا. وكانت "الجاهة" تتوجه الى الخصمين العنيدين بكل وسائل الاسترضاء والترغيب والتخجيل: "بجاه فلان اقبلوا خاطرنا يا جماعة. سايقين عليكم علان وصحبه وآل بيته أن تكفوا الشر يا جماعة!".

ولا سميع ولا مجيب.

الى أن تفتق ذهن أحد الحكماء الظرفاء عن ضربة قاضية فهتف بالخصمين: سايقين عليكم كيفن وكيري أن تقبلوا خاطرنا.

وقبل خاطر الجاهة وتم الصلح سيد الأحكام!!.

وفي غمرة المونديال لم يكن غريبا أن يستحلف الناس بعضهم بعضا بمارادونا وسكيلاتشي ومجدي عبد الغني وعدنان الطلياني وحسام حسن وماتيوس حتى يحلوا مشاكلهم بيسر.

لا بأس. لا بأس في المونديال. لا بأس في أن تصبح "الحرب سجالا" في ميدان كرة القدم والتنس وكرة السلة بديلا لساحات الوغى ونقع المعارك.

وباستثناء بعض النكرزات هنا وهناك، وبعيدا عن هيجان الأنصار، لا سيما قطعان بهائم الانجليز، فقد سادت المونديال روح رياضية بارزة نعتز بها ونقدرها ونحميها بقلوبنا وبأيدينا ان شاء الله.

بيد أن الحقيقة لا تمحو حقيقة أخرى مناقضة. فقد ظهرت في هذا المونديال وفي سابقيه أيضا بعض الحالات المشبعة بالروح السياسية، وربما العنصرية، التي لا تضيف الى هذه التظاهرة الانسانية الجميلة ان لم تنتقص منها.

فالتصريحات التي اطلقها بعض جيراننا الأوروبيين حول ضرورة لجم أفريقيا وابعاد "خطرها" عن كأس العالم، والتجريح غير المبرر اطلاقا في كرة القدم العربية المصرية الرائعة والراقية والأصيلة، والتنبؤات الاستفزازية المهينة (والتي سقطت كلها) حول نتائج المباريات بين الفرق "الفقيرة" والأخرى "الغنية"، وتفضيل أوروبا ومحاباتها من حيث عدد الفرق المشاركة في المباريات، كل هذه الأمور تتطلب استدراكا مستعجلا وحلا جريئا من شأنه أن يسجل

في شباك الماضي الكريه حقا، أهدافا نظيفة لصالح الحاضر والمستقبل.

ما من مباراة هذا المساء. تستطيعون النوم المبكر. فتصبحون على خير، أنتم وأولادكم وأحفادكم وجيرانكم وفرقكم المفضلة.

تصبحون على خير.

«العربي» ١٣/٧/١٩٩٠

بروتوكولات حكماء الارهاب

بعد أربع وعشرين ساعة من الضجيج الاعلامي، وبعد ثمان وأربعين ساعة في أحسن حال، فقد تراجع الضجيج حول كراسة الارهاب الاستيطاني في فلسطين المحتلة، وعادت الحياة الاسرائيلية الى مجراها الطبيعي، غير الطبيعي، القائم في جوهره على احصاء القادمين الجدد من جهة وشهداء الانتفاضة من الجهة الأخرى، واحصاء المنازل الجاهزة المستوردة للمستوطنين الجدد من جهة وبيوت العرب المهدومة من الجهة الأخرى، واحصاء مشاريع التعمير الكولونيالي في المناطق المحتلة من جهة، وبيانات الاحتجاج ومؤتمرات الادانة ومشاريع التنديد العربية من الجهة الأخرى.

واذا كانت البرمجة العسكرية من اختصاص العسكريين، واذا كانت البرمجة السياسية من اختصاص السياسيين، واذا كانت البرمجة الاقتصادية من اختصاص الاقتصاديين، فيحق لنا إذن أن نتوقع برمجة الاعلام على أيدي الاعلاميين، ويحق لنا أن نتساءل عما حققته أجهزة الاعلام العربية بامكانياتها الكبيرة على صعيد المواجهة الاعلامية مع الاحتلال الاسرائيلي.

كان من حسن حظ الانتفاضة أن وكالات الأنباء والتلفزة الأجنبية لم تتقاعس هذه المرة عن الادلاء بشهادة العيان عما حدث ويحدث في

المناطق المحتلة، غير أن وكالات الأنباء والتلفزة الأجنبية هي في نهاية المطاف صاحبة "قضية اعلامية" في الاساس، ويعنيها السكوب والسبق الصحفي قبل كل شيء، وها نحن شهود على أن "الحماس المهني" الذي حرك هذه الوكالات الأجنبية أخذ بالتراجع التدريجي، حتى أصبحت الانتفاضة خبرا ثانويا بالنسبة للرأي العام العالمي معكوسا عبر تلك الوكالات وأجهزة اعلامها.

هنا يبرز دور الاعلاميين العرب، ونرى أن هذا الدور مطالب الآن باعداد كتاب أسود عن بروتوكولات حكماء الارهاب في فلسطين المحتلة، بحيث يتضمن في ما يتضمنه، كراسة تدريب الإرهابيين المطبوعة بالعبرية والتي وزعت على المستوطنين من خلال صناديق بريدهم الخاصة بواسطة جهة "غير معروفة"!!

ومهمة الساعة الاعلامية هي تركيز تاريخ الارهاب الاحتلالي وتوثيق وقائعه ونظرياته ومبادئه وأساليب عمله وترجمة هذه المواد الى أكثر من لغة وعرضها على الرأي العام العربي والاسرائيلي والعالمي، بحيث لا يستطيع أي انسان أن يقول في المستقبل: " لم أعلم !".

و"لم أعلم" هذه، كانت ذريعة لدى الكثيرين، للتنصل من مسؤولية جرائم شتى ضد الانسانية شهدها منتصف القرن الحالي، فلنتعلم ولنعلم حتى لا يقول قائل ذات يوم: "لم أعلم"...

«العربي» ١٩٩٠/٧/٢٧

حالة الطقس.. والاقليمية!

حتى لو كانت حالة الوحدة العربية هذه الأيام أشبه بحالة الطقس في تقلباتها (على حد تعبير الرئيس محمد حسني مبارك). وحتى لو كنا آيلين الى السقوط في النموذج الأمريكي - اللاتيني للعلاقات بين شعوب تنتمي الى امة واحدة. وحتى لو لم نكن من دعاة الوحدة العربية الشاملة (تحت ذريعة الثراء التعددي - كما يرى بعض التعدديين!)، فانه لا يليق بنا الاذدناب للطرح الاقليمي، ولا يجوز لنا الانزلاق الى المقولات الاقليمية السيئة دائما والمسيئة أبدا، حتى لو نجمت عن حسن طوية أو عن تسرع غير مقصود.

وفي كلام سابق، استعرضنا شيئا من مثل هذه الانزلاقات على النحو التالي:

اذا نجح عداء مغربي في الالعاب الاولمبية فنحن نقول باعتزاز: حقق العرب نجاحا أولمبيا. واذا خسر فريق كرة قدم من الامارات فترانا نهتف: خسرت الامارات. وحين نصاب بنكسة عسكرية فالنكسة هي مصرية أو سورية. أما حين ننتصر، فالنصر هو للقومية العربية.

ذلك يعني أننا نتحمس للوحدة العربية في الحالات الايجابية فحسب. وهذا يعني ضحالة حقيقية في فهم جوهر الوحدة ومعناها الأصيل. يفبغي على مفهوم الوحدة أن يكون في الصميم، في السراء

وفي الضراء معا. والانتقائية هي شكل من أشكال الانتهازية في هذا الاتجاه وعلى هذا المجال.

لقد فرضت علي هذه الافكار نفسها من جديد في الآونة الأخيرة، وأنا أقرأ في احدى الصحف المحلية نبأ عن احتجاز مجموعة من أبنائنا في مصر جراء خلاف مادي بين شركتين احداهما مصرية والأخرى محلية.

ورد في ذلك النبأ أن "المصريين" احتجزوا أطفالنا "رهائن" الى أن تدفع الشركة الاسرائيلية مبلغا معينا من المال هي مدينة به للشركة المصرية.

صحيح أنه لا يجوز الانتقام من أطفال، أي أطفال، على خلفية خلاف، بين شركتين أو بين دولتين أو بين قارتين. لكن التعميم الذي نم عن ذلك النبأ يطلق جرثومة اقليمية، ليس فقط أنها لا تفيد، بل انها تلحق ضررا لا تنقصنا الأضرار من فصيلته.

ونحن نتساءل: هل اجتمع ملايين المصريين حكومة وشعبا ذكورا واناثا شيبا وشبانا، وقرروا "احتجاز" أطفالنا "رهائن" (لاحظوا اسقاطات اللفظتين-احتجاز-رهائن-) الى أن يتم تسديد دين ما؟ وهل يعلم ملايين المصريين بوجود الشركتين أصلا؟ وهل يؤيد ملايين المصريين وجود علاقات من هذا النوع بين شركتين من هذا النوع؟

أسئلة أخرى كثيرة تطرح نفسها. وتظل لدينا أجوبة واحدة واضحة ومحددة:

حذار، ثم حذار، من جراثيم الاقليمية، حتى لو كانت حالة الوحدة العربية هذه الايام أشبه بحالة الطقس..

«العربي» ١٩٩٠/٨/٣١

المطلوب:

صيغة جديدة لمجلس الأمن القديم

من"عصبة الأمم" الى "هيئة الأمم المتحدة". ومن الحرب العالمية الأولى الى الحرب العالمية الثانية، وماذا بعد؟ هل يعقل أن تستمر الصيغة القائمة لمجلس الأمن بأعضائه الخمسة الدائمين وبحق النقض (الفيتو) الذي ينعم به هؤلاء الأعضاء.

العالم يتغير بوتائر عالية السرعة. مراكز الثقل الاقتصادية تتغير هي الأخرى. الدورة الدموية التكنولوجية تتحرك خارج الاتجاهات التي صممها لها قادة العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك يظل مجلس الأمن بأعضائه الخمسة الدائمين وبحق النقض، دون نقض ودون تغيير يأخذ بالحسبان الخارطة السياسية الجديدة في عالمنا المتضائل هذا.

فهل يجوز في أيامنا هذه الاستمرار في اعتبار بريطانيا وفرنسا دولتين عظميين وتجاهل اليابان وألمانيا مثلا؟ وهل يجوز أن تظل حصة أوروبا وأمريكا ثلاثة أخماس النفوذ في مجلس الأمن، أو حتى أربعة أخماس، اذا اعتبرنا الاتحاد السوفييتي أيضا دولة أوروبية؟

إن مجلس الأمن بصيغته الراهنة لا يعكس حقيقة ميزان القوى في العالم، بل يؤكد رغبة الغرب الرأسمالي الكولونيالي، بأشكال الكولونيالية الجديدة، في استمرار السيطرة واحكام القبضة على مقدرات البشرية ومصائرها.

صحيح أن الهنود والعرب وشعوب أمريكا اللاتينية لا يملكون بعد المقومات الاقتصادية والتكنولوجية المتفوقة التي يستحون عليها الغرب، الا أن هذه الشعوب تملك احتياطيا عظيما في مختلف المجالات وهي تشكل ثقلا ملموسا في هيئة الأمم المتحدة. ومن حق هذه الشعوب أيضا أن "تتمتع" بحق النقض أسوة بالدول العظمى فعلا، والعظمى مجازا، وبقوة الدفع التاريخي.

وما لم تتحقق صياغة موازين القوى في اطار هيئة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن بشكل خاص، بما يرضي تطلعات شعوب ما اصطلحوا على تسميته بالعالم الثالث، فان الساحة السياسية والاقتصادية الدولية ستظل عرضة لهزات أرضية لا يتوقعها أحد ولا يقدر عواقبها أحد.

لقد لحق بأغلبية البشرية ظلم تاريخي في مرحلة معينة، وتم تكريس هذا الظلم في تشريعات دولية كانت "منسجمة" مع الواقع التاريخي السابق، الا أنها غير قابلة للاستمرار. فليس من الطبيعي أن يكون لواحدة مثل مارغو تاتشر (أعتقد أنها ما زالت رئيسة وزراء بريطانيا التي كانت عظمى!) حق النقض في شؤون هي اليوم أكبر من بريطانيا بكثير.

لا بد من صيغة جديدة لمجلس الأمن القديم...

«العربي» ١٩/٩/١٩٩٠

الهروب من الجنة

كادت عبارة "الهروب من الجنة" أن تصبح وقفا على الصحافة الاسرائيلية، وأمها الصحافة الغربية، فقد تجندت وسائل الاعلام في العالم الرأسمالي بكامل قوتها للسخرية من الأقطار الاشتراكية، لا سيما الاتحاد السوفييتي، لدى كل حادث هرب من الشرق الى الغرب.

واصبح أمرا مألوفا في أبواق الغرب والمغتربين أن نقرأ يوميا تقريبا أنباء الهروب من "جنة الشيوعية"، ومن صقيع ما وراء الستار الحديدي وما شابه.

اذا هرب شاعر من روسيا فهو ليس مجرد شاعر بل يصبح بقدرة الاعلام الغربي أعظم الشعراء وأفضلهم وأرقاهم.

واذا هربت راقصة باليه فهي الأخرى ليست مجرد راقصة باليه، بل هي أعظم باليرينا في العالم قاطبة وهي مثقفة وفيلسوفة وعالمة اجتماع واقتصاد وسياسة وكل ما تشاؤون.

واذا اختطف احدهم طائرة ركاب ليهرب بها الى الغرب فانه يصبح على الفور بطلا من أبطال الحرية وعلما من أعلام النضال في سبيل حقوق الانسان، حتى لو كان جاسوسا يخشى افتضاح أمره، أو مجرد مواطن تراكمت ديونه لدى البقال المجاور، أو أنه أصيب بنوبة غضب حادة جراء تصرف زوجته أو ابنته في هذا الاتجاه أو ذاك.

وقد يكون الملل أو الكسل أو الطموح غير المبرر أو البلبلة المتأتية عن عمليات غسل الدماغ الاعلامية أو أي سبب آخر وراء هروب مواطن ما من دولة اشتراكية. غير أن أجهزة الاعلام الغربية تحوله بلا رفة هدب الى محارب من أجل الضمير والكرامة الانسانية وحقوق البشر الأولية.

وكل هؤلاء باختصار "هاربون من جنة الشيوعية". وكلهم يقيمون الدليل على أن الجنة الحقيقية هي الغرب وفي الغرب فقط.

ألفيروسات لا تقرأ. ومن ثم فهي لا تقرأ صحف الغرب والمغتربين. وهي تنتقل على هواها متخطية الحدود والأنظمة. فيروس الهرب هو الآخر، أسوة بأشقائه قابل للانتقال بحرية تامة من هذا القطر الى ذاك. وحين يكون الهرب بأتجاه عكسي فان لهجة الأبواق الغربية والمغتربة تتغير كما الحرباء.

في الآونة الأخيرة، مثلا، هرب لاعب كرة قدم اسرائيلي (ايلي بوناني- ١٨ سنة) من معسكر تدريب في يوغسلافيا. وهرب رجل مخابرات اسرائيلي في كندا (فكتور أوستروفسكي). وقبلهما كانت قضية مردخاي فعنونو. ويستطيع المرء ان يبتسم قليلا حين يتابع ردود الفعل المحلية. فلاعب كرة القدم ليس خسارة كبيرة ورجل المخابرات كان دائما شخصا فاسدا وفعنونو يفتقر تماما الى الاتزان.

وهكذا فالهرب من "جنة اسرائيل" شيء والهرب من "جنة الرأسمالية" شيء والهرب من "جنة الشيوعية" شيء آخر.

«العربي» ١٩٩٠/٩/٢١

حرية الرأي، والذين لا يعرفون البخور

صحيح أن المثل ما خلى شيئا الا وقاله. ومن الامثال الاكثر حكمة وعقلانية، ذلك القائل "ان الذي لا يعرف البخور تتحرق اذياله". وخلاصة المثل أن الذي يجهل الشيء يسيء استعماله.

وقياسا عليه فان من ولد في القمع ورضع حليب القمع وتربى على القمع وتعلم بالقمع وتزوج وخلف وشاب شعره بالقمع، قد لا يحسن استعمال حرية الرأي، رغم كونه اشد الناس حاجة اليها.

وتحت غطاء كثيف من دخان "حرية الرأي" تقيء الصحافة المحلية، الراقية منها والمتوسطة والمنحطة على السواء، من حين لآخر، كثيرا او قليلا من البذاءات الغوغائية الساقطة.

والعجيب في الامر ان عملية الكذب وتزوير التاريخ وقلب الحقائق بحيث يبدو الجبان شجاعا والجاسوس بطلا والخائن شريفا والكلب اسدا، تتم بهدوء، وبانسيابية تستحي منها الوقاحة نفسها، علما بأن الحديث غالبا ما يجري عن مرحلة لم يتغرب شبانها ولم يمت شيوخها.

وعلى سبيل المثال فان شخصا كان ينكر معارفه ويتنكر لأصدقائه، خوفا من الحكم العسكري، او حرصا على وظيفة، او طموحا الى مكسب شخصي، لا يتردد اليوم في الظهور بمظهر الوطني

النقي الشريف الشجاع، تحت سمع هؤلاء المعارف وأولئك الاصدقاء وبصرهم.

وحين تلفت نظر صحيفة ما الى الاسفاف والكذب والتزوير وسائر الموبقات التي يمارسها هؤلاء الجبناء الرعاديد والمرتزقة الصناديد على صفحاتها فانها تجيب ببساطة: "حرية الرأي يا اخي.. حرية الرأي"، حتى لكأن حرية الرأي تشمل كل افرازات البشر واشباه البشر من عقد نفسانية بدءا بعقدة الشعور بالنقص مرورا بعقدة المطاردة وانتهاء بعقدة الفصام التي لا شفاء منها.

يقينا ان بعض السقطات الصحفية او السخفية تتم بسذاجة او ببراءة. لكن بعضها الآخر لا يحدث عفو الخاطر، بل هو جزء من مخطط مدروس يقف وراءه علماء نفس جهابذة، تتطلب منهم وظيفتهم المدفوعة الأجر عدا ونقدا، ان يشيعوا في مجتمعنا مناخا من البلبلة وخلط الاوراق وطمس الحقائق، بحيث يتمكن العملاء والجواسيس المحترفون من التسلل الى صفوف هذا الشعب الصابر المرابط على تراب أبائه واجداده، والمناضل حتى النزيف من اجل مستقبل افضل له ولأجياله القادمة.

ومهما يكن من امر هذا التسيب الفوغائي، المبرمج او الارتجالي، فان هذا الشعب لم يفقد القدرة على التمييز بين الاصالة المجربة وبين التهريج العابر.

وكما قيل، فلن يظل في الوادي غير حجارته، ولن يصمد في الميدان غير خيوله الاصيلة. اما البهائم المسرجة "بحرية الرأي" المفتعلة، فان مجالها قصير، قصر الأرسنة التي تشدها.

ولا يضير الجواد الاصيل طنين ذبابة زرقاء بداء الحقد!

ويخطىء كل من يطالبني بذكر اسماء لهذه المخلوقات البشرية، او شبه البشرية، ذلك انها لا تستحق، ابدا، العبور تحت لسان هذا القلم!

«العربي» ١٩٩٠/٩/٢٨

باربا بوش !!

لا مجاملة في ما يتعلق بمصير امة. ولا منطق في خلط الاوراق بما يضمن بلبلة اللعبة واشاعة الغموض من حولها. والمقصود بهذا الكلام هو شحنة الغضب المهددة بالانفجار في اعالي الخليج العربي، والتي تتفاعل تياراتها العميقة العنيفة تحت جلد الانسان والارض على امتداد الوطن العربي.

فالاكتفاء باطلاق التنديد والشجب والاستنكار في وجه ما يسمى عملية "درع الصحراء" الامريكية والتطبيب لخطوة صدام حسين "الوحدوية" هو من قبيل مجاملة الرأي العام العربي السائد. وكما قلت، فلا مجاملة في ما يتعلق بمصير امة.

ويطالبنا الوضوح بمراجعة لعبة الامم المستمرة على ارضنا منذ عشايا الحرب العالمية الاولى. والتي وضعت لها قواعدها الخاصة خطيا، وبالرسم البياني، منذ السادس والعشرين من ايار ١٩١٦.

ففي ذلك التاريخ وقع المستر مارك سايكس البريطاني والمسيو جورج بيكو الفرنسي الاتفاق الذي اشتهر فيما بعد بأسميهما والذي ينص على تمزيق البلاد العربية بعد اسقاط الامبراطورية العثمانية، والحؤول دون قيام دولة عربية موّحدة قوية بمحاذاة اوروبا ذات الشهية الحيوانية المتفتحة قبالة عالم لها معه شؤون قديمة لا تريد

نسيانها او تجاوزها.

فالى جانب الدافع الاقتصادي الذي هو الجوهر والاساس في حروب التاريخ قاطبة، نعثر دائما على دوافع ومبررات وذرائع ثانوية الا انها مكملة ومنسجمة الاثر مع الهدف المركزي.

وعلى سبيل المثال فان الهدف الاقتصادي يبدو واضحا في حكاية ضابط المخابرات البريطاني المعروف بلورنس العرب مع صديقته اليهودية البريطانية التي كانت تراسله وتلح في سؤاله عن الآثار الأرخيولوجية اليهودية في ديار العرب، وظل لورنس يجاملها في اجاباته الى ان كتب لها ذات يوم: الحقيقة انه يهمني ابحار سفن صاحب الجلالة بالنفط المكتشف في الارض العربية أكثر مما تهمني أثار اليهود في هذه الارض!

ومع ذلك فقد لاحظنا لاحقا كيف ان حكومة "صاحب الجلالة" البريطاني استغلت حكاية الاثار اليهودية هذه ايما استغلال، "لإقامة دولة يهودية موالية لبريطانيا في جوار مصر وقناة السويس" (مذكرة هربرت صموئيل الى الحكومة البريطانية عند نشوب الحرب العالمية الاولى).

كان الغزو الاوروبي الى بلادنا تحت شعار "الصليب" لجاذبيته الشديدة الفعالية في اوساط الجماهير الاوروبية ولقدرته من ثم، على تجنيد هذه الجماهير وتحويلها الى مجرد قطعان بشرية في خدمة المشاريع الاقتصادية الرسمية. حتى ان هتلر نفسه لم يربأ عن التستر بالصليب والنظريات العرقية في محاولة يائسة لإكراه العالم على تزويده بالمجال الحيوي "ليبن ستراوم"، اي الاسواق الجديدة لبضائعه.

وبعيدا، اقصى البعد عن المسيحية والمسيح، فما زال اقتصاديو الغرب وارباب صناعته من تجار البندقية وجنوه عشية الحملات الصليبية حتى جنرال موتورز وكوكا كولا اليوم يتذرعون بالحجج الدينية لتمرير مخططاتهم الاستعمارية من خطبة البابا اوربان الثاني تمهيدا للحملة الصليبية الاولى حتى خطبة الرئيس الامريكي جورج بوش الزعلان على صدام حسين لأنه لا يتصرف بما يرضي الاسلام والتقاليد. ويتساءل المرء: ما علاقة الاسلام والتقاليد العربية بالموضوع؟ ولماذا يتحدث جورج بوش بهذه اللهجة، علما بانه ما من زعيم عربي او مسلم قارب المسائل الدينية في الازمة الجديدة، ولا اقول الاخيرة؟

ان جورج بوش يسير على خطا سلفه المشكوك جدا في صلاحه، فقبله هتف الجنرال البريطاني اللنبي حين دنست قطعانه القدس سنة ١٩١٨: "الآن انتهت الحروب الصليبية" وقبل بوش وبعد اللنبي، هتف الجنرال الفرنسي الوبش غورو، امام ضريح صلاح الدين في دمشق: "ها قد عدنا يا صلاح الدين !".

وازاء هذه الذرائع السافلة فقد وقفت الامة العربية محصنة بتسامحها الديني وقام العرب المسيحيون في بيروت وفي حيفا بتأمين الامدادات الى قوات صلاح الدين معرضين انفسهم للموت على ايدي الدجالين وقطاع الطرق الوافدين بقطعانهم من الغرب.

وبقدر ما تفهم الانسان العربي "البسيط" حقيقة المواجهة بينه وبين قوى الاستعمار الاجنبية فقد ظلت هذه الحقيقة غير واضحة على المستوى الرسمي. ولانسلاخ هذا المستوى الرسمي عن الحس الجماهيري فقد تورط وورط الجماهير في معارك غير متكافئة وغير مدروسة بعمق.

والذي حدث في العام ١٩٦٧ كان ورطة غير مدروسة واستدراجا دفعت الجماهير وما زالت تدفع ثمنه الفادح. يذهب القادة تذهب الانظمة وتبقى تبعات التاريخ على الجماهير.

والذي يحدث اليوم في الخليج هو ايضا ورطة غير مدروسة وهو استدراج اذا كلف ثمنا، فستكون جماهير هذه الامة هي من يدفع الثمن كاملا وغير منقوص.

نحن ندرك ان الدويلات العربية القائمة الآن، بما فيها دويلات الأعراب في الخليج وشبه جزيرة العرب هي مصنوعات اجنبية، وندرك ان الوحدة العربية حق وواجب وهدف وليست مجرد حلم. لكن ينبغي علينا ان ندرك ايضا ان الموقف الغربي لم يتغير ولم يتحور بل اصبح اكثر ضراوة بما يتناسب طردا مع امكانيات العرب البشرية والاقتصادية والتكنولوجية المتعاظمة.

وما دمنا ملتزمين مبدأ الوحدة ليس بأعتبارها كلام جرائد او مادة تجميلية لخطب الملوك والرؤساء والأمراء (غير المعنيين بها اصلا!) فاننا مطالبون بالتنبه الى اخطار التحرك الانفعالي ومطالبون بوضع منهاج استراتيجي لتحقيق الوحدة.

لقد جربنا مشاريع الوحدة الاجرائية الفوقية وتجرعنا مرارة نتائجها وجربنا النهج البسماركي وتجرعنا مرارة نتائجه وآن لنا ان نفهم بأن الوحدة غير قابلة للتحقيق في هذه المرحلة التاريخية، عبر قرارات عليا تتخذها مؤسسات القمة، ولا هي قابلة للتحقيق بالعمليات العسكرية ما دام اعداء العرب واصدقاء العرب (مع وقف التنفيذ) هم المزود الرئيسي للعرب بعناصر القوة العسكرية وادواتها.

وحين نلاحظ ان الوحدة لم تتحقق بين قطرين يحكمهما حزب

واحد (سورية والعراق)، فانه يصبح من حقنا ان نتساءل عن امكانية تحقيق الوحدة عبر انظمة متفاوتة ومتناقضة ومتنافرة الى اقصى حد.

لقد قلت في مناسبات سابقة، وهأنذا اكرر الان، ان الجماهير العربية اقرب بكثير الى الوحدة من قيادتها، واكثر من ذلك فان هذه القيادات تشكل جزءا هاما من العقبات التي تعترض طريق الحلم الوحدوي نحو التجسد.

ماذا يحدث الآن؟؟

فرح حقيقي، غمر العرب في كل مكان، بانتهاء الحرب العراقية الايرانية، وبانجازات العراق التكنولوجية، وبطموح العراق الى ان يصبح قوة اقليمية ذات وزن في مجريات احداث المنطقة لكن هذا الفرح ظل عرضه للكمد وللقلق عبر الانباء عن محدودية الفعالية الجماهيرية في صنع القرار لا في تنفيذه فحسب. ليس العراق مطالبا بالصمود الابدي في وجه الحملة العالمية الدموية التي يتعرض لها لكنه مطالب بالانتباه الكامل الى لعبة الدول القذرة وهو مطالب بحماية ذاته من مؤامرة هي فوق طاقته، وفوق طاقة العرب بأنظمتهم الراهنة.

واذا كانت هناك قيمة تذكر بعد للامنيات فاننا نتمنى للعراق ان يتجاوز هذه الازمة الخطيرة، ونتمنى للوحدة العربية ان تنتج فكرها الاستراتيجي العلمي الثوري، بعيدا عن الارتجال، وفي منجى من المطبات الارضية التي يقيم اعداء هذه الامة معاهدهم ومؤسساتهم، لابتكارها ولتطويرها ولتجديدها، منذ ريكاردوس البريطاني وباربروسا الالماني حتى جورج بوش الامريكي.

اخيرا، اقترح استبدال اسم الغزو الامريكي من "عملية درع

الصحراء".. الى عملية "باربابوش"، لشدة اوجه الشبه هنا بين باربساروسا وبوش!!

ملاحظة: وصلت جيوش باربروسا الى بلادنا، اما هو فقد غرق في طريقه الينا!!

«عبير» ايلول ١٩٩٠

الانضباطية العسكرية
التسيب الاجتماعي

مع مطلع كل شمس تقريبا، من شموس الزمن الكابي الشاحب هذا، تطلق الصحافة الاسرائيلية، ومن مانشيتاتها الرئيسية على الغالب، صيحات الدهشة المقاربة لعدم التصديق، حول فضائح اقتصادية وسلوكية وامنية جديدة، وتهز هذه الصيحات مجرى الحياة العادية (غير العادية) في المجتمع الاسرائيلي، انما الى حين. والحين المقصود هو انفجار فضيحة اخرى لا تقل عن سابقتها اثارة ان لم تتفوق عليها بدرجات، حسب مقياس "رختر".

ولعل فضيحة الفضائح في هذه الايام (وحتى كتابة هذه السطور) هي قضية الجنرال رامي دوتان من سلاح الطيران الاسرائيلي.

ولا تعنينا في شيء تفاصيل هذه القضية، والتي تتلخص في ان هذا الجنرال تلقى مع عدد من شركائه رشوات بمئات ملايين الدولارات في اطار صفقات تتعلق بسلاح الطيران.

الذي يعنينا هو الافق الفولاذي البارد والمعتم الذي تضربه حول الشعوب، جميع الشعوب، نوازع العسكرة، واختيار النسق العسكري أنموذجا للحياة المدنية.

ويعج التاريخ، قديما وحديثاً، بالامثلة التي كان من شأنها ان

تقدم للبشرية عبرتها الناجزة، ومع ذلك فلا عبرة ولا من يعتبرون.

ولعل اقرب الامثلة، هو المغامرة الامريكية في فيتنام، لقد انطوت صفحات آلاف القتلى الامريكيين هناك، ولم يبق امام أبناء عائلاتهم سوى ان يعلقوا صورهم ذات الاطر السوداء على جدرانهم الحزينة.

أما صفحات الجرحى والمشوهين والمختلين عقليا ومدمني المخدرات والعنف، فقد ظلت مفتوحة الى يومنا هذا، ذلك ان العائدين من الخدمة العسكرية الى الحياة المدنية عادوا بكل ما اكتسبوه في ايام الغزو الدامية من عنف وحقد وهمجية وهلوسات ورعب ومخدرات وجرائم جنسية وفقدان السيطرة الذاتية، عادوا بكل هذه "الغنائم" ليسكبوها دفعة واحدة على مجتمع افرز الجريمة العسكرية ولم يتوقع ان تكون اشبه بالبوميرانغ، وانها ستعود اليه وعليه، وان عواقبها الوخيمة لن تقتصر على الضحية الفيتنامية، بل ستطال حتما، الجلاد الامريكي نفسه.

وبهذا المنظور، فلم ندهش نحن حين قرأنا قبل ايام ان رئيس بلدية نيويورك يطالب بفرض حالة الطوارىء على مدينته في محاولة يائسة للحد من انتشار وباء الجريمة هناك.

ولا ندهش حين نقرأ ان الجرائم في الولايات المتحدة تحصى بالثواني وبالدقائق لا بالايام وبالاسابيع.

وفي التاريخ القديم، عرفت اوروبا حالة مماثلة، على مستوى قاريّ، فحين عادت قطعان الجيوش الصليبية الى بلادها لم يجد زعماء اوروبا حاجة محلية للابقاء على الجيوش الجرارة تحت السلاح، فسرحوا جنودهم العائدين من حمامات الدم ومخاضات العنف والعذاب في الشرق العربي الاسلامي. وفجأة، وجد هؤلاء الجنود

انفسهم وجها لوجه ازاء البطالة والكساد والفقر والحرمان، فما كان منهم الا ان عادوا الى ممارسة المهنة الوحيدة التي يتقنونها، مهنة القتل، ولما لم يتوفر لهم هناك العرب والمسلمون المهيأون للذبح، فقد حولوا سلاحهم الى صدور ابناء شعوبهم والى نحور اولئك القادة الذين عبأوهم بشهوة القتال كما تعبأ ساعات الحائط، غير انهم لم يتمكنوا من ضبط اوقات الجريمة وفق مواعيدهم هم، فانقلب الجنود الاشاوس ذئابا جائعة وكلابا مسعورة ضالة تجوب اوروبا فيجوبها الرعب والسلب والنهب وقطع الطرق والاغتصاب، وتكونت "جماعات الارهاب" و "جماعات الطرق" و "جماعات المغامرة"- هكذا كانوا يسمونها أنذاك، مما اضطر الكنيسة والملوك والامراء والاقطاعيين إلى تنظيم قوات "مكافحة الارهاب".

ومن سخريات القدر ان حكام اوروبا وامريكا الجدد الذين ورثوا عن آبائهم واجدادهم شهوات الغزو والتوسع والبطش، ورثوا ايضا شعار "مكافحة الارهاب" غير ان الارهابي في نظرهم اليوم هو الضحية التي تتصدى لشهواتهم الدموية.

ونعود قليلا الى بلادنا، حيث كان النموذج الاسبارطي هو المثل الاعلى لاقطاب اسرائيل منذ تكوينها، وقد قالها دافيد بن غوريون صراحة وعلانية وبالبنط العريض، انه لا بد من وجود عدو خارجي دائم لاسرائيل حتى تصبح بلورة الشعب الاسرائيلي امرا ممكنا!!

ووجود هذا "العدو الخارجي" يعني ضرورة الابقاء على السلاح مشهرا على مدار عقارب الساعة. وقد أدت حالة الحصار والعزلة الى تكريس نفسية الجيتو والى تشجيع النظرة العدائية، والتشككية، في احسن حال، نحو كل من هو مختلف او مغاير، واصبحت القوة

العسكرية هي القوة العليا ماديا وروحيا واصبح الجيش الاسرائيلي نمطا اجتماعيا لا مجرد اطار عسكري الى جانب الحياة المدنية او من حولها.

وقد سمعت، باذني هاتين، الممرضات الاسرائيليات، وهن يعلن لبعض السيدات في مستشفيات الولادة: مبروك، لقد ولدت لنا جنديا جديدا!!

واصبح شعار "الجيدون الى سلاح الطيران" شعارا جذابا يدعو الى الفخر في المجتمع الاسرائيلي، بينما من الطبيعي في المجتمعات الطبيعية ان يكون الشعار مثلا، "الجيدون الى الصناعات الالكترونية"، او "الجيدون الى البحث الطبي" وما شابه من شعارات تحمل في جوهرها دعوة حقيقية الى الحياة والعمران والتطور، لا دعوة بائسة الى ادوات الدمار والهلاك والتخلف.

لقد بلغت العسكرة الاسرائيلية درجة التشبع، ولم يبق لها الا ان تتفجر في حالات الحرب واللاحرب معا، ذلك ان السلام لا يبدو اطلاقا في افق السياسة الاسرائيلية. وفي وضع كهذا فان الفضائح المتصلة بنسق الحياة العسكرية ستتكرر وستتفجر من جديد، ومع مطلع كل شمس من شموس هذا الزمن الكابي الشاحب. واذا كان حكام اسرائيل مهيأين، ولو قليلا، لاعادة النظر في استراتيجيتهم، لكان من شأنهم اكتشاف المأزق التاريخي الذي زجوا شعبهم فيه، ولكان من شأنهم ان يتحولوا عن سياستهم العدوانية، العقيمة في نهاية المطاف، الى سياسة البحث عن السلام، مع شعبنا العربي الفلسطيني، ومع امتنا العربية، ومع الحلم الانساني المجرد بحياة تسودها الطمأنينة ويضيئها العدل، وترتفع فيها كركرات الاطفال على اراجيح من حطام

المدافع.

وان الانضباطية العسكرية المؤدية حتما الى التسيب الاجتماعي، لا تشكل خطرا علينا نحن فحسب، انها قنبلة موقوتة داخل المجتمع الاسرائيلي نفسه.

والعبرة قائمة وماثلة ومعروضة بمنتهى الوضوح .. والسؤال هو: هل من معتبر؟!

«عبير» كانون اول ١٩٩٠

هل تلحق الامم المتحدة بعصبة الامم

مع ان الرئيس الامريكي وودرو ويلسون هو الذي عرض على العالم فكرة انشاء "عصبة الامم" لتكون اطارا دوليا لضبط العلاقات العالمية وفض النزاعات سلميا وتعزيز التعاون بين الشعوب من أجل التنمية والتقدم، فان الكونغرس الامريكي رفض التوقيع على ميثاق هذه العصبة واعترض على صلح فيرساي الذي وضع حدا للحرب العالمية الاولى. ومن الواضح ان الزعل الامريكي كان عائدا آنذاك الى ضآلة الغنائم التي خرجت بها الولايات المتحدة من الحرب العالمية الاولى.

وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية انشئت هيئة الامم المتحدة، على انقاض عصبة الامم، ولم يتردد الامريكيون هذه المرة في استغلال هذا الاطار الجديد، ساعين بجهد واضح الى تحويله، تحت ثقلهم الاقتصادي والسياسي والعسكري المتنامي، الى اداة طيعة لخدمة المصالح الامريكية، مدججين بالسلاح وبالشرعية الدولية في آن.

وحين قررت الولايات المتحدة شن حربها القذرة ضد الشعب الكوري فقد تمكنت بيسر من توريط الامم المتحدة لخوض القتال تحت راية العالم، ولتؤكد مشروعية الدور الذي اختارته لنفسها، دور

الشرطي الدولي.

وها نحن شهود اليوم على وضع مختلف في شكله انما هو مطابق في جوهره.

فالولايات المتحدة التي استخدمت حق النقض (الفيتو) أكثر من ثمانين مرة لاحباط مقررات الجمعية العمومية، وبضمنها المقررات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، هذه الولايات المتحدة، هي نفسها التي تُوظف ثقلها الدولي اليوم لتحويل الامم المتحدة، مرة اخرى، الى ختم مطاطي يمنحها المبرر الاخلاقي والقانوني لشن حرب عالمية ثالثة على العراق.

ويلاحظ العالم كله، وبمنتهى الوضوح، مدى النفاق الامريكي في الموقف الذي يزعم الحرص على سلامة الدول وحقوق الانسان واستقرار العدالة الدولية، حين تكون الكويت هي الموضوع، ويتنكر بكل صفاقة ممكنة لحريات الشعوب وحقوق الانسان حين يكون الشعب الفلسطيني هو الموضوع.

ومن الموجع حقا ان معظم دول العالم اليوم ترقص على ايقاع الدف الامريكي والمدافع الامريكية، متسترة بقرارات مجلس الامن والجمعية العمومية، دون جرأة على مواجهة امريكا بحقيقة موقفها الانتقامي والمتحيز، والمنافي لروح المواثيق الدولية، رغم استماتتها في مماشاة النص والتلويح به.

ان امريكا التي اسقطت عصبة الامم في اعقاب الحرب العالمية الاولى، هي نفسها امريكا التي تقوم اليوم بكل ما من شأنه اسقاط الامم المتحدة.

واذا كان الالوف من ابناء الولايات المتحدة قد خرجوا للتظاهر في شوارع مدنهم وفي باحات جامعاتهم ضد المخطط الامريكي لضرب

العراق، معلنين ان المصالح النفطية، لا حقوق الانسان، هي التي تحرك الادارة الامريكية، فان شعوب العالم الاخرى، لا سيما شعوب المنطقة المعنية، منطقتنا، مطالبة بالخروج الى الشوارع في تظاهرات مستمرة، لردع الاخطبوط الامريكي عن مشاريعه العدوانية الانانية، التي من شأنها زج العالم في حرب لا يستطيع احد ان يقدر عواقبها، ليس على الصعيد العسكري فحسب، بل على اصعدة الحياة كافة، هنا وهناك على السواء.

«العربي» ٥/١٠/١٩٩٠

مذابح الهيكل!

سيجف حبر هذه المداخلة قبل ان يجف دم الشهداء في ساحة الاقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة. وسيجف حبر المطابع قبل ان يجف دم الضحايا والقرابين في شوارع القدس من باب المغاربة حتى طريق الآلام حتى كل عتبة من كل بيت من مدينة القيامة وحاضرة الاسراء والمعراج.

يجف حبر السخط واضعف الايمان وتجف دموع الغضب والمقاومة، اما انت ايها الدم، يا دمنا، فلن تجف لانك صائر الى سدرة الحياة الابدية في مدينة الروح والقلب والعقل والضمير، مدينتنا يبوس -أورسلم- القدس.

وتجف حلوق الغزاة الطامعين، لهاثا وراء ما لن يكون، اما انت ايها الدم، يا دمنا فلن تجف، لان ركبة عمر بن الخطاب، منذ سجدته الاولى اورثتنا زيتونة الابد الدائمة الخضرة.

وماذا يفعل الغزاة؟ ماذا يستطيعون ان يفعلوا؟ وماذا يريدون؟ وماذا يستطيعون ان يريدوا؟

يريدون بناء هيكل جديد، على انقاض هيكل قديم، على انقاض مدينتنا القديمة-الجديدة.

ولن يستطيعوا ان يفعلوا، لانهم لا يستطيعون اصلا ان يريدوا،

ذلك ان الارادة محكومة بحدود الواقع والمنطق. أما تلك التي لا تعترف بهذه الحدود، فانها تتحول تلقائياً من صيغة الإرادة إلى صيغة الجنون. وماذا يستطيع الجنون ان يفعل بضوابط الكون التي لا تعترف بالجنون؟

لقد شاهدت قبل ايام صورة القدس المزورة بطريقة الفوتو مونتاج، والتي تتصدر، كما قيل لي، جدران عدد من الفنادق والاماكن العامة في الحي اليهودي من القدس. وفي تلك الصورة لا تتعرف الى القدس لانك لا تجد قبة الصخرة ولا مسجد عمر، فقد تم مسحهما في ظن الممسوخ، واستبدلا بصورة ملفقة لما يهدس به المهاويس، هيكلا جديدا على انقاض هيكل قديم، على انقاض مدينتنا القديمة-الجديدة.

واذا كان المسؤولون الاسرائيليون، قد حاولوا مرة اخرى، تزوير ما حدث في القدس، بالتغطية على استفزاز قطعان المستوطنين، والدعوة الى وضع حجر الاساس للهيكل الموهوم، واذا حاولوا مرة اخرى تصوير المجزرة الرهيبة الجديدة-القديمة، وكأنها نتيجة لاعتداء الضحية على الجلاد، فان الحقيقة المشرشة في سدرة الاذان ان الله اكبر الله اكبر والله اكبر، هي ماوية الازل، والحقيقة المضيئة من زيتونة عمر هي ماوية الابد، ولن يكون غير ما شاء الله ان يكون وليكن ما شاء الله ان يكون. ولتكن مذابح الهيكل. وليكن أن يطالب العالم كله بتشكيل لجان التحقيق في "الحادث". أما أنا شخصيا فلا اطالب بتشكيل لجان التحقيق، ذلك ان التحقيق قد تم، والقرار قد ظهر، فلتتصل الاسباب وليفهم أولو الالباب. لم يبق في السر والعلن، الا ان... وهذا ما أدركه الشهداء، فمتى يدرك الاحياء؟!

«العربي» ١٩/١٠/١٩٩٠

حين يصير القانون شيئا والعدالة.. شيئا آخر؟

يوما إثر يوم، تشتد علينا حمى الخليج، فليس ما يجري او يوشك ان يجري هناك حدثا آخر من احداث المرحلة. أنه فاصلة تاريخية، ومحور لانعطاف هائل في صيرورة الانسان العربي. الى اين؟ لا ادري ولا اريد ان اتنبأ، لا خوفا من سوء عواقب الاجتهاد، بل لانني لا املك القدر الكافي من الحمق بحيث ادعي القدرة على التحكم بالرياح وضمان جريانها بما تشتهي سفني. ثم انني احتفظ لنفسي بالحق في الفهم الخاص، وربما المختلف، لمقولة التفاؤل الثوري .. وحتمية التاريخ .. وما أشبه.

بيد ان عواصف الرمال الخليجية الملتهبة لم تحجب الرؤية -مثلي مثلكم- عما يجري هنا، فينا ومن حولنا، تحت وطأة آلة الاحتلال الإسرائيلي.

وبما ان وزير الامن الاسرائيلي ارنس، "يطمئننا" من بيت مهدوم في مخيم البريج الى بيت مهدوم آخر، ومن أسرة مشردة الى أسرة مشردة اخرى، بتصريحات متواترة عن صيانة القانون والالتزام بالقانون وعدم تجاوز القانون فانه يصبح من حقنا ومن واجبنا ان نحاور الوزير ارنس في مسألة القانون هذه. ومما يدفعنا الى مزيد من

الاصرار على مناقشة الوزير ارنس، وكل ما يمثله من تاريخ وقيم وممارسات، في مسألة القانون هذه، ما اقدمت عليه قطعان الفاشية في الأونة الاخيرة من كتابة شعارات، بالخط العريض، على جدران محكمة العدل العليا الاسرائيلية، لعل ابسطها واكثرها وضوحا ذلك الشعار القائل: "لا محكمة عدل عليا للعرب".. "محاكم ميدانية للعرب".

ومع ان محكمة العدل العليا الاسرائيلية هي التي اطلقت ايدي قوات الاحتلال لتفعل ما فعلت وما تفعل في مخيم البريج، فان هذا الشعار يوحي بما يلي:

"محكمة العدل العليا الاسرائيلية تحمي العرب من الاحتلال والقمع والهدم والتشريد والتهويد، لذلك ينبغي ابعادهم عنها او ابعادها عنهم".

ولسنا بحاجة الى ذكاء استثنائي لنفهم ان هذا الشعار يظل جزء لا يتجزأ من عملية تزوير تاريخية متكاملة، تتنافر اطرافها على السطح لتتآلف في العمق، ولتتكامل في نهاية الامر حول محور جوهري واحد ثابت ودائم.

واذا كان الغزاة الامريكيون قد اوغلوا في لعبة القناع القانوني عبر جميع فظائعهم في فيتنام فانا نلاحظ ان تلامذتهم في اسرائيل بزوهم في هذه اللعبة وتفوقوا عليهم اتقانا ومثابرة. فمحاكمة بضعة جنود بتهمة تجاوز الاوامر وتجاوز القانون في المناطق المحتلة، لا سيما منذ نشوب الانتفاضة، يترك مجالا رحبا للايحاء بأن ما عدا بعض التجاوزات التي ضبطت قانونيا، فان كل شيء آخر هو قانوني في جوهره.

وبهذا المنطق يصبح الاحتلال نفسه قانونيا، ويصبح مصرع ما

يقارب الثلاثمئة طفل قانونيا، ويصبح الاجهاض المتكرر بفعل الغازات قانونيا، ويصبح الهدم والابعاد والعقوبات الجماعية امرا قانونيا. ويصبح من السهل ابتكار القوانين وارتجالها لتغطية ما لا تجوز تغطيته، حتى لكأن القانون، ما دام قانونا، فانه يحمل في ذاته ولذاته كل المبررات والتخريجات المطلوبة لتحويل الدنس الى طهارة والشر الى خير والباطل الى حق.

وتندرج الاوامر العسكرية في خانة القانون المدني، لانها تكمله ولا تناقضه وتخدمه ولا تتجاوزه. وهكذا فان الاوامر العسكرية في كل مجتمع تعكس طبيعة هذا المجتمع وطابعه السياسي-الحضاري.

وما دام العالم منقسما الى مجتمعات متفاوتة في حضاراتها وأمزجتها وتطلعاتها، فاننا نلاحظ ما كان قائما منذ القدم من تفاوت بين الاوامر العسكرية. ويسهل علينا الاستنتاج بأن القانون ليس مرادفا للعدالة بالضرورة، وفي كل مجتمع، وفي اية حقبة. كما يسهل علينا الاستنتاج بأن علم الوراثة يطال القوانين ايضا ويضع الحدود الفاصلة بين ما هو عادل وما هو مناف للعدالة، منها.

لقد عرفت البشرية اوامر من طراز: "اذا دخلت مدينة لا يفتك ان تقتل سكانها بحد السيف وان تستأصلهم أطِلّةَ الدم وان تبيد كل ما يكون في تلك المدينة وأن تذبح حتى بهائمها"..

وبالمقابل، فقد عرفت البشرية ايضا امر ابي بكر الصديق الى اسامة بن زيد: "لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امراة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا انفسهم له".

وبالمقابل فاننا نشهد اليوم الاوامر باغلاق مسجد البريج في

وجه المصلين وهي أوامر واضحة قانونية بلا ريب! ويستطيع الجندي الذي يضع كعب بندقيته رتاجا لباب المسجد ان يقدم لك غطاء قانونيا وفق المقاس المطلوب!

ويوم احتل الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩ فقد نفذوا الاوامر القانونية الصادرة لهم فذبحوا اكثر من سبعين الفا هم سكانها بمن فيهم الاطفال والنساء والشيوخ.

وبالمقابل فحين استردها صلاح الدين في سنة ١١٨٧ فقد تسامح مع القتلة وتصدق على اراملهم وأيتامهم واكتفى بالفدية واطلق سراح من لم يجد اليها سبيلا.

وبموازاة اوامر صلاح الدين القانونية فقد شهدت البشرية بعد الواقعة بأعوام قليلة كيف اصدر الوحش الانجليزي ريتشارد (الملقب بقلب الاسد) اوامره، القانونية طبعا، بذبح ٢٧٠٠ اسير في عكا.

ويكرر التاريخ امثال ابي بكر وصلاح الدين ويكرر ايضا امثال الوحوش ريتشارد وموسوليني وادولف هتلر.

ويتكرر صدور الاوامر وصك القوانين، وتتكرر الحقيقة بأن القانون ليس بالضرورة مرادفا للعدالة وحين يصير القانون شيئا، والعدالة شيئا أخر، فان كل هالات القداسة والمصداقية والمشروعية التي تحيط بالقانون، تسقط وتتلاشى على عنق طفل ذبيح وعلى انقاض بيت مهدم.

«عبير» تشرين ثاني ١٩٩٠

كهانا - الكهانية

القدس- قبالة مبنى الكنيست- باحة التظاهرات- هايد بارك الاسرائيلي. تظاهرة عربية احتجاجا على جملة من الاجراءات السلطوية، في صلبها خطر الهدم الذي يحوم فوق الابنية غير المرخصة لغياب الخرائط الهيكلية، ولسياسة تضييق الافق في وجه المواطنين العرب.

فجاة تظهر جماعة من الشبان اليهود. يتقدمهم الرابي مئير كهانا. لم اكن قد شاهدته شخصيا من قبل. يقترب ويقتربون من حوله. يصرخ في وجوهنا ويرددون الصراخ من حوله. يقترب وجهه. اشاهد تجويف فمه، لسانه واسنانه. وتقطيبة شرسة بين حاجبيه المائلين الى الكثافة.

تل ابيب- ذهبتُ الى هناك بدعوة من مجموعة يهودية تريد ان تسمعنا. ناد صغير في قبو تحت احدى العمارات. لعله الملجأ. كان رجل في منتصف العمر بانتظاري عند مدخل ساحة صغيرة. قطعنا الساحة وهبطنا بضع درجات لأشاهد على الجدار المقابل عدة شعارات بالحرف العربي؟ كلمات غير واضحة تبين لي بعد قليل انها فارسية. فهمت منها انها ضد الندوة وضد العرب. قال الرجل الذي في منتصف العمر انهم تلقوا عدة تهديدات تلفونية بنسف النادي. لم اعلق بشيء.

دلفنا من باب منخفض وكان هناك بضع عشرات من الناس. بدأت الندوة. بعد دقائق هرول الى الداخل شاب وسيدة. قالا شيئا. سمعنا ضجيجا في الخارج. جاء الرجل الذي في منتصف العمر، بشعره الاحمر الخفيف، وقال ان جماعة كهانا تطوق المبنى وتهدد بالقاء قنبلة. بدأ الناس في الخروج من القاعة الصغيرة. بقيت صامتا خلف المائدة العارية. اقترب مني شاب وهمس بالعربية: لاتخف تعال معي. قلت: من انت؟ والى اين أتي معك؟.

قال: انا عربي من البقيعة. كنت شرطيا ومعي مسدس مرخص اذا اقتربوا منك فسافرغه في صدورهم. قلت لك تعال معي ولا تخف. قلت: لست خائفا لكنني حزين. قال: تعال، بلا فلسفة. وذهبت معه بلا فلسفة، وفي الخارج كانوا يصرخون ولا ادري لماذا خيل لي آنذاك انني رأيت عدة نسخ طبق الاصل من الرابي مئير كهانا بتجويف فمه. اسنانه. لسانه وصرخاته المتهدجة غضبا وحقدا.

القدس - اذاعة صوت اسرائيل العبرية- برنامج "أتوجد اسئلة؟"- مناظرة في قاعة مدرسة "بتساليل" للفنون التشكيلية. حين اتصل بي المذيع الاسرائيلي ليسألني عما اذا كنت على استعداد للحوار مع الرابي مئير كهانا وتساحي هنغبي (ابن غئولا كوهين)، لم اتردد. قلت: من اجل قضيتي انا على استعداد لمحاورة الشيطان نفسه. قال: سيكون الى جانبك ابراهام بورغ. قلت: حسبي ان الحق الى جانبي. قال: ستحتاج الى اكثر من الحق لمواجهة الرابي مئير كهانا. وفهمت الاشارة على نحو لم يقصده المذيع. اتصلت بشاب من بلدتي كان مجندا ولديه مسدس مُرخص. قلت له: هل تريد أن تكون حارسي الشخصي في مناظرة مع الرابي مئير كهانا؟ قال: بكل سرور.

في اثناء الحوار، لم اجد صعوبة في استمالة الجمهور، وقد بدا لي

ان الرابي مئير كهانا لا يستطيع استمالة احد سوى ثلة المهاويس التي تحيط به. حين كَلّمَ تساحي هنغبي هاجمه في امه. وحين هاجم ابراهام بورغ فقد هاجم "مدنسي اسم الرب الذين يدعون التدين وما هم من الدين في شيء"... ونظر اليّ بهدوٰ عجيب وهو يقول: اسمع، انت عدوي. والمعركة بيننا واضحة. اما انا واما انت. انا لا احبك. لكن صدق انني احترمك اكثر من هؤلاء اليهود الكفرة (مشيرا الى ابراهام بورغ). وتصدى له بورغ بعنف وتعالى الصراخ فأخذت الميكروفون وقلت بهدوٰ (كان البث مباشرا): لقد تمتعتم طويلا بحروب العرب وآن لي ان اتمتع قليلا بحروب اليهود. وضحك الجمهور واهتاج الرابي مئير كهانا. ورأيت عن كثب مرة اخرى، تجويف فمه. اسنانه. لسانه. والتقطيبه الشرسة ما بين حاجبيه الكثين.

اشواك في عيونكم: في أب من العام ١٩٨٠ وضع كهانا كتابا في سجن الرملة. في هذا الكتاب (٢٤٥ صفحة .. قطع متوسط) شرح، باسهاب وباستشهادات كثيرة، نظريته التي تتلخص في عبارة واحدة: "يجب طرد العرب من البلاد".

وقد اطلق على الكتاب اسم "أشواك في عيونكم" معتمدا مصدرا دينيا يحذر اليهود من السماح ببقاء اي من السكان الاصليين في البلاد التي وعدهم بها الههم، "لان من تبقونه منهم سيصبح اشواكا في عيونكم وحسكا في جنوبكم".

ويقدم مئير كهانا ادلة وفيرة لتبرير دعوته لطرد العرب من البلاد، ويجد مبررا هاما في الشعر، ويخصني بالدليل على "كراهية اليهود لا سيما في قصيدة "قد نمهل لكن لن نهمل" التي كتبت عن يوم الارض والقيت في الناصرة في الاول من ايار ١٩٧٦. وهو يصور قصائدي بانها "مصدر المارشات للتمرد القومي" (شكرا!)

ثم يمسك في مكان لاحق من كتابه بخناق توفيق زياد ويقرعه أشد التقريع لانه كتب قصيدة عن عبور القوات العربية خط بارليف. ويرى في هذه القصيدة مبررا لطرد العرب من البلاد.

وحتى زئيف جبوتنسكي رمز اليمين القومي الصهيوني المتطرف، لا يسلم من انتقاد الرابي مئير كهانا لانه لم يتوصل الى الموقف الحازم والحاسم الداعي الى طرد العرب جملة وتفصيلا من هذه البلاد.

ومن اكثر ما يثير حنق كهانا ادعاء بعض اليهود بان نظريته لا تتفق مع اليهودية ويسهب في تقديم البراهين على انه هو اليهودي الحقيقي وعلى ان نظريته هي الالصق بجوهر اليهودية.

ويسخر مئير كهانا من "وثيقة استقلال اسرائيل" التي تتحدث، لو حبرا على ورق، عن المساواة للمواطنين العرب، ويسخر من مقولة السلام ومقولة الديمقراطية.

ويختتم كتابه بالعبارة التالية:

(لقد فهم دافيد كيف تكون "الواقعية" و "العملية" و " المنطق". كانت اقواله الاخيرة قبل ان يقتل جليات: وليعلم كل هذا الجمهور انه ليس بالحربة وبالرمح يأتي خلاص الله، انما الحرب لله، وقد وضعكم (فرائس) في ايدينا". ونزع دافيد رأس جليات من على كتفيه، ونزع العار عن اسرائيل.

هيا ننزع العرب من بين اسرائيل، وبهذا نجلب الخلاص).

حين سمعت نبأ اغتيال الرابي مئير كهانا، لم افتح بيتي لتلقي العزاء، لكنني، ايضا، لم افرح ولم ابتهج. ذلك ان التصفيات الجسدية والاغتيالات لم تكن ولا هي في نظري وسيلة "واقعية" و "عملية" و "منطقية" في اي يوم من الايام.

ليس المهم هو الرابي مئير كهانا الشخص المهم هو الكهانية-الفكرة-النظرية-النهج.

لقد ذهب كهانا. اما الكهانية فما زالت قائمة بكل عريها وبكل خطورتها. وهذا هو التحدي الاشد خطورة الذي يواجه مبادىء الحق والعدل والسلام

«عبير» ١٩٩٠

خمسون عاما على رحيل المطران حجار

المطران مكسيموس سلوم حضرات رجال الدين الافاضل
ايها الاخوة والاخوات

حين تفقد الشعوب ذاكرتها فانها تتعرض لاخطار مضاعفة تتهدد وجودها ومستقبلها.

ونحن، ايها الاخوة والاخوات، شعب فقد الكثير من مقومات كيانه المادية والحضارية، بيد انه لم يفقد ذاكرته.

وهذه الذاكرة التي تشكل العمود الفقري لكفاحنا الدامي من اجل الحرية والحق والكرامة الانسانية، ثرية بالاسماء المشرقة والاعمال المشرفة.

وفي صف الصدارة من هذه الاسماء نجد دائما ذلك النموذج الحي المتوهج للانسان الذي اوقد شعلة المحبة والخير في فضاء يصل البشر بالله ويجمع بين العبادة والعمل في عروة وثقى لا انفصام لها. نجد اسم المطران حجار الذي دأب أباؤنا وقد جمعتهم به صداقة وثيقة على نعته تحببا واحتراما بمطران العرب.

ولم يأته هذا النعت جزافا بل كان ثمرة طيبة من شجرة العمل الطيب. ذلك ان المرحوم المطران حجار تنكب عن الأقوال الى الاعمال،

وكانت اعماله المعروفة في الناس جديرة بان تجلب له نعمة المحبة وبركة الاحترام لا من ابناء طائفته فحسب، بل من ابناء شعبنا كله على اختلاف طوائفه ومذاهبه وعقائده.

ولم يفترض المطران حجار في ابناء مجتمعنا القائم على التعددية الدينية، ان يؤمنوا بعقيدته النصرانية الكاثوليكية حتى يخدمهم، بل خدمهم لايمانه العميق بوحدة هذا الشعب التاريخية-الحضارية، ضاربا المثل من ذاته وبذاته على ان الدين لله والوطن للجميع، وعلى ان الدين المعاملة، بحيث انطبق عليه كلام السيد المسيح المشع عبر صفحات انجيل يوحنا: "فان لم تؤمنوا بي فآمنوا بالاعمال".

وقد آمن شعبنا بمواقف المطران حجار وآمن باعماله، التي جعل في جوهرها عنصر التعارف على الاخوة القومية والتآلف على العمل الوطني. فجسد مرة اخرى، قول الرسول العربي الكريم: "الارواح اجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف". وحسبنا الدليل القائم في سيرة المطران حجار، على ما نحن واجدون من افضلية التعارف على التناكر وجدوى الائتلاف في مواجهة الاختلاف.

فلتكن لنا العبرة في هذه السيرة الطيبة، ولنورثها جيلاً الى جيل، ولنعزز ذاكرة شعبنا الحية، بذكرى رجالاتنا الأتقياء الانقياء قولا وعملا، وليبق اسم المطران حجار، مطران العرب، مشكاة خالدة النور على طريقنا الطويل العسير، الى عهد جديد من الحرية والسلام والكرامة، ولندرك دائما انه ما من حرية بلا محبة، وما من سلام بلا عدالة، وما من كرامة بلا وحدة. فأحبوا بعضكم بعضا واحكموا بالعدل والقسطاس واتحدوا.. ايها الاخوة والاخوات.. اتحدوا، واتحدوا،

واتحدوا، هذه هي وصية المطران حجار، فلم لا يكون هذا الخلف من ذلك السلف؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

«العربي» ١٩٩٠/١١/٩

** كانت هذه كلمة سميح القاسم في المهرجان التأبيني الذي عقد في حيفا، في الذكرى الخمسين لرحيل مطران العرب حجار.

المطلوب:
كمامات ضد جراثيم الطائفية

نذكر حكايات اجدادنا عن اوبئة الطاعون والكوليرا والحصبة التي كانت تجتاح بلادنا ولا تتركها الا وقد حملت معها المئات والالاف من الضحايا والقلوب المفجوعة والخواطر المكسورة.

ويتقدم الطب، عالميا، فقد اصبحت هذه الاوبئة اقل خطرا لتحل محلها اوبئة من نوع جديد، بعضها يدخل خانة الامراض النفسانية.

ونذكر وباء الاقليمية ووباء الطائفية والقبلية في هذا الاطار الذي يبدو سياسيا على السطح الا انه قادم اصلا من اغوار النفس فكرا وحلما ووهما.

ولعل الخطر الوبائي الاكثر تفشيا الآن هو الطائفية، التي اصبحت لفظة شبه عادية في هذه الايام رغم كونها هامشية في قاموس حياتنا على امتداد القرون.

ان ارتفاع مستوى الوعي السياسي والاجتماعي لدى الشعب العربي الفلسطيني منذ القدم، جعل الطائفية امرا معيبا او غير مقبول لدى جماهير هذا الشعب القائمة اصلا على التعددية المذهبية والعقائدية.

وبالاضافة الى الاسباب الخارجية التي تشجع التعصب الطائفي، والمقصود هو المحرضات القادمة من خارج هذا الشعب، فان العامل

الذاتي له دوره النافذ. ويتلخص العامل الذاتي ، كما نرى، في مزاج الاحباط الذي يسيطر على قطاعات واسعة نظرا لاستمرار العذاب الفلسطيني والانتفاضة الباسلة دون نتائج سياسية ملموسة على الساحة.

ونحن نحذر من مزاج الاحباط لأنه قائم في الاساس على تصور خاطيء لمجريات التاريخ. ذلك ان حركة التاريخ لا تتم بشكل آلي-رياضي، ولا يمكن حسبان الاسباب والنتائج بشكل سطحي أحادي الاتجاه.

ومن معاني الاحباط، فقدان السيطرة على الذات وعلى الفكر وعلى الوعي، ولا نرى مبررا لفقدان هذه السيطرة، لان عدالة قضيتنا وطروحاتنا المعروفة غير قابلة للنقض الابدي، وتبقى مسألة الوقت والارادة وصواب الرؤية وكلها في صالحنا.

ان المتنورين من ابناء هذا الشعب، على اختلاف عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية، مطالبون بالعمل الجاد على تدارك الامور. ولا يتم مثل هذا العمل عشوائيا. لذلك نرى ضرورة في عقد منتدى فكري او منتديات فكرية لوضع الاسس لمثل هذا العمل ولتحديد الفعاليات المطلوبة وتنفيذها دون ابطاء.

ومثل هذا العمل من شأنه ان يقوم مقام الكمامات الواقية من جراثيم الطائفية.

«العربي» ١٩٩٠/١١/٢٣

البروفيسور، الشاعر، وكاتم الصوت

يوم اختارت حكومة اسرائيل الجنرال ايهود براك وليا لعهد رئاسة الاركان فقد علقت بعض الصحف بان المؤسسة العسكرية ستصبح تحت اشراف بروفيسورين اولهما بروفيسور موشيه ارنس، وزير الدفاع، وثانيهما بروفيسور ايهود براك رئيس الاركان العتيد.

والصاق لقب بروفيسور بالجنرال براك ليس "تهمة" فهو معروف باهتماماته الاكاديمية على الصعيدين العسكري والسياسي.

وما كنا سنعبأ بالامر لو انه اقتصر على الهواية، فللجنرالات أيضا هواياتهم الخاصة، وعلى سبيل المثال فان الجنرال طلاس رئيس الاركان السوري الابدي، كما يبدو، يمارس هواية الكتابة وقد قيل لي انه الف كتبا في الطبخ وفن الحدائق وانه مارس هواية الشعر ايضا وكتب غزلا في مارلين مونرو وبريجيت باردو و .. مارغريت تاتشر (هل تذكرونها؟!).

ولا اعلم اذا كان الجنرال البروفيسور براك يهوى الشعر ويكتب في فن الطبخ وفن الحدائق، لكنني اعلم (ملحق "يديعوت احرونوت " ٩٠/١١/٣٠) انه «طباخ» ماهر في دَوس الحدائق الخاصة وتنفيذ العمليات العسكرية الجيمس بونديه "خلف خطوط الاعداء".

ووفق التقرير الرهيب في «يديعوت احرونوت » فان الجنرال

براك كان احد القادة الذين صمموا ونفذوا مجزرة شارع فردان في بيروت ومجزرة شارع الخرطوم هناك ايضا في العام ١٩٧٣.

وفي شق العملية الذي قاده الجنرال براك (الكولونيل انذاك) فقد اغتيل كل من الشاعر كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار. تلقّى كمال ناصر خمس عشرة رصاصة في الظهر بعد ان نهض عن مكتبه مع مطلع قصيدة ولم يتمكن من البوح بحرف منها. واخترق الرصاص ظهر كمال عدوان ايضا أمام اطفاله وزوجته، اما محمد يوسف النجار فقد قالها لهم بوضوح "جبناء" قبل ان يخترق الرصاص صدره وصدر زوجته التي حاولت حمايته بجسدها، لكن المسدسات المزودة بكاتم الصوت كانت "مُدرّبة" بالقدر الكافي على قتل رجل وزوجته.

لقد تخفى ايهود براك في زي امراة سمراء وتخفى نائبه انذاك (ونائبه العتيد) في زي امراة شقراء، وبالتعاون مع بعض الجواسيس في لبنان تمكنت مجموعة القتل الاسرائيلية من اقتحام بيوت هؤلاء القادة الشهداء الذين لم يحاطوا باية اجراءات حراسة إستثنائية.

واخيرا، صدقوا او لا تصدقوا، فقد كانت هذه العملية الرهيبة تحت اسم «ربيع الشباب».. هكذا ببساطة... «ربيع الشباب»!!.

«العربي» ١٩٩٠/١٢/٧

لعنة الرعب

لن أنسى قصة تلك المذيعة التلفزيونية من بلد تحت الحكم الفاشي، التي اصابها الرعب حين سقطت خصلة من شعرها على جبينها، فحزمت حقائبها وغادرت وطنها المسكون بالرعب الى غربة أرحم من الغربة في الوطن.

وحضرتني هذه القصة المأسوية بكامل تفاصيلها قبل ايام، وانا اقرا في يديعوت احرونوت خبرا "عاديا" عن جندية اسرائيلية مسافرة في باص والى جانبها شاب عربي.

في اثناء السفر أشهر الشاب العربي في وجه الجندية اليهودية قطعة معدن فاصابها الرعب وراحت تصرخ بشكل هستيري ظانة انه يريد طعنها..

وتوقف الباص (وانا اعيط) وحضرت الشرطة (وانا اعيط)، واعتقل الشاب (وانا اعيط) وجرى تحقيق صارم (وانا اعيط) فاتضح ان كل ما في الامر ان مهريجا للغاز المسيل للدموع سقط من حقيبة الجندية فرفعه الشاب العربي المؤدب واعاده الى صاحبته.

حين ظهرت الحقيقة اطلقوا سراح الشاب العربي المؤدب واقتصر الامر على نبأ صغير في صحيفة غير صغيرة.

لقد ظهرت حقيقة الشاب العربي المؤدب وظهرت حقيقة الجندية الاسرائيلية المرعوبة، بيد ان المهم في الامر، او الاهم فيه، هو الحقيقة الكبرى التي تتضخم باستمرار، ويقصر نظر حكام اسرائيل ازاءها، بحيث يصبح الوضع برمته على فوهة بركان نرجو له الا ينفجر، لانه اذا انفجر فلن يبقي ولن يذر، ولن يميز بين شاب عربي مؤدب وجندية يهودية مرعوبة.

في هذا النبا الصغير درس كبير وكبير جدا. والذي لا يتعلم من اللدغة نفسها قد لا يتعلم من جرة الحبل. لكننا نؤمن حقا بان العلم نور، وعليه فاننا نتابع القاء دروسنا على اولئك الذين يمقتون الدروس ويكرهون العلم.

ونتابع الموعظة: اطلبوا العلم ولو.. في الانتفاضة!!

«العربي» ١٩٩٠/١٢/٢١

أحمد ... وزئيفي!

قالوا إن العود أحمد. وقالوا إن أجمل الاسماء ما عبد وحمد.

وأجمل الاسماء يفضي الى اجمل المشاعر. واسمحوا لي أن أعلن مشاعري الجميلة بتمهيد السبيل أمام عودتي الى الكتابة في "الاتحاد".

واذا كان أخي رئيس التحرير سالم جبران قد اشاد "بشهامتي" حين تطوعت للمساعدة في اصدار "الاتحاد" تحت القصف الصاروخي، واذا كان تواضعه قد ردعه عن تسجيل موقفه الايجابي في هذا الموضوع، فانه يصبح من واجبي الاخلاقي ان اشيد بشهامته السابقة، حين بادر ودعاني اكثر من مرة الى الكتابة في "الاتحاد" وفي صحف الحزب الاخرى مؤكدا ان اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.

وحتى يعلم من لم يعلم بعد، فأن "اختلاف الرأي" بيننا ظل بعيدا طيلة الوقت عن البرنامج السياسي الذي اسهمنا في بلورته وشاركنا في النضال من اجل تحقيقه. وأمل ان نلم ما تبقى لنا من طاقة ومن نبضات لأجل خطوة اخرى في رحلة الالف ميل على طريق هذا البرنامج.

هذا بشأن " أحمد "..وما حكاية زئيفي؟

انه رحبعام زئيفي الملقب بغاندي ظلما وعدوانا، وظلم الانجليز على الهنود وعلى غاندي ارحم بكثير من هذا الظلم. ولعل المهاتما

غاندي لم يتلق في حياته ومماته معا اهانة بمثل هذه الاهانة، والتي لا يشبهها في الاهانات سوى ما نحس به نحن عرب هذه البلاد ازاء توزير زئيفي في وقت يشهد فيه لنا الخصوم والاصدقاء بالنضج السياسي العميق. وقد عبر اخي السيد ابراهيم نمر حسين عن هذا الاحساس الشعبي الصادق بالتقزز والغضب.

وزراء عليك، ووزر، يا اسرائيل. فمثل هذا الرجل في مثل هذا الوقت، يشكل تأكيدا اضافيا على ان كلمة السلام هي لفظة مشينة في قاموس حكومة شمير-زئيفي.

لقد كان هذا الشخص قائدا عسكريا للمنطقة الوسطى. وشغل مناصب استشارية لدى بيرس ورابين وغيرهما من قادة اسرائيل. واذا كان الجانب المهني في شخصيته هو الابرز فيما مضى، فانه اليوم العنوان الأشد وضوحا لايديولوجيا الترانسفير العرقية التي ابتدعتها اسوأ قوى الظلام في اوروبا المظلمة.

حاول بعض افراد الحاشية الشميرية تبرير الحاق زئيفي بالحكومة وكأنه لعبة ائتلافية ترمي الى ابعاد المعراخ عن رئاسة اللجنة المالية، لصالح المتدينين المؤتلفين مع الليكود. غير ان هذا التبرير الذي لا نقبله، لم يقبله معنا عدد من ابرز الشخصيات داخل المعسكر اليميني الليكودي نفسه، ناهيك عن اليسار الصهيوني. وها هوذا عضو الكنيست الليكودي بيني (بنيامين) بن مناحم بن بيغن يعلن رفضه الشامل والكامل لهذا الاجراء الشميري ناعتا زئيفي بأنه "تلويث سياسي واخلاقي". ثم ان اسحق شمير لا يتورع عن تهديد وزرائه دافيد ليفي وايهود اولمرت ودان ميريدور بالطرد من الحكومة اذا هم جرؤوا على ممارسة حرية الضمير وحرية التصويت ضد الحاق زئيفي بحكومة اسرائيل.

ولماذا هذا الاستقتال من جانب شمير؟

لقد استبعدنا ذريعة الصراع على رئاسة لجنة المالية التابعة للكنيست، لأنها كما يرى المراقب العاقل، لا تستدعي مثل هذه المقامرة السياسية الكبيرة، في وقت تحظى فيه حكومة شمير بحالة من الاجماع القومي الصهيوني (الكونسنزوس).. لقاء التزامها بقواعد اللعبة الدموية الامريكية في المنطقة، واكتفائها-حتى الان- بالمكافآت الامريكية-الاوروبية، المادية والسياسية.

ويطرح نفسه سؤال وجيه: هل يرمي اسحق شمير الى تعزيز حكومته بطوق رفضي جديد بانتظار ما قد تنجم عنه حرب الخليج؟

ان السذج وحدهم هم الذين يقفون عند حد الرد الايجابي على هذا السؤال الوجيه حقا. ذلك انه لا تتوفر اية دلائل جوهرية على تحولات سياسية هامة في الموقف الاسرائيلي الرسمي الرافض للاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، والرافض لمبدأ حق تقرير المصير للشعب العربي الفلسطيني، والرافض للتراجع عن القرار الارعن بضم القدس العربية والجولان الى اسرائيل.

اذن، الى اي مدى نستطيع الذهاب بالرؤيا الشميرية من خلال اقحام فيروس الترانسفير على هذا الوضع الدقيق؟ وتعرض الاجابة نفسها من خلال التيار الشميري داخل الحكومة وداخل الليكود نفسه. فمن الامور المعروفة ان اسحق شمير وارنس ومجموعتهما في الكنيست والليكود لم يتخلوا ابدا عن حالة عدم التجانس التي يشكلونها والتي تمثل الجناح الاكثر تشددا وتطرفا في الحزب وفي السلطة. وما زلنا نذكر معارضة هذا الجناح حتى لاتفاقيات كامب دافيد التعيسة.

ولعلنا لا نغالي حين نزعم ان هناك رحبعام زئيفي في اعماق كل

فرد من افراد هذا الجناح. واذا تذكرنا مخطط الترحيل الذي كان الجنرال ورئيس قلم المخابرات العسكرية والوزير الاسبق اهرون يريف قد تحدث عنه منذ اعوام، فانه يصبح جائزا الاعتقاد بأن هناك قوى حقيقية داخل جهاز السلطة الاسرائيلي، تؤمن بامكانية تنفيذ الترانسفير "تحت غطاء حرب كبيرة في المنطقة" كما ورد في المخطط الاصلي. ولعل هؤلاء يعتقدون ان الفرصة الراهنة هي فرصة مواتية، ولعل هذا هو احد الاسباب التي دفعتهم الى التحريض الارعن على العراق وتأليب العالم الامبريالي بهذا الاتجاه.

الخطر قائم. وامكانية دحره قائمة. وتتجسد هذه الامكانية في صياغة جديدة لقوى السلام العقلانية في البلاد. ونحن مطالبون، من خلال الجبهة الدمقراطية للسلام والمساواة، بالمبادرة الى مثل هذه الصياغة الجديدة، التي ترمي الى تشكيل تحالف قطري عربي-عربي، وعربي-يهودي، يرتفع الى مستوى التحدي الكبير الذي يواجهنا الان اكثر من اي وقت مضى، التحدي التصعيدي الذي يتجاوز مسألة السلام الاسرائيلي - الفلسطيني، الى وضع اكثر تعقيدا واشد خطورة، من شأنه العودة بنا الى بدايات الصراع.

نحن تعلمنا الدرس الذي لم يتعلمه هؤلاء. وعلينا ان نلقنهم هذا الدرس بلا هوادة. ولا بد لنا من اجل ذلك، من ترتيب منزلنا اولا، واعادة الاصطفاف الوطني - الدمقراطي بشكل افضل واكثر نجاعة. تفضلوا !!

«الاتحاد» ٨ شباط ١٩٩١

بماذا نُشبّه أصابعكم؟!

لاحظت عبر حوار اجراه معي التلفزيون البلجيكي قبل عشرة ايام، وحوار آخر اجرته الاذاعة الكوبية من هافانا قبل ثلاثة ايام، ان وسائل الاعلام الدولية تولي اعتبارا خاصا لمسألة الحضارة في حرب الخليج.

وكما تذكرون فقد كان جيمي كارتر وانور السادات ومناحم بيغن يسهبون في الحديث عن الحوار المتحضر بين الامم المتحضرة.. وها نحن نلاحظ اليوم ان جورج بوش هو الآخر يكثر من الكلام عن عدم الرغبة في تدمير الحضارة العراقية، حتى لكأن الحضارة هي قيمة موضوعية خارج حدود الانسان، او كأنها تفوقه اهمية، بحيث يبدو الاعتداء على حياته اقل خطورة من الاعتداء على حضارته!

وأرجو ان اكون دقيقا في استذكاري لما قلته للتلفزيون البلجيكي من انني "ابتسم وأكاد انفجر ضحكا وأنا أصغي الى السيد جورج بوش خطيبا في قضية الحضارة..".

فنحن لا نستطيع القبول بوجهة النظر الامريكية الرسمية، لا سياسيا ولا اقتصاديا ولا اجتماعيا ولا حضاريا. ذلك لكونها رسبت في اختبارات الواقع رسوبا شاملا. فالولايات المتحدة الامريكية هي اول سلطة عالمية تجرب السلاح النووي في الانسان وفي حضارته معا.

وهي التي اشعلت اكثر من حرب مدمرة للانسان وللحضارة، باسم الحضارة، من كوريا الى فيتنام الى غرينادا الى بنما.. الى العراق.

ومن سخريات القدر والحضارة ان احد جنود الكتيبة الآلية الثانية في الجيش الامريكي، هو جندي من سلالات الهنود الحمر الذين عملت الفرقة نفسها، يوم كانت فرقة الفرسان الثانية، على ابادتهم، ونستطيع ان نتفهم مشاعر جدته ابنة المايه وستة اعوام، التي غضبت ورفضت مخاطبته منذ انخراطه في الجيش الامريكي. (يديعوت احرونوت ٢/١٢).

ومع رفضنا المعلن لاجتياح الكويت على ايدي القوات العربية العراقية، فاننا لا نرى اي تناسب منطقي بين الفعل العراقي ورد الفعل الامريكي.

وسياسة التخريب الشامل التي تُمارسها القوات الامريكية في العراق اولا وفي الكويت ثانيا تؤكد، بما لا يقبل الجدل، على ان الاهداف المعلنة لهذه الحرب هي شيء، والاهداف الحقيقية هي شيء آخر تماما. وهذا الشيء الآخر تماما، هو الشيء الذي نرفضه تماما، وندعو الى وقف الحرب الفوري لتجنبه ولمنع عواقبه الوخيمة.

ان القاء زجاجة مولوتوف على هدف مدني يسمى في القاموس الاعلامي السائد "ارهابا" فكيف نسمي القاء متفجرات اشد هولا من قنبلتي هيروشيما وناغازاكي، على مدن العراق ومنشآته المدنية، بأكثر من ستين الف طلعة جوية؟؟

ينبغي على العالم التوصل الى تحديد منطقي وعام لمعنى الارهاب ولمعنى الحضارة ولمعنى التحرير، حتى يتمكن هذا العالم من ضبط المقولات والشعارات والمفاهيم على مقياس واحد.

لقد رافق الكاتب الامريكي المعروف جون ستاينبك ابنه الطيار

في احدى طلعاته فوق الاراضي الفيتنامية. وحين عاد الى قاعدته سالما فقد كتب مشبها اصابع ابنه وهو يضغط أزرار القصف الجوي، بأصابع عازف البيانو.. وسقط ستاينبك، وظل البيانو وظلت فيتنام.

ولا شك ان عازفي البيانو ما زالوا يحسون حتى يومنا هذا مرارة الاهانة التي وجهها اليهم الكاتب الامريكي حين شبه اصابعهم التي تبدع السعادة بأصابع الطيار التي "تبدع" الموت والدمار..

نحن نشفق على ستاينبك ولا نحقد عليه. نشفق على ابنه الطيار ولا نحقد عليه، لأننا نعرف اين يقع رأس الحية.

وبما اننا اليوم الفيتناميون المناوبون تحت اصابع الطيار الامريكي، فاننا معنيون باستباق التشبيهات التي يطلقها القتلة.

لقد قالوا عن الجندي الامريكي الاحمر انه جاء "ليصطاد العراقيين".. وذلك بعد ان "اصطادوا" هم أباءه واجداده.. وشبهوا بغداد المتصدية للغارات الجوية بشجرة عيد الميلاد، موجهين اهانة اخرى الى السيد المسيح نفسه. فبماذا نشبه نحن اصابعهم؟ ان اصابع حملة المسدسات في افلام الغرب الامريكي المتوحش اشرف واطهر وانبل من اصابعهم الجديدة النظيفة المقلمة والمطلية .. فبماذا نشبه اصابعهم .. واسمحوا لي ان اوجه السؤال مباشرة: يا حكام البيت الابيض (؟) بماذا اشبه اصابعكم؟ بماذا اشبه اصابعكم ؟!

«الاتحاد» ١٥ شباط ١٩٩١

درس في الفرح

كل ما تعلمناه من دروس على دفاترنا وعلى جلودنا لا يكفي. كنا نظن انه يكفي. لكن يتضح الان، وبعد فوات الأوان، انه لا يكفي.

وجراء دراستنا الناقصة وتربيتنا السيئة وتياستنا الفطرية فاننا نسقط في الامتحانات المتواترة على مدار الساعة.

واحد الامتحانات الكثيرة التي سقطنا فيها كان امتحان الفرح. واستباقا لسوء النية فلا بد من التأكيد على ان المعلم الذي وضع لنا علامة السقوط، هو معلم فوق الشبهات. وهو استاذ متخصص في تعليم العرب. وهو وزير العرب شخصيا والذي لا نعرف حتى كيف نكتب اسمه بشكل دقيق فهو مرة "مغين" ومرة "ماجين" ومرة "ماغين" واخرى "مجين".. وفي هذه الفوضى يظل شئنا أم أبينا، وزيرنا الخاص المتخصص الخصيص.

وحين يضع الوزير الذي لا نجيد كتابة أسمه بشكل دقيق علامة في امتحان ما، فلا بد انها علامة دقيقة. ولا ينبغي لنا ان ننسى، ان كلام الوزير هو وزير الكلام، وعلامة الوزير هي وزيرة العلامات، حتى ان وزارة المعارف نفسها تبنت علاماته في امتحانات البجروت واطلقت عليها أسم علامة مجين او ماجين او ماغين .. وان كنتم لا تصدقون فاسألوا ..

صرح الوزير مغين قبل حين ان على العرب ان يفرحوا بدخول غاندي (رحبعام زئيفي) الى الحكومة. والحقيقة، لنعترف، اننا زعلنا. لقد ظننا خطلا وخطأ، ان دخول زئيفي الى الحكومة هو اهانة لنا وتكريس للتحريض العنصري ضدنا، واضفاء للشرعية على نظرية الترانسفير البائسة .. وها هو الوزير صاحب علامة المغين يبرهن، بما لا يقبل الجدل، اننا اخطأنا في زعلنا. كان ينبغي ان نفرح وان نرقص ونغني ونقيم الولائم ونستبعد المغنين الوطنيين من حفلاتنا وان ندعو الحكومة الى اعراسنا وحفلات الختان والعماد والموالد وزيارات المقامات.

وحسب نظرية الوزير مغين فان الحكومة العاقلة من شأنها ان تضب زئيفي المتفلت علينا كما تضب الاسرة الكريمة ولدا عاقا مشاغبا في الحارة وتكف أذاه عن خلق الله وارزاقهم ومقدراتهم.

هذه هي نظرية الوزير مغين. وهي، وأيم الحق، نظرية ناجحة وبلا حاجة الى علامة مغين كتلك التي في البجروت او البغروت لا فرق.

كان علينا ان نفرح. كان علينا ان نفرح. وحتى تتم الفرحة فلا بد من اضافة غئولا هنغبي وتساحي كوهن والرابي ليفنغر ونائب الرابي كهانا، ايضا الى الحكومة.. ويجب توسيع الحكومة وزيادة حقائبها بالعشرات وربما المئات والالاف حتى تتسع لكل المشاغبين والعنصريين والترانسفيريين، وبهذا فقط نكفل استتباب النظام وهدوء البال وسعادة العرب. ولا يكون علينا أنذاك سوى ان نفرح ونفرح ونفرح ونعيش بالثبات والنبات ونخلف صبيانا وبنات. ويا دار ما دخلك شر.

بقي شيء واحد تقتضيه الاخلاق الحميدة والعادات المجيدة والتقاليد والعقيدة: ان نعتذر للسيد الوزير مغين، ماجين، مجين، عن زعلنا لدخول رحبعام زئيفي الى الحكومة.. سامحونا..

«الاتحاد» ٢٢ شباط ١٩٩١

سخرية شمير السوداء!
الداء... الدواء..!!

قد تكفي مئتا مليار دولار وعقدان من الزمن -كما تقول الصحف- لاعادة بناء بغداد، ولترميم ما هو قابل للترميم في العراق.

وقد تكفي خمسون مليارا من الدولارات- حسب تقرير وكالات الانباء لتطهير الكويت من لوثة الخراب العبثي..

وقد تكفي مدخرات النفط العربي لتعويض امريكا وحلفائها (بما فيهم اسرائيل طبعا!) عن نفقات جهادهم في خدمة فتوى مشايخنا ضد فتوى مشايخنا.. وفي خدمة جيوشنا ضد جيوشنا، وعروشنا ضد عروشنا، ووحوشنا ضد وحوشنا، وكروشنا ضد كروشنا، وقروشنا ضد قروشنا، ونعوشنا ضد نعوشنا، وهلمجرا ضد هلمجرا..

قد تكفي هذه المقادير او تلك، من أكياس المال وأكداس الرجال، لبناء ضريح اخر، لذاكرة اخرى.. غير انه ما من شيء بقادر على ترميم القلب واعادة بناء الروح، ازاء هذا الحشد الهائل من العار والشنار وهزء الاقدار الذي يهيله علينا هذا التحالف الموضوعي بين انظمة الحكم الدكتاتورية والقبلية المتخلفة المجرمة والمنحطة، والامبريالية العالمية السافلة بكل افرازاتها الوسخة وتحت قيادة الوحش الامريكي الذي لم يكف منذ الحرب العالمية الثانية عن النهش

في لحم الشعوب والارتواء من دمائها والاغتناء بويلاتها ومآسيها جوعا وفقرا ومرضا وحرمانا وجهلا وموتا..

واي دواء سيكون ناجعا قبالة السخرية السوداء والشماتة الدموية التي يواجهنا بها صغار الارض قبل كبارها؟

ومن يتتبع اجهزة الدعاية الاسرائيلية، المرئية والمسموعة والمقروءة، يدرك حدة الغثيان التي تصيب القلب والعقل والروح، في غمرة الفيض المتدفق من الاهانة والاستهتار والاستخفاف والحقد.

مرة اخرى، تقف الضحية، مهانة دامية عارية ومتهمة .. امام جلادها .. مرة اخرى تصبح هذه الامة العابرة المطعونة من كل جهات الارض هدفا لا للاف - ١٥ والاباتشي والكروز واللينكس والتاو والتورنادو وغيرها من ادوات الموت والدمار، بل لنصال السخرية السوداء، القشة التي تقصم ظهر البعير! وحسبنا سخرية السيد اسحق شمير، رئيس الوزراء الاسرائيلي ..

فبينما اجمع الخبراء العسكريون والسياسيون في العالم كله، على ان الصواريخ بعيدة المدى جعلت الحدود الامنة لاية دولة، خارج الجغرافيا، وأكدت على اهمية الحلول السياسية للقضايا الامنية و "الجغرافية"، فان السيد شمير يطلع علينا بنظرية معاكسة تماما. انه يرى بعمى تام، ان الصواريخ تعزز وجهة نظره هو حول العمق الجغرافي، بمعنى انه لا يتنازل عن المناطق المحتلة، لانها ضرورية لامنه. وبهذا الاتجاه فان الصواريخ العراقية تعني، بالمفهوم الشميري، الاحتفاظ بالتراب الفلسطيني والسوري المحتل كله.. واذا هددته الصواريخ الايرانية، فسيكون بحاجة الى الاردن وسوريا والعراق، وحين تهدده الصواريخ الباكستانية فلن يكون امامه مناص من احتلال ايران وافغانستان.. اما الصواريخ عابرة القارات، فتعني

انه من حق اسحق شمير ان يلحق الكرة الارضية كلها بدولته.. واذا تطورت حرب النجوم ونصبت المواريخ على المريخ، فهو على حق اذا احتل القمر، وسيكون على العالم ان يتفهم وضعه الامني، وان يدفع له، عدا ونقدا لالتزامه ضبط النفس والامتناع عن احتلال نبتون وبلوتو..

هذا هو المنطق الذي يواجهنا اليوم، بعد قادسية صدام الثانية، وواترلو ولنغتون بوش الثالثة او الرابعة او العاشرة، فقد كففنا عن العد مثلما كف الغزاة الامريكيون عن عد الاسرى العرب العراقيين! (صحف الاربعاء ٢/٢٧).

اذن، فأية اجهزة تكنولوجية، ستكون قادرة على ترميم القلب والروح ازاء هذه السخرية السوداء؟!

لا. لا حاجة للتكنولوجيا في هذه الحال. ذلك ان العلاج الوحيد المجرب والمضمون النتائج، هو العلاج الذي وصفناه لانفسنا، وللعالم، منذ وعينا الفرق بين الابيض والاسود على ساحة الحياة نفسها..

النضال، والمزيد من النضال، من أجل الحرية الحرة، والدمقراطية، او الشورى، كما تشاؤون، ومن أجل حق الشعوب العربية وشعوب العالم قاطبة في تسيير امورها وتحديد مصائرها وفق احلامها هي لا وفق احلام هذا الدكتاتور الارعن او ذلك اللص الامبريالي الدموي..

هذا هو الدواء المجرب في مواجهة الداء المزمن، فليعش من يستحق الحياة، وليمت من يستمرىء الموت .. وانا لله وانا اليه راجعون..

«الاتحاد» ١ آذار ١٩٩١

صفحة جديدة؟ لا، شكراً، نريد جرد الحساب اولا!!

يدهش المرء احيانا، لمدى الصفاقة البدائية، التي يتعامل بها بعض المسؤولين العرب مع جماهير هذه الامة المقهورة، المغلوبة على امرها. وتتجسد هذه الصفاقة في التجاهل التام لوجود هذه الجماهير حتى في القضايا المصيرية بالنسبة لها، والتي تتصل مباشرة بلحم الناس ودمهم واطفالهم ومقدراتهم واحلامهم.

يلتقي هؤلاء المسؤولون (القادة) ويتفقون دون الرجوع الى الجماهير. ثم يختلفون دون الرجوع الى الجماهير. ويتفقون ويختلفون ويعلنون الحرب ثم يعلنون السلام او الاستسلام دون الرجوع الى الجماهير.

يحبون نيابة عنها، ويكرهون نيابة عنها، ويأكلون ويشربون ويترفهون نيابة عنها.

ويتصرفون بما يوحي احيانا بان هذه الجماهير ليست سوى عبء عليهم، او انها مجرد قطع اثاث في قصورهم حديثة النعمة. ويكرسون هذا القدر من الجماهير، او ذاك للذبح في معاركهم "الشخصية". كما يكرس الوالد المسؤول عن الاسرة عددا من الاغنام والماعز للذبح في عرس ولده البكر !!

هذا التغييب التام للجماهير، اصبح جزءاً لا يتجزء ولا يقبل

النقاش، في تقاليد الحكم العربية، حيث يلتقي "التقدمي بالرجعي"، و "الجمهوري"، "بالملكي"، "بالاميري"، وهلمجرا..

لقد بلغت الجراة ببعض هؤلاء المسؤولين (القادة) حد الكلام على "النظام العربي"، باعتبار صيغة "النظام العربي" الوهمي، بديلا لصيغة "الوحدة العربية" الحلم - المطلب - المصلحة.

نحن ندرك الفرق بين هذا النظام العربي وذاك، ونعني حتى الفرق الصغير، اخذين بالقول الفرنسي الشهير: "عاش الفرق الصغير!"، غير اننا لا نجد العزاء الكافي في هذا التفاوت الطفيف، ما دامت الطبيعة الاساسية في الحكم العربي (لا النظام العربي، كما يقولون) هي طبيعة تجاهل الجماهير واستثنائها، وتغييب دورها الحقيقي عن الفعل الدائر على ارضها ولحمها وحلمها.

خذوا مثلا، ما جرى ويجري على الارض العربية (العراق الان) من احداث دامية فاجعة، ومن امور لا تصدق في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية على السواء.

وانظروا كيف اخذ (القادة) يطلون برؤوسهم من خلل الدخان والركام، واحدا تلو الاخر، لا ليعيدوا النظر في ما فعلوه بمقدرات هذه الامة، ولا ليستخلصوا العبر، ولا حتى للتعزية في الشهداء، بشرا وعمرانا وثقافة، بل لتجاهل الجماهير مرة اخرى، ولمد الايدي والاعناق فوق جثث هذه الجماهير وخرابها ودمها، من اجل مصالحة عشائرية فوقية اخرى، ولمتابعة الحال، كأن شيئا لم يكن.

انهم يطالبون بفتح صفحة جديدة و"برأب الصدع في الصف العربي".. وبما شابه، من عبارات سامة ولئيمة ومهينة، حتى لكأن كل الدمار والموت والحزن والدم والعار الذي لحق بنا على قطعة عزيزة من وطننا البائس ليست أكثر من كأس نبيذ اندلقت خطأ على

موائدهم العامرة..

بعد صبرا وشاتيلا هتفنا من اعماق قبورنا الجماعية: " لا نسيان ولا غفران!".

واذا كنا واجهنا الردى، عيناً لعين وأنفا لأنف، في وقفة تحد اسطورية ازاء الظلم الاسرائيلي والأمريكي، فلماذا يفترض فينا الحكام العرب ان ننسى وان نغفر ما فعلوه هم بأبناء امتنا الذبيح؟.. ولماذا تسوغ لهم نفوسهم ان يصبح ظلم ذوي القربى "اقل" مضاضة؟!

ها هم يطلون برؤوسهم من خلل الدخان والخراب، في دعوة بائسة وسافلة الى "نسيان الماضي وفتح صفحة جديدة في العلاقات العربية".. واذا كانوا يهربون من التفاصيل فنحن لا نهرب منها على الاطلاق.. ونحن على يقين من ان اشقاءنا في الكويت وفي العراق وفي كل قطر عربي أخر ليسوا بحاجة الى "فتح صفحة جديدة"، ذلك ان الصفحات القديمة من تضارب المصالح والمطامح هي صفحات فوقية سلطوية حكمية.. اما جماهير هذه الامة فلا تملك سوى صفحة الوحدة، وحدة المصير والمصلحة والحلم.. واذا كان لديها حساب قديم تطمح الى تصفيته فانه بالتأكيد ليس حسابا شعبيا، بل هو حساب كل شعب مع سلطته، وحساب كل الأمة مع حكامها مغتصبي السلطة عبر فوهات المدافع التي أذت العرب انفسهم اكثر مما أذت اعداء حقوقهم وتطلعاتهم واجيالهم.

ثمة حاجة وحاجة ملحة، في صفحة جديدة من تاريخ عربي جديد، تصنعه الملايين الطيبة المبدعة النشطة، صفحة جديدة من تاريخ جديد يكتبه الانسان الجديد، الحر المنعتق المعافى، صفحة جديدة خارج كتاب الذل والاستغلال والاستعباد والاستصغار والاستضعاف والاستهبال، خارج كتاب الخطب الرسمية المتقعرة

الزائفة المصلصلة بسيوف البلاغة الانشائية المتربة، صفحة جديدة يكتبها الشعب الخارج لتوه من ظلام الامية بفضل كفاحه الخاص، الخاص جدا، وليس بفضل خطط الحكام الخمسية والعشرية البهلوانية...

صفحة جديدة. معكم؟ لا، شكرا. نريد جرد الحساب وتصفية الحساب اولا .. وستكون من بعد صفحة جديدة للدمقراطية، للشورى، للعدل وللحرية، للتقدم وللوحدة، الوحدة - حلما - مصلحة - ومطلبا تاريخيا..

معكم؟ لا.

منا؟ نعم.

«الاتحاد» ٨ آذار ١٩٩١

تحسُباً.. لا تطيُراً !

بتعاقب النكبات والنكسات والنكمات، وعليه قس، يتكاثر المتطيرون كالارانب.

هذا يحلف بقبر جده انه لن تقوم للامة قائمة بعد العراق .. وذاك يقسم ويده على شنبه بان اليهود سيحتلون مكة في موسم الحج القادم .. وآخر يستل من جيب قمبازه ورقة مهروءَة من كثرة ما هي مقروءة، ويكرر ابياتا من الشعر الركيك منسوبة الى محيي الدين بن عربي رحمه الله واعفاه من موبقاتنا.. وترى الى كل هؤلاء وهم يجزمون بان الدنيا في آخر وقت وان القيامة قائمة بعد سبعة ايام او سبعة اسابيع او سبعة اعوام في اقصى حد.

وهذا التطير الذي قصفتنا به الطائرات الامريكية، هو احساس طبيعي وانساني في الاوساط التي علمتها ضرورات الحياة اليومية والكدح في سبيل الرزق ان تنظر بين يديها ورجليها فحسب، ولانها، اصلا، غير مطالبة بالاحتراف السياسي والاستقراء التاريخي، فهي صادقة تماما في هواجسها ومخاوفها وتطيرها.

اما الامر المؤسف حقا فهو سقوط عناصر محسوبة على الدوائر الواعية والطليعية والتقدمية، في شرك البلبلة والفوضى واليأس، لا

لسبب، سوى ان ايمانها بشعاراتها هي ليس ايمانا مدروسا وراسخا واصيلا.

ولا يعنينا الجانب الشخصي من هذه الظاهرة، حتى لو كان بين المهزوزين اشخاص محسوبون على قيادة الجماهير. الذي يعنينا هو الجماهير نفسها، صاحبة الشأن المباشر، التي نرى من واجبنا القومي والفكري حمايتها من نفوذ الامزجة المرضوضة الهشة المتقلبة مع تقلبات الطقس السياسي.

لهذه الجماهير نقول ان التاريخ لا يتحرك بعملية حسابية دقيقة ١+٢ (في الرياضيات) = ٤ والله اعلم. اما في السياسة وفي التاريخ فان ١+٢ لا تساوي ٤ بالضرورة، والله اعلم.

ونتائج حرب الخليج لن تؤدي بالضرورة الى حل القضية الفلسطينية وشيكا، بالضرورة، كما انها لن تعرقل هذا الحل، بالتأكيد.

ثمة متغيرات على الساحة الدولية، تتفاعل بنشاط، ولا تتيح مجالا لفراغ. وفي مقدمة هذه المتغيرات ما يجري في الاتحاد السوفييتي وفي اوروبا الغربية وما يجري في الوطن العربي وفي اسرائيل. ونحن على يقين من ان منطق المرحلة العالمي لا يسمح بنشوء نظام الدولة الواحدة، المعلم، الشرطي، الاب، المربي، السيد، القاضي -كما يريد جورج بوش.

ويبقى مكان للتحسب. فليس امرا مستبعداً ان تحاك الآن في الخفاء حرب ضد سوريا. وقد تكون اسرائيل هي الاداة المباشرة لهذه الحرب. وقد تكون تركيا تورغوت اوزال هي الاداة. قد تكون حربا على القوة السورية غير التقليدية (اسوة بما حدث في العراق) او حرب مياه على خلفية نزاع نهر الفرات.

وعلى اية حال فان الامبريالية الدولية ما زالت قادرة اليوم، وقد تكون اكثر قدرة مما كانت عليه بالامس، على التحكم بخيوط اللعبة على مسرح الارجوز الشرق اوسطي. واذا كانت تمارس اسلوب التحكم عن بعد (ريموت كونترول) قبل حرب الخليج، فقد اخذ تحكمها صيغة مباشرة، من خلال التواجد العسكري والسياسي والاقتصادي المكثف.

رغم ذلك فلا نرى ان القيامة قائمة بعد اسبوع او سبعة اسابيع او سبعة اعوام، فعلم القيامة علم الله، اما علمنا نحن فهو علم الارادة الشعبية والحلم الانساني والطموح البشري نحو الحرية والحق والسلام والتقدم الاجتماعي.. وهذا العلم المجرب والذي ثبتت دقته ونجاعته .. هذا العلم هو الذي يجعلنا على اهبة الحذر وعلى اهبة الاستعداد، تحسبا.. لا تطيرا.. والله اعلم!

«الاتحاد» ٢٢ آذار ١٩٩١

ثمن السلام !

قبل التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد كثر الحديث في الصحف العربية والاسرائيلية والاجنبية عن ثمن الحرب. كم مليارا من الدولارات والروبلات كلفت عملية التسلح واعادة التسلح. تأثير كلفة التسلح على الاقتصاد العربي والاسرائيلي. واذكر مرة انهم قدروا ثمن الصاروخ بانه يكفي لبناء دار من ثلاثة ادوار.

قد يكفي ثمن صاروخ لبناء دار من ثلاثة ادوار او دورين او اربعة. وقد يكون كل الكلام عن ثمن الحرب صحيحا ودقيقا. لكن احدا لم يتكلم آنذاك عن ثمن السلام، وعمن دفع هذا الثمن.

هل دفعته مصر؟ هل دفعته اسرائيل؟ هل دفعته امريكا؟ ويظل الجواب الواقعي الوحيد ان الشعب العربي الفلسطيني هو الذي دفع من ارضه ودمه وعذابه ثمن ذلك السلام. ولا يجوز النسيان ان اشقاءنا اللبنانيين أسهموا هم ايضا في دفع هذا الثمن وما زالوا يدفعون الى اليوم: قطرة دم بجانب قطرة دم، وقطعة نقد بجانب قطعة نقد، وقطعة ارض بجانب دمعة يتم وهلمجرا، وعليه قس.

واليوم في اعقاب حرب الخليج التعسة والبائسة، يعود اللغط حول السلام. تتكرر الاتصالات العلنية والسرية والجولات المكوكية

مع فارق صغير لاختلاف المكوك من موديل كيسنجر الى موديل بيكر، وهو فارق غير هام على الاطلاق كما يبدو من التصريحات المتناثرة في جو الشرق الاوسط مثل قشور البزر في سهرة ربيعية على بلكون ريفي.

كان السيد جورج بوش قد المح-صرح بأنه يقبل بشعار "الارض مقابل السلام" الذي طرحه في حينه الملك حسين كحل وسط بين الشعار الفلسطيني: "الدولة الفلسطينية المستقلة مقابل السلام" والشعار الاسرائيلي: "السلام مقابل السلام".

ورغم المغمغة البائنة في شعار "الارض مقابل السلام" والتي جعلته مقبولا، كما يبدو، على الادارة الامريكية، من حيث انه يتجاهل الشعب الفلسطيني وقيادته تجاهلا تاما، فان حكام اسرائيل ما زالوا يعارضونه. واكثر من ذلك فانهم يعطون شعارهم "السلام مقابل السلام" بعدا جديدا، بعدا تهديديا إنذاريا تخويفيا فيه من الغطرسة والعنجهية والتعالي ما يكفي لاخراج المرء الوقور عن طوره!

انهم، على حد تعبير اسحق شمير (صحف امس الاول) مستعدون لتقليص السلاح غير التقليدي مقابل انهاء حالة الحرب من الجانب العربي.

وبكلمات أخرى، اكثر وضوحا، فان حكام اسرائيل على استعداد لتقليص تهديدهم للعرب اذا تنازل العرب عن القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني والوطن الفلسطيني.

وهكذا فان الشعب الفلسطيني مطالب مرة اخرى بدفع ثمن السلام. وهو مطالب الان بالالتغاء الذاتي. الامر الذي لا يستطيع ان يقبل به او ان يسلم به اطلاقا.

يهمنا ان يتحقق السلام للشعوب العربية حتى تتمكن من ترميم واقعها الكارثي الذي فرضته عليها سياسة الثالوث الامبريالي - الصهيوني - الرجعي.

يهمنا أن تعيش شعوب المنطقة وشعوب الارض قاطبة للابداع والعمران والسعادة لكن شعبنا لا يستطيع دفع الثمن الكامل لهذه الصفقة.

إن الاعتراف باسرائيل والاستعداد للتعايش معها هو أكبر ثمن يمكن أن يدفعه شعبنا أو أي شعب أخر في مثل وضعه. وهو ثمن باهظ للحرب وللسلام معاً. وقد أعلنت قيادات هذا الشعب استعدادها للدفع من أجل الاستقرار والتطور وحقن الدماء، فماذا يريدون منها بعد؟

قالو له: نم، حتى نذبحك!

فقال: والله انه لشيء يطير النوم !!

«الاتحاد» ٥ نيسان ١٩٩١

إعلام التنوير وإعلام التعتيم

حين يرن جرس التلفون في المنزل، في ساعة متأخرة من الليل، فان المرء المستيقظ لتوه، يشعر بانقباض شديد ومفاجيء، لأن مثل هذه التلفونات الليلية المتأخرة في اغلب الاحيان نذير شر، لا بشير خير.

ويكون المرء أكثر عرضة للانقباض حين يكون في اقربائه او اصدقائه شخص مريض او غائب. فكيف اذا كان المريض وطنا والغائب شعبا؟!

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، حين رنّ التلفون في بيتي، وفي الاقارب والاصدقاء أكثر من مريض وأكثر من غائب، واعترف بأنني فكرت فيهم وأنا ارفع سمّاعة التلفون، ولم افكر أنذاك بالوطن ولا بالشعب:

- هالو
- هالو
- مين
- هذا انا وليد. لقد بدأت الحرب في الخليج.
- شكرا على الاتصال. تصبح على خير.

أي خير؟ لقد أصبحنا على حرب. ولا بدّ من استيضاح الامور

وتعقّب الاحداث.

وهرعت الى جهاز الراديو .. ثم الى جهاز التلفزيون، ثم الى الترانزستور. كالملدوغ الباحث عن قطعة ثلج في البرية..

اذاعة عربية تبث تلاوات من أي الذكر الحكيم .. نقلة أخرى .. إذاعة عربية تتابع بث اغنية لام كلثوم .. نقلة أخرى، اذاعة عربية تبث حوارا عن الفن كما اعتقد .. ونقلة اخرى .. اذاعة عربية اخرى تبث صمتا عربيا أخر..

ولم يكن هناك سوى اذاعة اسرائيل العبرية.. في بث نشط عن الحرب، احداثها، امكانياتها، افاقها وهلمجرا..

بعد قليل بدأ التلفزيون الاسرائيلي البث، ولم يكن هناك من المحيط الى الخليج سوى .. التلفزيون الاسرائيلي..

وتظلم العينان ويغيم القلب: ولو! النار تشتعل واهل البيت نيام، والجار (لو جار!) هو وحده الساهر؟

أما من امة بين المحيط والخليج سوى امة اسرائيل؟

أما من اعلام بين الماء والماء سوى الاعلام الاسرائيلي؟

ولو! الا نستطيع تتبع هذا الحدث العربي إلا باللغة العبرية؟

وأقسم لكم قسما عظما انني في هاتيك اللحظات لم يحضرني سوى المطلع من قصيدة شاعرنا يوسف الخطيب:

أكاد أومن، من شك ومن ريب

هذي الملايين ليست امة العرب!

إحك، واذا كانت اذاعات الملوك والامراء والشيوخ والرؤساء كلها ساهرة، وقائمة قاعدة، فماذا تتوقع ان تسمع منها عن الحرب؟ وهل يخطرُ ببالك أن تعترف أجهزة اعلام (تعتيم) السلطة بانه منذ الفتوحات العربية الاسلامية لم تشارك الشعوب العربية مشاركة

فعلية في اية حرب وفي اي سلام، وفي أية هدنة او وقف اطلاق نار؟

ثمة إعلام للتنوير وآخر للتعتيم.

ويحز في نفوس الاحرار ان الاعلام السائد في الوطن العربي هو إعلام التغييب التام للحقيقة التي تعني الامة وتطال مقدّراتها ومصيرها.

وهذا الاعلام التعتيمي قائم في صميمه على قلب الحقائق وتزوير الوقائع فالهزيمة تصبح "صمودا" والكارثة العسكرية تصير "نكسة" وقاهر الشعب هو "حبيب" الشعب والعاجز عن تحرير أرضه المحتلة هو "بطل التحرير"، والمدحور هو المنتصر والدكتاتور هو "رمز" الامة، والحاكم المطلق الصلاحيات هو الحامي والمنقذ والمخلص والحلم والأمل، وهكذا، مما يتنافى مع الحق والحقيقة والمنطق والتاريخ والاخلاق والضمير والمصلحة والواجب.

لسنا من السذاجة بحيث نعتقد بوجود إعلام ما في العالم كله يتمتع بالحرية المطلقة. بيد أن الحرية النسبية هي أمر ضروري للاعلام وللقضاء في أي مجتمع حرّ (نسبيا!).

وبغياب هذه الحرية النسبية، فستضيع الحقيقة وسيضيع العدل وسيغيب المنطق وتعم الجهالة ويسود القمع وتتبلبل الخطا وتغيم الرؤية وتنعدم الرؤيا وتنهدم المقاييس ويتصدع البنيان الاجتماعي ويتضعضع الكيان السياسي ويتزعزع الحلم وتمحى الافاق ويطم اليأس ويعم الهلاك والدمار والتخلف والفوضى.

هنا يأتي دور الاعلاميين الطلائعيين الاحرار، هنا يأتي المعنى الحقيقي للقلم الجريء. وفي هذا الامتحان يكرم الكاتب أو يهان. هنا تتجلى المواقف وينجلي الجوهر ويبرز التفاوت بين قلم سيّده الضمير وآخر سيّده الارتزاق والتسلق.

وفي غمرة الحرب الاخيرة اظهرت بعض الاقلام قدرتها النبيلة على التوفيق بين العقل والقلب، ولم تتخلَ عن واجبها التاريخي في التمييز بين الحق والباطل والصحّ والغلط والصواب والضلال، بينما أظهرت اقلام اخرى قدرتها الخارقة على ممارسة الانتهازية المنحطة بصفاقة ونذالة تامتين. ومن هذا البعض الساقط من حاول ويحاول مهاجمة امريكا بما لا يغضبها إنما يرضي القراء، ومهاجمة القراء بما يغضب حكام اسرائيل، ومهاجمة حكام اسرائيل واسترضاء امريكا بما لا يغضب الاتحاد السوفييتي ولا يغضبه، وهكذا، حبرا على ورق وزيفا على زور وخطلا على خطأ، ما دام الأجر مدفوعا من أكثر من جهة وما دام الرضا دائما والنعمة موفورة.

وهنا، مرة أخرى، يأتي دور الاعلاميين الطلائعيين الاحرار والمسؤولين إزاء الكلمة، ازاء الشعب والوطن، ازاء التاريخ والضمير. اللهم إني بلغت!

«الاتحاد» ١٩ نيسان ١٩٩١

الكوندومية !

ما كنت لأستعمل هذه اللفظة لو ان المقصود هو ذلك المعنى. واستعمالي لها بهذا المعنى لا يلغي ذلك المعنى، ذلك أن ذلك الجنس والسياسة مرتبطان ارتباطا وثيقا، على ذمة الدكتور زيغموند فرويد !

وعليه، فلا علاقة بين الكوندومية وبين تحديد النسل، في هذا السياق، بل المقصود هو تحديد الحرية وعرقلة المنطق واحتجاز الحق.

وكما جرت العادة في هذه المنطقة، فان المستهدفين، هذه المرة ايضا هم ابناء الشعب الفلسطيني، فبعد عقود من النضال الدامي المروع والمعمد بالدم والنار والدموع والعرق، يأتي السادة الامريكيون ليقترحوا الكوندومية على هذا الشعب. والكوندومية كلمة مشتقة من كوندومينيوم، وهي لفظة لاتينية مركبة تعني الحكم المشترك.

فالولايات المتحدة تقترح أن توضع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الكوندومينيوم الاسرائيلي-الاردني .. اسرائيل تحكم المستوطنين اليهود والاردن يحكم الوطنيين واللاجئين الفلسطينيين. وهكذا، حسب المنطق الامريكي اللامنطقي، تستقر الاحوال وتمر الاموال ويشفى الداء العضال.

وبهذا المنطق اللامنطقي فان الولايات المتحدة الامريكية - التي حققت نصرا باهرا على دولة عظمى تعادلها في العدة وتوازيها في

العدد وتضاهيها في العتاد، ونعني العراق طبعا! - تريد العودة ببلادنا الى ايام الاستعمار الغربي الاولي يوم كان لصوص اوروبا يوزعون العالم على هواهم ويوم وضعوا السودان وهو قطر عربي تحت الحكم الثنائي المشترك، (الكوندومينيوم)، واختاروا لهذا الحكم الكوندومي بلدا اجنبيا (بريطانيا) وبلدا عربيا (مصر)، وهكذا صار اسم السودان آنذاك، السودان الانجلو-مصري (انجلو-ايجبشيان سودان) ويا عيني على هذه الانجلو-ايجبشيان !

أما الان فالمقترح هو ان يصبح اسم فلسطين: "إزرا-جوردينيان بالستاين"، او فلنقل: الكوندومية الاسرا-اردنية ! او فلنقل: كوندومية فلسطين الاسرا-اردنية ! او فلنقل اي شيء، بمنطق وبدونه، لان هذا العصر الامريكي هو عصر الصرعات السياسية والجنسية الكوندومية وغير الكوندومية، وبقي ان تحذر الشعوب من وباء الايدز الامريكي الذي لا يقتصر على الشوؤن الجنسية، بل يتعداها الى مسائل السياسة والمجتمع والاخلاق والدين والقانون، واذا كان الدكتور زيغموند فرويد قابلا للنقاش في بقاع الارض قاطبة، فاننا نستطيع التسليم برأيه في الولايات المتحدة، ساحة الاعاجيب، والألاعيب، والفنطزيات الكوندومية.

السلام عليكم .

«الاتحاد» ١٢ نيسان ١٩٩١

بلى، جاسوس هو الشاعر !

(تحية الى محمد عفيفي مطر)

حين يصير الشاعر في أُمة ما "كافرا" و "جاسوسا" قل ان هذه الامة لفي مأزق!

وأية امة نحن ؟ وأي مأزق هو مأزقنا ؟!

اذا كانت هواية الانجليز القومية هي صيد الايائل بأطلاق الكلاب المدربة في اثرها، ثم اطلاق الرصاص عليها، فان هوايتنا القومية، وللاسف الاسيف والاسوف، هي صيد الشعراء باطلاق الكلاب المدربة والمدّبرة في اثرهم، ثم اطلاق السهام والرصاص عليهم .. هكذا كان منذ الشنفرى الى المتنبي. وهكذا يكون من المحيط الى الخليج !

اننا لفي مأزق .. وانه لمأزق مزمن مزمن. فحين تفتح الامم المتحضرة لشعرائها ابواب الابداع في البيوت الريفية المجهزة بأحدث ادوات الكتابة والاتصال والطباعة، فانهم يفتحون لنا، نحن شعراء هذه الامة، ابواب السجون والزنازين المزودة باحدث اجهزة التحقيق والقمع والارهاب ..

وانهم ليجرؤون على الاساءة لاسم الله وانبيائه ورسله واوليائه، فيصمونا بتهمة الكفر والزندقة نحن الادنى منهم الى وجه الله والاقرب الى سدة عرشه - لا لسبب سوى قصورهم المتخلف عن اللحاق برؤانا الجامحة نحو عدالة الارض - الباب الارحب الى عدالة السماء.

ويبلغ بهم الجبن والجهل والجفاء والجشع والجمود مبلغ اللجوء الى القوة الغاشمة - قوتهم الغادرة الغبية الغيبية الغلقاء الغرور الغليظة الغلفاء - لسحق وردة الحلم ولتسميم سنبلة الاتي.

يتهموننا بالكفر؟ بلى. بلى كفرنا بطاغوتهم وجاهليتهم وقبليتهم وتخلفهم وخيانتهم وظلمهم وظلامهم. بلى كفرنا .. ويتهموننا بالجاسوسية؟ بلى. بلى اخوتي الشعراء. بلى اخي محمد. نحن جواسيس الحقيقة في عالم الغش، جواسيس الورد في بلاد الشوك، جواسيس الكرامة والحرية والعقل والنور، في اقبية التعذيب والاغلال والمسدسات والسياط وكواتم الصوت.

ولا بأس ولا يأس. هذه الامة هي أمتنا الوحيدة. وهذا الوطن هو وطننا الوحيد وهذا الافق هو افقنا الوحيد. اما التاريخ فليس وحيدا. هنا تاريخ المسدس وهناك تاريخ القصيدة. وسيكون تاريخ الامة هو تاريخها الوحيد حين يكون هو تاريخنا، تاريخ قصيدتنا، تاريخ حلمنا، وردتنا، سنبلتنا ودمنا.

وهذا ما سيكون .. لانه ارادة الانسان ومشيئة الله .. لان الله محبة والله حرية والله عدل والله نور، فليعمهوا في غيهم، وليوغلوا في دياميسهم ودهاليزهم وكوابيسهم ونواميسهم وقواميسهم ونواويسهم، فلا ماضيهم هو الماضي ولا حاضرهم هو الحاضر ولا مستقبلهم هو

المستقبل.

نحن زهور هذه الامة وهم قبورها. نحن خلودها وهم قيودها. نحن سروزها وهم شرورها. ونحن ضميرها، يقول الله "انتصر" فينتصر. ان الله نصير الشعراء الشعراء. هو حبهم ودربهم. وهو حسبهم .. وهو العزيز القدير.

«الاتحاد» ١٢ نيسان ١٩٩١

أشباحك .. ها أنت تذهب إليهم
(كلمات لذكرى يوسف إدريس)

كانت قصته «طبلية من السماء» هي نقطة اللقاء الأولى بيني وبين يوسف إدريس . حين فرغت من قراءتها أذكر أنّني قلتُ في سرّي : «قرد هو هذا الكاتب» .

ومنذ ذلك الحين ازددت شغفا بأعمال هذا الكاتب العملاق ، القرد ، العفريت ، الملاك ، الشيطان .

وحين قرأت مجموعته «بيت من لحم» خاطبت الدكتور يوسف إدريس ، وهو على بُعد مئات الكيلومترات ، في مكان ما من مصر «المجهولة» :

- أنتَ كاتب عظيم يا رجل . أنت كاتب عالمي .

وكانت زيارتي الأولى في مصر ، وكان يوسف إدريس من معالمها الشاهقة التي سعدتُ بمعانقتها .

لحظات ، واتّضح أنّنا صديقان حميمان من قبل أن نلتقي . وصار طبيعيّا أن نلتقي يوميّا . ويكون معنا محمود درويش حينا ، ويوسف القعيد ونبيه القاسم حينا ، وهذا الكاتب أو تلك الفنانة .. في المقهى ، في الفندق وفي المسرح . ثمّ في السينما مساء دعانا لمشاهدة الفيلم المأخوذ عن رواية له والذي يُشارك في بطولته صديقنا نور الشريف ويحيى الفخراني وآخرون .

ويبدو لي الآن أنّنا عاملناه وكأنّه الأصغر سنّا بيننا ، لا لسبب إلاّ لأنّنا أحببناه وأحببنا «طفولته» وأسعدنا أنْ «نُدلّله» ونُساير مزاجه الوديع - الحاد ، المرح - القاسي ، الشرير ، في آن .

كان أكبر منّي سنّا ، فقط في البرنامج الإذاعي « في صالون يوسف إدريس » حيث استضافني قرابة الساعة فكان مضيفا رائعا ، بأبوّته الرصينة ، على الغالب ، المائلة إلى الشقاوة بعض الشيء .

وحزنتُ يوم صادفناه ، زوجتي وأنا ، في مدخل أحد الفنادق ، فسألناه عن سبب تغيّبه عن أسبوع الثقافة الفلسطينيّة في القاهرة ، فاذا به يُجيب كسيرا :

- لم يدعوني .. لم يدعني أحد .. وإلاّ فهل كنت أتأخّر عنكم ؟

وكان طبيعيّا ألاّ نتأخّر نحن عنه ، فنلتقي من جديد ويعود إلى مرحه وظرفه وقسوته وإبداعه .

لم يكن الأدب ، والكتابة القصصيّة بشكل خاص ، مجرّد «شغل» ، عند يوسف إدريس . كانت الحالة الإبداعيّة مزاجا يوميّا يضع هذا الكاتب العظيم على الحدّ الفاصل بين العبقريّة والجنون ، تُطارده شخوص خياليّة وتتداخل في حديثه العادي حتى تكاد تتحوّل إلى نماذج حقيقيّة من لحم ودم .

وعلى سبيل المثال فقد روى في أحد لقاءاتنا الأخيرة في القاهرة «حادثة» وقعت له في الإسكندرية ، قال :

« إشتريت منزلا في الإسكندرية أذهب إليه للاصطياف وللكتابة . وتبيّن لي فيما بعد أنّ عددا من العمال الذين بنوا المنزل قتلوا في أثناء عملية البناء ودفنوا تحته . وذات يوم لاحظت أشباحا ترتدي القمصان البيضاء تتجوّل في المنزل وتُثير شيئا من الضجيج . ولم تكن تلك سوى أشباح أولئك العمال المدفونين تحت المصطبة .

وتصاعدت عمليّة الإزعاج يوما بعد يوم ، فاضطررت مرّة للصراخ على الأشباح حتى يدَعوني وشأني ، لمتابعة الكتابة بهدوء ، وهرع

على صراخي بعض أفراد الأسرة . وحين رويتُ لهم ما حدث ظنّوا أنّني جننتُ ، ولم يصدّقوني . لذلك قرّرتُ التفاهم مع الأشباح حتى لا أتصادم مع أفراد أسرتي . وبالفعل ، ذات مساء دخل غرفتي قميص أبيض فرحّبت به وقلت له بهدوء : إسمع أيّها الأخ الشبح ، أنا مُتعاطف معكم ، ولا أطلب منكم مغادرة المنزل . كلّ ما أطلبه هو أن تُتيحوا لي قدرا كافيا من الهدوء حتى أنجز ما يجبُ عليّ انجازه من أعمال كتابيّة مرتبطة مع الصحف والمخرجين السينمائيين وغيرهم .

وكان الشبح مؤدّبا للغاية ، فقد غادر الغرفة دون أن يقول شيئا . ويبدو أنّه اتّفق مع زملائه على عدم ازعاجي ، وهكذا تمكّنت من إنهاء العمل في موعده المُحدّد ».

تبادل الجُلوس نظرات الدهشة . ولم تندّ عن أيّ منهم أيّة ملاحظة أو كلمة أو نأمة . وخيّل إليّ كأنّ اتّفاقا سريّا تمّ بين الجلوس (الأشباح) على عدم تعكير صفو صديقنا الكبير الدكتور يوسف إدريس ، وبعد أن هممتُ بالقول : «إنّها قصة جميلة .. متى ستكتبها» كبحتُ لساني . لم أشأ أن يعتبر ملاحظة كهذه ضربا من السخرية . لقد بدا الرجل جادّا في كلّ ما يقول ، فهو يروي واقعة ، ولا يقترح مشروع قصّة .

اليوم ، وبعد رحيل صديقي الكبير الدكتور يوسف إدريس ، وبعد انضمامه إلى أشباح «واقعته» في المنزل الإسكندراني ، أسمح لنفسي بقولها من أعماق القلب المحبّ :

أشباحك .. ها أنتَ تذهب إليهم .. رافقتك السلامة أيّها الأخ الحبيب ، أيّها الكاتب العظيم والإنسان الرائع » ! .

«الاتحاد» ١٩٩١/٨/٩

مقالة صغيرة في القول الكبير

اللسان - اللغة - الكلام - الكتابة - البلاغ - الافصاح - اللهج - التعبير - البيان - القول: مفردات أخر، بعضها تحجر في كهف القاموس، وبعض يبحث عن جوهره في عرَض ايامنا.

نقول كثيراً ونعني قليلاً. يظلّ القول أكبر من المعنى. يظلّ على حدّه أو خارجه.

نقول في بلادنا ونعني بلاداً اخرى. ليس كانموذج بل كصدى أو حدس أو تخمين أو وهم أو رغبة. أحيانا يتوفر الحلم لكنه سرعان ما ينسحب وينطوي على ذاته فيفقد ذاته. ويظل القول الذي لا يحمل معنى في بلادنا ولا يوفّر معنى للبلاد الاخرى التي تمتلك قولها ومعناها بقدر كاف من التطابق والانسجام.

لا أتفلسف. أحاول وصف الراهن من خلاله. وأحاول تحقيق قدر من التكافؤ بين ما أقول وما أعني. وأحاول الخروج على ذاتي فيما أحاول الخروج على حالة تبدو لي عامة (مع كل ما في التعميم من مساوىء).

لا أتفلسف. أضع قليلا من الملح الذي هو ملحي على قليل من

الجراح التي هي جراحي، ويكون ذلك على النحو التالي:

نقول الحرية ..

هل نقولها كما يقولها العبد، أم كما يقولها الحُر ؟ "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟" نكررها يومياً دون أن يطرف لنا جفن، ونحن نَستعبد ونُستعبد، وعيا ولا وعيا، نظلّ عند تخوم القول. نلوب ونقول ونفرقع أصابعنا ونستعرض جيوشنا وسبحاتنا وجرائدنا وشاشات تلفزيوننا، غير مدركين أننا في الحقيقة لا نملك شيئا من هذا على الاطلاق، لاننا لسنا أحرارا في أن نملك. ونكتفي بالوهم بأننا نملك وبأننا (شخصيا) أحرار، أما الذين يحتاجون الحرية فهم ناس آخرون، أشخاص آخرون، الشعب، الذي نحن منه في القول ولسنا منه في الحرية. نطالب بحرية المرأة ما دامت المرأة الاخرى. خارج أسرتنا، خارج امرأتنا. خارج صَدَفتنا. خارج عبوديتنا. ونطالب بحرية الطبقة العاملة. وحرية الرأي. وحرية الصحافة وحرية الاديب. هناك وليس هنا. كأنما نحن مكلّفون بالانشغال الدائم خارجنا، حتى يتمكن آخرون (منا؟) من متابعة الحرية في استعبادنا، وحتى نتمكن نحن من متابعة غيبوبة الحرية في عبوديتنا!

ونقول الوحدة ..

نقولها هتافاً في مظاهرة وشعاراً على منشور ولوحةً على جدار وخارطة بلا حدود على شاشة تلفزيون. نقولها شعراً ونثراً. ونقيم لها حزبا قومياً ثورياً تقدمياً وحدوياً مدنياً وعسكرياً، علمانياً ودينياً.

وتصدّق الجماهير قولنا. وحين نحكم قُطرين فانهما لا يتحولان الى قطر واحد بل يتحول الحزب الى حزبين. وتبقى الحقيقة الاقليمية الانفصالية الانعزالية، لكن يبقى أيضا قول الوحدة. ونقولها بمنتهى الصفاقة والوقاحة. نقولها في عمى تام وفي غيبوبة تامة. ونستحضر أرواح الآباء والاجداد من عقبة بن نافع حتى صلاح الدين ونستحضر الاستعمار والامبريالية والكولونيالية ، حتى لكأننا لا نستطيع أن نكون إلا بكل أضرحة الماضي البعيد وشرور الماضي القريب. أما الحاضر فليس لنا. ذلك أننا (نحن) القول شيء. و(نحن) المعنى شيء أخر. ونعي فصامنا ونعي داءَنا. وتظل الوحدة قولا لا دواء. فلا مكان مشتركا ولا زمان مشتركا بين القول والمعنى. ومن هنا يصدر جنوحنا الى الظاهرة البسماركية. وهذا الجنوح الجنونّي، بلا شك، يعكس رغبة حقيقية، بلا شك، في الجمع بين ثورين هائجين على محراث واحد. وتظل الرغبة قولا. ويظل العمل رغبةً لا أكثر.

ونقول الشورى ..

نقول الشورى حتى لا نقول الديمقراطية. ونحن في نهاية الامر لا نعني هذه ولا تلك. ومن الطبيعيّ إذن ألا نبلغ لا هذه ولا تلك. ومن الطبيعيّ ألا يكون هذا الوضع طبيعياً. ومما ينافي الطبيعة أن تستمر هذه الطبيعة. نقول الشورى ونحلم ببزّة الشرطي. نقول الشورى ونؤسس مجالس الشورى في حنين هائل إلى الدكتاتور وإلى الحاكم المطلق الذي يزيد من دكتاتوريته ومن حكمه المطلق كونه أسس مجلسا للشورى، ما دامت الشورى لا تعني الديمقراطية، وبهذا فهي لا تعني ذاتها، وتكف عن أن تعني شيئا غير القول، حتى لكأن القول هو

الغاية والمعنى ليس غير وسيلة للقول، تفقد مبررها عند تحقق القول نفسه، مثلما يفقد الصاروخ مبرره حين يبدأ القمر الصناعي دورته الفضائية..

وهكذا ..

نقول الجهاد، نقول الفداء، نقول الوطن، نقول الاخلاق، ونقول كل شيء، وعيوننا على الاضرحة أو على الشرور الوافدة من الغرب، أو من الشرق، أو من أية جهة متاحة، غير جهتنا نحن.

نقول ونقول، والثوران الهائجان في ألسنتنا وعلى (ألسنة!) أقلامنا، الثوران الهائجان في أرواحنا وأيدينا وأقدامنا، الثوران الهائجان في جغرافيتنا وسياستنا واقتصادنا واجتماعنا، يشدّان، كل إلى قبلته. والى أفقه غير الواضح..

وحين نخرج. فقط حين نخرج من شَرَك القول الى صراط المعنى المنسجم والمتناسق مع قوله، فقط أنذاك، نستطيع الجمع بين الثورين الهائجين على محراث واحد. وفقط أنذاك نستطيع استخراج ثمرة الجوهر من أجسادنا وأرواحنا وعقولنا وأرضنا.

كيف يتم التحقق الكبير لهذه المعجزة الصغيرة؟

أنا أسال. ولا أتفلسف !!

بالتعاون بين «العربي» و «الناقد»

صرخة .. أية صرخة !

صباح الخير

انت الجالس على الصفحة المقابلة، لا اعرفك. وذلك المقرفص على الصفحة قبل الاخيرة، لا يعرفني. ثمة سيدات وسادة محترمون آخرون من حولنا. مثقفون، فنانون، مفكرون، كتاب وشعراء، وقد تكون هنا ايضا راقصة باليه متقاعدة. لماذا متقاعدة؟ لان المحترفات لا يجدن الوقت الكافي بين الحركة والاخرى وبين البروفة والعرض الاول، للتفكير في فلسطين او تايلند او هونولولو. ربما هونولولو، لمكانتها السياحية المرموقة، انما ليس فلسطين.

وصباح الخير

انت تفكر بفلسطين، لذلك وافقتَ على الكتابة في هذا الموضوع. اما انا فقد وافقت على الكتابة لا لانني افكر بفلسطين، بل لانني افكر فيك انت. نحن لا نفكر بفلسطين نحن نعيشها. لذلك فنحن نفكر في حياتنا، في وجودنا. ولان هذا الوجود متداخل كثيرا في الدمار - والموت، فان الفلسطيني يعيش الحياة ويعيش الموت - اذا جاز التعبير، وهو - استطرادا - يعيش البناء ويعيش الدمار بالقدر نفسه.

ولأنك يا صديقي الذي لا يعرفني او لا اعرفه، انسان محترف، ولست متقاعدا (اغلب الظن انك لست راقص باليه!)، فانني اجد قدرا من الجرأة لمجاهرتك بسر تجهله. تجهله، لانه ليس واقعة سياسية ولا هو حدث تاريخي او قرار في هيئة الامم او مشروع قرار في مجلس الامن.

أود اقتناص الفرصة لمجاهرتك بخوفي من الواقع الدقيق، ومن الصورة غير الدقيقة. ولا بد لي من الاعتراف، اولا، باننا نحن الفلسطينيين ايضا، اسهمنا في خلق صورتنا غير الدقيقة على الاطلاق.

فالصورة الرائجة للفلسطيني هي صورة المقاتل، الفدائي المقاوم، السجين، فتى الانتفاضة الذي يواجه الدبابة بالحجر، السيدة التي تشيع ابنها الشهيد وهي تزغرد وتغني اناشيد الزفاف، والشيخ الذي ينذر حفيده للبطولة والجهاد، والطالب الذي يتعلم فن النضال اكثر مما يتعلم الالكترونيكا.

باختصار، فان صورتنا - صورتي، في ذهن الرأي العام العالمي المتحضر - (بالطبع فأنا استثني العنصريين والهمج!) - هي صورة القوة.

وهي صورة غير دقيقة لانها غير صحيحة، او انها غير صحيحة لانها غير دقيقة - لا فرق. ذلك انني انسان مسكون بكثير من الخوف ايضا. وتجاهل الخوف الذي فيّ ينتقص من انسانيتي. وهذا الامر يغيظني ويغضبني، وكثيرا ما يصيبني بنوبات حادة من السوداوية وشهوة الانتحار. أنذاك تمد لي القصيدة يدها لتنتشلني. بيد ان الفلسطينيين ليسوا جميعا شعراء او فنانين، ولذا فان اغلبيتهم الساحقة تظل بحاجة ماسة الى اليد التي تمتد من الغيب، او من الواقع، (يستحسن، من الواقع) لانتشال انسان يكابد ظلما تاريخيا مزمنا، من

هوة اليأس التاريخي المزمن.

ولأن قصيدتي وحدها لا تكفي، فانني افكر فيك انت ايها الصديق الذي لا يعرفني ولا اعرفه.

ومن أجل الدقة، فقد لا تكون صديقا حقيقيا، او قد تكون صديقا من وجهة نظر لا تتفق مع وجهة نظري الشخصية. ولا بأس في ذلك. لا بأس على الاطلاق. فالانسان الذي يحترف الالم والهم والمشاركة، هو انسان قابل للتفاهم وارجو الا اكون ساذجا او متطرفا في التفاؤل حين ادعي اننا -انت وانا - قابلان للتفاهم.

وصباح الخير.

بلا زهور وبلا قهوة الصباح. فلا مكان لمزهرية ولا موضع لمائدة بشرشف وردي على شرفة ربيعيّة...

ولا شرفة ندعوكم اليها. ولا مشهد من الشرفة التي لا ندعوكم اليها. ثمة طائر اسطوري اسمه "اباتشي" يسد منافذ المشرق. وطائر آخر لا يقل أسطورية يدعى "ب ٥٢" يغلق علينا شباك الغروب، مع حظر التجول المفروض على شعب بأسره، على التلاميذ والعمال والفلاحين والعشاق. الوطن وحده يستطيع هنا ان يتجول وباتجاه واحد فقط، من قلوبنا الى ايديهم ومن ايدينا الى جرّافاتهم ومن قطعان ماعزنا الكنعاني الى مسالخهم التكنولوجية - الالكترونية - الليزرية.

لا تقولوا سياسة! انا لا اتحدث هنا في السياسة. كان جورج أورويل قد وصف قرننا هذا بانه قرن سياسي وانني لأتفق معه تماما غير انني هنا اتحدث عن الخوف - خوفي - لا عن السياسة.

واذا كانت صورتي غير الدقيقة عندكم تخيفني فان صوتي غير

الواضح لديكم هو الاخر يخيفني.

لماذا نتوهم ان النملة لا تصرخ حين ندوس قدمها؟ يخيّل لي أنها تصرخ بصوت غير مسموع او غير مفهوم لدى البشر. وانا ايها السادة نملة بشرية في مقاييس سياسة هذا القرن. يدوسون قلبي وأصرخ. يدوسون دمي وأصرخ. يدوسون أزهاري وسنابلي وعظامي المكسرة وأصرخ . غير ان صوت النملة - صوتي - لا يسمع في مقاييس بشر هذا القرن!

لديّ حجتي وذريعتي وبرهاني غير انني لا املك ما يملكون من مادة قادرة على تعذيب ضمائركم. وهم يحملون هذه المادة من سفارة الى سفارة ومن منصة دولية الى منصة جماهيرية ويعرضون مادتهم مثلما يعرض وكلاء المبيعات پروسپكتات بضائعهم حيث الصور المثيرة، بالألوان وبالأسود-أبيض، وينجح وكلاء مبيعاتهم ويحققون ارباحا سياسية (وغير سياسية) طائلة. واظل انا النملة البشرية في مقاييس العصر وحيدا مع صراخي غير المسموع، مع دمي غير المرئي ومع خوفي المجهول.

ايها الاصدقاء (بمشيئة الله)، حين تكون الكتابة مكرّسة لذاتها فانها تصبح مجرد ثرثرة، كتلك التي يفرزها السائر في البرية لتسلية ذاته وللتحقق من صحة خطاه، موقعا ومدى واتجاها، وتستمد الكتابة مشروعيتها، كما ارى، حين تتحول الى فعل او حين تستهدف الفعل، في اقل توقع. وكم كنت اتمنى ان تتحول كتابتنا هنا، كتابتكم وكتابتي، الى فعل، اي فعل، والى صرخة في اقل توقع. ذلك ان الصرخة التي تستدعي القشعريرة تتطور حتما الى فعل. وكم ارجو ان يستحضر خوفي صرخة منكم. اية صرخة. فهل من صرخة لي عندكم. صرخة واحدة من اجل المي وخوفي، من اجل صراخ النملة التي هي انا

بمقاييس هذا العصر الذي ليس هو عصري بعد؟ هل من صرخة؟

وصباح الخير...

هناك من يهرب في مأساتي وقضيتي، من عدالة واضحة على الارض الى عدالة غامضة في السماء. ويتعامل مع الله باعتباره موظفا في دائرة الاستيطان، ولا بأس من جهتي في عدالة السماء الالهية الواضحة والممكنة في حالة وضوح العدالة الارضية الانسانية.

لقد قال الشاعر والفيلسوف العربي الكلاسيكي ابو العلاء المعري:

في القدس قامت ضجة ما بين احمد والمسيح
هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح
كل يؤيد دينه يا ليت شعري ما الصحيح؟

وقد اراد المعري بهذا انتزاع فتيل الفوضى لا اطفاء جذوة الايمان. فلا جدال في ان الخير المطلق هو جوهر الاديان والشرائع قاطبة انما الجدال هو حول استخدام الاديان والشرائع وتطويعها لتبرير الشر المطلق.. الشر الذي يمسخني نملة بشرية لا يسمع احد صراخها ولا يملك احد الجرأة الكافية لادانة حذاء عسكري يسحقها اكثر من اربعة عقود من الزمن.

وقضيتي ايها السيدات والسادة ليست قضية دينية ولا هي قضية صراع بين الشرق والغرب ولا هي قضية تفاوت حضاري ونزاع قانوني او تاريخي او جغرافي.

كل هذه الامور مجتمعة تشكل القشرة اما اللب والجوهر فهو التضاد بين شهوة مسخ الانسان وبين الرغبة في بلورة هويته على شكل ارقى واجمل. ولن يكون الاعتراف بعدالة قضيتي قرارا قانونيا لصالحي، بل هو قرار اخلاقي لصالح الجنس البشري، لصالح نظام جديد في العلاقات بين البشر يعتمد حرية الفرد وكرامة الذات الانسانية، ويعمل على تركيب صورة جديدة لأفق جديد قبالة الحلم القديم الذي قرع من اجله الناقوس ورفع الاذان، ومن اجله كانت جميع الشرائع والمذاهب ومن اجله ذهب ملايين من الشهداء على مرّ العصور، الحلم القديم ابدا والجديد ابدا: الحرية، العدالة، السلام.

ومساء الخير...

حيفا ١٩/ ٤/ ٩١

إشارة:

** كُتبت هذه المداخلة تلبية لطلب ناشرين فرنسيين وفي إطار استفتاء بين نخبة من المبدعين، من عدة اقطار، من أجل كتاب حول الصراع العربي - اليهودي والفلسطيني - الاسرائيلي، ينشر في فرنسا.

المحتويات

الموضوع	صفحة
غابة الطفولة	٩
اوراق من مفكرتي	١٩
الشاعر والبطل «هو تشي مين» في «يوميات السجن»	٣٤
ايها العم «هو» لم تمت!	٤١
ديمقراطية اسرائيل المكارثية	٤٥
الشيء بالشيء يذكر!	٤٨
منهم العنف ومنا العنفوان	٥١
سموم.. بالالوان الطبيعية	٥٦

معسكرات الابادة الفكرية ٦٠
دولة يهودية برعاية هتلر وموسوليني؟! ٦٣
الرجل الصامت ٦٦
يلين مور في الصورة.. .... ٦٧
مجزرة دير ياسين بين الاخلاق والتكتيك العسكري ٦٩
المجزرة ٧٢
موقف الهجاناه ٧٣
«لا اشعر بأي اسف» ٧٦
من احلام بن غوريون الرهيبة! ٧٩
مصر.. آشور.. وأرام (!!!) ٨٠
مع.. وضد ٨٣
كيف صمموا دور اسرائيل في العدوان الثلاثي ٨٦
برقية الشيخ! ٨٩
في قاذفة قنابل الى... بيزرتا! ٩٣

بن غوريون لا يتكلم! ٩٧
اسرائيل ترتدع ٩٨
غزوة... لا حرب... .... ١٠٠
الى مطار الضباب.. .... ١٠١
الفيلا البيضاء ١٠٢
دوافع الشيخ ١٠٣
و «خضع» البريطانيون.. .... ١٠٤
نهاية وبداية ١٠٧
وجها لوجه ١٠٨
التوقيع ١١٠
برقيات من ايزنهاور ١١٥
اسرائيل تبحث عن حلفاء ١١٧
محاولة التذليل لحلف شمالي الاطلسي ١١٩
وانطلق المراسيل ١٢١

الولايات المتحدة قالت: نعم! ١٢٤
خلاصة القول ١٢٥
الفساد وحتمية التاريخ حرب رمضان ١٩٧٣ .... ١٢٦
العودة الى الحجم الطبيعي ١٣٤
ظل الكارثة ١٣٩
يوم الغفران الاسود! ١٤٣
الدماغ ليس كافياً.. هناك حاجة للعقل! ١٤٧
«لاجئون» الى الشرق «عقدة» الجنرال شارون كلفت
غالياً..! ١٤٩
سقط خط بارليف ــ بقي بارايف! ١٥١
الفخ ١٥٤
العجل الذهبي ١٥٨
اضافات شمالية وجنوبية ١٦٣
ديناصورات على السويس ١٦٦
الحرب الناقصة ١٦٩

انسان في مواجهة الدبابة ١٧٢
ماذا حدث لديان؟ ١٧٤
المعرفة والموت ١٧٨
روح جديدة في الجيش السوري ١٧٩
النموذج الفيتنامي ١٨٠
اسرائيل: اطباء نفسانيون في الجبهة ١٨١
التكنولوجيا العسكرية السوفييتية ١٨٢
صواريخ ١٨٤
الصواريخ المصرية ١٨٦
اخطأت اسرائيل في تقدير سورية ١٨٧
نبوءة شارون ١٨٧
مدرسة للقتل ١٨٩
كولاج ١٩٣
حوادث الطرق ٢٠١

الشرك ٢٠٥
بائع متجول من غزة المحتلة ٢٠٦
السؤال القاتل ٢٠٧
سُئلوا ذات يوم ٢٠٨
العراف ٢٠٨
البحث ٢٠٩
الطريق ــ لبنان ــ الطريق الى لبنان ٢١٧
لماذا هذه الانتولوجيا؟ ٢٢١
احتراق واسمه راشد حسين ٢٤٨
في ذكرى الرحيل السنوية العاشرة ٢٥٣
في الذكرى السنوية الثالثة عشرة لرحيل راشد ٢٥٧
المسافرون في قطار الموت ٢٥٩
غسّان كنفاني، وحركة الاستشهاد الفلسطينية ٢٦٤
شعراء... ودبلوماسيون.. .... ٢٦٩
من اجل شادي ٢٧٣

الانسان العربي، في الادب العبري ٢٧٥

أيها الفاشيون العرب.. رفقا بالقادمين الجدد!! ٢٨٣

اعظم جائزة ٢٨٨

صهيوني ولكن، ذكي! ٢٩١

الحركات الاجتماعية في الاسلام ٢٩٤

التشيع والمآرب القومية ٢٩٦

عن الشعوبية ٢٩٨

«الطائفية في العهد العثماني» ٣٠١

ختاماً ٣٠٤

تفو على شواربكم ٣٠٥

شيء من الحسد ٣٠٨

يااربعام العصري ٣١٢

اذن روبرت ورأس محمد! ٣١٤

الخجل ٣١٧

بلادي ــ تأريخ روحي (عصر الجليد) ٣٢٠
كلمة في مؤتمر الادباء العالمي في صوفيا ٣٢٥
بلادي ــ تأريخ روحي «عصر الرمل» ٣٣٠
دخان بلا نار نار بلا نور! ٣٣٤
احباءنا لحمنا ودمنا عرسان الحركة الوطنية في لبنان
وعرائسها ٣٣٧
شو يعني عربي؟ ٣٤٠
أبعدونا.. نقترب ٣٤٢
ماركس ــ العقدة والحل ٣٤٥
عسكرة الثقافة في اسرائيل ٣٤٩
هذه هي العقدة ٣٥٥
«نعم للجوع... لا للركوع!» ٣٥٩
الطويسيون ٣٦٢
غصن اخضر ٣٦٥

الموالي والاولياء ٣٦٨
وردة إلى حرسنا الفتيّ ٣٧٠
خيانة البطولة.. بطولة الخيانة ٣٧٣
نور للأمم؟! ٣٧٦
الحملة الصليبية ٣٧٩
موديل ١٩٨٦ ٣٧٩
ماذا نعني لهذا العالم؟ ٣٨٢
بمنتهى الموضوعية ٣٨٥
محاضرات ٣٨٦
زمن الهامبورغر ٣٨٩
تصبحون على قلق ٣٩٢
كلمة افتتاح المهرجان الوطني الثاني للأدب الفلسطيني ٣٩٥
أنت تطلق النار وأنا أبكي ٣٩٩
هل هي سبعة أعوام حقاً ٤٠٧

الانتفاضة والثقافة ٤١١
أما بعد! ٤١٨
لن تقف الشمس على أسوار بيروت ٤٢٣
نحن الآن.. ..... ٤٢٨
(وثيقة تاريخية) ٤٢٨
خبط عشواء وفي منتهى الدقة! ٤٣٤
ضد العالم! ٤٣٨
مسألة الافتراض الضمني هذه... ..... ٤٤١
بين البناء الذاتي والتدمير الذاتي ٤٤٤
العز.. والمعزى ٤٤٧
كأس ويسكي في جنازة الشهيد ٤٥١
الانتقائية: نفي الشرائع! ٤٥٧
مع هذا، ورغم ذلك، ٤٦٠
المونديال بين الروح الرياضية والروح السياسية ٤٦٥

بروتوكولات حكماء الارهاب ٤٦٨
حالة الطقس.. والاقليمية ٤٧٠
المطلوب: صيغة جديدة لمجلس الأمن القديم ٤٧٢
الهروب من الجنة ٤٧٤
حرية الرأي، والذين لا يعرفون البخور ٤٧٦
باريا بوش ٤٧٩
الانضباطية العسكرية التسيب الاجتماعي ٤٨٥
هل تلحق الأمم المتحدة بعصبة الأمم ٤٩٠
مذابح الهيكل! ٤٩٣
حين يصير القانون شيئاً والعدالة شيئاً آخر؟ ٤٩٥
كهانا ــ الكهانية ٤٩٩
خمسون عاماً على رحيل المطران حجار ٥٠٤
المطلوب: كمامات ضد جراثيم الطائفية ٥٠٧
البروفيسور، الشاعر، وكاتم الصوت ٥٠٩

لعنة الرعب ٥١١
أحمد وزئيفي! ٥١٣
بماذا نُشبّه أصابعكم؟! ٥١٧
درس في الفرح ٥٢٠
سخرية شمير السوداء!... الدواء..!! ٥٢٣
صفحة جديدة؟ لا، شكراً، نريد جرد الحساب أولا!! ... ٥٢٦
تحسُّباً.. لا تطيُّراً! ٥٣٠
ثمن السلام! ٥٣٣
إعلام التنوير وإعلام التعتيم ٥٣٦
الكوندومية! ٥٤٠
بلى، جاسوس هو الشاعر! ٥٤٢
(تحية الى محمد عفيفي مطر) ٥٤٢
أشباحك.. ها أنت تذهب إليهم ٥٤٥
مقالة صغيرة في القول الكبير ٥٤٨

نقول الحرية ٥٤٩

ونقول الوحدة.. .... ٥٤٩

ونقول الشورى ٥٥٠

وهكذا ٥٥١

صرخة.. أية صرخة! ٥٥٢

هيئة المستشارين :

أ. إبراهيم فريح (مدير التحرير)
د. جابر عصفور
أ. جمال الغيطاني
د. حسن الابراهيم
أ. حلمي التوني (المستشار الفني)
د. خلدون النقيب
د. سعد الدين إبراهيم (العضو المنتدب)
د. سمير مرحان
د. عدنان شهاب الدين
د. محمد نور فرحات (المستشار القانوني)
أ. يوسف القعيد

■ **دار سعاد الصباح**

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .

مطابع
ت: ٩٣٢٧٠٦